المنـهَجُ التَّربَوِيُّ وَمَـهَاراتُ التَّواصُلِ

( )

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

منشورات جامعة دمشق
كلّيّــة الشّـريعـة

المنهَجُ التَّربَوِيُّ ومَهَاراتُ التَّواصُلِ

( )

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصّفحة
المقدمة	٩
الفَصْل الأوَّل: مهارات التّواصل	١٣
▪ المبحثُ الأوَّلُ: المهارة والاتّصال (المفهوم، والأهمّيّة، والمبادئ)	١٥
المطلب الأوَّل: المهارة وسبيل اكتسابها	١٥
المطلب الثّاني: الاتّصال وأهمّيّته	١٨
المطلب الثّالث: مفهوم مهارات الاتّصال وأهمّيتها	٢٨
المطلب الرّابع: أهداف الاتّصال	٣٢
المطلب الخامس: عناصر الاتّصال وخصائصه	٣٩
المطلب السّادس: أنواع الاتّصال ووسائله	٤٨
المطلب السّابع: لغات الاتّصال وصوره	٥٨
▪ المبحث الثّاني: تقويم الاتّصال (فعّالية الاتّصال، ومهاراته)	٦٤
المطلب الأوَّل: الاتّصال الفعّال وخصائصه	٦٤
المطلب الثّاني: مهارات الاتّصال الفعّال والعوامل المؤثرة فيه	٧٠
المطلب الثّالث: فعّالية عناصر الاتّصال	٨١
المطلب الرّابع: مهارات الاتّصال الأساسيّة	٩٤
الفَصْل الثّاني: مقوّمات المنهج التّربويّ الإسلاميّ	١١٩
▪ المبحثُ الأوَّلُ: مفهوم التّربية في الإسلام وأهدافها وخصائصها	١٢١
المطلب الأوَّل: مفهوم التّربية الإسلاميّة والعلاقة بين التّربية والتّعليم	١٢١
المطلب الثّاني: أهداف التّربية الإسلاميّة وغايتها	١٢٧
المطلب الثّالث: خصائص المنهج التّربويّ الإسلاميّ	١٣٣
▪ المبحث الثّاني: مجالات التّربية الإسلاميّة	١٣٧
المطلب الأوَّل: تربية الرّوح	١٤١
المطلب الثّاني: تربية العقل	١٤٨
المطلب الثّالث: تربية الجسم	١٥٦
▪ المبحث الثّالث: وسائط التّربية الإسلاميّة	١٦١
المطلب الأوَّل: الأسرة	١٦٢

المطلب الثّاني: المسجد	١٦٩
المطلب الثّالث: المدرسة	١٧٣
المطلب الرّابع: المجتمع	١٨٢
المطلب الخامس: المربّي	١٨٦
▪ المبحث الرّابع: التربية بحسب المراحل العمريّة	١٩٧
المطلب الأوّل: مرحلة الطّفولة	١٩٧
المطلب الثّاني: مرحلة الصّبا	٢٠٣
المطلب الثّالث: مرحلة الشّباب	٢٠٨
المطلب الرّابع: مرحلة النّضوج	٢١٤
الفَصْل الثّالث: الأساليب التّربويّة في الإسلام	٢٢١
تمهيد: مفهوم الأسلوب لغةً واصطلاحاً	٢٢٣
▪ المبحثُ الأوّلُ: التربية بالتّطبيق العمليّ	٢٢٦
المطلب الأوّل: التّربية بالقدوة الحسنة	٢٢٦
المطلب الثّاني: التّربية بالمعايشة والمصاحبة	٢٣١
المطلب الثّالث: التّربية بالممارسة والعمل.	٢٣٣
▪ المبحث الثّاني: التّربية بالحوار.	٢٣٧
المطلب الأوّل: الحوار في القرآن الكريم	٢٣٩
المطلب الثّاني: الحوار النّبويّ	٢٤٩
▪ المبحث الثّالث: التّوجيه بالنّماذج	٢٥٧
المطلب الأوّل: التّربية بالأمثال	٢٥٧
المطلب الثّاني: التّربية بالأحداث أو باغتنام المواقف والمناسبات	٢٦٢
▪ المبحث الرّابع: العظة والعبرة	٢٦٧
المطلب الأوّل: التّربية بالموعظة والإرشاد	٢٦٧
المطلب الثّاني: التّربية بالقصّة	٢٧٠
المطلب الثّالث: التّربية بالتّوجيه غير المباشر(التّعريض)	٢٨٠
▪ المبحث الخامس: التّربية بأسلوب التّحفيز	٢٨٣
المطلب الأوّل: التّربية بالمزاح والمرح	٢٨٣
المطلب الثّاني: التّربية بالتّدريج والرّفق	٢٨٥

المطلب الثّالث: التّعويد على تحمّل المسؤولية	٢٨٧
المطلب الرّابع: التّربية بالتّشجيع وإثارة الحماس	٢٩٠
▪ المبحث السّادس: التّربية بأسلوب التّعزيز	٢٩٢
المطلب الأوّل: التّربية بالمدح والثّناء	٢٩٢
المطلب الثّاني: التّربية بالتّرغيب والتّرهيب	٢٩٥
المطلب الثّالث: التّربية بالعقوبة	٢٩٩
الفَصْل الرّابع: نماذج من الجهود التربوية في الإسلام	٣٠٣
▪ المبحث الأول: جهود الإمام الغزالي في الميدان التّربوي	٣٠٥
المطلب الأوّل: تربية الأطفال عند الغزالي	٣٠٥
المطلب الثّاني: آداب المتعلّم ووظائفه	٣٠٩
المطلب الثّالث: وظائف المعلّم وآدابه	٣١٢
المطلب الرّابع: تربية النّفس وتزكيتها	٣١٦
المطلب الخامس: تربية الخلق عند الغزالي	٣١٩
▪ المبحث الثّاني: جهود ابن خلدون في الميدان التربوي	٣٢٥
المطلب الأوّل: التعليم وأصناف العلوم	٣٢٥
المطلب الثّاني: تقديم علوم الوسائل والتوسع بعلوم المقاصد	٣٢٧
المطلب الثّالث: صناعة التّعليم	٣٢٩
المطلب الرّابع: القرآن هو أصل التّعليم (في التّعليم الأوّل)	٣٣٠
المطلب الخامس: القواعد الخلدونيّة في التربية والتّعليم	٣٣٢
أهم المصادر والمراجع	٢٤١
الخطابة (ملحق خاص بقسم العملي)	٣٤٣
المبحث الأول: الخطابة في العصر الجاهلي	٣٤٨
المبحث الثاني: الخطابة في العصر الإسلامي	٣٥٠
المبحث الثالث: الخطابة في العصر الحديث	٣٥٧
المبحث الرابع: الخُطْبَة	٣٦٠
المبحث الخامس: أسلوب الخطبة	٣٦٦
المبحث السّادس: الاستشهاد في الخُطَبة	٣٧١
المبحث السّابع: المثل	٣٧٣

المبحث الثّامن: القصّة	٣٧٥
المبحث التّاسع: خطبة الجمعة	٣٧٧
المبحث العاشر: خطبة العيد	٣٨٣
المبحث الحادي عشر: خطبة الاستسقاء	٣٨٦
المبحث الثّاني عشر: خطبة الكُسوف والخُسوف	٣٩٠



مُقدّمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسّلام على إمام المرسلين سيّدنا محمّدﷺ. المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله الطّيّبين، وصحبه الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين. أما بعد..

فيظهر من خلال عنوان هذا المقرر أنه يشتمل على شقين اثنين، لابد من علاقة تربط بينهما. وقد كان للعلماء عنايةٌ قديمةٌ بجانب المنهج التربوي منهما، لكنّ البحث الموسع في جانب مهارات التّواصل أمر مستحدث بلا شك. وقد تنامى البحث فيه بصورة أكبر مع ثورة الاتّصالات في العصر الحديث، وشيوع انشغال الناس بوسائل التّواصل، مع ما لا يخفى لها من أثرٍ مشاهَدٍ سلبي أو إيجابي. ولما كانت التربية هدفاً رئيساً من أهداف البعثة النبوية- وإنما هي رسالة ودعوة هداية إلى البشرية عامة-، ولا يمكن تحقيق هذا المقصد من دون قيام التّواصل بين المربي ومن يهدف إلى تربيتهم، كان من الجدير بنا أن نهتم في عصرنا هذا بالإحاطة بمهارات التّواصل التي ذاع صيتها والاهتمام بها. ولذلك جاء الفَصْلُ الأوَّل للحديث عنها.

وإلى جانب كون مهارات الاتّصال ملكةً فطريةً، فإنّها كذلك قابلة للتطوير والترقية؛ إذ تقوم العوامل الثّقافيّة والاجتماعيّة بدورٍ مهمٍّ في درجة اكتسابها، فكم من متحدّث أو خطيب اكتظّ مجلسه بالمستمعين، وآخر أخذ مستمعوه بالتّناقص قبل أن ينتهي من حديثه. ويَكْمُنُ السّبب وراء ذلك في أمور منها: ربط الحديث بواقع الحياة اليوميّة، واستخدام الجمل الإخباريّة إلى جانب الاستفهاميّة، بالإضافة إلى الحركات واختلاف نبرات الصّوت،

والتّشديد على النّقاط المهمّة وما أشبه ذلك، مما يتمتّع به بعض النّاس وحرم منه آخرون. وكلّما نجح الإنسان في إتقان هذه المهارات كانت درجة الاستجابة لدى الآخرين أكبر، حتى يصير الاتّصال أمراً مؤثراً في حياة البشر، تتقارب به الشّعوب والقبائل والأمم، وتنصهر الثّقافات والطّبقات. وذلك ما يستلزم تحقيق ما يسمى بـ (الاتّصال الفعّال). وهو بحاجة إلى الكثير من أصناف المهارات، وتستأثر (مهارات الاتّصال الشّخصي) بأهمّيّة خاصة.

ويلاحظ القارئ أنّنا عمدنا في هذا الكتاب إلى التركيز على استعمال مصطلح (الاتّصال) بدلاً من (التّواصل) الوارد في عنوانه، نظراً إلى ما ستأتي الإشارة إليه من شموله الأوسع دلالة، مع أن المضمون لن يكونَ فيه كبيرُ فرقٍ من حيث المفردات المدروسة على أيٍّ من المصطلحين. وقد سلك هذا النهج- باعتماد مصطلح (الاتّصال)- عدد كبير من الباحثين في هذا الميدان، وأدخلوه في عناوين مؤلفاتهم. مثل:

- الاتّصال ومهاراته، للدكتور أحمد عزوز.
- فن الاتّصال، تأليف: برت دكر، ترجمة: عبد الرحمن الشمراني.
- مدخل الى علم الاتّصال، للدكتورة منال طلعت محمود.
- الاتّصال.. المهارات والنظريات وأسس عامة، للدكتورة خضرة عمر المفلح
- مهارات الاتّصال والتعلم، للأستاذ باسل محمد صوان
- الاتّصال والعلاقات العامة المعاصرة، و: فاعلية الاتّصال الحواري في العلاقات العامة عبر الإنترنت مع جمهور مؤسسات التعليم العالي، كلاهما للدكتور خالد إسحاق.

ثم إنه لا يخفى-كما سبقت الإشارة إليه- أن التربية بالمفهوم العام ذات طابع تفاعلي بين المربِّي وبين المتلقي، حيث يكون العطاء من المربِّي، ويكون التلقي والتأثر والانفعال من المتلقي. ومالم تقم التربية على التفاعل والانفعال بين المربي والمتلقي تصبح عملية التربية عملية ميتة لا رُوحَ فيها ولا حياةَ ولا نَماءَ، ولا يكاد يترتب عليها أثرٌ ذو فاعليّة أو فائدة.

كما أن التّربية الإسلامية هي مجموعة من الأصول الخاصّة ببناء الإنسان المسلم في ضوء القرآن الكريم والسّنّة الشريفة، بهدف بناء الشّخصيّة الإسلاميّة المتكاملة التي تعمل لخير

دنياها وآخرتها.

ولا شك في أن هذه الأصول تجليها مجموعةٌ من الأساليب التّربويّة الإسلاميّة المستقاة من النّصوص والتّوجيهات القرآنيّة والنّبويّة، استطاع النّبيﷺ من خلالها أن يُكوّنَ مجتمعاً متماسكاً مترابطاً، يتّصف أفراده بالالتزام بالحقّ والخير، ونَبْذِ البَاطلِ والشّر، وتسود فيه الأخلاق والقيم الفاضلة. وهذا يرشدنا إلى أهمّيّة هذه الأساليب في العمل التّربويّ.

وإنه لا يمكن للمربّي أن ينجحَ بعمله التّربوي النّجاح الأمثل مالم يجعل من هذه الأساليب التّربويّة نبراساً له، يهديه السّبيل ويوضّح له معالم الطّريق. ومن ثَمَّ فلو وُجِدَ المربّي الكفءُ، وكانت المنهجيّةُ سليمةً في أصولها وقواعدها؛ ولم يوفّق المربّي إلى انتهاج الأسلوب الأمثل، فإنّه لن يحقق النّجاح المرغُوبَ به، ولكان ثَمَّةَ قصورٌ في أدائه لمهمّته التّربويّة، بل ربّما كان منفّراً للمتربّين على الرّغم من صحّة قصده ومضمون ما يقدمه لهم. فما أحرانا أن نتعرّف الأساليب التّربويّة الإسلاميّة، كي ننهل منها في مسيرتنا وعملنا التّربويّ النّافع إن شاء الله تعالى. ونستضيء من أجل تعميق معرفتنا بهذا المنهج بنماذج متميزة من الجهود التربويّة السالفة في تاريخ الإسلام المجيد.

ومن هنا جاء مقرر: «**المنهج التّربويّ ومهارات التّواصل**» للسّنة الثّالثة من كلّيّة الشّريعة في جامعة دمشق مكوناً من أربعة فصول. قام الدّكتور حسّان القارِي بكتابة الفَصْل الأوّل، وقامت الدّكتورة ريمة الصّياد بكتابة الفَصْل الثّاني، فيما كتب الدّكتور أحمد الزَّبِيبي الفَصْلين الثّالث والرّابع. ويعالج كلّ فصل منها عدداً من المفردات على النحو الآتي:

- **الفَصْلُ الأوّل: مهارات التّواصل**
  - المبحثُ الأوّلُ: المهارة والاتّصال (المفهوم، والأهمّيّة، والمبادئ)
  - المبحث الثّاني: تقويم الاتّصال (فعّاليّة الاتّصال، ومهاراته)
- **الفَصْل الثّاني: مقومات المنهج التربوي الإسلامي**
  - المبحثُ الأوّلُ: مفهوم التربية في الإسلام وأهدافها وخصائصها
  - المبحث الثّاني: مجالات التربية الإسلاميّة
  - المبحث الثّالث: وسائط التربية الإسلاميّة
  - المبحث الرّابع: التربية بحسب المراحل العمريّة

- **الفَصْل الثَّالث: الأساليب التّربويّة في الإسلام**
  - المبحثُ الأوَّلُ: التربية بالتطبيق العملي
  - المبحث الثَّاني: التربية بالحوار.
  - المبحث الثَّالث: التوجيه بالنماذج
  - المبحث الرَّابع: العظة والعبرة
  - المبحث الخامس: التربية بأسلوب التحفيز
  - المبحث السَّادس: التربية بأسلوب التعزيز
- **الفَصْل الرَّابع: نماذج من الجهود التربويّة في الإسلام**
  - المبحثُ الأوَّلُ: جهود الإمام الغزالي في الميدان التّربوي
  - المبحث الثَّاني: جهود ابن خلدون في الميدان التربوي

ونرجو الله تعالى النّفع لدارسي هذا المقرّر في ميدائي المعرفة والتّطبيق العمليّ في الحياة، والأجر والقبول لمن عمل في الإعداد. وأن يكون مقبولاً عنده سبحانه.

إنّه هُو وليّ التّوفيق

دمشق: في ٢٠٢١/١١/٧م

المؤلّفون

الفَصْلُ الأوَّلُ

مهارات التّواصل

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

المبحثُ الأوَّلُ

المهَارةُ والاتّصالُ

المفهوم، والأهمّيّة، والمبادئ

المطلب الأوَّل

المهارة وسبيل اكتسابها

مفهوم المهارة:

المهارة في اللّغة: الْحَذَقُ والإِتْقَان.

وفي الاصطلاح: ملكة أداء عمل معين بأقل جهد، مع الدّقة والإتقان.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «الماهر بالقرآن مع السّفرة الكرام البررة، والّذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران»[1]

أهمّيّة اكتساب المهارات:

لا شك في أن تحصيل الحذق والإتقان وتنمية القدرات والملكات اللازمة لدقة تنفيذ الأعمال الإيجابيّة داخل في ما حضَّ عليه الشّرع، وهو أمر واضح في ما دلت عليه نصوص القرآن الكريم والسّنة الشّريفة عموما وخصوصاً. ومن هنا كانت قيمة المرء ما يحسن.

كما دل عليه قول الله تعالى: ﴿الَّذي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]. وقوله عز وجل: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:

(١) مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الماهر بالقرآن والذي يتعتع فيه ١/٥٤٩(٧٩٨).

١٠٥]. وعاب الكَلَّ وأثنى على العدل في قوله: ﴿وَضَرَبَ الله مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النّحل: ٧٦]. وأمر نبيه يحيى بأن يقوم بالمسؤوليّة الّتي ألقاها عليه بهمة وعزم ومهارة فقال: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]. وقال: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ [الفرقان: ٧٤] ولم يقل: واجعلنا من المتقين، مما يشير إلى الحرص على طلب التفوق.

وروى أبو هُرَيْرَةَ رضِي الله عنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى الله مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٌّ خَيْرٌ؛ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِالله وَلاَ تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيءٌ فَلاَ تَقُلْ: لَوْ أَنِّيْ فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ الله وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[(١)]. وقال ﷺ: «إنّ الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»[(٢)]

لقد شغَل الإنسانَ منذ وجوده على هذه الأرض مواجهةُ التحديّات الّتي يفرضُها عليه الواقع الّذي يعيش فيه، وتحقيق آماله ورغباته، فأنعم الله عليه بأن سخر له حواسه، وأعضاء جسده، وأجهزة جسمه، الّتي يحاول بها أن يُشبع حاجاته الفطريّة الضّروريّة، واكتساب المعرفة والخبرات، قال الله تعالى: ﴿وجعل لكم السّمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾ [النّحل، آية ٨٧].

سبيل اكتساب المهارات:

ويتمّ اكتساب المهارات عادة بالتّعلّم والدّربة التدريجيين، من خلال مراحل متعاقبة:

١- مرحلة اللاوعي واللامهارة:

وهي الحال الّتي يكون عليها المرء في الأصل، كأن يكون الصّغير مقبلا على تعلم

---

(١) رواه مسلم في كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، والاستعانة بالله، وتفويض المقادير لله ٤/ ٢٠٥٢ رقم: (٢٦٦٤).

(٢) أخرجه الطّبراني في الأوسط (٢٧٥/١)، رقم: (٨٩٧)، والكبير (٣٠٦/٢٤)، رقم: (٧٧٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٣٢/٧)، رقم: (٤٩٢٩).

المشي أو القراءة أو الكتابة، أو يكون الشّخص مقبلاً على تعلم قيادة السّيارة أو الحاسوب. فليس لدى عقله سواء الّذي تحت سلطان الشّعور أو اللاشعور أيّة دراية بكيفيّة تنفيذ المطلوب.

٢- مرحلة الوعي واللامهارة:

هي حين يأخذ في بداية التّعلّم بالتّمرن على ما يريد الوصول إليه، فيحاول أن يُعمل فكره أثناء ذلك في كلّ جزء من الأفعّال الّتي تتكون منها المهارة المقصودة. وهو مع ذلك لا يتمكن من إتقان ما يقوم به.

٣- مرحلة الوعي والمهارة:

يصل عندها نتيجة التّعلّم والدّربة إلى درجة القدرة على تحقيق ما يصبو إليه، ولكن بشرط استجمّاع تفكيره ووعيه للتمكن من القيام بالأفعّال الّتي ينفذها. ويكون معرضا للوقوع في الخطأ عند أدنى غفلة أو قلة تركيز.

٤- مرحلة اللاوعي والمهارة:

فيها يصبح المرء ماهراً حاذقا بذلك العمل تحت سيطرة العقل اللاشعوري لديه، ينفذه دون عناء أو حاجة إلى التركيز، ومع ذلك لا يقع منه خطأ في الفعل إلا بصورة هفوة نادرة، بل إنه لو تفكر في تفاصيل ما يقوم به كان معرضا للزلات والأخطاء بصورة أكبر. كمن يراقب كيفيّة تحريكه لقدميه عند المشي، أو لفكيه عند المضغ.

المطلب الثّاني
الاتّصال وأهميته

أولاً: مفهوم الاتّصال:

معنى الاتّصال في اللّغة:

يشتق من: وَصَلَ الشَّيءَ، يَصِلُهُ وُصُولاً و وصْلاً و صِلَةً.

ووَصَلَ الشّيءُ إلى الشّيءِ وتوصّل إليه وصُولاً: أي بَلَغَهُ وانتهى إليه.

و الوَصْلِ ضِدُّ الهُجْرَان، وهو أيضاً وَصْل الثّوبِ والخفِّ.

و الصّلةُ العلاقةُ وبلوغُ غايةٍ معينةٍ من وراء تلك الصّلة، وكلُّ شيءٍ اتّصلَ بشيءٍ فبينهما وَصْلَةٌ و صِلَةٌ: أيْ: اتّصالٌ وذريعةٌ.

و الاتّصالُ: اتّحادُ الأشياءِ بعضِها ببعضٍ، كاتّصالِ طرفَي الدّائرةِ، ويُضادُّه الانفصالُ[1]. ويُفهمُ من ذلك أنّ الاتّصالَ يَحدُث بين طرفين بواسطة وسيلةٍ ما، فهي تؤدي إلى حدوث ذلك الارتباطِ بينهما.

معنى الاتّصال في الاصطلاح:

يعدّ الاتّصال سبيلاً لتبادل ونقل المعلومات والأفكار فيما بين النّاس، من خلال الكتابة أو الكلام أو أيّة طريقة أخرى، وأي اتّصال يكون فيه طرفان، طرف مُرسل الّذي يقوم يرسل الرّسالة أو المعلومة، وطرف مستقبل وهو من يستقبل المعلومة أو الفكرة، ويتمّ من خلال ذلك انتقال وتبادل المعلومات والعواطف والاتجاهات من فرد لآخر أو من مجموعة لمجموعة أخرى.

ومع تطور وسائل المواصلات في القرن الثّامن عشر: طرق، وهواتف، وقطارات وسكك حديديّة... استُعملت عبارة (وسائل الاتّصال) لتشير إلى الطّرق والقنوات والسّكك الحديديّة. ثمّ أصبحت تدل على صناعة الصّحافة، والسّينما، والرّاديو. ثمّ استُحدث تداولُها

(١) أبو بكر الرازي: مختار الصحاح وابن منظور: لسان العرب، مادة: (وصل). والتوقيف على مهمات التعاريف ص٣٧.

في مجال دراسة: «التّحكم والاتّصال عند الحيوان وفي الآلة».

وفي منتصف القرن العشرين ظهرت «النّظريّة الرّياضيّة للاتّصال»[1] الّتي كان لها الأثر الكبير لدى علماء الاجتماع وعلماء النّفس وعلماء اللّغة أيضاً، إضافة إلى المهندسين. وأصبح الاتّصال عمليّة اجتماعيّة تأخذ صوراً كثيرة للسلوك: كالكلام، الحركة، الإشارات، النّظرة... ولم يعد هناك تعارض بين الاتّصال اللّفظي، والاتّصال غير اللّفظي، بل أصبح الاتّصال يتضمن الجانبين بطريقة تكامليّة.

ولم تهمل كلمة (الاتّصال) في مجال تعليم اللّغات الحيّة، بل لاقت قبولاً واهتماماً بالغين في طرائق تعليم اللّغات، وظهرت طرائق تدريس حديثة في السّبعينات أخذت من كلمة الاتّصال مسمىً وهدفاً لها، فأطلق عليها: (المدخل الاتّصالي) و: (طرائق الاتّصال)، وكان هدفها الرّئيس هو تعلم اللّغة بوصفها وسيلة اتّصال بين البشر.

وصار للاتّصال تعريفات متعددة بتعدد وجوه الاستعمال الاصطلاحي، وبحسب الاستعمال الخاص بكلّ ميدان من ميادين الحياة: الاجتماعيّة والسّياسيّة، والهندسيّة والاقتصاديّة والتربويّة، حتى أنها ترتبط بالإنسان والحيوان والنّبات[2].

أما الاتّصال بالمعنى الاصطلاحي الّذي نقصده هنا فهو على العموم: «عمليّة نقل وتبادل المعلومات والمعاني والأفكار والاتجاهات والخبرات، والخواطر والمشاعر والحاجات والأوامر».

وقد أشارت بعض التعريفات المتداولة إلى كون الاتّصال نشاطاً أو ظاهرة اجتماعيّة، وأنه يتمّ غالباً بين طرفين في اتجاهات متضادة، بصورة شخصيّة أو غير شخصيّة، وبواسطة رموز معينة، لتحقيق هدف أو تفاهم متبادل بينهما[3].

---

(١) ظهرت سنة ١٩٤٨م على يد الدّكتور كلود شانون الأمريكي (ت: ٢٠٠١م) كانت أساسا لتطوير جميع أنواع الاتّصال التي حصلت بعدها مثل إشارة التلفزيون، وترميز المعلومات أو تشفيرها ونقلها من خلال الحاسب الآلي، وتخزين المعطيات بوسيلة دعم مغناطيسية أو بصرية. انظر: نظريات الاتّصال في القرن الحادي والعشرين: عبد الرزاق محمد الدّليمي ص ١٩٠.

(٢) انظر: عيسى ياسين إدريس: اضطراب التّواصل وعلاقتة بنمو مفهومي: (الأنا) و(الآخر) لدى الأطفال المنغلقين ص٥٦ رسالة ماجستير في كلية التربية، جامعة دمشق ٢٠٠٠م.

(٣) محمد الطّنوبي: نظريات الاتّصال، شعبان فرح: الاتّصالات الادارية

الاتّصال والتّواصل:

يرتكز مفهوم الاتّصال بالجملة أساساً على نقل معلومة أو فكرة أو رسالة من شخص إلى آخر، مما يخلق جواً من التفاهم بينهما. ويسعى علماء هذا الفن إلى البحث عن القوانين السّلوكيّة الّتي تحكم التّواصل الإنساني، بغية تحديد النّظام الّذي يتواتر من خلاله سلوك الأشخاص المرسِلين والمستقبِلين في المواقف التّواصليّة. ويرى هؤلاء أن الأحداث التّواصليّة تعتمد مجمل الشّخصيّة الإنسانيّة، لذا لا يمكن عدّ السّلوك التّواصلي شيئاً متميّزاً تماماً عن محددات السلوك عامة: كالإدراك، والتّعليم، والحاجات، والدّوافع، والانفعالات...

فالتّواصل إذاً أعم وأشمل من: (اللّغة)، و(الكلام)، و(النّطق).

أمّا مصطلح (الاتّصال) فهو أعمّ من (التّواصل)- وأحسن منه رعاية للصناعة اللّغويّة والأكاديميّة.

وإنّما كان أعمّ منه لأنّه يشير إلى رغبة أحد الطّرفين في الترابط مع الآخر، وقد يستجيب الآخر متفاعلاً مع تلك الرّغبة وقد يرفضها. كما أن الاتّصال يستخدم للإشارة إلى عمليّة نقل المعلومات في البشر والجمادات على حدّ سواء. ومن هنا فإنّ من نظر إلى خصوصيّة الإنسان، وامتيازه على الجمادات بالعواطف والمشاعر، آثر مصطلح (التّواصل) تأكيداً على أهميّة المشاركة من جهة طرفيه، بتأثير رغبة متبادلة لديهما.

ثانياً أهمّيّة الاتّصال

خلق الله الإنسان كائناً اجتماعياً، ولأجل ذلك زوده منذ بدء خلقه بالقدرة على التعبير[1]، كما نبه إلى ذلك في قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ

(١) وهذا بخلاف ما يزعمه المؤرخون العلمانيُّون من أن المجتمعات البشرية تكونت حول الأنهار وعيون الماء وفي السهول والوديان، حيث يتوافر المأكلُ والمشرب. وكان من الضّروري أن يجد الإنسان وسيلة للتفاهم والتخاطب، لذلك مارس ألواناً متعددة من صور الاتّصال المختلفة فكان الاتّصال بالصوت البشري كصيحات يطلقها لأقرانه إذا واجهه عدو أو حيوان أو للتعبير عن الحزن أو الفرح، ثمّ كانت الكتابة التصويرية التي نراها الآن على الجدران الكهوف والمعابد والتي تمثل المعتقدات الدّينية والحروب مثل: اللّغة الهيروغليفية. وبتطور الحياة ربط الإنسان بين الصوت والشكل فكانت اللّغة منطوقة ثمّ مكتوبة وتم ابتكار الحروف الهجائية فكانت نقلة حضارية ساعدت على انتشار المعارف واتسعت العلوم.

فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣١-٣٣]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣-٤].

وقد تحدث عمليّة الاتّصال في أي زمان أو مكان، إذ نلتقي بأشخاص كثر، ونود التّواصل معهم لاستقبال أو إرسال معلومة أو فكرة، ولذلك فهي من أكثر الأنشطة الّتي يقوم بها الإنسان في حياته تداولاً، حيث تمثل حاجة اجتماعيّة ضروريّة وتحقّق التعارف والتفاهم بين النّاس، والتّفاعل بين الجماعات البشريّة، وتكون وسيلة لتلاقح الحضارات.

وتتأكد أهميّة التّواصل في أن هناك الكثير من الأهداف المهنيّة، والطّموحات الحياتيّة لا يمكن تحقيقها على أكمل وجه إن افتقرنا إلى أسلوب التّواصل الإيجابي، ضمن البيئة الّتي نعيش فيها، ونعمل ضمنها. حتى أن بعض الدّراسات تشير إلى أن الإنسان يقضي (٧٠٪ إلى ٨٥٪) من وقته في التّواصل مع الآخرين، من خلال الإنصات أو الحديث، أو القراءة أو الكتابة لهم[1].

نشأة الاتّصال وضرورته:

إنّ أوّل اتّصال حصل في تاريخ البشريّة هو الوحي من الله إلى آدم عليه السلام منذ كان بدء الخلق، ثمّ تتابع الوحي فكان أعظم وأهمّ اتّصال تحقّق للناس، من خلال من اصطفاهم الله من بني آدم من بعده، حتى انتهى نزول الوحي بالرّسالة الخاتمة الّتي أنزلت على محمد ﷺ. قال تعالى: (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) [القصص: ٥١].

كان المرسِل فيه هو اللّه عزّ وجلّ، والواسطة جبريل عليه السلام، والمرسَل هم الأنبياء عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، والرّسالة هي الرّحمة مصوغة بما احتوته من العقيدة والشّريعة وما يلحق بهما. والمرسَل إليهم هم النّاس كلُّهم أو بعضُهم.

والحكمة من ذلك هي أن يتحقّق اتّصال الإنسان بربه الّذي خلقه. فكان مما أوحى الله به إلى الأنبياء عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ أن يأمروا عباده بإقامة الصّلاة الّتي هي صلة بين العبد

(١) مدحت أبو النصر: مهارات التّواصل الفعّال مع الآخرين ص ١٨.

وربه. يستطيع العبد من خلال الصّلاة والدّعاء أن يتصل بربه فيناجيه ويسأله حوائجه. وأن يؤكد من خلالها ومن خلال سائر العبادات والطّاعات صلته بربه ومولاه سبحانه وتعالى.

ثمّ يتتابع التّواصل لتبليغ الدّين الّذي جاء به الأنبياء عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ فيما بين الأقوام من البشر من خلال قيام الدّعاة بحمل تلك الرّسالة وإيصالها.

وبذلك وصل الإسلام خلال عصور الجد وبذل الجهد في أداء تلك الدّعوة إلى أقاصي العالم شرقاً وغرباً. وما اضمحل انتشار دين الأنبياء والعمل به وشاع المنكر والإعراض عن الحق، إلا حينما قعد أهل الحقّ عن التّواصل من أجل الدّعوة إلى الحقّ والأمر بالمعروف، ونشط شياطين الإنس والجن بالتّواصل من أجل الدّعاية إلى الباطل.

وكذلك انتقلت ثمار الحضارة والمدنيّة من أمة إلى أخرى في التاريخ الإنساني من خلال قنوات متنوعة الصُّوَر كان منها مراكز نشر العلم والثّقافة، ومنها الحروب والغزو والهجرة والنّزوح، تحقّق من خلالها في عدد من الأحيان استفادة كلّ أمة من علوم وخبرات الأمة الّتي سبقتها، فكان **التّواصل الحضاري**- أو ما يعرف **بالتّواصل الثّقافي**-بين الأمم سبباً في نمو العلوم الإنسانيّة والتقنيات الّتي يستخدمها البشر في سهولة تحقيق الأهداف الّتي يسعى إليها الإنسان في كلّ ميدان من ميادين الحياة وشؤونها.

ويُقرّ عُلماء الاجتماع أنّ الإنسانَ اجتماعي بطبعه، خُلقَ وهو لا يقوى على العيش دون جماعةٍ وبيئة، يحتاجهم ويحتاجونه، وهو في هذه البيئة والاجتماع له حقوقٌ وحاجات وعليه واجباتٌ، وتتطلّب الحياة منه في جميع حالاتها التّفاعل والتّواصل مع من حوله، ومن هُنا برزت أهميّة الاتّصال بين النّاس بمختلفِ علاقاتهم مع بعضهم؛ بين الزّوج وزوجته، والوالدين وأطفالهم، بين المدير وموظفيه، والموظفين وزملائهم، وغير ذلك.

فقد خلق الله جل وعلا الإنسان واختاره لحمل أمانة جليلة أشفقت منها السّماوات والأرض ومن فيهن؛ ألا وهي الاستخلاف في الأرض. ووعده في مقابل ذلك مكافأة عظيمة: جنة الخلد في جوار ربه وملائكته ومن فضَّل من خلقه. فأعده الله تعالى خير إعداد للقيام بهذه المهمّة الشّاقة؛ فخلقه في أحسن تقويم، ثمّ كرمه بالعقل والعلم والكلام، ثمّ أسكنه الجنة، وخلق له زوجاً ليسكن إليها، وسخر له الكون وما فيه ليخدمه في تحقيق

مهمّته، وحذره من أعدائه من الشّياطين المتربصين به لإذلاله؛ فألهمه العيش في جماعات للتكاتف على الخير، والتعاون مع غيره من بني آدم لدرء الشّرور، ولاستثمار ما أنعم به عليه خالقه من آلاء كثيرة فيما يرضي اللّه، ويحقّق أمانة الاستخلاف في الأرض، وإعمارها على خير وجه لعباد الله الصّالحين.

ومن هذه التجمعات البشريّة ولدت المجتمعات والأمم والشّعوب والقبائل، وبمرور الزّمن تباينت ثقافاتها ومفاهيمها وقوانينها الّتي تنظم التعاملات بين أفرادها، وصار كلّ إنسان يختزن داخل نفسه نظاماً متكاملاً شديد التعقيد من المشاعر والأفكار والطّموحات الموروثة ممن سبقوه ومن بيئته، وأصبح من الضّروري له إذا أراد التعامل مع الآخرين أن يحاول اكتشاف ما يحملونه من أفكار وأحاسيس ومعتقدات؛ ليستطيع إقامة علاقات ناجحة معهم في إطار المجتمع الّذي يعيش فيه.

ولم يكن الأمر سهلا؛ فقد تصادمت المعتقدات المتضادة، وتصارعت الأفكار المتباينة، وولدت الخلافات والمنازعات مع ولادة المجتمع البشري، وتطور بعضها إلى منازعات مسلحة أو عداءات ثقافيّة تاريخيّة مبنيّة على تضارب الأفكار، واستمرت هذه التصادمات على مر العصور حتى يومنا هذا، على الرغم من كلّ ما حقّقه الإنسان من تقدم في شتّى المجالات؛ فمن منا لم يجد نفسه ذات يوم في مواجهة أمام مهاجم أو مشكك؟ ومن منا لم يصطدم بزميل أو جار أو قريب بسبب اختلاف الآراء وتباين الرّؤى الشّخصيّة أو سوء الفهم؟ ومن منا لم يتساءل ذات يوم: «لماذا توقف فلان عن الاتّصال بي؟ ترى ماذا قلت مما قد يكون أغضبه؟».

وقد أظهرت إحدى الدّراسات العلميّة المتعلقة بعلم الاتّصال ومهاراته نتيجة مذهلة، وهي أن عمليّة الاتّصال المبنيّة على (الحديث والاستماع) أو التكلم والإنصات، استغرقت الحجم الأكبر من النّشاط اليومي للفئة الّتي أجريت عليها الدّراسة، حيث تبين ما يلي:

- ٩٪ من الوقت يقضيه النّاس في الكتابة.
- ١٦٪ من الوقت يقضيه النّاس في القراءة.
- ٤٠٪ للإنصات فقط.

- ٣٥٪ للتحدث فقط.

وهذا يعني أن ٧٥٪ من اليوم يستغرقه النّاس في الإنصات والتحدث فقط.

ومن هنا ولدت الحاجة إلى علم يبحث في ديناميكيات التّفاعل بين الأفراد على اختلافهم، ويحاول إيجاد أسس للتفاهم والتّواصل تختصر الوقت والجهد، وتقفز فوق المعوّقات لتوصل الأفكار للآخر بنجاح، كما يبتكر قوانين مهمّتها تقليل «التصادمات الفكريّة» بين الأفراد، الّتي تحتاج إلى ما يهذبها وينظمها لتفادي العواقب الوخيمة لسوء الفهم والتعصب.

وإذا بنا نكتشف من خلال هذا العلم بعض الحقائق المذهلة: فالمشكلة الّتي تسببت في الصّدام قد لا تكون دائماً فيما نقول، بل أحياناً فيما لم نقل، أو في الطّريقة الّتي قلنا بها، أو في التوقيت الّذي دار فيه الحوار، أو مكانه، أو حتى ما كنا نرتديه عند النّقاش! إذن فهذا مما يستحق منا وقفة لتدبره.

وعلى الرّغم من كلّ هذه الأهمّيّة للتّواصل، غير أن مما لا شك فيه أن الاتّصال- في حدّ ذاته- وسيلة لا غاية. فكان لذلك سلاحاً ذا حدّين، يمكن استعماله في نشر: الهداية والخير والحق، والعلوم والخبرات النّافعة، والعدل والفضيلة، والمبادئ الحضاريّة والإنسانيّة، والقيم الجماليّة الحقيقيّة. أو في نشر: الضّلالة والشّر والباطل، والمبادئ الماديّة والبهيميّة، وإثارة الشّهوات المنحرفة والرّذيلة، وكلّ ما يودي بالإنسان في الغواية، ويهلكه ويفسد أحواله، ويكون أداة لتمكين الظّلم والطّغيان.

فكان من الواجب أن توظف تلك الوسيلة لتحقيق كلّ ما هو إيجابي، ويُنأى بها عن كلّ ما هو سلبي.

وكما يمكن أن تكون السّلبيّة في مضمون الرّسالة المنقولة من خلال التّواصل، يمكن أن تبرز إشكالات ناتجة عن سوء الاتّصال، على جميع المستويات.

وقد أدى إلينا رسول اللّهﷺ دروساً عظيمة من خلال نصوص القرآن والسّنة النّبويّة، في أصول التّواصل وقواعده، وأساليبه وآدابه ومهاراته.

وقد جاء العصر الحاضر بثورة الاتّصالات، إذ تنبه القائمون على العلوم السّياسيّة

والإداريّة والتربويّة، والمتخصّصون في التّنمية البشريّة، إلى القيمة الكبرى للتّواصل ومهاراته ووسائله. وصار الاتّصال فرعاً من جملة فروع هندسيّة، تتآزر في سبيل تحقيق النّجاح لوسائله.

ولابدّ أن يكون للعلماء والدّعاة وطلبة العلم والباحثين في علوم الدّين في هذا العصر وعي بمهارات التّواصل Communication Skills بصورة تجمع بين ما أصلته رسالة النّبيﷺ، وما تعرضه الكتابات المعاصرة من قضايا ربما احتوت على بيان لشيء من التفاصيل الّتي تزيد ذلك الوعي. فذلك بلا ريب أمر مطلوب شرعاً، وداخل تحت أصل المصالح المرسلة، ولذلك فهو يتبع في قيمته قيمة المصلحة الّتي يؤدي إليها. وبناء على ذلك فلابدّ أيضاً من السّعي لحسن استثمار ما أبدعته المدنيّة الحديثة من تقنيات ذات فائدة، وتوظيف ذلك في خدمة الأهداف العليا السّامية، وإيصال الرّسالة الخالدة.

عناية الإسلام بالاتّصال:

عرفنا أن الاتّصال من أشدّ أسس الحياة بين البشر أهمّيّةً، وبه تتقارب الشّعوب والقبائل والأمم وتنصهر الثّقافات وتذوب الفوارق بين الطّبقات، والدّين الإسلامي الحنيف يدعو إلى الاتّصال وإلى التعارف والتآلف. ويقول الله سبحان وتعالى في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات ١٣].

اعتنى النّبيﷺ منذ فجر الإسلام بما يسهل التّواصل ووصول المعلومات، واستعمل في كثير من المواقف من يوصل له الأخبار، فجعل عبد الله بن أبي بكررضي الله عنه يأتيه بأخبار قريش حينما مكث في غار ثور، كما اتخذ من يتوسط بينه وبين الصّحابة إذا أرادوا أن يسألوه، واتخذ المنبر وخطب على الدّابة ليكون مشاهَداً للنّاس أثناء الخطبة، واتخذ علياً ليعبر عنه في بعض المواقف، وأمر رجلاً هو أطول النّاس قامة وأبلغهم وأنداهم صوتاً ليستنصت النّاس، وكلف عظيماً من أصحابه يحشر له قومه، وأرسل عليارضي الله عنه يبلغ عنه نزول أوّل سورة القتال [وهي سورة محمد]، واتخذ المؤذّنين، كما أرسل النّبيﷺ في أطراف الجزيرة العربيّة من يوصل إلى أهلها دعوة الإسلام أو يعلمهم شرائعه وأحكامه، وأرسل الكتب إلى ملوك

الأرض واستعمل من الصّحابة من يوصلها.

وكذلك فعل الخلفاء من بعده، حيث اتخذوا رسلاً بينهم وبين أمراء الجيوش يأتون بأخبار الفتوحات واستعمل عمر رضي الله عنه محمد بن مسلمة رضي الله عنه يتقصى له أحوال الأمراء والرّعيّة ويأتيه بأخبارهم[1].

الاختلاف سنّة الله في خلقه، والتّواصل أمرُه الموجه إليهم:

مما لا شك فيه أن أي شخص يحاول التّواصل مع غيره بأيّة وسيلة فإنه يواجه مشكلة الاختلاف الواضح بين الأفراد في المجتمع الواحد، ناهيك عن التباين والتضاد بين الشّعوب والقوميات؛ أي أن من حقائق حياتنا الّتي لا نملك تغييرها أن النّاس مختلفون ومتباينون؛ فهل المهمّة الموكلة بالمسلمين-وخاصة الدّعاة منهم- هي إلغاء هذه الاختلافات، وصهر النّاس في قالب إسلامي موحد يتجاهل اختلافاتهم، ويجبرهم على التطابق مع أنموذج مثالي؟ يقول الله تعالى في محكم آياته: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[هود: ١١٨-١١٩]

إذن فالاختلافات الفرديّة أيضاً من سنن الله في الكون، والإسلام يحترمها، ويطلب منا التكيف معها، وتطويع الخطاب على حسب المخاطب (احتراماً للاختلاف) دون الإخلال بمضمون الرّسالة (منعاً للخلاف)، سواء كان ذلك في التّواصل الدّعوي لغير المسلمين، أو في التعامل اليومي بين المسلمين؛ حيث يرغّبهم الإسلام في الاتحاد، وينهاهم عن التناحر، مع احترامه الكامل لحرّيّتهم الشّخصيّة.

غير أن الاحتكاك مع الثّقافات المتباينة لابدّ سيولد خلافاً قد ينقلب إلى هجوم من الجهلاء؛ فكيف يسير المسلم بعمليّة الاتّصال إلى هدفها في توصيل رسالة الدّعوة، متفادياً هذه المعوّقات؟ والإجابة القرآنيّة هي الحلم والصّبر والقول اللّين وتجنب الجدال والصّدام:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الذِينَ يَمْشُونَ عَلى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلونَ قَالوا سَلاماً﴾[الفرقان: ٦٣]، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ الله لنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران: ١٥٩]. ﴿اذْهَبَا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى* فَقُولا لهُ قَوْلا لَيِّناً لعَلهُ يَتَذَكَّرُ

(١) نظام الحكومة النبوية (التراتيب الإدارية) : محمد عبد الحي الكتاني؛ تحقيق: عبد الله الخالدي ص ١٧٩ وغيرها.

أو يَخْشَى﴾[طه: ٤٣-٤٤].

فالإسلام يشجع اللّين والرّفق والقول الرّقيق، كما يعلمنا ربنا أن الجدال الّذي لا طائل من ورائه إلا التفاخر بالعلم أو التشويش أو الانتصار في المعارك الكلاميّة خصلة مذمومة مصدرها الشّياطين: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[الأنعام: ١٢١].

بمعنى أن استخدام مهارات وفنون الاتّصال الفعّال[1] الّتي يعلمها لنا الإسلام يجب استعمالها فيما يرضي الله، ويؤدي إلى نتيجة إيجابيّة تقرّب بين المسلمين من جهة، وتجتذب إليهم الثّقافات الأخرى للتّعرّف على عظمة الإسلام من جهة أخرى. ولن يتمّ ذلك إلا إذا كانت عمليّة الاتّصال تتم في إطار إيجابي لا يحتقر أحداً أو يسعى ضده أو ينتصر عليه لإذلاله أمام النّاس، أي أن «الكلّ فائز»، وهو الموقف الّذي يتبنّاه الإسلام في الاتّصال، مع الانتباه إلى الفرق بين تمايز الحقّ من الباطل في المضمون، واتباع سبيل الحكمة والموعظة الحسنة في الأسلوب؛ أي أنّ المقصود هنا هو الحرص ما أمكن على جبر قلب المخاطب، ما لم يكن ذلك على حساب إحقاق الحقّ وإقامة قواعده وأصوله.

أما الوجه العكسيّ الّذي يُخْرِجُ أحدَ الطّرفين مهزوما فهو من معوّقات الاتّصال الفعّال؛ لأنّه لا يمكن تخيل أن المهزوم سيحبك أو يتجاوب معك ويقلدك، وليس هذا مما تحبه لنفسك، إذن فليس هذا مما تعامل به النّاس كما يعلمنا الإسلام.

أما الصّورة الثّالثة التي يكون فيها: «الكلّ خاسراً» فهي ما سيحدث في حال الجدال الّذي يحتدم إلى معركة كلاميّة متأججة المشاعر؛ فيبدأ كلّ طرف بالخروج عن حدود اللّياقة والأدب؛ دفاعاً عن نفسه وهجوماً على الآخر. ومن الواضح أنه لا رابح في مثل هذه الحالات إلا عدو الله إبليس!.

(١) الاتّصال الفعّال: هو الذي يحقق نجاح وصول الرّسالة، وفهمها، والتفاعل معها. وسيأتي الحديث عنه تفصيلاً إن شاءالله.

المطلب الثَّالث

مفهوم مهارات الاتّصال وأهمّيّتها

تعريف مهارات الاتّصال [illegible]:

بناء على ما تقدم- فيما سبق- من تعريف كلٍّ من الاتّصال والمهارة، يمكن تعريف مهارات الاتّصال اصطلاحاً بأنّها: «السّعي إلى إتقان سلوك السّبل والأساليب المثلى، لتحقيق نقلٍ وتبادلٍ فعّال للمعلومات والمعاني والأحاسيس والآراء بين الأشخاص، والتأثير في أفكارهم وإقناعهم من خلال استخدام طرائق لفظيّة أو غير لفظيّة».

هذا وتنقسم مهارات التّواصل إلى جملة أقسام تبعا لعناصر العمليّة الاتّصاليّة، فلكلّ عنصر مهارات يجب العناية بها فيما يخصه حتى يتحقّق التّغلب على معوّقات الاتّصال.

مهارات التّواصل فطريّة وكسبيّة:

من المهمّ أن نعرف أن مهارات الحوار ليست حكراً على البعض دون الآخرين؛ فرغم أن منَّا من حباه الله بموهبة البيان والقدرة على التأثير في الآخرين، ولا يحتاج لصقلها إلا للقليل من الجهد والخبرة؛ فإنه من نعم الله علينا أن جميع النّاس يمكنهم اكتشاف مواهبهم الشّخصيّة في الاتّصال عن طريق التّعلّم والتدريب المستمر؛ فمع أن التّواصل الفعّال فن وموهبة وملكة، غير أنه يُصقَل بالعلم والخبرة.

لا شك أن استخدام قوانين التّواصل الحديثة، مع دمجها بآداب الإسلام في الحوار والتّفاعل، هو من المهارات الضّروريّة للمسلم المعاصر، في ظل تحديات عالمنا الحديث، كما أنها من أساسيات نجاح الدّاعية في توصيل دعوته؛ فكما أن هناك من يجيد الكلام وجهاً لوجه هناك من يبدع في الكتابة، ومن يبرع في الإعلام بشتّى صوره، ومن ينطلق في التّواصل مع الأطفال عن طريق الأشكال والألوان، وهكذا.

وعلى الرّغم من أن مهارات الاتّصال قد تكون موهبة ربانيّة فطريّة، فهي أيضاً قدرة

مكتسبة، تقوم العوامل الثّقافيّة والاجتماعيّة بدورٍ مهمٍّ في درجة اكتساب الفرد لها.

أهمّيّة دراسة مهارات الاتّصال:

لنتذكر أوّلاً أن النّبيﷺ علمنا التعوّذ بأن نقول: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ)[1]؛ فعلينا أن نسأل أنفسنا- قبل الشروع في تعلُّم أي علم- عن سببٍ يرضي الله ويخدم الإسلام، ثمّ نعرف كيف نحتسب ذلك العلم في سبيل الله لنأخذ عليه الأجر والثّواب.

إذن يجب أن نسأل أنفسنا: لماذا نقبل على تعلم هذا العلم بالذات؟ هل تقليداً للغرب مثلاً أو ابتغاءً للرزق أو المناصب؟ أم إرضاءً لربنا وابتغاءً لاستعمال ما تعلمنا في نصرة الإسلام، ونشر الحقيقة؟ وبصيغة أخرى: هل هذا العلم-بمقياس الشّرع- علم نافع أم علم لا ينفع؟ وعلى هذا الأساس نقرر ماذا نتعلم وماذا نترك.

لنطبق هذا المفهوم على هذا الموضوع، ولنتساءل: هل الإسلام يأمرنا بتعلم مهارات الاتّصال الفعّال؟ وهل هناك أخلاقيات وآداب واضحة للحوار البنّاء في الإسلام؟ وما هي استخدامات تلك المهارات لصالح دين اللّه؟ سنجد أن الإسلام يعلمنا بالتفصيل كلّ ما نحتاجه لمهمّتنا: إذ يعرفنا بأطراف عمليّة الاتّصال: أنفسنا والآخرون، أفراداً وجماعات، مسلمين وغير ذلك. ثمّ يعلمنا الرّسالة التي يجب أن نوصلها إلى الناس، وهي تشمل: سبيل الهداية، والعلم الحق، والأخلاق الحسنة، والتعاملات الرّاقية، والعبادات المطهرة. وذلك في دوائر التعامل المختلفة: الأسريّة والاجتماعيّة والدّوليّة والعالميّة. ومما لا شك فيه أن أهمّيّة الاتّصال الفعّال تتحدد بأنه:

١- عامل رئيس في نجاح الفرد، حيث يصل إلى قمة أهدافه بالتّواصل الفعّال.

٢- عامل رئيس في نجاح المؤسسات: لأنّ المؤسسة النّاجحة، ما كان لها أن تحقّق نجاحها دون أن يتحقّق فيها الاتّصال الفعّال.

ثمّ يبيّن لنا الإسلام وسائل الاتّصال المختلفة بين النّاس: الصّالح منها والطّالح. كما يعلمنا أيضاً تخير الوسائل السّليمة للاتّصال، وتفادي ما يعوقها أو يشوهها.

ثمّ بعد هذا التدريب الرّباني المكثف للمسلم- بدءاً من محيطه الشّخصي- يأمره

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢) عَنْ زيد بن أرقمﷺ.

الإسلام أن ينطلق بما تعلم في أرجاء الأرض مبلغاً لأعظم رسالة يمكن أن يُبلغها بشر ألا وهي: كلام اللّهﷻ. فنجد في الحديث النّبوي- عند دراسته بتمعن- ما يُجلي لنا كيفيّة تفعيل مهارات الاتّصال لدينا؛ من أجل تبليغ رسالتنا للجمهور، وكذلك يُبيِّن لنا كلّ أنواع العوائق الّتي تطرأ على عناصر العمليّة الاتّصاليّة، وخصائص وأساليب الرّسالة الاتّصاليّة النّاجحة، وتأثيرها على النّاس.

الاهتمام بمهارات الاتّصال ووسائله في صدر الإسلام:

مما يدل على أهمّيّة تعلم مهارات الاتّصال شرعا، أن النّبيﷺ وجه الكتبة الّذي استعان بهم إلى ترتيب الكتابة، وهذه صورة من صور تنمية مهارات الاتّصال، وكذلك كان يحتاط في إتقان مكاتيبه الرّسميّة، ويتحرى الأفضل لحمل تلك الرّسائل من حيث وفور العقل وطلاقة اللّسان وقوة الحجة وربما اختار الأحسن وجها لأجل ذلك، ويزودهم بالتّعليمات والوصايا.

وقد انتدب رسول الله ﷺ زيد بن ثابترضي الله عنه لكي يتعلّم العبريّة من أجل مراسلة أهلها، يقول زيد: (أُتي بي النّبي مَقْدَمه المدينة، فقيل: هذا من بني النّجار، وقد قرأ سبع عشرة سورة. فقرأت عليه فأعجبه ذلك، فقال: «تعلّمْ كتاب يهود، فإنّي ما آمنهم على كتابي». ففعلتُ، فما مضى لي نصف شهر حتى حَذِقْتُهُ، فكنت أكتب له إليهم، وإذا كتبوا إليه قرأتُ له)[1]. ثمّ طلب إليه الرّسول أن يتعلم "السّريانيّة" فتعلمها في سبعة عشر يوماً. كما ورد عنه أنه تعلم اليهوديّة في خمسة عشر يوماً.

وطوّر الخلفاء بعده الأساليب المستعملة للتّواصل، وكان معاوية بن أبي سفيانرضي الله عنه أوّل من نظم البريد في صدر الإسلام، وجعل له المحطات والصّوى، والخيل المهيأة للتعاقب[2].

ومن النّماذج العمليّة الّتي قدمها الرّسولﷺ مما ينمّي **(مهارات التّواصل)** ويزكيها

---

(١) أخرجه الترمذي عَنْ زيد بن ثابت في سننه، كما أخرج قصة تعلمه لها البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الفرائض، باب ترجيح قول زيد بن ثابترضي الله عنه على قول غيره من الصحابة في علم الفرائض، رقم ١٢١٩٥ ولفظه: (لما قدم النبي ﷺ المدينة أتي بي إليه، فقرأت عليه، فقال لي: «تعلم كتاب اليهود؛ فإني لا آمنهم على كتابنا»، قال: فما مر بي خمسة عشر حتى تعلمته، فكنت أكتب للنبي ﷺ، وأقرأ كتبهم إليه).

(٢) نظام الحكومة النبوية (التراتيب الإدارية) : محمد عبد الحي الكتاني؛ تحقيق: عبد اللّه الخالدي ص ١٧٩ وغيرها.

ويدعم التوافق الاجتماعي والصّحة النّفسيّة ما يأتي:

١. **أنه ﷺ كان يبدأ من لقيه بالسّلام**: وصيغته «السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته» وفي الحديث مما يدل على فضائله وفوائده: «ألا أدلكم على شيءٍ إن فعلتموه تحاببتم ؟ قالوا: بلى يا رسول الله ، قال: أفشوا السّلام بينكم» وقال أيضاً: «السّلام على من عرفت، وعلى من لم تعرف»

٢. **وكان أكثر النّاس تبسماً في وجوه أصحابه**: يتلقّى النّاس بوجه بشوش، ويحضّ على ذلك، كما في قوله: «تبسمك في وجه أخيك صدقة»

٣. **وكان إذا لقى أحداً من الصّحابة بدأه بالمصافحة**: «إذا التقى المسلمان ، فتصافحا، تحاتت ذنوبهما كما يتحات أوراق الشّجر»

٤. وكان يؤثر الدّاخل عليه بالوسادة الّتي تحته..

٥. وكان يعطى كلّ من جلس إليه نصيباً من وجهه: أى من النّظر اليه والاهتمام به.

٦. **وكان في كلّ سلوكه يتسم بالحياء والتواضع والرّفق**: كما في قوله: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السّماء»

٧. **ويتحبب إليهم**: كما يشير إليه قوله: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» ، وقال: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ ، فيُعرض هذا ، ويُعرض هذا، وخيرهما الّذي يبدأ صاحبه بالسّلام»

٨. **ويبادر بالثّناء على أفعّالهم الجيدة**: مما يحفز فيهم الهمم إلى الازدياد من الإحسان، ويعرفهم فيه معاني العرفان، كما في حديث: «من لم يشكر النّاس لم يشكر اللّه».

٩. **يسأل عمن غاب منهم ويتفقد أحواله**: وذلك بما ربى عليه أصحابه من السّؤال عن أفراد المحيط الاجتماعي، كما يحصل من خلال المحافظة على الصّلوات في المساجد.

١٠. **يطبق ما وجه إليه الله عز وجل من التعارف**: كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾

المطلب الرَّابع
أهداف الاتّصال

حكمة الترغيب في التّواصل مع النّاس:

من سنن الله في الكون أن كلّ إنسان موجودٍ وسط مجموعة من النّاس مضطرٌ لأنْ يتواصل معهم، على الأقل في نطاق حاجاته الأساسيّة. أما الإنسان المسلم فلا يكتفي بمجرّد التّواصل، بل يخبره القرآن-كما في الآية السّابقة- أنه يجب أن يقترب أكثر ليتعارف مع النّاس ويتفاعل معهم، القريب منهم والبعيد، المسلم منهم وغير المسلم، يا ترى لماذا؟ الإجابة القرآنيّة واضحة: ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلهُم بِالّتي هي أَحْسَنُ﴾ [النّحل: ١٢٥].

فهو على هذه الحالة يتعرّف عليهم وعلى ثقافاتهم وعاداتهم وعلومهم ليتمكّن من دعوتهم للإسلام. بل وتبين لنا الآية الكريمة كيفيّة ذلك: بالحكمة والهدوء والموعظة والمنطق القوي. لاحظوا أن الدّعوة في الآية جاءت بصيغة الأمر؛ فالمسلم مأمور بالدّعوة إلى سبيل الله بكلّ وسيلة ممكنة، سواء بالدّعوة المباشرة (الوعظيّة) والدّعوة غير المباشرة بالقدوة الّتي تُجلّي أخلاق الإسلام، فتدعو النّاس إليه.

ويشمل نطاق دعوة كلّ مسلم جميع دوائر تعامله على قدر استطاعته وعلمه؛ بدءاً من أهل بيته ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء: ٢١٤]، وحتى الأقوام الآخرين من الشّعوب والقبائل الذين علينا التّعرّف عليهم كما في الآية، واختيار أفضل وسيلة لمخاطبتهم، ثمّ استعمال جميع أدوات الاتّصال الفعّال لتوصيل الرّسالة الّتي تعلمناها إليهم بصورة صحيحة، بعد التّغلب على المعوّقات الّتي قد تفسد أو تعطل عمليّة الاتّصال، ثمّ علينا بعد ذلك التعامل بنفس الحكمة والهدوء مع ردود الأفعال المختلفة النّاتجة عن هذا التّواصل؛ حرصاً على استمرار تدفق المعلومات دون معوّقات.

بمعنى آخر: بما أننا مأمورون بالدّعوة؛ فقد عرفنا أننا مأمورون ضمناً بتعلم مهارات الاتّصال الفعّال (المباشرة وغير المباشرة، المنطوقة وغير المنطوقة)؛ لنؤثر في النّاس تأثيراً إيجابياً يجعلهم يتقبلون سماعَنا ومشاهَدتَنا والتّعامل معنا، وهدفُنا من ذلك تعريفهم الإسلام تطبيقاً لواجب الدّعوة الّذي هو أمانة في أعناقنا؛ وهكذا فإنّ تعلم هذا العلم بهذه النّيّة يصبح مهمّا؛ لأنّه مما يساعدنا على خدمة ديننا وإرضاء ربنا إن شاء اللّه.

وظائف الاتّصال ودوافعه:

وظائف الاتّصال:

تؤدي عمليّة الاتّصال إلى تحقيق وظائف كثيرة متنوعة، كنقل الرّسالة من طرف إلى آخر، واستقبال البيانات والاحتفاظ بها، وتحليل البيانات واشتقاق المعلومات منها، والتأثير في العمليّات الفسيولوجيّة للجسم وتعديلها، والتأثير في الأشخاص الآخرين وتوجيههم. وبالتّالي يمكن بيان وظائف الاتّصال بما يأتي:

١. يؤدي الاتّصال إلى إنتاج أو تزويد أو تجميع الأفكار والبيانات والمعلومات الضّروريّة لاستمرار العمل، ونقلها أو تبادلها بحيث يتمكن الفرد من إحاطة الآخرين بالمعلومات، أو التأثير في سلوك فرد أو جماعة بهدف توجيههم في الاتجاه المطلوب.

٢. تمثل عمليّة الاتّصال مع الآخرين أمراً من أساسيات الحياة اليوميّة، حتى أصبح الصّمت نوعاً من أنواع الاتّصال مع الآخرين؛ لأنّه ينتمي إلى لغة الجسد، وتتمثل أهمّيّة الاتّصال في عمليّة تعزيز ثقافات الشّعوب وتعمل هذه المهارة على نهوض الحياة واستمرارها، وتأتي هذه الدّراسة من أجل مد جسر التعاون وسد الفجوة بين مفاهيم الاتّصال، والتّعرّف على وسائل الاتّصال ومعوّقاته، وإستراتيجيات التّواصل الفعّال.

٣. وتعدّ عمليّة التّواصل همزة الوصل بين الأشخاص؛ لأنّ هذه العمليّة تعدّ نشاطاً اجتماعياً يتمّ فيه ربط أجزاء المجتمع وتفاعل النّاس مع بعضهم، ولا ريب في أنه لابدّ لأي نشاط من مجموعة من القواعد الّتي تحكمه وتحدد عناصره ومعوّقاته.

دوافع الاتّصال:

كما أن هنالك حقيقة جديرة بالذكر وهي أن دوافع الاتّصال مرتبطة دائماً

باستخدامات الاتّصال الّتي تتعدد وتتنوع دوافعها كما يلي:

١- الإعلام:

يتمثل دافع الإنسان لاستخدام الإعلام في الحصول على المعلومات والبيانات أو إعطائها، مثلما يحدث عندما يقوم فرد بالإعلام عن نفسه بالاسم أو بقرع الباب، وكما يصنع مؤذن المسجد إذ يقوم بالإعلام حينما يؤذن للصلاة، وعلى نحو ذلك عندما حاول الإنسان منذ قديم الزّمان الاتّصال مع غيره عن طريق توصيل معانٍ على الأحجار وجذوع الأشجار وجدران الكهوف.

ومما يجدر التنبيه إليه أنه كثيراً ما يقع خلط بين وسائل الاتّصال الجماهيري وبين وسائل الإعلام. وهو ما سيتضح لنا فيما بعد.

٢- التّعليم:

تنتقل القيم والأعراف والعادات والتقاليد بين الأفراد والأجيال المتعاقبة عن طريق الاتّصال في الأسرة أو في المدرسة أو الجامعة أو غير ذلك من مؤسسات المجتمع، حيث تتوافر في التّعليم الصّلة المباشرة بأدلة بين المتعلم والمعلم، حتى ولو اعتمد المعلم على طريقة الإلقاء دون إتاحة فرصة المناقشة الفرديّة للمتعلم.

ما هو إذن دافع الإنسان للتعلم أو التدريب؟

عادة ما يكون المتعلم مدفوعاً بحب النّجاح و البحث، وبما ينتج عن ذلك من تحقيق الآمال والوصول إلى شغل مكانة رفيعة، أو بعكس ذلك من خوف الفشل والإخفاق.

وهذا الدّافع الإيجابي يوفر على المعلم جهداً كبيراً في عمليّة التّعليم، ويحمل على الطّالب على التّفاعل مع المعلم وزيادة أثر التّعليم.

٣- التوجيه:

ويقصد بالتوجيه إحداث تغيير في الاتجاهات الفكريّة، وذلك بنقل اتجاهات فكريّة مرغوبة، وتعديل اتجاهات قديمة غير مرغوبة، كتغيير اتجاهات الزّراع نحو استخدام التقنيات الحديثة وأهمّيتها في تحقيق التنمية الزّراعيّة للوطن.

وجدير بالذكر أن دافع الاتّصال من أجل التوجيه متحقّق دائماً لدى المتقدمين من

أفراد الأجيال المتعاقبة بالغريزة، على نحو ما يسعى الوالدان من أجل توجيه أطفالهما إلى تعديل سلوكهم نحو الأفضل.

٤- التثقيف والتزويد بالمعرفة:

يقوم الإنسان بالكثير من التحركات الّتي تستهدف الحصول على معارف جديدة سوى المعارف العلميّة الرّسميّة، أو يقوم بالسّعي نحو التثقيف من خلال اكتساب المعلومات العامة، الّتي يطلق عليها اسم الثّقافة، وهي تتعلق بنواحي الحياة العامة.

ولهذا نجد الإنسان شغوفاً ومدفوعاً بحب المعرفة إلى تثقيف نفسه على الدّوام، ليصير متحدثا لبقاً محبوباً، ولئلا يبدو أمام الآخرين جاهلاً، فنراه يتعلم كلّ ما يجعله يقف على الحوادث أو على وجهات النّظر المختلفة، حتى تتكون لديه حصيلة معرفيّة تميّزه عن أقرانه وتؤهله ليكون فرداً ناجحاً يشار إليه بالبنان.

٥- الإقناع:

جدير بالذكر أن كلاً منا في اتّصاله بالآخرين يحاول جاهداً أن يقنع الأخر بوجهة نظره أو برأي معين، ويلاحظ ذلك في مجال الإعلان عندما يكون الهدف إيجاد صورة أو مركز مهمّ ومتميّز لجهة أو مؤسسة أو لمنتج معين، بحيث يصعب على الآخرين تقليده، ويتمّ ذلك بهدف إقناع الجمهور بأهمّيّة استخدام هذا المنتج.

وبناء عليه فإنّ الدّافع إلى الاتّصال هنا هو إقناع الآخرين بتبنّي فكرة أو رأي أو شراء شيء، أو التوقف عن سلوك غير مرغوب، أو إقناع الآخرين باتجاهات جديدة مرغوبة. ويمكن توظيف ذلك في مجال الإرشاد الزّراعي من خلال الدّور الإقناعى الّذي يقوم به المرشد الزّراعي من أجل إقناع المزارعين باتباع وتطبيق التقنيات الحديثة، مثل زراعة أصناف محسّنة من التّقاوي أو اتباع أساليب الرّي الحديثة من أجل المحافظة على الثّروة المائيّة أو غير ذلك من الأمور. وهذه كلها عمليّات اتّصاليّة تستهدف الإقناع في المقام الأوّل.

٦- الترفيه والترويح:

يعتقد البعض أن الترفيه مجرّد عمليّة تسلية للأفراد أو ترويح عنهم، وأنه في النّهاية مضيعة للوقت، إلا أنّ هدف الاتّصال التّرفيهي قد يكون أعمق من ذلك بكثير، خصوصاً

إذا كان موجهاً من قبل المجتمع، في ضوء سياسة تربويّة مرسومة ومحددة المعالم، من أجل التأثير في الأفراد بصورة مبسطة، يتمّ من خلالها نقل رسائل لأفراد المجتمع مغلفة في شكلها الترفيهي، وهي في الحقيقة رسائل مقصودة. حيث تتمّ الاستفادة من رغبة النّاس في قضاء وقت طيب ومرح، لتتمّ تغذيتهم برسائل مرغوبة اجتماعياً. مع تحقيق إشباع رغبة السّرور لديهم، وإحساسهم بالفرح والترويح عن النّفس.

٧- التعبير العاطفي:

يقوم الأفراد بالتّواصل بصورة مستمرة للتعبير عن عواطفهم ومشاعرهم تجاه بعضهم البعض، حيث نلمس ذلك في عاطفة الأمومة والأبوة، والتّفاعل بين الأصدقاء، والتكافل والانزعاج إذا ما حدث لأحد مكروه، وحتى المشادات الكلاميّة هي الأخرى لون أخر من ألوان الاتّصال، وكلّ ذلك يعبر عن عواطف إنسانيّة في مواقف متباينة، ويتبدى ذلك واضحاً من خلال مظاهر وتعبيرات متباينة كتعبيرات الفرح والسّعادة والغضب أو الحزن.

ويتمثل دافع الإنسان هنا في مشاعر التعبير عن العاطفة بغرض التحرر من القلق العاطفي والاضطرابات النّفسيّة المترتبة على القلق أو الحزن، وهي تستوجب البوح بها لكي يشعر الإنسان بالاستقرار النّفسي.

تصنيف أغراض الاتّصال:

تحقّق عمليّة الاتّصال مجموعة من الأغراض، وعدداً لا بأس به من الاحتياجات، ولا يتمّ ذلك إلا إذا كان الاتّصال فعّالاً، ويوفر قدراً كبيراً من المتعة والرّضا عن النّفس. وسواء أكان ذلك الاتّصال فردياً أم جماعياً فإنّ نجاحه يشعر المرء بنوع من السّعادة والارتياح والترفه والترويح عن النّفس، حتى عدّ عدمه في بعض الشّرائع نوعاً من أنواع النّذور أو العقوبات، ومن هنا كانت مشروعيّة الهجر بما دون ثلاثة أيام بين المتشاحنين، وكانت عقوبة الثّلاثة الذين خلفوا في تبوك بالمقاطعة ومنع التّواصل معهم نحواً من خمسين يوماً عقوبة شديدة رادعة وكفيلة بمراجعة النّفس وإدراك عظم الذنب الّذي ارتكبوه، وبما أن الهدف من الاتّصال هو تحقيق الذات والرّغبات الشّخصيّة وبناء العلاقات مع الآخرين، فإنّ بإمكاننا

تقسيم المجالات الرّئيسة لأهداف النّاس في الاتّصال إلى أربعة مجالات رئيسة هي[1]:

أولاً- الأغراض المتعلقة بالاستجابة للحاجات:

يندرج تحت هذه الأغراض مجموعة من العناصر:

١- البقاء والمحافظة على الحياة:

حيث أثبتت التجارب أن عمليّة الاتّصال مهمّة جداً لصحة الإنسان، وأن غياب هذا العنصر قد يؤثر سلباً على صحة الإنسان.

٢- الحاجة إلى الأمان والشّعور بالاطمئنان:

فإنّ رغبة الإنسان بالشّعور في الأمن والاستقرار، يعدّ دافعاً قوياً لعمليّة الاتّصال مع الآخرين.

٣- الحاجة إلى الإقناع:

فالإقناع هو الهدف الأساس لعمليّة التّواصل مع الآخرين، وذلك من أجل تغيير مواقفهم وتحريضهم على قول شيء ما، للحصول على ما نريد. وقد يكون فيه نوع من السّلطة.

٤- الإعانة على اتخاذ القرار:

فمن المعلوم أن عمليّة الاتّصال مع الآخرين تساعد الفرد على اتخاذ القرار المناسب، وذلك من أجل تبنّي سلوك معيّن نفكّر في القيام به، مما يدعم عمليّة البحث عن المعلومات، الّتي تؤدّي اختيار القرارات المناسبة.

٥- الحاجة إلى التأكيد:

وذلك حين يكون التّواصل للتأكيد على القرارات الّتي نتخذها، من أجل الحصول على المعلومات والآراء الّتي تدعم القرار المتخذ.

ثانياً- الأغراض المتعلقة بالجوانب الاجتماعيّة:

يشتمل هذا الغرض أيضاً على مجموعة من العناصر:

---

(١) شعبان فرح، الاتّصالات الادارية

١- التعاون مع الآخرين:

إنّ عمليّة الاتّصال تساعد الإنسان على تكوين مجموعات اجتماعيّة متعددة، وتساعد في تلبية احتياجاته الاجتماعيّة والوظيفيّة.

٢- الحفاظ على المؤسسات القائمة والمجتمع:

يتمّ ذلك من أجل المحافظة على مؤسسات المجتمع المحلي، من مراكز صحيّة وتعليميّة، والاستفادة من التّواصل المتبادل بين الأفراد.

ثالثاً- الأغراض المتعلقة بالجوانب الاقتصاديّة:

وفي هذا الجانب هدفان محددان هما:

١- الحصول على المعلومات:

إذ يتمّ هنا تبادل المعلومات والأخبار مع الآخرين بصورة دائمة وآنيّة، من أجل تحقيق المنافع ودفع المضار.

٢- فهم العالم من حولنا:

ويتمّ هنا تحديد طبيعة الخريطة الماديّة والاجتماعيّة لما يدور من حولنا في هذا العالم.

رابعاً- الأغراض المتعلقة بجوانب التعبير عن النّفس:

وهنا يكمن الهدف الأساسي من عمليّة التّواصل وهو:

التعبير عن الأفكار والأماني، وتوضيح وجهات النّظر تجاه الآخرين بطريقة مبدعة، من خلال الكلمات أو الصُّوَر أو الأصوات.

المطلب الخامس
عناصر الاتّصال وخصائصه

عناصر الاتّصال:

إنّ عمليّة الاتّصال تتمّ من خلال رموز لغويّة أو غير لغويّة، وذلك باستخدام الإشارات أو الإيماءات الّتي تثير في نفس المستقبِل معانٍ معينة، ويُقصد بالمعاني أيّة استجابات داخليّة خاصة بالمستقبِل، لذلك فإنّ الهدف الّتي تسعى له عمليّة الاتّصال هو نقل المعلومات أو الأفكار والآراء من شخص إلى شخص آخر، بواسطة وسائل شفويّة أو غير شفويّة، من أجل تحقيق النّتائج المرجوة، ولابدّ من أجل ذلك من أن تسير عمليّة الاتّصال وفق خطوات محددة لا تتمّ إلا من خلالها.

إنّ الاتّصال عمليّة ديناميكيّة (أي أنه نشاط اجتماعي متحرك)، وهي عمليّة مستمرة بين النّاس، فالنّاس لا يفكرون فيما كانوا يتصلون بشأنه بعد انتهائه فحسب، بل يفكرون قبل القيام بعمليّة الاتّصال وأثناءها، وهذه العمليّة تتمّ في بيئة ومكان معين، وهي تتطور وتتغيّر بصورة لا يمكن أن تتوقع معها ما سيحدث.

وحتى نفهم كيف تتمّ عمليّة الاتّصال لابدّ لنا من التّعرّف على عناصرها، وتتمثل في الأركان السّبعة التالية للاتّصال[1]:

١. **المرسِل/ المصدر/ المرمز:**

هو العنصر الأوّل من عناصر عمليّة الاتّصال، وهو الطّرف الّذي يقوم بإرسال الرّسالة إلى أي طرف آخر، فهو إنسان لديه أفكار أو مشاعر يريد نقلها إلى شخص آخر. فهو الشّخص الّذي يصوغ أفكاراً في رموز تعبّر عن معنىً وتحوّل إلى رسالة توجّه إلى جمهور

(١) ر. نظريات الاتّصال في القرن الحادي والعشرين: د. عبد الرزاق الدّليمي ص ٢٨-٣٠، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع- عمان، الطّبعة العربية، ٢٠١٦م.

معيّن، بغرض الوصول إلى هدف محدد، ويترتب عليها التّفاعل في موقف الاتّصال. ويقصد به منشئ الرّسالة ومصدرها، وقد يكون المصدر فرداً أو مجموعة من الأفراد، وقد يكون مؤسّسة أو شركة، أو آلة تعليميّة. ليشمل كلّ من يشارك في الرّسالة بصورة أو بأخرى، وكثيراً ما يستخدم المصدر بمعنى القائم بالاتّصال.

٢. **الرّسالة** [illegible]:

هي مضمون السّلوك الاتّصالي، وهي فكرة ذهنيّة أو موضوع معين يدور في ذهن المرسل، ويود إبلاغه لشخص ما. وقد تكون فكرة أو معلومات ومعنى أو مشاعر وأحاسيس. فالإنسان يرسل ويستقبل كميّات ضخمة ومتنوّعة من الرّسائل، بعض الرّسائل يتّسم بالخصوصيّة مثل: (الحركات والإيماءة والإشارة والابتسامة والنّظر)، وبعض الرّسائل يتّسم بالعموميّة مثل: (النّدوات، المحاضرات، المؤتمرات، الصّحف، الدّوريات، الرّاديو، التلفزيون والسّينما). وهي أيضاً المنبّه الّذي ينقله المصدر إلى المستقبل. وتحتوي المعلومات والمفاهيم والمهارات والقيم الّتي يُريد المرسل إرسالها إلى المستقبلين، وهي الهدف من علميّة الاتّصال.

ويقوم المرسل بصياغتها، حيث يتمّ وضع الأفكار على شكل رموز ذات معنى، وذلك اعتماداً على كلٍّ من اللّغة اللّفظيّة (المنطوقة أو المسموعة أو المكتوبة)، واللّغة غير اللّفظيّة (كلغة الإشارة وتهجئة الأصابع وقراءة الشّفاه لدى الصّم، ولغة برايل الّتي يستخدمها المكفوفون، والإيماءات وتعبيرات الوجه، ولغة العيون، وحركات اليدين والرّجلين...). أو بمزيج من اللّغتين، وهذا ما يعرف بترميز Encode الرّسالة. ويتمّ تحديد ذلك وفقا لطبيعة محتوى الرّسالة وطبيعة المستقبلين.

وترميز الرّسالة صياغتها وفق رموز معينة، والرّمز (الكود) مجموعة من العناصر الّتي يتمّ تشكيلها بحيث تؤدي معنى لشخص ما. فاللّغة والرّسوم والحركات يتكون كلّ منها من مجموعة من الرّموز، حيث نجد أن اللّغة العربيّة مثلا تتكون مفرداتها من الأصوات والحروف والكلمات، ويتمّ تشكيلها بطرائق متعددة لتكوين عدد لا ينتهي من الرّسائل.

وتمر الرّسالة بمرحلتين:

المرحلة الأولى: هي مرحلة تصميم الرّسالة.

المرحلة الثّانية: هي مرحلة إرسال الرّسالة أي تنفيذها. وقد يتمّ التعديل في الرّسالة المصممة وفقاً للموقف الاتّصالي.

وهناك أمور يجب أن نأخذها في الاعتبار بالنّسبة للرّسالة:

أ. (كود) الرّسالة: المتمثل في الرّموز المكونة للرّسالة.

ب. مضمون الرّسالة: مادة الرّسالة الّتي يختارها المصدر للتعبير عن أهدافه.

ج. معالجة الرّسالة: القرارات الّتي يتخذها المصدر بالنّسبة للطريقة الّتي سيقدم بها الرّمز والمضمون.

٣. قناة الاتّصال/ أو الوسيلة الّتي يتمّ بها إرسال الرّسالة:

هي الأداة الّتي تنتقل فيها الرّسالة من المرسل إلى المستقبل، وهي تحمل الرّسالة من المرسل إلى المستقبل، ويتمّ اختيارها حسب الموقف والشّخص والزّمان والمكان. ومن أمثلتها في مواقف الاتّصال التّعليمي[١]: الكتب، المجلات، الصّحف، التلفزيون، الحديث الشّفهي، الحاسوب، الإنترنت.

وتتكون قناة الاتّصال من أكثر من أداة اتّصال: ففي الموقف الاتّصاليّ التّعليميّ عندما يشرح المعلّم الدّرس، يعدّ الجهاز الصّوتيّ للمعلّم هو الأداة الأوْلى، ثمّ الهواء الّذي يحمل الرّسالة الأداة الثّانية ثمّ الجهاز السّمعي للمستقبل هو الأداة الثّالثة.

وتعدّ الحواس الخمس هي القنوات النّاقلة للرّسالة في عمليّة الاتّصال، وتقوم الأجهزة بدورٍ مهمٍّ في عمليّة الاتّصال حيث تزيد من سعة الحواس، فعن طريقها يستطيع الإنسان الاتّصال من بعد كالرّؤية من بعد والسّماع من بعد.

ومن العسير فصل قناة الاتّصال عن لغة الاتّصال، فلا توجد لغة من دون قناة، فمن دون الجهاز الصّوتي لا يمكن للإنسان أن يُخرج لغة لفظيّة تُفهم، بل إنّ أي عطب في جزء من هذا الجهاز يشكل صعوبة في إلقاء الرّسالة.

---

(١) تجدر الإشارة إلى أنّ كليات التّربية في الجامعات تهتم بتنمية مهارات الاتّصال التّعليميّ لدى طلابها خلال عمليّة الإعداد المهنيّ، نظريّاً وعمليّاً في التّربية الميدانيّة، وذلك لزيادة جودة وفاعليّة المواقف الاتّصاليّة.

ولقد كان النّاس منذ أقدم العصور في سعي دائب إلى إيجاد وسائل لإيصال المعلومات وتبادلها فيما بينهم في السّلم والحرب. وقد قيل إنّ الرّومان استعملوا الحمام الزّاجل، والصّينيون وغيرهم الدّخان نهاراً والنّار ليلاً، كما استُعملت المرايا العاكسة لأشعة الشّمس لإرسال رسائل إشاريّة. إلى أن نما علم الاتّصال على مر الأزمان، ونجحت البشريّة في الحقبة الأخيرة من الزّمان في تطوير أساليب متعددة للاتّصال، شملت الهاتف والفاكس والتلفزيون والهواتف الذكيّة والحاسبات الآليّة (الكمبيوترات) المتّصلة بالشّابكة (الإنترنت) وغيرها من وسائل الاتّصال والآلات والأدوات التقنيّة المختلفة، الّتي تستخدم في عصرنا الحالي، مما أدى إلى طفرة هائلة في تناول المعلومات، وزيادة المعرفة الإنسانيّة، وسهولة نقلها من مكان لآخر وفي أقل وقت ممكن، فأصبح العصر الّذي نعيشه- عصر الأقمار الصّناعيّة- يسمى بعصر ثورة الاتّصالات، وبات العالم كله قرية صغيرة بسبب انتشار وسائل الاتّصال بصورة هائلة كماً ونوعاً.

فالمقصود بالوسيلة إذاً هو الطّريقة الّتي يتبعها المرسل من أجل إيصال الرّسالة إلى المستقبل، أو القناة الّتي تصل من خلالها الرّسالة إلى المتلقّي مثال: السّمع، البصر، الشّم، الذوق... إذ قد تكون كتابيّة أو شفهيّة أو رمزيّة.

ويتحكّم في اختيار وسيلة الاتّصال جملة عوامل هي:

أ. طبيعة الفكرة المطروحة.

ب. خصائص الجمهور المستهدف.

ت. تكاليف استخدام الوسيلة.

ث. أهميّة عامل الوقت بالنّسبة للموضوع الّذي يتناوله الاتّصال.

ج. مزايا كلّ وسيلة وما تحقّقه من تأثير على الجمهور المستهدف.

٤. المستقبل أو المتلقّي[illegible]:

هو الشّخص أو مجموعة الأشخاص الذين يتلقّون الرّسالة ومضمونها من معلومات أو أحاسيس من طرف آخر. (وربما يكون المستقبل هو المرسل نفسه كما في حالة الاتّصال الذاتيّ). وعندما يتلقّى المستقبل الرّسالة يقوم بتحليلها وتفسيرها وفك رموزها، ونتيجة

لذلك يصل إلى المعنى أو الفكرة، فيستطيع من خلال هذه العمليّة إعادة بناء المعاني للرّموز الّتي وضعت من قبل المرسل. ليبدأ بعد ذلك بتكوين استجابته للرّسالة.

والمتلقّي هو أهمّ حلقة في عمليّة الاتّصال، حيث إنّ القارئ هو الشّخص المهمّ عندما نكتب، والمستمع هو المهمّ عندما نتحدّث، وهو أساس تصميم الرّسالة، وكلّ عناصر عمليّه الاتّصال تعمل من أجل هذا المتلقّي أو المستقبِل.

٥. التّغذية الرّاجعة أورجع الصّدى [illegible]:

بعد تلقّي الرّسالة وفك رموزها يتشكل لدى متلقّيها الاستجابة والأثر Effect الّذي تتركه الرّسالة في نفسه، وهذا هو مقصود الاتّصال. وهو مجموعة من ردود الأفعّال الّتي يبديها المستقبل بعد استلام أو قراءة الرّسالة، كالقبول أو الرّفض، أو اقتراح زيادة أو شطب أو تعديل، أو المناقشة، أو طروء انفعّال كالسّرور أو الحزن أو الغضب، وغير ذلك..

وعلى هذا الأساس يتكون رجع الصّدى الّذي يسمى بالتّغذية الرّاجعة Feedback، أي رد فعل المستقبل على الرّسالة الّتي من خلالها نتأكد من أن الرّسالة وصلت أم لا. وهي جزء من استجابة المستلم إذ تتمّ إعادتها من خلال الاتّصال إلى المرسل، وفي هذه الحالة يصبح المستقبل مرسلاً، وتكتمل دائرة الاتّصال الأوْلى، وتفتح دائرة الاتّصال الثّانية وهكذا.

٦. التشويش [illegible]:

هو كلّ عائق يقف في طريق إرسال أو استقبال الرّسالة ويتخلل أي. ويتمثل في الأسباب الّتي تؤدّي إلى عدم وضوح الرّسالة وفهم معناها. وهي عمليّات إعاقة مخططة أو غير مخططة تحدث أثناء عمليّة الاتّصال مثل عدم وضوح الرّموز أو انقطاع الكهرباء أو كلمة يمكن أن تفسر بأكثر من معنى أو عمليّات إعاقة خارجية. وينقسم التشويش إلى ميكانيكي ودلاليّ.

٧. الحالة أو السّياق [illegible] (بيئة الاتّصال):

يقصد بها السّياق الّذي تتمّ فيه عمليّة الاتّصال، وهو البيئة الاجتماعية الّتي تمدنا بقواعد وأحكام للتفاعل معها. ونذكر هنا مما يتصل بذلك، ما يتحدد بمتى وأين:

- كالاتّصال في وقت متأخر باللّيل

- أو الزّيارة في وقت الرّاحة
- أو اتّصال هاتفي بمسافر
- أو تلقّي اتّصال هاتفي في قاعة الدّرس

وما يتحدد بالهيئة. كما فيما يأتي:

- إيماءات وملابس معينة (كالثّوب الخاص بالمناقشات العلمية)
- تلقّي الرّسالة في صورة بطاقات دعوة أو رسائل إلكترونية.
- التّواصل في حال الغضب.

والرّسم التالي يوضح عمليّة الاتّصال والعناصر الدّاخلة فيها بشكل مبسط:

مخطط لبيان عناصر عمليّة الاتّصال



تصنيف عناصر الاتّصال:

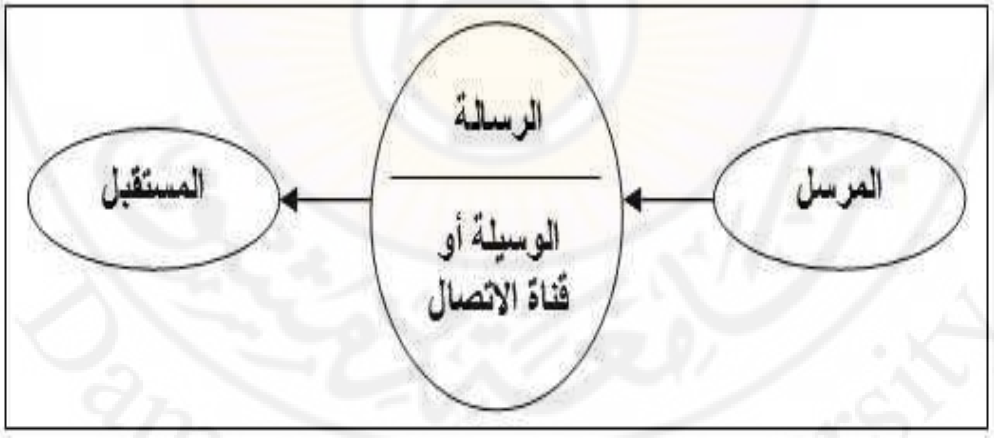
وهنا يمكننا التمييز بين أربعة أنواع لأجزاء عمليّة الاتّصال وهي:

- **الأطراف**: المرسل والمستقبل.
- **الأدوات**: الوسيلة والرّسالة.
- **الوظائف**: الترميز، فك الرّموز، الاستجابة، التّغذية العكسيّة.
- **العناصر المحيطة**: التشويش (المعوّق)، والسّياق (بيئة الاتّصال).

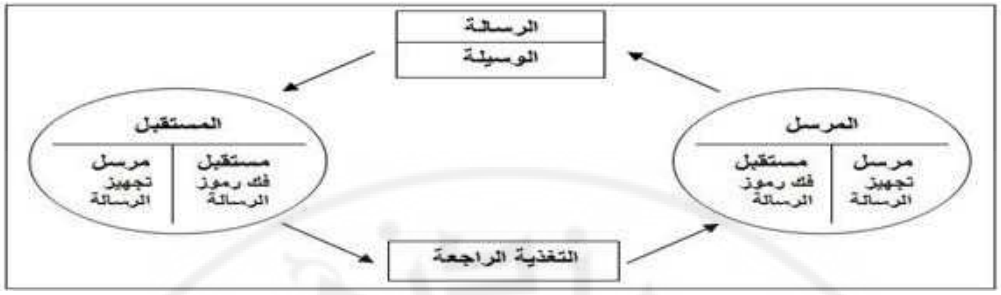
اختلاف عناصر الاتّصال بحسب تطور نماذجه:

إنّ النّظر إلى الاتّصال كعمليّة، يعني أنّ الاتّصال لا ينتهي بمجرّد أن تصلَ الرّسالةُ من المصدر (المرسل) إلى المتلقّي (المستقبل)، كما يعني أنّ هناك الكثير من العوامل الوسيطة بين الرّسالة والمتلقّي بما يحدّد تأثير الاتّصال؛ من جهة أخرى فإنّ كلاً من المرسل والمتلقّي، يتحدّث عن موضوع معيّن أو موضوعات معيّنة، فيما يعرف بالرّسالة أو الرّسائل، ولا يَعكِسُ هذا الحديثُ مدى معرفة كلّ منهما بالموضوع أو الرّسالة فحسب، بل ويتأثّر أيضاً بما لديه من قيم ومعتقدات، وكذلك بانتماءاته الاجتماعيّة والثّقافيّة، بما يثير لديه من ردود فعل معيّنة تجاه ما يتلقّاه من معلومات وآراء، ويحدّد مدى تأثّره بهذه المعلومات والآراء.

وقد تطوّرت النّماذج الّتي تشرح وتفسّر عمليّة الاتّصال بعناصرها المختلفة، حيث ظهر في البداية الأنموذج الخطي أو المباشر؛ وهو أنموذج الاتّصال التقليدي، الّذي يرى أنّ تلك العناصر هي: مجرّد المرسِل والرّسالة والمستقبِل، وربما أضيفت الوسيلة، وتتضح مكوناته أو عناصره من خلال هذا الشّكل:



ثمّ تعددت النّماذج والمخططات الّتي وضعها علماء الاتّصال، والّتي تُحدّد من خلالها عناصر عمليّة الاتّصال، وبيّنت الدّراسات الّتي أجريت منذ الأربعينيّات مدى قصور الأنموذج التقليدي، فسقطت النّظريّة القائلة بأنّ لوسائل الإعلام تأثيراً مباشراً على الجمهور؛ وتحولت تركيبة الأنموذج من الطّبيعة الثّنائية إلى الطّبيعة الدّائريّة. كما هو أنموذج الاتّصال الحديث، والّذي يتكون من العناصر الموضحة في الشّكل الآتي:



ومن الملاحظ أن أنموذج الاتّصال الحديث يمتاز بوجود عنصر التّغذية الرّاجعة.

والمرسِل والرّسالة والوسيلة والمتلقّي، هي العناصر الأربعة الرّئيسة في عمليّة الاتّصال في كلا الأنموذجين التقليدي والحديث، (مع ملاحظة اختلاف طبيعة الأدوار في كلا الأنموذجين، أي أن دور المرسل مثلاً في الأنموذج التقليدي يختلف عن دور نظيره في الأنموذج الحديث)، فإذا توقفت عمليّة الاتّصال عند هذا الحدّ- أي اقتصرت على استقبال المستقبل للرّسالة دون رد فعل منه- فإنها تمثل الأنموذج التقليدي للاتّصال، والّذي يقتصر على قيام المرسل بالشّرح والإلقاء والتلقّين والتكرار. وقيام المتلقّي بالاستماع والإنصات والمتابعة والحفظ والاستظهار، من دون أيّة مناقشات أو حوارات بينه وبين المرسل. وبذلك تسير عمليّة الاتّصال في اتجاه خطي، وتنتهي عند استقبال المتلقّي للرّسالة، ولا يهتمّ المرسل بحدوث أثر أو تعديل في سلوك المتلقّي من خلال تلك العمليّة. وأما الأنموذج الحديث فهو على العكس من ذلك كما هو واضح في سياق الشّرح السّابق.

خصائص الاتّصال:

الاتّصال عمليّة متشابكة العناصر- كما عرفنا-، حيث إنّها تمتلئ بالرّموز اللّفظية وغير اللّفظية الّتي يتبادلها المرسل والمستقبل، في ظل الخبرات الشّخصية والتصورات الثّقافية لكلّ متّصل. ولذلك فلابدّ من معرفة الخصائص العامة الّتي تعبّرُ عن هذه العمليّة الاتّصالية. حيث يتميّز الاتّصال بما يأتي[1]:

١. الاتّصال عمليّة هادفة:

يرمي الاتّصال إلى تحقيق هدف محدد: وهو إرسال المعلومات والبيانات (أو نقل فكرة

(١) محمد هلال، مهارات الاتّصال : فن الاستماع والحديث

أو الترفية أو التّعليم) وفهمها من الطّرف الآخر وبذلك يتطلب مجموعة من الإجراءات والخطوات المرتبطة بعضها ببعض مثل تصميم الرّسالة، وإرسالها، والإشراف على وصولها، واستقبال الرّد.

٢. الاتّصال عمليّة ديناميكية:

تتضمن عمليّة الاتّصال تفاعلاً بين المرسل والمستقبل، الأوّل يؤثر والأخر يتأثر ولا تتوقف عمليّة الاتّصال عند هذا الحد بل قد يتبادل الطّرفان الأدوار بينهما وبذلك فإنّ عمليّة الاتّصال متغيّرة من حيث الزّمان والمكان، أي أن عمليّة الاتّصال عمليّة ديناميكية وليست استاتيكية ومثال ذلك ما يحدث في الفَصْل الدّراسي بين المعلم وتلاميذه.

٣. الاتّصال عمليّة منظمة:

تتصف عمليّة الاتّصال بأنها منظمة فهي عمليّة مقصودة يتمّ تخطيطها وتصميمها وتنفيذها وإدارتها بصورة منظمة لإحداث التّعلّم، ومن جانب آخر يقوم كلّ عنصر من عناصر عمليّة الاتّصال بأدوار محددة، فالمرسل مثلاً يقوم بعمليّة ترميز الرّسالة، والمستقبل عليه فك رموز الرّسالة أي ترجمتها وتفسيرها.

٤. الاتّصال عمليّة دائرية:

عمليّة الاتّصال ليست عمليّة خطية تسير في اتجاه واحد من المرسل إلى المستقبل وتتوقف عند ذلك الحد ولكنّها عمليّة دائرية تبدأ بالمرسل لنقل رسالة إلى المستقبل حيث يكون له رد فعل عن طريق التّغذية الرّاجعة فيستقبل المرسل الرّسالة ليبدأ نشاطاً جديداً لتحقيق هدف أخر أو ي في رسالته الأوْلى إذا لم يتحقّق الهدف منها وهكذا تستمر عمليّة الاتّصال.

٥. الاتّصال عمليّة متنوعة:

يمتاز الاتّصال الإنساني بأنه عمليّة اجتماعية لا تتوقف عند استخدام اللّغة اللّفظية: الشّفهية أو التحريرية فقط بل يتمّ أيضاً استخدام اللّغة غير اللّفظية، كالإشارات والحركات والإيماءات.

المطلب السَّادس
أنواع الاتّصال ووسائله

يمكن إيجاد طرائق كثيرة لتقسيم الاتّصالات إلى أنواع، وذلك تبعا للمعيار الّذي يتمّ التقسيم على أساسه. وفيما يلي عدد من هذه التقسيمات:

أوّلاً: أنواع الاتّصال بحسب المخاطب أو المتلقّي:

تتنوع عمليّة الاتّصال إلى جملة أنواع اعتمادا على الجهة المتلقّية أو عدد الأشخاص المشتركين في تلقّي الاتّصال، ونذكر منها ما يلي:

١- الاتّصال الذاتي Intrapersonal Communication:

وهو الاتّصال الّذي يتمّ بين الفرد وذاته، أي عن طريق الاتّصال الدّاخلي مع الذات، ويتركز داخل الإنسان نفسه، فهو المرسِل والمستقبِل في آن واحد، وتتكون الرّسالة من الأفكار والمشاعر والآراء، ويشمل الاتّصال هنا العمليّات العقلية الإدراكية الدّاخلية، كالتفكير والتخيل والتصوير، ويتصور أنها تتمّ داخل الدّماغ الّذي يترجم الأفكار، ويفسرها ويحللها، ويقوم أيضا برفض هذه الأفكار أو قبولها.

ولابدّ لكلّ فرد من المرور بهذه العمليّة، وذلك عندما يكون بصدد الإعلان عن رأي، أو اتخاذ قرار ما.

٢- الاتّصال المزدوج (الشّخصي) Binary connection:

وهو الاتّصال الّذي يتمّ بين شخصين، وهو من أكثر أنواع الاتّصال شيوعاً، ويأخذ في الغالب الصّفة غير الرّسمية، فيتمّ بين اثنين- وربما بضعة أشخاص- مع بعضهم، يقومون بتبادل المعلومات وحل المشكلات، وهو نوعان:

أ- مباشر: ويتمّ وجهاً لوجه حيث يكون المرسِل والمستقبل في نفس المكان، ويحصل

المرسِل على ردّ فعلٍ مباشرٍ من المستقبِل، ويمكن أن يصبح مستقبلاً ويعود مرّة أخرى فيصبح مرسِلاً.

ب- غير مباشر: ويتمّ عن طريق واسطة ما، كالهاتف أو المراسلة أو التخاطب بالحاسوب، ولا تكون هناك في هذا النّوع مواجهة بين المرسِل والمستقبل، وقد تتأخر فيه التّغذية الرّاجعة.

ويتميّز هذا النّوع من الاتّصال بما يأتي[1]:

- ✓ تبادل الرّأي بين أطراف الاتّصال مباشرة.
- ✓ توفير فرص الصّداقة والتعاون، وإزالة وتخفيض فرص التوتر.
- ✓ تقييم المفاهيم والآراء بين طرفي الاتّصال أثناء اللّقاء.
- ✓ توفير الوقت والجهد.
- ✓ يحمل تغذية عكسيّة مباشرة.

٣- الاتّصال الجمعي أو الجماعي Group Communication:

وفيه تنتقل الرّسالة من شخص واحد إلى عدد من الأشخاص يستمعون، ويتميّز هذا النّوع من الاتّصال بالصّبغة الرّسمية، والالتزام بالقواعد العامة للغة، ووضوح الصّوت، وغالباً ما تكون هناك مقاطعة من قبل المستمعين، ولكن يمكنهم التعبير عن مواقفهم من خلال التصفيق أو هز الرّأس.

وهو اتّصال يتمّ بين شخص وعدد من الأشخاص الموجودين في المكان نفسه، كما يحدث في الفَصْل الدّراسي بين المعلم وتلاميذه، وفي المسجد بين الخطيب والمصلين، وتكون المجموعة المستهدفة معروفة من قبل المرسِل، وهو معروف لدى المستقبلين.

٤- الاتّصال الجماهيري Mass Communication:

وهو اتّصال يتمّ ما بين شخص وجملة مئات أو ألاف أو ملايين من البشر، لا يوجدون في المكان نفسه، ويكون المرسِل معروفاً لدى المستقبِلين، بينما لا يعرف المرسِل

(١) حميد الطّائي وبشير العلاق، اساسيات الاتّصال : نموذج ومهارات.

المستقبلين، ومن خلال هذه الوسائل يستطيع إيصال الرّسالة إلى عدد غير محدود من النّاس، من خلال وسائل الإعلام، كالتلفاز والمذياع والصّحف اليومية والمجلات، والأفلام والأشرطة المسموعة، والإنترنت والوسائل الإلكترونية المتنوعة.

ويكون الاتّصال في اتجاه واحد من المرسل إلى المستقبلين فقط، ولا يحدث العكس إلا بصورة جزئية نادرة، فلا يكون رد الفعل معروفاً بالنّسبة للمرسل.

وربما مال بعض المختصين إلى تجزئة هذا النّوع إلى جملة فروع، فيذكرون: الاتّصال العام (Public Communication)، والاتّصال المتوسط (Mediocre Communication).

٥- الاتّصال الثّقافي Cultural Communication:

قد يلحق بهذه الصّورة من صور التقسيم نوع الاتّصال الثّقافي، وهو يحدث نتيجة اتّصال شخص أو أكثر من ثقافة معينة بشخص أو أكثر من ثقافة أخرى، ولابدّ حينئذٍ من أن يعي المتّصل اختلاف العادات الثّقافيّة، وإلا فإنه ينتج عن ذلك سوء في الفهم.

٦- الاتّصال السّماوي Celestial connection:

ويمكن أن يسمى بالاتّصال الرّوحي، وله جملة صور هي:

- **الاتّصال الرّوحي الإلهاميّ:**

ويتمثل في اتّصال الخالق بالمخلوق، حيث اتّصال الأنبياء بالله ﷻ، وسنّة الله وقانونه العام أن يكون من خلال واسطة الوحي، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلا وَحْياً أو مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أو يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشّورى ٥١]. ومنه ما هو موجه إلى عموم البشرية، يقول اللّه ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة ٦٧]، وقال تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف ٦٢].

- **الاتّصال الرّوحي العضويّ:**

ويرتبط هذا الاتّصال بالحواس وهو أكثر أنواع الاتّصال فعّالية ويتمثل في ضم جبريل

للرسول الكريم ثلاثاً في أوّل مرة لنزول الوحي في غار حراء وقال له: أقرأ.. وفي مثله قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج٤٦].

- **الاتّصال الرّوحي بالعبادة:**

كما يكون الاتّصال الرّوحي باتّصال المؤمنين برب العرش العظيم، حيث اتّصال المخلوق بخالقه، من خلال أعمال من أنواع العبادات يتوسل العبد بها إليه، كالصّلاة والدّعاء، والذكر والتفكر والتأمل.

وهذا الاتّصال موجود منذ خلق الله آدم وأنزله ليعمر الأرض، وأنزل معه الهدى الّذي أبلغه آدم إلى أولاده وهم بالتّالي قاموا بإبلاغه إلى من جاء بعدهم. ويتمثل أيضاً هذا الاتّصال بين العبد وربه – الّذي يمثل أرقى أنواع الاتّصال – فيما وصف به موسى بأنه «كليم اللّه». وقال تعالى في اتّصال المؤمنين بربهم عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة ١٨٦] وقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف ٥٥] وقال الرّسولﷺ: «إنّ أقرب ما يكون العبد إلى ربّه وهو ساجد»، وهذا يعدُّ أرقى وأعمق درجات الاتّصال الإنساني باللّهﷻ عندما يخضع ويتضرع الإنسان إلى ربّه.

ثانياً: أنواع الاتّصال بحسب طبيعة العلاقة بين المشاركين:

١- الاتّصال الرّسمي:

وهو كلّ اتّصال يغلب عليه الطّابع الرّسمي، ويكون بطريقة القنوات واللّوائح الرّسميّة، وله أقسام نذكرها:

أ. اتّصال من الأعلى للأسفل: وهو الاتّصال الّذي تصدر به المقترحات والأفكار من المنصب الأعلى إلى منصب أقل، مثال: من المدير للموظف، والهدف منه تنفيذ الأهداف والخطط والبرامج، وهو الأكثر شيوعاً.

ب. الاتّصال من الأسفل للأعلى: ويكون هذا الاتّصال من خلال الرّد على الطّلب الرّسمي

من الجهة الرّسمية السّفلى إلى الجهة العليا، مثلاً رد الموظف على طلب المدير.

ج. الاتّصال الأفقي: ويطلق عليه الاتّصال المستعرض، وهو الاتّصال بين الأفراد في مستوى واحد، مثل تعامل الموظفين مع بعضهم البعض أو المدراء مع بعضهم البعض.

٢- الاتّصال غير الرّسمي:

وهو اتّصال مبني على العلاقات الاجتماعيّة والشّخصية بين الأفراد والمجموعات، مثال على ذلك ما يتمّ بين الموظفين أو الأشخاص من مناقشات حول مشاكلهم أو مواضيع معينة.

ويدخل فيه اليوم بصورة مؤكدة: الاتّصال الاجتماعي من خلال تطبيقات الإنترنت المعروفة بوسائل التّواصل الاجتماعي، مثل فيس بوك وانستغرام وتويتر وغيرها.

ثالثاً: أنواع الاتّصال بحسب الأسلوب المتبع:

وقد تصنّف أساليب التّواصل إلى أربعة[١]، وهي باختصار:

١- التّواصل الانعكاسي (السّلبي) Passive Communication:

يكون هذا النّوع من التّواصل عند الأشخاص المهزوزين والفاقدين للثقة بأنفسهم، حيث يميل هذا النّوع من الأشخاص إلى التردد، ويوافق عموماً على كلّ ما يقوله الآخرون، ويبدو دائماً بحالة من العجز والاستسلام.

٢- التّواصل العدواني Aggressive Communication:

وهو على عكس الأوّل، يظهر ميلاً إلى فرض آرائه على الآخرين، وعادة ما يعتمد أسلوب الصّراخ والكلام العالي، لإثبات وجهة نظره، ويحاول دائماً إحراج الآخرين، ولا مشكلة لديه في الاعتداء على حقوقهم.

٣- التّواصل الانعكاسي العدواني Passive-Aggressive Communication:

وهو أسوأ هذه الأنواع على الإطلاق، إذ يظهر هذا الشّخص أمام الجميع بمظهر

(١) https: //bayhaspm. com/assertive-communication/

الانعكاسي، لكنّه في الحقيقة يضمر النّمط العدواني، فيحاول إيذاء من حوله بطرائق مخفية، ويحاول أن يسيطر معتمداً على التملق لأصحاب القرار والوشايات.

٤- التّواصل الواثق، أو الحازم Assertive Communication

يتميّز هذا الشّخص بإدراكه الدّقيق لنقاط ضعفه ونقاط قوته، يعبر عن رأيه بثقة ويسمح للآخرين بالتعبير عن آرائهم، يميل إلى البحث عن الحلول الوسط، لا ينسحب بسهولة ولا يسمح للآخرين بمصادرة رأيه. وهذا الشّخص هو بالفعل أهمّ ما تبحث عنه وتحتاجه المؤسسات الّتي تسعى إلى النّجاح. وهو لا يخشى أن يقول لمديره: «أعتقد أن هناك طريقة أفضل في العمل» و«لنجرب أسلوباً آخر». وحتى لو اضطر إلى القيام بالعمل حسب التّعليمات المعطاة له فإنه سوف يسجل رأيه قبل أن يقوم بذلك، وربما تقدم بالاستقالة بعدها.

وعلى سبيل المثال يمكن لفت النّظر إلى أن المؤسسات النّاجحة اليوم لا تبحث عن نسخ مكررة عما يقوله المدراء في الإدارات العليا، بل هي- على العكس- تبحث عمن ينتقد بهدف التصحيح والتطوير المستمر، والّذي هو أحد أعمدة الجودة المستدامة.

رابعاً: أنواع الاتّصال بحسب الرّموز المستخدمة:

ونجد هنا جملة صور هي:

١- الاتّصال الكتابي: كما في كتابة رسالة أو خطاب.

٢- الاتّصال المرئي: والّذي يكون وجهاً لوجه، أو من خلال التلفاز.

٣- الاتّصال الشّفهي: ويكون الكلام (تحدثاً وإنصاتاً) هو الأمر البارز في هذا النّوع من الاتّصال.

٤- الاتّصال الحركي: مثل استخدام لغة الإشارة للصم والبكم.

٥- الاتّصال الإلكتروني: من خلال الإنترنت ووسائل التكنولوجيا الحديثة.

وهذا التقسيم هو ما نستعرضه مفصلاً فيما يأتي، تحت عنوان: (**لغات الاتّصال**).

خامساً: وسائل التّواصل الاجتماعي:

- **تعريف وسائل التّواصل الاجتماعي (Social Media):**

هي التطبيقات والمواقع الإلكترونية التي تُستخدم للتّواصل مع الآخرين، ونشر المعلومات من خلال شبكة الإنترنت العالمية، وهذا من خلال أجهزة الكمبيوتر أو الهواتف المحمولة، كما تُشير وسائل التّواصل الاجتماعي أيضاً إلى أيّة أداة اتّصال من خلال الإنترنت تسمح للمُستخدِمين بمُشاركة المُحتوى ونشره من خلال نطاق واسع.

ويتم إنشاء محتوى وسائل التّواصل الاجتماعي من قِبل عددٍ كبير من المُستخدِمين يصل إلى بضعة ملايين، وذلك على عكس المُحتوى الذي يتوافر من خلال وسائل التّواصل التقليدية والذي يتمّ إنشاؤه من قِبل بضعة أشخاص فقط.

- **أنواع وسائل التّواصل الاجتماعي:**

تُصنّف وسائل التّواصل الاجتماعي إلى جملة أنواع، وهي كالآتي:

١. **شبكات الوسائل الاجتماعية (Social Networks):**

هي النوع الأشهر من وسائل التّواصل الاجتماعي المُختلفة، وهي المواقع التي يتمّ استخدامها للتّواصل مع الآخرين وتكوين علاقات معهم، كما تُتيح نشر المعلومات، والصُّوَر، ومقاطع الفيديو خلالها بين المستخدمين، ومن الأمثلة على هذا النوع من وسائل التّواصل: موقع فيسبوك، و تويتر، و لينكدإن.

٢. **شبكات مشاركة الوسائط (Media Sharing Networks):**

وهي المنصات الاجتماعية الافتراضية التي تُعنى إلى حدّ كبير بإنشاء الصُّوَر ومقاطع الفيديو، ثمّ مُشاركتها مع المستخدمين الآخرين، ومن أشهر الأمثلة على هذا النوع من وسائل التّواصل الاجتماعي؛ موقع الإنستقرام وموقع اليوتيوب.

٣. **شبكات التدوين الاجتماعي {المُدوَّنات} (Social Blogging Networks):**

وهي الشبكات التي تسمح للمُستخدِم بنشر محتوى معين خاص به من خلالها، بحيث يلقى ذلك المُحتوى تفاعلاً من قِبل المُستخدِمين الآخرين الذين يُشاهدونه.

٤. **شبكات المُناقشة (Discussion Networks):**

وهي وسائل التّواصل الاجتماعي التي تُعنى بمناقشة الأخبار، والمعلومات، والآراء، والتعليق عليها، ويُعدُّ هذا النّوعُ مُناسباً لإعداد أبحاث تسويقية أيضاً؛ حيث يُمكن طرح الأسئلة ليتمّ الإجابة عنها من خلال تعليقات يضعها المُستخدمون الآخرون، ومن أشهر الأمثلة على هذا النوع من الوسائل؛ موقع (Reddit)، وموقع (Quora).

٥. **شبكات المُراجعة (Review Networks):**

وهي المواقع التي تعرض معلومات مُتعلقة بخدمة أو منتج مُعين لمعرفة آراء المُستخدِمين الآخرين بذلك المُنتج أو تلك الخدمة، وتُعتبر هذه المنصات ذات فائدة كبيرة لكلٍّ من المُستهلك والبائع؛ حيث يُمكن للمُستهلِك مُعرفة التعليقات الإيجابية والسلبية لأيّة خدمة أو منتج، حيث لا تُتيح تلك المواقع إمكانية حذف أيّ تعليق سلبي يوضع من قِبل أيّ مُستخدِم، كما أنّها ذات فائدة بالنسبة للشركات حيث إنّها تُؤمّن لهم تغذيةً راجعةً عن رأي الجمهور في النشاط التجاري الخاص بتلك الشركة، الأمر الذي يُمكن استغلاله لتحسين المنتج وتقديم أفضل خدمة.

- **خصائص وسائل التّواصل الاجتماعي:**

تتميّز وسائل التّواصل الاجتماعي بالكثير من الخصائص أهمّها ما يأتي:

١- الاعتماد على المُستخدِم (User-based):

تعتمد مواقع الإنترنت العادية على نشر مُحتوى مُعين خلالها من قِبل مستخدم واحد والسماح لزوّار الموقع بالوصول إليه وقراءته، أي أنّ عملية وضع المُحتوى تتمّ من اتجاه واحد فقط، أمّا وسائل التّواصل الاجتماعي المُختلفة فتعتمد اعتماداً كلياً تقريباً على المستخدمين، ومن دونهم ستكون فارغةً تماماً، حيث تسمح للمُستخدِمين أنفسهم بإنشاء مُحتواهم الخاص، ممّا يجعلها مواقع أكثر ديناميكيةً وإثارةً بالنسبة لمُستخدِميها.

٢- التفاعلية (Interactive):

تمتاز وسائل التّواصل الاجتماعي بأنّها تسمح للمستخدمين بالتفاعل بصورة كبيرة؛

حيث يُمكن للمُستخدِم التفاعُل مع المُستخدِمين الآخرين بواسطة الكثير من الطرائق سواء من خلال مُحادثتهم، أو بلعب الألعاب معهم، أو غيرها من طرائق التفاعل الأخرى الّتي توفّرها تلك المنصات.

٣- الاعتماد على قواسم مجتمعية (Community-driven):

يعتمد بناء وسائل التّواصل الاجتماعي على وجود مجموعات من المُستخدِمين تجمعهم قواسم مُشتركة، مثل: المعتقدات، أو الهوايات، أو الاهتمامات، وتتشابه وسائل التّواصل الاجتماعي بذلك مع طريقة بناء المُجتمعات الحقيقية التي تقوم على أساس جمع الأفراد الذين يشتركون بشيءٍ مُعيّن معاً.

٤- العالمية (Global):

تمتاز وسائل التّواصل الاجتماعي بقدرتها على ربط الأفراد من جميع أنحاء العالم ببعضهم البعض.

٥- قابلية البحث خلالها (Searchability):

تتمتّع وسائل التّواصل الاجتماعي بالسماح للمُستخدِمين بالبحث خلالها عن المُحتوى الذين يرغبون فيه، ويتمّ ذلك من خلال أدوات البحث المُضمّنة في تلك الوسائل.

٦- إنشاء هوية افتراضية:

يُسمح من خلال وسائل التّواصل الاجتماعي بإنشاء حسابات أو ملفات تعريفية افتراضية لمُستخدِميها.

- **استخدام وسائل التّواصل الاجتماعي**

تضم وسائل التّواصل الاجتماعي الكثير من أنواع مواقع الويب والتطبيقات، وتختلف وظائف وأهمية تلك المواقع والتطبيقات باختلاف نوعها، إلا أنّها عموماً تتطلب اتّصال المستخدم بالإنترنت ليتمكن من استخدامها، وعليه يستطيعُ أيّ شخصٍ مُتّصل بالإنترنت إنشاءَ حساب للتسجيل على إحدى تلك الشبكات الاجتماعية الافتراضية؛ وذلك بتعبئة بعض البيانات اللازمة، مثل: اسم المستخدم، وعنوان بريده الإلكتروني.

يستطيع المستخدم من خلال حسابه أو ملفه التعريفي إنشاء مُحتوى يُمكنه نشره من خلال وسائل التّواصل الاجتماعي إلى باقي المستخدمين، كما يستطيع العثور على أشخاص جدد من مختلف الأماكن بهدف التفاعل معهم، حيث يتمّ ذلك بمُتابعة حساباتهم أو التعليق على أيٍّ من أنشطتهم المُختلفة التي يقومون بنشرها على تلك المنصّات الاجتماعية.

تتضمّن وسائل التّواصل الاجتماعي- غالباً- ما يُعرف بالخُلاصة أو الموجز (Feeds) الذي تُنشئه شركات وسائل التّواصل الاجتماعي باستخدام خوارزميات رياضية مُعيّنة تُقدّم للمُستخدِم مُحتوى معيّناً يظهر له وفقاً لبيانات ملف التعريف الشخصيّ الخاص به، ويتضمّن ذلك: المُحتوى الذين ينشره المُستخدِمون الآخرون الذين يتابعهم المُستخدِم نفسه، بالإضافة إلى الإعلانات المدفوعة التي تظهر لمستخدمين معينين يستهدفهم المُعلن على تلك المنصّات[1].

(١) انظر: /mawdoo3.com/ما_هي_وسائل_التواصل_الاجتماعي

المطلب السّابع
لغات الاتّصال وصوره

نستعرض هنا تقسيماً آخر للاتّصالات يأخذ تمييزه بين أنواعه من جهة اللّغة أو الرّموز المستخدمة، وهو ما يمكن أن يدرس تحت عنوان: «صور الاتّصال».

إذ إنّ هناك وسائل متعددة تتمّ بها عمليّة الاتّصال مع الآخرين، ولبعضها أثر كبير في عمليّة الاتّصال من حيث فهم الرّسالة ووضوح الأفكار والآراء الّتي تهدف إليها الرّسالة، فإنّ تنفيذ عمليّة اتّصال في أي مجال من المجالات يتطلب استخدام لغة اتّصال بين المرسل والمستقبل، سواء أكانت اللّغة المستخدمة هي اللّغة الأم أو سواها، فإنها تنقسم إلى نوعين هما: (اللّغة اللّفظية)، و: (اللّغة غير اللّفظية).

وعندما يحاول الإنسان التّواصل مع الآخرين في موقف اتّصال، فإنه يستخدم اللّغتين معاً ولا يمكن فصلهما، فحين يذكر عبارة للتعبير عن فكرته أو رأيه في موضوع معين (بلغة لفظية)، فإننا نجده يحرك يديه يميناً ويساراً، أو ترتسم تعبيرات على وجهه، أو يستخدم إشارات معينة (بلغة غير لفظية). ويتضح ذلك جلياً في مواقف الاتّصال المتنوعة[1]:

اللّغة اللّفظية: [illegible]

وهي مجموعة من الرّموز المنطوقة أو المكتوبة الّتي يتمّ استخدامها في جمل وعبارات تعبر عن المعنى. وتعدّ اللّغة اللّفظية هي وسيلة الاتّصال الشّفهية والتحريرية الّتي يستخدمها الإنسان للتعبير عما يجول في خاطره من خلال ما يستخدمه من كلمات وأصوات وقواعد نحويّة حيث تربط هذه المكونات في محتوى مفيد يُعبِّرُ عما يريد الفرد إيصاله للآخرين سواء كان بالصّيغة الشّفهية أم بالصّيغة التحريرية.

---

(١) نظريات الاتّصال في القرن الحادي والعشرين: د. عبد الرزاق الدّليمي ص ٢٦-٢٧، وانظر: حميد الطّائي وبشير العلاق، أساسيات الاتّصال: نماذج ومهارات.

فيتمّ هذا الاتّصال بالكلام المنطوق سواءً أكان ذلك بالمحادثات أم الاجتماعات أم غيرها، وقد يكون بالكلام المكتوب مثل التقارير والمنشورات والكتب وغيرها من الطرائق الكتابية.

وتتلخص عيوبه عموماً بالبطئ في توصيل المعلومات، كما يمكن أن يتمّ فهم الكلام المكتوب أو غير المكتوب بصورة خاطئة خصوصاً عند استخدام بعض الألفاظ الّتي تحمل أكثر من معنى. ولذلك وجب استخدام اللّغة أو الألفاظ الّتي تحمل ذات المعاني لطرفي الاتّصال، واستخدام الكلمات البسيطة الواضحة المعنى المألوفة الجرس، والجمل القصيرة بقدر الإمكان من أجل تحقيق الفهم المشترك.

١- الاتّصالات اللّفظية الشّفهية:

هي: "رموز لغويّة منطوقة تنقل أفكار المتحدث ومشاعره واتجاهاته إلى المستمع". أي أنها الاتّصالات الّتي تستخدم الألفاظ المنطوقة المشتملة على كلمات أو جمل أو عبارات دالة على معنى مفيد، يتكون من الفكرة أو الموضوع الّذي يريد الشّخص نقله إلى المستقبل، ومن الوسائل الّتي تمثل هذا النّوع:

- المقابلات الشّخصية.
- المناقشات والنّدوات والمحاضرات والاجتماعات.
- الاتّصالات الهاتفية.

ولهذا النّوع من الاتّصالات ميزات أهمّها:

١- أنه أسرع.

٢- أوقع في النّفس.

٣- يسهل فيه إدخال عامل المشاعر والحماس [وهذا يعود على ما سبقه].

٤- أسهل في الاستيعاب.

وفي مقابل ذلك له من العيوب ما يأتي:

١- احتمال كون الرّسالة غير منظمة.

٢- كثرة عوامل التشتت الخارجية [يعود على ما سبقه]

٣- أنه أقل فاعلية في البقاء لأمد طويل.

٤- سهولة النّسيان.

٢- الاتّصالات اللّفظية الكتابية (التحريرية):

هي الاتّصالات الّتي تستخدم كتابة الأفكار والمعلومات إما باستخدام الكلمات أو الرّموز وتوزيعها على الأشخاص، ويعدّ هذا النّوع من الاتّصالات سلاحاً ذا حدين فقد يكون إيجابيا إذا اتسم بالدّقة التعبيرية والوضوح وعندها يمكن اعتماده كوثيقة رسمية قانونية وقد يكون سلبيّاً إذا لم يكن بالدّقة المطلوبة وبالتّالي يكون عبءاً على الشّخص المعنيّ، وذلك في عمليّة حفظه، ومن الأمثلة على هذا النّوع: التقارير، والأوامر، والتّعليمات، وكتيبات المؤسسة ذات العلاقة.

ويمتاز الاتّصال اللّفظي بميزات كثيرة، أهمّها[1]:

١- أنّه أكثر فاعليّة لما فيه من سهولة التدوين والتوثيق. إذ يتميّز بحماية البيانات والمعلومات من أي تحريف أو تغيير.

٢- أنّه أكثر قابلية لانتقاء واستخدام مفردات أفضل.

٣- التميّز بالمرجعية لإمكانية الاحتفاظ به والعودة إليه بالرّجوع إلى الوثائق عند الحاجة في المستقبل.

٤- إمكانية بث الرّسالة وإيصالها إلى أكبر عدد ممكن من الأفراد، من دون أيّ تشويش على محتواها العام.

٥- إمكانية تقديم الكثير من التفاصيل والشّواهد والأدلة في مثل هذا النّوع من الاتّصالات.

٦- إمكانية استخدام الصُّوَر والرّسومات والجداول وغيرها.

وفي مقابل ذلك له من العيوب ما يأتي:

١- قد تحتاج إلى توضيح.

٢- قلة الرّغبة لدى المستقبِلين في القراءة الطّويلة.

---

(١) ر. شعبان فرح، الاتّصالات الادارية. وغيره.

٣- تحتاج إلى وقت أطول في إعدادها.

٣- الاتّصالات اللّفظية الإلكترونية:

وهي القرارات الّتي تصل إلى الأشخاص عن طريق التقنيات الحديثة مثل الشّبكة العنكبوتية (الانترنت)، ومثل هذا النّوع من الاتّصالات يعزز نمو وفاعلية الاتّصال بين الأشخاص إلا أنّه من الممكن أن يفهم بصورة غير صحيحة في حال إذا لم يكتب على طريقة الاتّصالات الكتابية.

ويستخدم هذا النّوع من الاتّصالات بأسلوبين هما: الاتّصال الكتابي (الرّسائل الالكترونية) والاتّصال الشّفوي (المؤتمرات والفيديو).

اللّغة غير اللّفظية (لغة الجسد) [illegible]:

هي الاتّصالات الّتي لا تستخدم الكلمات للدلالة على معانيها، وإنما لغة غير لفظية، مثل لغة الإشارات، وتعتمد الاتّصالات غير اللّفظية على تعابير الوجه والجسد، لنقل الإيماءات الفعّالة.

ولقد استخدَم الإنسان اللّغة غير اللّفظية على امتداد التاريخ[1] مع استخدامه للغة اللّفظية لكي يتمكن من نقل بعض المعلومات وتبادل الخبرات وتشمل اللّغة غير اللّفظية الإشارة والحركات والأفعّال ولغة الأشياء ويتضح ذلك في المثالين التاليين:

الشّخص الّذي يرفع يده لكي يلقي السّلام على زميله، أو الشّخص الّذي يحرك رأسه من اليمين إلى اليسار لكي يعبر عن رفضه لشيء ما.

وهنا يتمّ نقل المعلومات والأفكار من دون أيّة لغة، ومن الأمثلة عليه: الإيماءات، واللّمس، وتعابير الوجه، والحركات باليدين، بالإضافة للتعبيرات الصّوتية والّتي قد تعبر عن مشاعر معينة مثل الفرح والمرح والهدوء والخوف وغيرها، وهناك أمور تحسّن من الاتّصال غير اللّفظي نذكر منها: (اتباع السّلوك المتفتح) أي: تلقّي أيّة مقترحات أو عروض

(١) من الجدير بالذكر كما سبق التنبيه إليه أن هنالك من يزعم أن هذا النوع من الاتّصالات يعد الأقدم تاريخيا، وأن الشعوب استخدمته منذ ملايين السنين كلغة اتّصال وحيدة. ولا شك في أن هذا تصور باطل كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ وقوله: ﴿خلق الإنسان، علمه البيان﴾.

بشيء من الود لكسب ثقة الآخرين. الاعتدال خلال الجلوس مع الآخرين. النّظر للآخر حين التّواصل معه. المصافحة بشيء من اللّطف فهي وسيلة لنقل المشاعر والمودة. الهدوء والإنصات للآخرين.

وهو لغة الحركة، والإشارة، والألوان، والأشياء ويمكن تقسيم الاتّصال غيراللّفظي إلى أربعة أنواع من الرّموز:

١. **رموز الأداء:** وتشمل حركات الجسد، وتعبيرات الوجه والإيماءات.

٢. **رموز اصطناعية:** مثل نوع الملابس والزّينة والتبرج، والأشكال المعمارية والدّيكور.

٣. **رموز إعلامية:** مثل حجم الحرف (البنط) المستخدم في الطّباعة، وموقع الخبر أو الموضوع، ونوع الصُّوَر المستخدمة وحجمها، والألوان والظّلال، وأنواع اللّقطات التليفزيونية، وزوايا الكاميرا والإضاءة.

٤. **رموز ظرفية:** تنبع من استخدامنا للوقت والمكان، مثل ترتيب جلوس الزّوار حسب منزلة كلّ منهم.

ولقد اختلف العلماء حول عدِّ التعبيرات غير اللّفظية لغةً؛ فرفض بعضهم إطلاق كلمة: (لغة) على الرّموز غير اللّفظية، ووجد آخرون أن اللّغة تؤدي وظيفة، وهي أنها وسيلة اتّصال وتفاهم بين البشر، فإذا كانت الرّموز غير اللّفظية تؤدي أيضا هذه الوظيفة، فإنّ من الممكن إذن أن تدخل في نطاق اللّغة.

يقدر ما يؤديه الفرد بنحو (٧٠٠,٠٠٠) إيماءة أو إشارة مختلفة، فيكون عدد الإشارات أكثر من قوائم الكلمات المتداولة في أوسع القواميس الإنجليزية، وهي الّتي لا تزيد عدد كلماتها عن (١٠٠,٠٠٠) كلمة، ولكنّ إتمام عمليّات الاتّصال بحاجة إلى عدد أكبر بكثير من هذا، وهو ما يتطلب بالضّرورة استخدام لغة أخرى غير اللّفظية، كلغة الإشارة والإيماءات أي: (اللّغة غير اللّفظية).

وتسهم هذه اللّغة في زيادة التذكر، فقد وجد أن التذكر يزداد كلما تدخلت الحواس في تلقّي الرّسالة أكثر، وتأتي العين على رأس الأعضاء في الاتّصال البشري، وخاصة في اللّغة غير اللّفظية. حيث يمكن أن يضيف الوجه واليدان الكثير إلى اللّغة اللّفظية من خلال

الإشارات والإيماءات الصّادرة عنهما.

ويلاحظ عدم الانتباه الكافي لدى المتلقّين فلا ينجذبون إلى حديث المرسِل حين يقدم رسالته من دون أن تظهر أيّة تعبيرات على وجهه، وفي المقابل تؤدي كثرة حركة المرسِل كأن يتنقل سريعاً بصفة مستمرة، ويتحدث مستخدماً إشارات الأيدي بسبب أو من غير سبب، بصورة غير طبيعية، إلى انشغال المتلقّين بما يقوم به من حركات وإشارات، دون الرّبط بين اللّغة اللّفظية واللّغة غير اللّفظية لفهم الموضوع الّذي يشرحه. ولذلك كان على المرسل عند الجمع بين اللّغتين، أن يدرك أن أفضل الحالات هي الاستخدام الصّحيح (الوظيفي) لهما.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه هنا أن استخدام الإشارة والإيماءات مهمّ للغاية في المواقف التّواصليّة التّعليميّة لمعلمي مختلف المواد، وخاصة لمعلمي اللّغات الأجنبيّة؛ لأنّها تسهّل فهم الكلمات الصّعبة في اللّغة الأجنبية بدلاً من ترجمتها إلى اللّغة العربية.

المبحثُ الثَّاني

تقويم الاتّصال

فعاليّة الاتّصال، ومهاراته

المطلبُ الأوَّلُ

الاتّصالُ الفعّالُ وخَصَائصُه

لما كان المقصود هو تحقيق نجاح الاتّصال، أمكن أن تُسمَّى المهارات المطلوبة لتحقيق ذلك بمهارات الاتّصال الفعّال، لكنّ المهارات الشّخصية أفردت بالدّراسة لتميّزها بالأهمّيّة الخاصة، ومن هذا المنطلق يمكن أن نقسم مهارات الاتّصال إلى (مهارات الاتّصال الشّخصية) و(مهارات الاتّصال الفعّال)، والحقيقة أنَّ الأوْلى تطابق عموماً: (المهارات غير اللّفظية)، أما الثّانية فيمكن التّعرّف عليها غالباً من خلال: (المهارات اللّفظية) وإن كان الأصل أن تتسع لتشمل النّوعين معاً.

مهارات الاتّصال الشّخصية:

يُشار إلى مصطلح: (المهارات الشّخصية) أيضاً باسم: (المهارات البشرية)؛ وتُعرّف بأنها: «الملكات والخبرات الفطرية والمكتسبة الّتي يستخدمها أي شخص ويوظفها ليتفاعل ويتواصل مع الآخرين». وتَشْملُ هذه المهاراتُ مهارةَ الإقناع، والاستماعَ الفعّال، ومهارةَ التفويض والقيادة، والقدرةَ على حل المشكلات، والتفكير الفعّال.

ويكثر استعمال هذا مصطلح (المهارات الشّخصية) في سياق النّصوص الاقتصادية أو الّتي تُعنى بإدارة الأعمال؛ بحيث تشير إلى مقياس قدرة الشّخص وأدائه من منظور تواصله الاجتماعي، وتفاعله مع الآخرين، في ظل المؤسسة الّتي يعمل بها، وهي بذلك تسلط

الضّوء على كيفية تواصل الأفراد مع بعضهم البعض.

مفهوم الاتّصال الفعّال ومعاييره:

سبقت الإشارة إلى أنّ الاتّصالَ وسيلةٌ وليس غايةً، ويعرف الاتّصال الفعّال بجملة تعريفات متقاربة في المعنى منها أنه: «عمليّة إرسال الرّسالة بطريقة تجعل المعنى الّذي يفهمه المستقبل مطابقاً إلى حدّ بعيد للمعنى الّذي يقصد المرسل»[1]. وقد يقال: «هو الاتّصال المثمر، الّذي يؤدّي إلى النّجاح في وصول الرّسالة وفهمها والتّفاعل معها»، أي أنه يحقّق نتائج مرضية، ويفضي إلى تغيير وتأثير، حيث إنّ التّغيير أو التأثير هو المطلوب الأوّل في عمليّة الاتّصال الإنساني، ويعدّ توفير الوقت والجهد من الرّوائز الرّئيسة لتقدير نجاح المهارات المستخدمة.

فالتّواصل الفعّال هو ذلك التّواصل الّذي يتمّ بين طرفين أو أكثر من خلال تبادل الرّسائل المكتوبة أو المنطوقة، وكي يكون هذا التّواصل فعّالا لابُدَّ من أن يتمّ استقبال المعلومات الّتي احتوت عليها هذه الرّسائل، وأن تُفهم من قبل الطّرف الآخر، ويؤدي التّواصل الفعّال في النّهاية إلى تشارك المعلومات وتبادلها بين الأطراف ذات العلاقة بأسلوب سلس وواضح، ويتمّ استخدام مفهوم التّواصل الفعّال بصورة كبيرة في قطاع المنظمات من أجل تعزيز آليات التعاون والتشارك وتنفيذ المَهام بالشّكل المطلوب في المنظمة، ولابدّ من استخدام مهارات التّواصل الفعّال لضمان أن يكون التّواصل ناجحاً، وفي هذا المقال سيتمّ تناول معلومات عن مهارات التّواصل الفعّال.

وغالباً ما يعتمد إتقان هذه العمليّة ونجاحها في تحقيق الغرض المرجو من ورائها على توافر الملكة الفطرية، أو على الترقي في فنون التّواصل ومهاراته، في شتّى السّياقات والآفاق المحتملة لتلك العمليّة، وبأي وسيلة من وسائلها المتعددة.

ونبيّن فيما يلي عدداً من الرّوائز والمزايا الخاصة بالاتّصال الفعّال.

- الاتّصال الفعّال هو الّذي يحقّق الأغراض المبينة فيما يأتي:

١. الاستيعاب والقدرة على نقل الأفكار وتبادل المعلومات.

---

(١) شعبان فرح، الاتّصالات الادارية

٢. تحقيق التّفاهم والانسجام.
٣. الفوز بتعاون الآخرين.
٤. وضوح الأفكار والموضوعات والمضمون.
٥. إحداث التّغييرات المطلوبة في الأداء والسّلوك.
٦. القدرة على التنفيذ، وأداء الأعمال بالطّريقة الأفضل.
٧. منع حدوث الازدواجيّة أو التّضارب في العمل من خلال التّشاور.
٨. الاستعداد الشّخصي من النّاحية النّفسية.

- أما مزايا الاتّصال الفعّال فيمكن أن نعدد منها ما يأتي:

١. يعزز مهنية العمل.
٢. يعزز الثّقة بالذّات.
٣. يعزز العلاقات بين الإفراد.
٤. يحد من التّوتر.
٥. يساعد الشّخص في تقبل الآخر.
٦. يساعد الإنسان على تقبل نفسه.

أساس آداب الطرفين في الاتّصال الفعّال:

نبدأ بالنّظر إلى أوّل طرف في عمليّة الاتّصال: (أنفسنا)، يقول تعالى: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾، فمن أعظم الأمانات أمانة النّفس؛ وهي أعظم من أمانة الأموال والأوّلاد، وبناء عليه فإنّ من الواجب على المسلم إذن أن يعرف نفسه أوّلاً، ومن ثمّ يتمكن من أن يرضي الله بمعاملة النّاس بالحسنى كما يحب لنفسه، كما قال النّبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»؛ و فالطّرف الثّاني في عمليّة الاتّصال هم (الآخرون)، ويأمرنا الإسلام-بعد أن نعرف أنفسنا جيداً- بأن نتخيل أنفسنا في أماكنهم قبل أن نعاملهم؛ حتى نعطيهم نفس الاحترام الّذي نحبه لأنفسنا.

وتسري هذه القاعدة الذهبية على جميع أنواع المعاملات والتّواصل الإنساني الفعّال بين المسلم وإخوانه من دائرة الأسرة وحتى دائرة الأمة، كما تسري أخلاق الإسلام على

معاملات المسلم مع غير المسلمين الذين أخبرنا سبحانه وتعالى عن حكمته في احتكاكنا بهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

إذن فليس من الإسلام اعتزال الحياة أو الانعزال عن النّاس بلا سبب؛ إذ لا رهبانية في الإسلام، كما أخبرنا بذلك النّبيﷺ، وعلى الرّغم من أن القرآن يخبرنا بأننا ﴿خير أمة أخرجت للناس﴾ فإنّ نيل هذا الشّرف له ضوابط لابدّ من تحقيقها؛ منها أن لا يترفع المسلم عن التّواصل مع الآخرين تحت زعم الأفضلية المطلقة، كما فعل بنو إسرائيل حين قالوا زوراً وبهتاناً: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾، واحتقروا غيرهم من النّاس تحت هذا الزّعم، فاستحقوا بذلك غضب الله وعذابه.

سمات الاتّصال المرغوبة في المنظور الإسلامي:

للاتّصال بين المسلم والمسلم وبين المسلم وغير المسلم، وبين المسلم ورب العرش العظيم مجموعة من السّمات يمكن الاستدلال على بعضها من الكتاب والسّنة النّبويّة المطهرة كما توضحها النّقاط الآتية:

١ – أن يتوافر حسن الظّن في الاتّصال بين المرسل والمستقبل:

حسن الظّن من الأمور المهمّة الّتي يجب أن تتوافر في عمليّة الاتّصال الإنساني بين المرسل والمستقبل؛ لأنّه أساس نجاح هذه العمليّة، فإذا كان هذا في الاتّصال بين النّاس، فما بالك في الاتّصال بين الإنسان وربه من خلال الصّلاة وأداء الصّدقة والدّعاء.

قال رسول اللّهﷺ في الحديث القدسي عن ربه: «أنا عند حسن ظن عبدي بي»

٢ – أن تتوافر السّريّة في الاتّصال:

عندما يعبد الإنسان ربه في السّرّ ويناجيه ويتقرّب إليه، فتكون العبادات والصّلوات والصّدقات أكثر صدقاً بعيداً عن العلن والجهر، فهذا أرقى وأسمى أنواع الاتّصال. قال رسول الله ﷺ: "ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما قدمت يمينه".

والاتّصال الإنساني يحتاج أيضاً إلى السّرية في بعض مواقفه مثلاً: المواقف الّتي تتعلق بالصّالح العام، مع العلم أن هناك مواقف اتّصال تحتاج إلى الجهر والإعلان، إذ نهى الإسلام

عن إفشاء الأسرار في الأحاديث أو نقلها بين النّاس. قال رسول الله ﷺ: "إذا حدث الرّجل الحديث ثمّ التفت فهي أمانة".

٣- أن يتوافر قول الخير والبعد عن القول الباطل، أو الصّمت:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزّمر ١٨].

وأسمى درجات الاتّصال الّتي يمارسها المسلم مع ربّه تكون من خلال الصّلاة والأذكار والأدعية عندما يناجي المسلم ربّه تقرّباً وتضرّعاً وأملا في قبول مطلبه. يقول الرّسول: «أقرب ما يكون العبد إلى ربّه وهو ساجد»، وقال الرّسول: «من كان يؤمن بالله واليوم الأخر فليقل خيراً، أو ليصمت»، وقال الرّسول: «رحم الله عبداً تكلم فغنم أو سكت فسلم».

جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: دلني على عمل يدخلني الجنة قال: "أطعم الجائع واسق الظّمآن وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر فإن لم تطق فكف لسانك إلا من خير، فإنك بذلك تغلب الشّيطان". قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق ١٨].

٤- أن تتوافر الشّفافية الرّوحية والتّأثر وقوة الاتّصال الإيماني بين العبد وربه:

كما يكون عندما يستمع المسلم رقيق القلب إلى تلاوة القرآن الكريم في المذياع أو التّليفزيون فنلاحظ التّأثر وصفاء الرّوح، إلى حدّ البكاء من خشية الله والخشوع له. ويتضح هذا في الآيات القرآنية الكريمة كقوله تعالى: ﴿الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثمّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ الله ذَلِكَ هُدَى الله يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣)﴾ [الزّمر ٢٣]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة ٨٣]، وفي الحديث الشّريف قال الرّسول الكريم ﷺ: «عينان لا تمسهما النّار علين باتت تحرس في سبيل الله وعين بكت من خشية اللّه».

٥- البعد عن الثّرثرة والتّكلف في الاتّصال:

قال رسول الله ﷺ: «إنّ أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلساً الثّرثارون، المتفيهقون المتشدقون في الكلام». ويقول: «أنا وأتقياء أمتي برآء من التّكلف».

٦- أن يخلو الاتّصال من السّخرية:

قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات ١١].

٧- أن يتوافر في الاتّصال الصّدق وعدم الكذب:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون ٨]. وقال رسول اللّهﷺ: «إيّاكم والكذب فإنّه من الفجور وهما في النّار». وقال أيضا: «كبرت خيانةً أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت له به كاذب».

المطلب الثَّاني
مهارات الاتّصال الفعّال والعوامل المؤثرة فيه

مهارات الاتّصال الفعّال:

علينا في عصر ثورة المعلومات إرسال وتلقّي ومعالجة أعداد ضخمة من الرّسائل يومياً. ولكنّ التّواصل الفعّال هو أكثر من مجرد تبادل للمعلومات؛ إنه فهم ما وراء هذه المعلومات من مشاعر وانفعّالات. من خلال التّواصل الفعّال يمكن أن تحسن العلاقات في المنزل أو العمل، وفي المواقف الاجتماعية من خلال تعميق روابطك مع الآخرين وتحسين العمل الجماعي، واتخاذ القرارات، وحل المشكلات. والذى يمكنك من توصيل حتى الرّسائل السّلبية أو الصّعبة دون خلق صراع أو تدمير للثقة. التّواصل الفعّال يجمع بين مجموعة من المهارات من بينها التّواصل غير اللّفظي، والاستماع الفعّال، والقدرة على إدارة الضّغوط في لحظات، والقدرة على إدراك وفهم مشاعرك الخاصة، وأيضاً مشاعر الشّخص الذى تتواصل معه، كلّ ذلك لكي تتحقّق السّمات المرغوبة في الاتّصال. وسبق أن عرفنا أن (مهارات الاتّصال الفعّال) تشمل كلّ ما يلزم لضمان نجاح الاتّصال في تحقيق أهدافه.

ويطلق مفهوم مهارات التّواصل الفعّال على مجموعة من الخطط والطرائق الخاصة الّتي يتمّ اتباعها أثناء عمليّة التّواصل مع الأطراف الأخرى، لضمان أن تؤدي عمليّة التّواصل إلى تحقيق الأهداف المطلوبة.

وقد اتفق ثلة من خبراء التّواصل على صياغة أنموذج لمهارات التّواصل الفعّال وأسموه «سفن سيز (7 C's) للتّواصل الفعّال» (7 C's of Effective Communication) إذ يُعَبَّرُ عنه بالإنكليزية بسبع كلمات تبدأ كلّ منها بحرف C، وهي تَختَصِر أهمّ سبع مهارات للتّواصل الفعّال، وهي كالأتى:

١. **كن واضحاً Clear**: عليك أن تكون واضحاً أثناء توصيل رسالتك، وتكون بسيطة

غير مبهمة، ولا تحمل أكثر من معنى واحد.

٢. **اختصر Concise**: لا تسهب في الكلام، وحاول أن تختصر، حتى لا تتسبب في الشّعور بالملل أو الضّجر من الحوار معك. وحاول ألا تشتت انتباه من تتواصل معهم في الكثير من المواضيع، بل كن دائماً متيقظاً لأنْ يكون حوارك يدور حول نقطة واحدة، تخدم هدفك الأساسي من الاتّصال.

٣. **كن واقعياً Concrete**: حاول أن تدعم رسائلك بالدّلائل والإحصائيات والذى بدوره يثبت صحة كلامك ويبعث ثقة كبيرة في نفس من يتحاور معك ليكمل الحديث.

٤. **استخدم الألفاظ الصّحيحة Correct**: أثناء تواصلك مع الآخرين، سواء كتابة أو وجهاً لوجه قد يقع الكثير منا في أخطاء إملائية وأخطاء قواعد فانتبه لذلك، ولا تكثر من استخدام الكلمات العامية والمصطلحات الغير مفهومة.

٥. **كن متماسكاً ومتناسقاً Coherent**: حيث إنّ كلماتك الّتي تستخدمها تكشف جزءاً كبيراً من شخصيتك. فيجب أن تكون كلماتك مترابطة وداخل كيان متماسك.



٦. **قدم رسالة كاملة Complete**: يجب أن تكون رسالتك الّتي تريد توصيلها كاملة غير

ناقصة وتحمل كلّ ما تريد من معنى ومفهوم.

٧. **كن لبقاً Courteous:** لا مانع من أن ترسم ابتسامة لطيفة وطبيعية على وجهك تبعث في نفس من يتواصل معك الألفة، ودائماً انتقى ألفاظك الّتي تستخدمها في توصيل رسالتك.

في النّهاية ستكون النّتائج مذهلة إن اهتممت بتحقيق الـ (7 C's) في عمليّة الاتّصال مع الآخرين، حيث تواصلت معهم بالطّريقة الّتي ترغّب في التّواصلِ بها معك.

وهنا مخطط لنمط آخر من الاجتهادات في تحديد مهارات الاتّصال الفعّال



أساسيات في الاتّصال الفعال:

ومن أبرز ما يساعد على تحقيق التّواصل الفعّال ما يأتي:

- اختيار الوقت المناسب: يعدّ اختيار الوقت المناسب من أكثر مهارات التّواصل الفعّال أهميّةً، حيث يتيح ذلك للطرف الآخر القدرة على التجاوب مع ما يتمّ طرحه؛ لأنّ الوقت مناسب للحوار والنّقاش.
- اختيار المكان المناسب: حيث إنّ اختيار المكان المناسب للتّواصل مع الأفراد يجعل من عمليّة التّواصل معهم بصورة فاعلة أمراً سهلاً، فقد يصعب التّواصل مثلاً في بعض مناطق العامّة الّتي لا تتناسب مع الطّرح الحساس الّذي يتمّ من خلالها إبلاغ الأفراد ببعض الأخبار السّيّئة.
- إبعاد مصادر التشويش: يساعد إبعاد مصادر التشويش على باب التّواصل المُركّز والفعّال بعيداً عن كلّ ما يشتت الانتباه ويقطع حبل الأفكار بين المتحاورين كالمكالمات

الهاتفيّة أو غير ذلك.

- التحضير الجيد قبل التّواصل: إنّ تنظيم الأفكار ومعرفة الأسلوب المناسب للطرح يساهم إلى حدّ كبير في أن يكون تواصل الأفراد مع بعضهم فعّالا من خلال التحضير الجيد الّذي يمهد لتسلسل الأفكار وعدم تشتُّتها، لئلا يخرج الحوار إلى موضوعات فرعيّة لا حصر لها.
- استخدام لغة الجسد: يعدّ استخدام لغة الجسد من أبرز المهارات الّتي تعكس وجود التّواصل الفعّال مع الآخرين، من خلال الإيماءات، وتعبيرات الوجه، وحركات اليدين، والنّظر في أعين المُتحدَّث إليهم، فكلّ ذلك يُشعِر الطّرف الآخر بأهمّيته، ويساهم في أن يكون التّواصل معه فعّالا.

خطط الاتّصال الفعّال:

نظرا للدور الّتي تقوم به عمليّة الاتّصال في حل المشكلات، والنّفع الّذي يعود على الأفراد والجماعات، وضع الخبراء جملة طروحات وأفكار تجسد عمليّة الاتّصال الفعّال مع زيادة فاعليته، ومن هذه الخطط ما يأتي:

١- **خطّة (انشر وتأمل):**

لا تعدّ هذه الخطّة ذات فعّالية كبيرة في عمليّة الاتّصال، وتتميّز هذه الخطّة بأنها تحتوى على كم كبير من المعلومات، لكنّ كثرة المعلومات هذه قد تؤدّي إلى إرباك لدى الكثير من الأشخاص، مما يؤدّي إلى قلة فاعلية الاتّصال.

٢- **خطّة (أخّر ورغّب):**

تقوم هذه الخطّة على تقديم معلومات قليلة؛ لأنّها تستهدف عمليّة اتّصال فعّال، ويكون محتوى الرّسالة في هذه الخطّة غنيا وواضحا، وموضوعاتها تجذب الانتباه، وتعزّز الاهتمام بعمليّة الاتّصال.

٣- **خطّة (تحديد ما هو مهمّ ثمّ الاستطلاع):**

تعدّ هذه الخطّة من أفضل الخطط؛ لأنّها تحقّق أفضل مطابقة بين كميّة المعلومات وعمليّة الاتّصال، والسّبب في ذلك يعود إلى أنّ التّغذية العكسيّة هي الّتي تعزّز كفاءة

الاتّصال.

٤- **خطّة (التّقييد ثمّ التّعزيز):**

تعدّ السّريّة والرّقابة على المعلومات من السّمات المهمّة لهذه الخطّة؛ لأنّ المعلومات هي مصدر القوّة فيها، ونتيجة هذه السّمة فإنّه غالباً ما يرافق هذه الخطّة الإشاعات، وهذا يؤثّر سلباً في عمليّة الاتّصال.

عوامل مؤثرة في عمليّة الاتّصال:

تخضع عمليّة الاتّصال لجملة من العوامل، ذات أهمّيّة وتأثير في زيادة كفاءة الاتّصال ونجاحه وتحقيق الاتّصال الفعّال، ويحول تخلفها دون نجاحه، أو يكون سببا في الإقلال من تلك الكفاءة، فما هي الأمور التي تتوقّف عليها فاعليّة الاتّصال؟.

أولاً- عوامل ترقّي فاعليّة الاتّصال:

مقومات نجاح الاتّصال هي مجموعة من الصّفات والخصائص والمهارات الّتي تتضافر لتحقيق هذا الهدف. منها: الوضوح – الاستيعاب – الاستعداد الشّخصي – القدرة على التّنفيذ – القدرة على نقل الأفكار. ومن أشدّ عناوينها أهمّيّة[1]:

- **فعّالية المصدر:** ويدخل فيها مثلاً: المصداقية (Credibility)- الجاذبية (Attractiveness)- السّلطة والنّفوذ (Power)
- **مضمون الرّسالة.**
- **كفاءة الوسيلة.**
- **الجمهور المستهدف.**

وهذا ما يمكن تفصيله بأنّ هنالك عوامل تزيد من فاعلية الاتّصالات منها:

١- الثّقة في مصدر الرّسالة.

٢- المعرفة والوعي الكامل لقيمة المعلومات والبيانات.

(١) نظريات الاتّصال في القرن الحادي والعشرين: د. عبد الرزاق الدّليمي ص ٣٠-٣١، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع- عمان، الطّبعة العربية، ٢٠١٦م.

٣- لغة مفهومة وانتقاء العبارات الواضحة.

٤- اختيار الوقت المناسب لتوجيه الرّسالة حتى لا تكون المعلومات عديمة الفائدة.

٥- استخدام المؤثرات الدّالة الّتي تعكس حقيقة المعنى والمفهوم المطلوب (نبرات الصّوت، اختيار الكلمات، حركات الوجه)

٦- جذب الانتباه الكامل.

٧- التّحدث بطريقة مشوّقة وتجنّب الإسهاب الزّائد أو الإيجاز الشّديد..

٨- ضرب الأمثلة، واستخدام وسائل الإيضاح: (البصرية أو السّمعية أو الرّسوم التّوضيحيّة أو النّماذج والبيانات).

٩- عدم التّسرع في اتّخاذ القرارات أو تكوين رأي، إلا بعد تلقّي الرّسالة كاملة.

١٠- اختيار المكان المناسب لإبلاغ المعلومات.

١١- تنظيم الأفكار قبل عرضها.

١٢- الإنصات جيداً.

ثانياً- عوامل تعيق فاعليّة الاتّصال:

على الرّغم من تحقق مهارات التّواصل الفعّال إلا أنّ هناك مجموعة من المعوّقات الّتي تحول دون أن يكون التّواصل بين الأفراد إيجابيّاً، ويُحقّق الأغراض الّتي تمت من أجلها عمليّة التّواصل بين الأطراف ذات العلاقة، وتتعدّد معوّقات الاتّصال الّتي تؤثر على عمليّة التّواصل مع الآخرين، وبالتّالي لا يتمّ تحقيق الأهداف المنشودة مما يؤدّي إلى نتائجَ سلبيّةٍ على الأفراد والمنظمّات معاً، ومن أبرز المعوّقات الّتي تحول دون وجود التّواصل الفعّال ما يأتي:

- المعوّقات الصّوتيّة: والّتي تتمثل في وجود الضّجيج في مكان التّواصل مع الآخرين مما يزيد من صعوبة التّواصل معهم.
- المعوّقات الصّحيّة: والّتي تتمثل في وجود بعض الأمراض الّتي يعاني منها المُتواصِلون مع بعضهم البعض مثل: ضعف السّمع أو العمى.
- المعوّقات اللّغويّة: والّتي تتمثل في وجود الحاجز اللّغة، سواء كان ذلك على مستوى

تعدد اللّغات أم على مستوى وجود خلل في استخدام اللّغة بسبب الأخطاء النّحويّة أو اللّغويّة.

- المعوّقات الثّقافيّة: والّتي تتمثل في وجود بعض الافتراضات لدى كلّ طرف من أطرف التّواصل، والّتي تبنى على خلفيات ثقافيّة متنوعة.

وتتّصل هذه المعوّقات بالعناصر الأساسيّة لعمليّة الاتّصال وعلى هذا الأساس سيتمّ دراسة هذه العقبات من خلال استعراض عناصر الاتّصال[1]:

١- المعوّقات المرتبطة بالمرسل:

يتطلب الاتّصال الفعّال قدرا كبيرا من التّركيز والحكمة والمنطق والدّراية من قبل المرسل؛ لأنّ من مصلحة المرسل أن يكون كذلك إذا ما أراد فعلاً إيصال معلومات أو بيانات معينة، تحقّق له وللمستلم أهدافاً معينة[2].

ومن أبرز المشكلات والمعوّقات الّتي يكون مردّها إلى المرسل، كلّ من الآتي:

١. الحالة النّفسية للمرسل.
٢. الافتراضات والأحكام الخاطئة أو المضلّلة لدى المرسل.
٣. الاختيار الخاطئ لتوقيت إرسال الرّسالة.
٤. عدم كفاءة المرسل أو افتقاده لمهارات الاتّصال.
٥. التّفاوت في السّلطة الوظيفية.

٢- المعوّقات المرتبطة بوسيلة الاتّصال:

تعدّ وسيلة الاتّصال مهمّة للغاية في عمليّة الاتّصال؛ لأنّها تساعد المرسل في عمليّة الاتّصال، لذلك يتطلب من هذا الجانب أن تمتاز بفاعلية مميزة حتى يستطيع المرسل إرسال الرّسالة.

ويمكن إيجاز المعوّقات الّتي تتعلق بوسيلة الاتّصال بالآتي:

---

(١) زيد منير عبوي، فن الادارة بالاتّصال

(٢) ROSEFIELD: COMMUNICATION TAC TICS AND STRATEGIES

- الاختيار الخاطئ للوسيلة.
- الاستخدام الخاطئ للوسيلة.
- تعدد المستويات الإدارية.
- سوء وضعف وسيلة الاتّصال.
- ازدحام واختناق قنوات الاتّصال.

٣- المعوّقات المرتبطة بمضمون الرّسالة:

كثيرة هي المعوّقات والمشكلات الّتي تتعلق بمضمون الرّسالة، حيث يكون قسم منها متعمّداً والآخر غير متعمّدٍ، ويمكن تحديد جهات هذه المعوّقات بما يلي:

- لغة الرّسالة.
- هدف الرّسالة.
- أسلوب كتابة الرّسالة.
- أسلوب نطق الرّسالة.

٤- المعوّقات المرتبطة بالتّغذية العكسيّة أو الرّاجعة (رجع الصّدى):

تعدّ التّغذية العكسيّة عنصراً مهمّاً من عناصر الاتّصال؛ لأنّها بمثابة الخلاصة العامة لعمليّة الاتّصال، ويمكن إيجاز هذه المعوّقات بما يلي:

- تركيز المرسل على الأهداف، دون الاهتمام بدوافع ورغبات المستقبل.
- عدم الاهتمام بالرّسائل غير اللّفظية أو التّلميحات، الّتي تعطي مؤشرات عن وصول الرّسالة من عدمها.
- النّظرة الفوقيّة لدى المرسل، وعدم استعداده لأخذ آراء الآخرين.
- عدم الاكتراث بأهمّيّة التّغذية العكسيّة.

٥- التّشويش/ الضّجيج Noise:

وهو من العوامل المهمّة المؤثرة في مدى وضوح الرّسالة المنقولة من المصدر، ومدى استيعابها من قبل المستقبل كما في الشّكل التّوضيحي الّذي سبق أن مر بنا لدى بيان عناصر عمليّة الاتّصال. وقد يكون بصور كثيرة، منها الميكانيكي، ومنها التّشويش الدّلالي، وغير

ذلك، ويمكن تقسيمه إلى قسمين رئيسين، هما:

أ- التّشويش الدّاخلي:

وهذا يشمل العوامل الفسيولوجية والنّفسية للشخص المتلقّي للرّسالة، فوجود عوائق فسيولوجية قد تحد من دقة الاستقبال للرّسالة، وبالتّالي فهمها من قِبل المستقبل. ومن هذه العوائق ضعف النّظر أو السّمع، وانخفاض درجة الذكاء IQ والآلام والجوع والعطش.. وما إلى ذلك من العوامل العضويّة. أما العوامل النّفسيّة فهي كذلك تقوم بدورٍ مهمٍّ في درجة تفَهُّم الرّسالة المنقولة، فالشّرود الذهني والمشاكل الاجتماعية، والشّعور بالملل، والخوف، والقلق، هي من بعض العوامل النّفسية الّتي تحد من درجة بلوغ هدف الرّسالة الرّئيس وتفَهُّمه.

ب- التّشويش الخارجي:

ويشمل جميع العوامل الخارجية الّتي تقلق الشّخص المتلقّي للرّسالة مثل: الأصوات المزعجة، ودرجة الحرارة والرّطوبة، وضعف الإضاءة أو شدتها، والقاعة، والمقاعد، والبعد أو القرب من مصدر الرّسالة والوقت الّذي ترسل فيه الرّسالة، كلّ هذه العوامل تقلل من مدى تفهم الشّخص لغرض الرّسالة وهدفها المعني بالرّسالة.

معوّقات الاتّصال في العمليّة التّعليميّة:

يحتاج الاتّصال في المواقف التّعليمية داخل الفَصْل الدّراسي أو خارجه إلى تهيئة الجو المناسب لانتقال الرّسالة من المعلم إلى المتعلم ورد فعل المتعلم حتى يؤدي إلى وضوح وسهولة الرّسالة، ولذلك من الضّروري مراجعة ووضع حلول مناسبة لبعض العوائق الّتي قد تؤدي إلى فشل إتمام عمليّة الاتّصال بفاعلية، ومن أكثر هذه العوائق أهميّة ما يأتي:

١- اتّباع المعلّم للطّريقة التّقليديّة:

يعتمد عدد غير قليل من المعلمين على الطّريقة اللّفظية في عرض المادة العلمية (محتوى الرّسالة)، فيقومون بالإلقاء والتّلقين اعتمادا على استخدام الرّموز والألفاظ الجافة والمجردة، مع عدم استخدام اللّغة غير اللّفظية لتسهيل فهم هذه المعاني من قبل الطّلاب. كلّ هذا يدفع الطّلاب إلى الانصراف عن الموقف التّعليمي، وعن الإحساس بأهميّة وقيمة ما يتمّ تعلمه،

والشّعور بعدم الدّافعية.

٢- عدم مراعاة الفروق الفردية بين الطّلاب:

قيام المعلّم بالإلقاء اللّفظي لمحتوى الرّسالة وبطريقة واحدة، يجعل عدداً كبيراً من الطّلاب لا يستطيعون فهم ومتابعة هذه الرّسالة. ومن جانب آخر قد تكون هذه الرّسالة بعيدة عن خبرات الطّلاب، وكذلك ما يقدمه المعلم من أمثلة قد تبتعد عن واقع الطّلاب، فيصير ذلك عائقاً يحول دون إتمام عمليّة الاتّصال.

٣- شرود ذهن الطّلاب:

نتيجة للفظية الزّائدة من قبل المعلم، وعدم استخدامه للوسائل التّعليمية، والخبرات التّعليمية المباشرة، يندفع الطّلاب إلى شرود الذهن، وعدم الانتباه والتّركيز في الموقف التّعليمي وفقد الثّقة بالمعلم.

٤- الظّروف الفيزيائية للفصل لقاعة الدّرس:

إنّ وجود أعداد كبيرة من الطّلاب في فصول صغيرة الحجم وعلى مقاعد غير مريحة، وعدم الرّؤية الواضحة للسبورة، وسوء التّهوية وعدم تنظيم البيئة الصّفية يترتب عليه عدم نجاح عمليّة الاتّصال التّعليمي.

٥- عدم كفاية المعلم في أداء وظيفته:

إنّ عدم إلمام المعلم بتخصصه إلماماً جيداً يؤدي إلى صعوبة توصيل الرّسالة إلى طلابه وفقد الثّقة به.

٦- الظّروف الاقتصادية والاجتماعية.

إنّ عدم قدرة المعلم على إدارة الصّف والتّحكم في تلاميذه، وانخفاض صوت المعلم، وعدم وضوح نبرات الصّوت، وعدم القدرة على الاستخدام الجيد للسبورة، وعدم القدرة على التّحدث بلباقة ووضوح، وعدم الكتابة الصّحيحة يترتب عليه فشل عمليّة الاتّصال بينه وبين تلاميذه.

٧- وجود بعض الإعاقات لدى التّلاميذ:

إنّ ضعف بعض الحواس لدى التّلاميذ مثل طول أو قصر النّظر أو ضعف السّمع يؤدي إلى عدم نجاح عمليّة الاتّصال بالشّكل الّذي يحقّق أهدافها.

بعض أساليب علاج المعوّقات:

لابدّ من أن نجد لكلّ من هذه المعوّقات- إن وجدت- حلولاً مناسبة للتغلب عليها. ومن بين ذلك ما يأتي:

- العناية بوسيلة الاتّصال.
- التّركيز على محتوى الرّسالة، من حيث المعنى والقدرة على التّأثير في الآخرين.
- مراعاة الفروقات الثّقافية والاجتماعية والسّلوكية.
- التّركيز على جذب انتباه المستقبل، وإثارة اهتمامه.
- العمل على تقليص حدّة الضّوضاء والتّشويش.

المطلب الثَّالث

فعّالية عناصر الاتّصال

هي العوامل التي ترتقي بفعالية أهم العناصر التي يتكون منها الاتّصال. ونحن نتناول من بينها ما يتصل بترقية فاعلية العناصر الرئيسة الآتية:

١- المرسل

٢- الرسالة

٣- قناة الاتّصال

٤- المستقبل

٥- التغذية الراجعة

أوّلاً: مهارات الإرسال الفعّال (عوامل فعّالية الإرسال):

إنّ من واجب المرسل أن يصوغ الرّسالة بصورة جيدة، فإذا نجح في صياغة رسالته نجح في عميلة الاتّصال وإن لم ينجح فشل الاتّصال، والشّروط الأساسيّة الواجب توافرها في المرسل:

أ- مهارات الاتّصال عند المصدر: وتنقسم إلى خمس مهارات: مهارة الكتابة ومهارة التحدث ومهارة القراءة ومهارة الاستماع ومهارة القدرة على التفكير ووزن الأمور. وسوف نفصل في دراستها تحت عنوان منفرد هو (مهارات الاتّصال الأساسيّة).

ب- اتجاهات المصدر.

ج- مستوى معرفة المصدر.

د- النّظام الاجتماعي والثّقافيّ.

أ الاتّجاهات:

الاتّجاه: هو ميل عاطفيّ تنظّمه الخبرة بحيث يتفاعل الشّخص سلبيّاً أو إيجابيّاً مع

شخص أو شيء أو موقف، وتؤثّر اتّجاهات المصدر على الطّريقة الّتي يتّصل بها، وعلى كفاءة الاتّصال.

والمطلوب هو (إحكام اتّجاهات المصدر) من أجل التّمكن من التّعامل مع متطلّبات الموقف التّواصليّ. ويحدث تأثير الاتّجاهات في ثلاث نواحي:

١- **اتّجاه المصدر نحو نفسه:**

إذا كان اتجاه المصدر نحو ذاته سلبياً سيؤثر ذلك على مدى إقناعه للجمهور المتلقّين بالرّسالة، ولن يستطيع إقناعهم بها، أمّا إذا كان اتجاه المصدر نحو ذاته إيجابياً فسيكون أكثر إقناعاً للجمهور.

فمستوى الثّقة بالنّفس ورباطة الجأش، وتقييم الفرد لذاته يؤثّر في الرّسالة الّتي يقوم بوضعها. فاعتقاد الشّخص أنه لا يستطيع مواجهة الآخرين واهتزاز الثّقة بالنّفس لديه يؤثّر على عمليّة الاتّصال، فلا يمكن أن ينجح في تحقيق اتّصال ناجح. أما شعور الفرد بالثّقة في قدراته فيجعله أكثر قدرة على نجاح الاتّصال، مثل: المذيع أمام الجمهور، أو الخطيب أمام المصلّين، أو المعلّم أمام التّلاميذ.

- ولذلك يجب أن يكون قادراً تجاه نفسه على ما يأتي:
  ١. تحديد الهدف أو الأهداف في رسالته.
  ٢. إدارة الموقف الاتّصاليّ إدارة فاعلة.
  ٣. التّعديل في رسالته أو في عمليّة الاتّصال بناءً على التّغذية الرّاجعة.
  ٤. بناء مواقف تواصليّة جديدة.
  ٥. إيصال رسالته بطرائق وأساليب متنوّعة ومناسبة.
  ٦. التّعامل بكفاءة مع أنواع قنوات الاتّصال.

٢- **اتّجاه المصدر نحو موضوع الاتّصال:**

بالاهتمام بالموضوع، وطلب الحقّ والصّواب فيه، واختيار النّافع منه، حيث من الممكن أن يشعر المستقبل للرّسالة بأنّ المتّصل يميل إلى موضوع الاتّصال، أو لا يميل إليه. وذلك من خلال أحد الأمور الآتية:

- طريقة كلامه عن الموضوع.
- نبرات صوته إما متحمسة أو توحي بعدم الاهتمام.
- أسلوبه في عرض الموضوع أو الكتابة.
- خوفه أو شجاعته في عرض الموضوع.

وبالتّالي لا يمكن إقناع المستقبل بشيء لا يعتقده المتّصل ولا يعرفه، أو في حال كونه يحمل نحوه خبرات سيئة، أو لديه عنه معلومات سلبيّة: (ففاقد الشّيء لا يعطيه).

- وبناء على ذلك يجب أن يكون قادراً تجاه الموضوع على ما يأتي:

١. أن تنصت جيداً، وتركز وتنتبه لما يقوله الطّرف الآخر.
٢. أن تتحدث بقوة وثقة، وألا تقلل من أهميّة أفكارك قبل أن تعبر عنها.
٣. أن تمتلك القدرة على التّعبير بجلاء ووضوح وطلاقة لسان.
٤. أن تكون مقنعا لا آمرا أو ضاغطاً.
٥. أن تبعث برسائل قويّة إيجابيّة دون أن تتكلم، وذلك من خلال حركات الجسد.
٦. أن تعبّر عن مشاعرك بصدق وصراحة.
٧. أن تنصت للمحتوى بدلاً من أن تلوم وتنتقد.

٣- اتجاه المصدر نحو المستقبل:

يجب التّعامل مع المتلقّي بالاحترام والأدب. حيث تتأثر عمليّة الاتّصال بما يشعر به الشّخص القائم بعمليّة الاتّصال تجاه الشّخص المستقبل للرّسالة بما يشمله ذلك من حب وكره، وود أو عداء. أو الشّعور بالمستوى الاجتماعي أو العلمي له فكلها عوامل تؤثر بصورة أو بأخرى في مدى نجاح أو فشل عمليّة الاتّصال، كما أنها تحدد الأسس الّتي يمكن أن تبنى عليها عمليّة الاتّصال ذاتها.

- فعليه أن يكون قادراً تجاه المتلقّي بممارسةٍ سلوكيّةٍ تساعد المرسل على تحقيق نجاح عمليّة التّواصل وإثمارها. منها ما يأتي:

١. إثارة دافعيّة المتلقّين للتّواصل.
٢. تعامل المرسل مع المستقبلين بودّ ولطف، ويكون مرناً في التّعامل معهم.

بـ تحقّق مستوى المعرفة الكافي:

مستوى المعرفة يؤثّر في طبيعة وتكوين عمليّة الاتّصال لدى المرسل؛ لأنّنا لا نستطيع أن ننقل رسالةً لا نعرف مضمونها، ولا نستطيع أن نقول شيئاً لا نعرفه، فكلّما كانت المعرفة ومستوياتها متساوية أو متشابهة لدى الطّرفين، كانت العمليّة أكثر وضوحاً.

١. أن يكون المرسل متمكّناً من تخصّصه العلميّ.

٢. قادراً على الاستجابة والرّد على أسئلة الموجهة إليه.

تـ الموقع في النّظام الاجتماعيّ والثّقافيّ:

يتأثر المرسل (المتّصل- المصدر) بمكانته الاجتماعيّة الّتي يشغلها في النّظام الاجتماعي والثّقافيّ، حيث يؤثّر مركزه ضمن النّظام الاجتماعي والثّقافيّ عليه، بل وعلى سلوك أي شّخص بصورة عامّة. فيجب على المرسل أن يكون ملمّاً بخصائص من يتعامل معهم من حيث العمر الزّمني والمستوى الاجتماعيّ والثّقافي والاقتصاديّ. كما على المستقبل أن يعي الدّور أو الأدوار الّتي يقوم بها المرسل، ولكي نحدّد فاعليّة الاتّصال، علينا أن نعرف أنواع النّظم الاجتماعيّة الّتي نعيش فيها، من خلال الإطار الثّقافيّ والاجتماعيّ (معتقدات، عادات وقيم، أنواع السّلوك المقبولة وغير مقبولة التّطلعات، والتّوقّعات الخاصّة وغيره)؛ ونحدد في المرسل معتقداته، وآراءه، وسلوكه ومدى مناسبته للمجتمع الّذي ينتمي إليه، وكذلك نتعرف على توقعاته وتوقعات الآخرين منه. وهذا يعني التّمكن من التّعرّف على السّلوك الاتّصاليّ للأفراد.

الخلاصة:

وخلاصة هذا كله أنه يمكن تحديد عوامل نجاح المصدر بما يلي:

١- أن يكون المصدر موضع ثقة من المُستَقْبِل.

٢- أن تتوافر لديه مهارات اتّصاليّة عالية من خلال مهاراته في عمليّة التّرميز بأبعادها المختلفة عن طريق عنصرى الاتّصال اللّفظي وغير اللّفظي.

٣- يجب أن يتقمص المصدر دور المستقبل ومكانه حتى يمكنه مخاطبة المستقبل بلغته وأن ينفذ إلى عقله بسهولة.

٤- يجب أن يختار المرسل المحتوى المقنع الّذي يتناسب مع احتياجات واهتمامات ورغبات المستقبل.

٥- أن يركز على تماثل الأفكار والخبرة المشتركة بينه وبين المستقبل.

٦- أن يختار الوقت المناسب والمكان الملائم لطبيعة المستقبل.

٧- أن يراعى حسن صياغة الرّسالة وان تتناسب من حيث المضمون مع اهتمامات المستقبل وان يراعى تضمين الرّسالة لعنصر التّشويق والإثارة.

معوّقات نجاح المصدر في الاتّصال:

اتفق بعض الكتاب على مجموعة من المعوّقات الخاصة بالمصدر والّتي تشكل عائقا أمام الاتّصال الفعّال وهذه العوائق تتمثل فيما يلى:

١- تصرف المصدر لصالح مصلحته الشّخصيّة.

٢- سوء اختيار الرّموز والكلمات المعبرة عن مضمون الرّسالة.

٣- استخدام قنوات اتّصال غير ملائمة لطبيعة الرّسالة أو الهدف منها.

٤- تعالى أو تكبر المصدر على المستقبل.

٥- عدم قدرة المصدر على التّعبير عما يجول بخاطره نتيجة لحالته النّفسيّة.

٦- عدم مخاطبة المستقبل بلغته.

٧- سوء التّعبير في الكلام والكتابة.

٨- نقص المعلومات الواردة في الرّسالة الاتّصاليّة.

٩- عدم وجود ترابط منطقي في الرّسالة الاتّصاليّة.

١٠- عدم إرسال الرّسالة الاتّصاليّة في الوقت المناسب مما يجعل المستقبل يتجاهلها ويصرف تركيزه عنها.

ثانيا: مهارات الاستقبال:

ليس هناك فرق في الواقع العملي بين مهارات المصدر والمستقبل، فالفرد يكون

مصدراً في لحظة ما ومستقبلاً في لحظة أخر، وإنما تم الفَصْل بينهما في أنموذج عناصر الاتّصال الّذي سبق أن مر بنا من أجل توضيح عناصر العمليّة الاتّصاليّة. وهذا مما لابدّ من الانتباه إليه في هذا سياق الحديث عن كلّ من مهارات الإرسال ومهارات الاستقبال على حدّ سواء.

وأهمّ ما يلزم عرضه هنا ما يأتي:

١- المهارات الاتّصاليّة للمستقبل:

إذ تؤثر في سلوكه الاتّصاليّ، وهي تؤهّله للقدرة على الإنصات الجيّد للآخرين. والقدرة على تبادل الأدوار مع مرسل الرّسالة.

٢- اتجاهات المستقبل:

نحو نفسه ونحو الرّسالة أو الموضوع ونحو المصدر، وهي تؤثر على كفاءته الاتّصاليّة، مما يكفل شعوره بأهمّيّة الرّسالة، وبالتّالي تأهبه واستعداده لاستقبالها.

٣- الخلفيّة المعرفيّة:

حيث يؤثر مستوى معرفته عن موضوع الاتّصال (محتويات الرّسالة) على فهمه لها، وامتلاكه الخبرة اللازمة للاستقبال الجيد، والقدرة على التّفكير النّاقد والابتكار، في إجابته أو تجاوبه وتأثره بها.

٤- القدرات اللّغويّة:

فعدم امتلاك المستقبل لقدرات لغويّة تساعده على تفسير الرّسالة، يؤدى به إلى إساءة تفسيرها وفهما على خلاف ما يهدف اليه المصدر. فيلزم لذلك تمكنه من اللّغة اللّفظيّة (شفهيّة وتحريريّة) وغير اللّفظيّة (إشارات وحركات...) بالقدر الّذي يمكنه من استقبالها بصورة صحيحة.

٥- المكانة الاجتماعيّة:

وهي تؤثر حتما على سلوكه الاتّصالي، فالمستقبل الّذي يحتل- مثلاً- مكانة اجتماعيّة قياديّة، سيختلف استقباله وتفسيره للرّسالة عن أقرانه من الأفراد العاديين داخل المجتمع.

ثالثا: الرّسالة:

هي المحتوى أو المعلومات الّتي تنتقل بين المصدر والمستقبل. أو هي النّاتج المادي لعمليّة الاتّصال، فالحديث (الكلام)، أو الكتابة، أو الرّسوم، أو حركات الوجه أوالجسد كلها قد تكون رسائل.

١. محتوى الرّسالة: هى المواد الّتي تتكون منها الرّسالة، والّتي استخدمها المصدر لتعبّر عن هدفه من الاتّصال.

٢. معاملة (معالجة) الرّسالة: وتتمثل عمليّة المعالجة في الأسلوب الّذي يختاره المتّصل لنقل الرّسالة إلى المستقبل. أو هي القرار الّذي يتخذه المتّصل بخصوص الشّكل الّذي يرغب أن يرى عليه المستقبل الرّسالة، وتؤثر في حسه. وتتأثر معاملة الرّسالة بما يلي:

{١}- **شخصيّة المتّصل وخصائصه:** أي بما لديه من مهارات اتّصاليّة، واتجاهاته ومعلوماته، ووضعه الاجتماعي. فلكلّ متّصل أسلوبه الّذي يميزه عن غيره.

{٢}- **شخصيّة المستقبل وخصائصه:** فأيّة عمليّة اتّصال هدفها إحداث التّأثير في المستقبل الّذي يجب على المتّصل أن يضعه في ذهنه طول الوقت. فالمتّصل يستخدم الرّموز الّتي يعتقد أن المستقبل سيفهمها وستجذب انتباهه، والتى يكون في حاجة إلى التّعرّف عليها وتحقّق في النّهاية هدف المتّصل.

فيجب أن يضع المصدر في اعتباره طبيعة المتلقّي حتّى يضمن تحقيق الهدف من الرّسالة، ودوره هو فك رموز الرّسالة ومحاوله فهم محتواها والتأثر بها.

فالمتلقّي لا يستقبل الرّسالة ويتأثّر بها مباشرة، وإنّما يقوم بعمليّة تنقية حسب سماته النّفسيّة والاجتماعيّة، ومستوى تعليمه واتجاهاته، حيث يقوم بفكّ رموز الرّسالة بناءً على خبرته السّابقة. ويجب أن تتحقّق بينه وبين المرسل الخبرة المشتركة Experience of Field، إذ يحمل كلّ فرد نطاقا واسعا من الخبرات والمعلومات، ولهذا فكلما تقاربت المعلومات بين المرسل والمتلقّي زادت فعّاليّة الرّسالة، وكلما قلت انخفضت فعّاليتها.

{٣}- **طبيعة الرّسالة نفسها:** فبعض الرّسائل لا يصلح نقلها شفاهة وخصوصا إذا

كانت تحتاج إلى مشاهدة المستقبل لمحتواها، أو تحتاج إلى ممارسة يدويّة من قبل المتّصل مثل تدريب المستقبل على استخدام آلة زراعيّة جديدة مثلاً.

المهارات الخاصة بالرّسالة:

الرّسالة الاتّصاليّة هي قلب عمليّة الاتّصال وحلقة الوصل بين المرسل والمستقبل، فلا يمكن أن تتمّ عمليّة الاتّصال من دونها، ولابدّ من ملائمة مضمون الرّسالة، وذلك من حيث الحجم الإجمالي للمعلومات المتضمنة في الرّسالة. وملائمة مستواها للمتلقّي من جهة البساطة والتّعقيد، حيث إنّ المعلومات إذا كانت قليلةً فإنّها قد لا تجيب على تساؤلات المتلقّي، ولا تحيطه علماً كافياً بموضوع الرّسالة، الأمر الّذي يجعلها عرضةً للتّشويه، أمّا المعلومات الكثيرة فقد يصعب على المتلقّي استيعابها، ولا يقدر جهازه الإدراكي على الرّبط بينها.

ويمكن التّعبير عن ذلك بالخبرة المشتركة بين طرفي الاتّصال، والّتي تضمن الفهم المشترك للموضوع واللّغة الّتي يقدّم بها: فإنّ كلّ فرد منّا يحمل كمّاً من الخبرات والعادات والتّقاليد والمعارف، والاتّجاهات والسّلوكيّات الّتي تصاحبه أينما ذهب، وحيث يكون الأشخاص الّذين نتّصل بهم لديهم خبرة حياتيّة مشابهة لنا، فإنّ فرص التّفاهم وتحقيق النّجاح في الاتّصال يكون متاحاً بطريقة فعّالة.

والمصطلحات العلميّة والمعادلات الرّياضيّة المعقدة الخاصة بالكيمياء الحيويّة مثلاً، تكون مفهومةً بين أستاذ الكيمياء وطلابه، أمّا إذا تحدّث نفس الأستاذ عن الموضوع مع طلاب الإعلام والاتّصال، لا يكون الأمر كذلك، فهناك فجوة أو عدم وجود مجال مشترك للفهم بين المرسل والمستقبل، والمنطق نفسه إذا كان الأستاذ يلقي محاضرة بلغة لا يفهمها أو لا يعرفها الحاضرون، أو إذا استخدم إيماءات وإشارات ذات دلالة مختلفة لهم.

وإذن فلابدّ من توافر بعض الخصائص في الرّسالة الاتّصاليّة حتى تكون ناجحة، ويمكن أن نوجز ذلك في مجموعة من النّقاط الّتي يجب أن يلاحظها المرسل أثناء إعداده وإرساله للرّسالة.

١- **صريحة غير متحيزة:**

بمعنى أنها لا لبس فيها ويجب أن تقول الحقيقة حتى تنفذ إلى القلب والعقل، وتؤدي إلى تغيّر في معلومات واتجاهات المستقبل.

٢- **صحيحة أو مضبوطة:**

بمعنى سلامة لغة الرّسالة الاتّصاليّة وخلوها من الأخطاء النّحويّة أو الإملائيّة واختيار الكلمات الصّحيحة ووضعها في جمل صحيحة وفقرات معبرة. فاللّغة السّليمة تبين مدى حرص المرسل على إيصال رسالته للمستقبل على اكمل وجه.

٣- **واضحة أو جليّة:**

أن تكون لغة الرّسالة واضحة وبسيطة، بحيث لا يكون هناك أدنى إمكانيّة لسوء الفهم، وهذا يتطلب فحص كلّ كلمة وجملة وعبارة من عبارات الرّسالة الاتّصاليّة حتى تكون مفهومة لدى المستقبل، وهذا يعني الدقة في ترميزها.

٤- **تامة أو كاملة:**

بحيث تعطيهم معنى كاملا عن طريق تزويد المستقبل بمعلومات وفيرة تجيب عن جميع أسئلته وتوضح الهدف الاتّصالي. وهذا يتطلب من المرسل أن يحلل جمهوره ويعرفهم حق المعرفة حتى يعوا قصده من الاتّصال مباشرة، وكذلك يجب ألا يفترض بأن المستقبل يفهم رسالته من أوّل مرة فلا باس أن يكرر رسالته أكثر من مره وأن يلجأ إلى الإطناب أحياناً- وهو إعادة جزء أو بعض أجزاء الرّسالة بطريقة مختلفة وجديدة- حتى يعطي صورة كاملة عن هدفه من الاتّصال.

٥- **موجزة أو مختصرة:**

على المرسل أن يوجز، ويكون الإيجاز بحذف المعلومات الّتي لا تسهم في تحقيق هدف الاتّصال وتجنب الحشو الزّائد.

٦- **لطيفه أو دفئه:**

يجب على المرسل أن يستخدم الكلمات الطّيبة واللّطيفة الّتي تضفي جواً من الاحترام والتقدير والسّرور والمحبة على جو الاتّصال.

٧- **محسوسة أو ملموسة:**

يجب أن تكون كلمات الرّسالة الاتّصاليّة محسوسة؛ لأنّ الكلمات المحسوسة أكثر تحديداً للمعنى من الكلمات المجردة، لكونها تشير إلى الإنسانيّة.

٨- **مثيرة تشاركية:**

كأن تكون الرّسالة جذابة، ومثيرة لانتباه وتفكير الطّلاب وأن يعرضها المرسل بطريقة شيقة وغير تقليديّة، بحيث تسمح للمستقبلين بالمشاركة الفعّالة، ويسهم في تحقيق ذلك أسلوب تقديمها.

٩- **مناسبة مريحة:**

كأن يكون محتواها متناسباً مع ميول وحاجات وقدرات الطّلاب ومستواهم المعرفي والثّقافيّ، وأن يختار المرسل الوقت والمكان المناسبين للمتلقّين لاستقبال الرّسالة.

الدّقة في ترميز الرّسالة [illegible]

عند إعداد الرّسالة يجب أن يراعي تحرّي الدّقّة في نقل المعلومات وتدوينها، وحتى إرسالها إلى المستقبل، فتسلسل الأفكار وتدعيمها بالأمثلة والبراهين، وربط المفهوم بالواقع في شرح الموضوعات، وتبسيط الحقائق العلميّة، عوامل مهمّة في تقريب المعلومات إلى ذهن متلقّيها.

وبالتّالي نصل إلى الهدف المنشود من نقل الرّسالة، وهو ما يمنع التشويش الدّلالي الّذي سبقت الإشارة إليه.

وكما أسلفنا قد لا تكون الرّسالة المنقولة ألفاظا، بل قد تكون رموزا أو شواخص إرشاديّة أو تحذيريّة، مثل لوحات الإرشاد المروري أو التحذير من خطر التدخين، أو إشارات ضوئيّة مثل إشارات المرور بألوانها الثّلاثة المتفق عليها، آنذاك يستلزم إعداد هذه الشّواخص والرّموز إعدادا جيداً.

وما دامت المعلومات المستخدمة في هذه الحالة مستقاة من مصادر موثوقه فإنها تعدُّ بحد ذاتها المصدر الرّئيس للمعلومات المرسلة.

فمثلا الإشارات المروريّة الضّوئيّة تعطي معلومات مصدرها الأساسي هو إدارة

المرور، ولوحات ممنوع التدخين في قاعة الدّراسة والممرات في الكليّة هي معلومات وتحذيرات مصدرها إدارة الجامعة.

وتفسير جميع هذه المعلومات أو الاستجابة لها من قبل المستقبل يكون تفسيرا حسيا، في الوقت الّذي يكون إعدادها قد تم بأسلوب حركي حسي، إلا أنّ بعض الاستجابات للمعلومات المرسلة قد تكون حركيّة، وذلك عندما تأخذ عمليّة الاتّصال الأسلوب الدّيناميكي المرتد.

رابعاً: قناة الاتّصال:

تعدّ القناة من أكثر مفاهيم (عناصر) عمليّة الاتّصال استخداما، وأقلها حظا في إيجاد تعريف لها متفق عليه. وتعدّ القناة هي الطّريقة أو الممر الّذي يمكن من خلاله تمرير الرّسالة من المرسل إلى المستقبل. ويتوقف اختيار القناة المناسبة للرّسالة من خلال ما يجب مراعاته في النّقاط الآتية:

١- ماهى القنوات المتاحة والمتوافرة لدى المتّصل. ؟

٢- ما هي التكلفة الّتي تحتاجها كلّ قناة عند استخدامها؟

٣- ما هي الاعتبارات المتّصلة بالمستقبل (مثل مستوى التّعليم- الخبرات المتّصلة بالموضوع- نوعيّة معالجة الرّسالة...) ويجب أخذها في الاعتبار؟

٤- ما هي القنوات الّتي يفضلها المستقبلون؟

وتعتمد الإجابة على مثل هذه الأسئلة على خبرة المتّصل ومدى معرفته بطبيعة الجمهور الّذي يتعامل معه. ومدى توافر القنوات الاتّصاليّة وبالطّبع طبيعة الرّسالة الّتي يرغّب في توصيلها، والأهم مدى خبراته ومهاراته في استخدام القنوات الاتّصاليّة المختلفة.

شروط جودة الوسيلة:

ويجب أن تتوافر في الوسيلة بعض الصّفات أو الخصائص الّتي تحكم جودتها ومناسبتها للموقف التّواصلي ومنها:

١. أن تكون الوسيلة التّواصليّة نابعة من موضوع الرّسالة وتؤدي إلى تحقيق الهدف منها كتقديم المعلومات أو بعض المهارات.

٢. أن تشوق المتلقّي وترغّبه في الإطلاع والبحث والاستقصاء وتساعده على استنباط خبرات جديدة.
٣. أن تربط الخبرات السّابقة بالخبرات الجديدة.
٤. أن تجمع بين الدّقة العلميّة والجمال الفني مع المحافظة على وظيفة الوسيلة.
٥. أن تكون رخيصة التكاليف متينة الصّنع.
٦. أن تكونَ الوسيلةُ مناسبةً ليستفادَ منها في أكثرَ من مستوى.
٧. أن يتناسب حجمها أو مساحتها أو صوتها وعدد الدّارسين.
٨. أن تتناسب الوسيلة والتطوير التكنولوجي والعلمي للمجتمع.
٩. أن تكون الوسيلة واقعيّة أو قريبة من الواقع.

خامسا: التّغذية الرّاجعة:

وهي المعلومات الّتي يتلقّاها المصدر من المستقبل وكذلك البيئة المحيطة، والّتي تساعده في الاستمرار أو في تعديل عمليّة الاتّصال.

ويمكن أن نشبه المتّصل بربان السّفينة الّذي يعتمد على كثير من الأجهزة والمعدات بالإضافة إلى الحواس المختلفة بهدف التّعرّف على البيئة المحيطة، والحصول على المعلومات الّتي تساعده في تحديد مسار السّفينة، وكلما كانت هذه المعلومات جيدة فإنّ الرّبان ووفقا لتلك المعلومات يصحح مسار السّفينة حتى لا تصطدم بالصّخور أو تنحرف عن مسارها.

وللتغذية الرّاجعة فائدة كبيرة في الموقف التّواصلي تمكن المرسل من معرفة تأثير رسالته على المتلقّين من خلال استجاباتهم المختلفة. لكي يستطيع أن يقرر فيما إذا كانت الرّسالة حقّقت أهدافها أم لا. وذلك كأن يقوم المستقبل بإبلاغ المرسل تسلمه للرّسالة وفهمه لها ثمّ يقوم بالرّد عليها، وهذا مما يؤكد ضرورة تطبيق الأنموذج الحديث للاتّصال في بيئات التّواصل المختلفة.

وقد تكون التّغذية الرّاجعة إيجابيّة بالموافقة والقبول، أو سلبيّة بالمخالفة والرّفض، وبالتّالي تمثل التّغذية الرّاجعة التّفاعل والاستمراريّة بين عناصر الاتّصال، وتجعل عمليّة الاتّصال دائريّة حيويّة ومستمرة، وتؤكد أن عمليّة الاتّصال هي عمليّة تبادل للأدوار، فمن

كان مرسلاً يصبح بعد ذلك مستقبلاً، ومن كان مستقبلاً يصير بعد قليل مرسلاً، وبالتّالي تتحقّق عمليّة التّفاعل الإيجابي بينهما.

وهناك أربع طرائق للنظر إلى رجع الصّدى، إذ قد يتصف بكل من الاحتمالات الآتية:

١. قد يكون إيجابيّاً أو سلبيّاً.
٢. داخليّاً أو خارجيّاً.
٣. فوريّاً أو مؤجلاً.
٤. حرّاً أو مقيّداً.

المطلب الرّابع
مهارات الاتّصال الأساسيّة

مر بنا الحديث عن مهارات التّواصل الفعّال، لكنّا نتحدث هنا عن أهمّ المهارات الّتي على المرء أن يدرسها وينميها حتى يكون كُفؤاً في عمليّة التّواصل، وهي مهارات مشتركة بين طرفي الإرسال والاستقبال؛ فهناك عدد من المهارات الاتّصاليّة يجب توافرها لدى المرسل والمستقبل، منها خمس أساسيّة وهي:

١- الكتابة والتّحدّث.

٢- القراءة والاستماع.

٣- مهارة التّفكير ووزن الأمور.

٤- مهارة اللّغة غير اللّفظيّة، أي الاستخدام الجيّد للُّغة غير اللّفظيّة.

٥- مهارة الإقناع، ويدخل فيها التّعبير الجيد عن رسالته أمام مستقبليه مع وضوح صوته.



نموذج توضيحي لمهارات الاتّصال الأساسيّة

هذا كله بالإضافة إلى الأداء الجيد في سائر مهارات الاتّصال. حيث إنّ القدرة على التّفكير تساعد في تحديد الأهداف والقيام بعمليّة التّرميز. وهو بذلك يسعى إلى ضمان تمكنه من النّجاح في المهامّ الّتي قد تقع على عاتقه، كتقديم العروض، والمقابلات الشّخصيّة، والتّفاوض، وإدارة الاجتماعات. وبالتّالي سنستعرض هنا بالتّفصيل هذه المهارات المشتركة بين المتّصل والمستقبل على حدّ سواء:

أولاً- مهارات أساسية لتلقّي اللّغة اللّفظيّة:

وهي بالأساس المهارات الّتي يحتاج إليها المرسل (المصدر- المتّصل- المرمز)، مع أنّ

عمليّة الاتّصال لابدّ فيها- على الأغلب، لكي تتمّ- من أن يتحول المتلقّي إلى مرسل، والمرسل إلى متلقٍّ، وعلى الخصوص في أثناء عمليّة التّغذية الرّاجعة.

إنّ تحقيق الاتّصال النّاجح يتطلب عدداً من المهارات الواجب التّحلي بها لضمان التّمكن من التّعامل مع متطلبات الموقف التّواصلي. فيجب أن تتوافر في من يقوم بالإرسال لكي يتحقّق نجاحه مجموعة من الصّفات والخصائص الّتي تجعله متّصلا جيداً، يمكن تسميتها بمهارات الإرسال الفعّال، من أكثرها أهميّة أنه يجب عليه أن يكون قادراً على ما يأتي:

١- الكتابة والكلام: والغرض من ذلك وضع الرّسالة في صورة رموز، تمثل في مجموعها معنى معيناً، يسعى المتّصل إلى إيصاله للطرف الآخر.

٢- القراءة والاستماع: والغرض منهما هو فك وتفسير الرّموز الّتي يستقبلها.

٣- التّفكير: وهي مهارة مهمّة لكلّ من عمليّتي التّرميز، وفك الرّموز وتفسيرها. وترتبط ارتباطا كبيراً بالهدف من الاتّصال.

٤- اللّغة والقدرة على استخدامها: وهي ذات أهميّة رئيسة بين العوامل، حيث تؤثر في قدرتنا على التّفكير، ووضع الرّسائل في صورة رمزية لغويّة مؤثرة، وبالتّالي تعدّ أهمّ مكونات الاتّصال. ومن أجل ذلك لابدّ لنا من البيان التّفصيلي لما يتعلق بلغة ترميز الرّسالة. ونبحث ذلك تحت عنوان: المهارات اللّفظية.

٥- مهارة إرسال واستقبال الرّسالة وما تشمله من تبادل للمعلومات.

٦- مهارة جعل مضمون الرّسالة مناسباً: بأن يكون مرتبطاً ومتفقاً مع خبرات وحاجات المتلقّي.

٧- مهارة التّحديد الدّقيق لسمات ومحددات شخصية وخصائص المتلقّي.

٨- مهارة استخدام أفضل الأساليب والوسائل المناسبة في توصيل المعلومات.

٩- مهارة استخدام الوقت والمكان المناسبين للإرسال بحيث يتفق مع ظروف المتلقّي.

١٠- مهارة التّنبؤ بالمعلومات الّتي قد تصادف عمليّة الاتّصال كيفية التّغلب عليها والتّقليل من تأثيرها السّلبي.

ومن الملاحظ أنّ هذه المهارات تشتمل على لفظيّة وغير لفظيّة.

مهارات المرسل اللّفظية:

تتمثل المهارة اللّغوية في تكوين جمل أو عبارات صحيحة نحوياً، أمّا مهارة الاتّصال فتتمثّل في استخدام جمل أو عبارات ذات معنىً ودلالةٍ في الموقف التّواصليّ. ويمكن التّوقّع بأنه لا توجد مهارة اتّصال من دون المهارة اللّغويّة؛ لأنّ المهارة اللّغويّة (قواعد- صوتيّات- مفردات لغويّة) هي الأساس لمهارة الاتّصال، والأخيرة هي الأعم والأشمل، وتدخل تحتها المهارة اللّغويّة.

وتتضمن اللّغة اللّفظيّة كما في العربيّة أو الإنجليزيّة أو الفرنسيّة جانبين: اللّغة الشّفهيّة، واللّغة التّحريريّة. ويشتمل كلّ منهما على مهارتين، هما مهارة الاستقبال ومهارة الإرسال. وبالتّالي تتضمن كلّ لغة حيّة مهارات لفظيّة أربعة، سيأتي تفصيل الحديث عنها ضمن (مهارات الاتّصال الأساسيّة). وهي:

١- مهارة الفهم السّماعيّ (الاستماع).

٢- مهارة التّعبير الشّفهيّ (التّحدث).

٣- مهارة الفهم القرائيّ (القراءة).

٤- مهارة التّعبير التّحريريّ (الكتابة).

عوامل نجاح الإرسال في الاتّصال اللّفظيّ الشّفهيّ:

فإذا استخدمت اللّغة **وسيلة للاتّصال**، وجب أن يلاحظ عند ذلك أنّه صار من الضّروري التّعامل مع اللّغة بوصفها مهارة اتّصال، وأن لا يقف الأمر عند حدّ كونها مهارة لغويّة فقط، فيتعين أن يراعى ما يلي:

١. التّحدث بصوت مرتفع يسمعه كلّ المتلقّين.

٢. التّحدث بلباقة وبأسلوب واضح يفهمه كلّ المتلقّين.

٣. النّطق الصّحيح للغة (أصوات – كلمات – جمل).

٤. التّنويع في نبرات صوته خلال الموقف التّواصليّ.

٥. الاستماع الجيد للمتلقّين.

٦. الاستخدام الصّحيح للغة التّحريريّة ووضوح الكتابة.

٧. استخدام المفردات اللّغويّة الواضحة والبسيطة، الّتي يمكن من خلالها إيصال معلومات المادة العلميّة ببساطة إلى المتلقّين.

٨. البعد عن تكرار مفردات معينة بصفة مستمرة، حتى لا يعدها المتلقّون لازمات لديه.

أ- الاستماع:

يصنّف السّمع على أنه أكثر الأنشطة الاتّصاليّة استهلاكاً للوقت، (فنحن نقضي معظم عمرنا في الاستماع). والسّمع هو أوّل أنواع الاتّصال الّتي يقوم بها الإنسان، فنحن نتصل سمعياً قبل أن نولد، ولا نستعمل عيوننا إلا بعد أن نولد، أما الكلمات المنطوقة فلا تستخدم قبل عام من الولادة.

يفرق العلماء بين السّمع والاستماع. فالسّمع وظيفة الأذن في تلقّي المثيرات الصّوتيّة، في حدود القدرة السّمعيّة للإنسان. ويعرفه البعض بأنه استقبال الأذن لذبذبات صوتيّة، من مصدر معين، دون إعارتها انتباهاً مقصوداً.

أما الاستماع فهو شيء أكثر تعقيداً من السّمع؛ لأنّه يتطلب السّير إلى أبعد من تلقّي الكلمات، إلى التّقاط كلّ المعلومات الّتي نقلت في موقف تبادلي أو تفاعلي... فالاستماع الجيّد يتحقّق به فهم معاني كلّ ما يسمع، ومعرفة الأفكار الّتي فيه أو معظمها على الاقل، وربط ما يتمّ سماعه بالخبرة. ويعرف بأنه: قدرة المستقبل على التّركيز بمحتوى الرّسالة وفهمها على الوجه المطلوب.

ومع ما سبق من أنه عمل المستقبل، فإنّ من أخطر الأمور في مجال الاتّصال أن يعتقد المتّصل أنه هو وحده من يملك المعرفة الحقيقيّة المطلقة وأنّ لديه القدرة الكاملة على إيصالها، وأنّ على المستقبلين الاستماع إلى ما يقول، دون أيّة محاولة منه لبذل الجهد للاستماع. فإنّ حسن الاستماع مهارة يجب أن يتصف بها طرفا الاتّصال، وكثير من سوء الفهم يرجع إلى نقص القدرة على الاستماع لدى أحدهما.

وهنا يجب الحذر من أنه من السّهل أن نتظاهر بالاستماع، ونحن في الحقيقة قد أغلقنا عقولنا عن استقبال الحديث الموجه إلينا. وقد يكُونُ موضوعُ الحديث حيوياً ومهمّاً، ولكنّنا

لا ننصت إلى ما يقال.

❖ **شروط تحقيق الإنصات الفعّال:**

وحتى يتمكن من يقوم بالاستقبال من تحقيق عمليّة الإنصات الفعّال، لابدّ من مراعاة جملة أمور هي:

١- التّعمق في كلمات المرسل ومحاولة تفسيرها بالوجه المطلوب.

٢- التّركيز على الهدف الأساسي لحديث المرسل.

٣- عدم مقاطعة المرسل.

٤- عدم إطلاق الأحكام على حديث المرسل حتى ينتهي من حديثه.

❖ **وسائل الارتقاء بمهارة الاستماع:**

ولكي نحسن إذن من مهارة الاستماع لدينا، علينا اتباع النّصائح التّالية:

١- استمع إلى الآخرين وأنت تحمل نحوهم اتجاهات موجبة.

٢- لا تجعل مشاعرك تؤثر في قدراتك على الحكم السّليم.

٣- حافظ على تركيزك.

٤- حاول إيجاد ما يجذب اهتمامك.

٥- لا تدخل في حالة –ليس عندي وقت.

٦- ضع نفسك مكان المتحدث.

٧- الاستماع النّشط يعطى معنى للرّسالة.

٨- غربل وافرز ما تستمع إليه.

٩- كن الحكم على ما تسمع.

١٠- لا تتردّد في طلب الاستيضاح.

❖ **مراحل عمليّة الاستماع:**

تمر عمليّة الاستماع بمراحل كثيرة تشمل الخطوات التّالية:

١- الإنصات، وهو يعني استقبال المتلقّي لرموز الرّسالة من خلال السّمع.

٢- التّفسير، أي انتقال هذه الرّموز إلى مركز التّفكير عند المتلقّي. ليتمّ التّفكير بهدف

الوصول إلى تفسير الكلام ومعانيه. تفسير الكلام فالتّفاعل معه يأتي عندما تتهيّأ الأذن للاستماع وتنقل المؤثرات الخارجيّة إلى مركز التّفكير حيث تتمّ طائفة من العمليّات العقليّة المترابطة لفهمها وتفسيرها.

٣- الاستيعاب، أي فهم معنى الرّسالة الّتي يستمع إليها المستقبل. وفهم المعنى من النّاحية السّيكولوجيّة، هو معرفة العلاقات القائمة في موقف يواجهه الفرد وإدراكه لهذا الموقف ككلّ مترابط، والفهم من النّاحية العمليّة هو التّكيف النّاجح لموقف يجابهه. وهذا التّكيف لا يأتى إلا نتيجة لفهم العلاقات القائمة في الموقف، وتمييز العناصر الرّئيسة فيه. وهذا يتطلب أن يوجه المستمع انتباهه إلى المعنى العام للمحتوى الذى يستمع اليه.

٤- الاستجابة إلى هذا التّفسير، بشتّى صورها (لفظيّة، سلوكيّة، مشاعر).

٥- الحكم والتّقويم، أي تقييم المحتوى الّذي نستمع إليه، ويقع التّجاوب مع المحتوى المسموع والانتفاع به ونقده بدرجات مختلفة، تتفاوت بحسب النّواحى الّتي يعرضها المتحدث وطريقته في عرضها وترتيبها وتسلسلها وملاءمة المؤثرات لعقل السّامع، والمقصود بهذه المؤثرات هو: (نظام الاداء، من نواحي: وضوح الصّوت، ودرجته ارتفاعه، وسرعة الصّوت، وتنوعه، وتمثيله للمعاني والأفكار، وما يتخلله من الوقفات القصيرة في بعض الأحيان حسب المناسب).

٦- الوصول إلى تحقيق التّكامل بين خبرات المتّصل والمستمع. حيث إنّ تكامل الخبرة وفاعليتها هو الغرض النّهائي، الذى من أجله يفهم ويفسر ويقوم موقف الاتّصال، ومن هنا يشار إلى المجال الذى تحدث فيه عمليّة الاتّصال اللّغوي، على أنه مجال التّكامل بين خبرات المتكلم وخبرات المستمع.

❖ **توزيع عوامل فاعليّة عمليّة الاستماع:**

ويمكن توزيع عوامل فاعليّة عمليّة الاستماع على أطراف كثيرة، كما يلي:

- **العوامل الخاصة بالمتحدث:**

تتوقف عمليّة الاستماع على مجموعة من العوامل المتّصلة بالمتحدث وأهمّها:

١- سرعة المتحدث: حيث انه من الضّروري إجراء المتحدث للحديث بالمعدل المعتاد وهو ١٢٥-١٧٥ كلمة/الدّقيقة، وهو المستوى الذي يسمح للمستمع بأن يستوعب ويتابع الأفكار والمعلومات الواردة إليه ويتمكن من تفسيرها.

٢- اللّهجة الّتي يتحدث بها المتحدث: وعليه أن يتأكد من أنّ اللّهجة الّتي يتحدث بها مناسبة ومفهومة وتقع في نطاق خبرات المستمع.

٣- درجة انفعّال المتحدث: حيث المتحدث المليء بالمشاعر الحماسيّة للموضوع والمقنع للمستقبل يكون أكثر قدرة على جذب وشد انتباه المستمع ويجعله أكثر تركيزاً واهتماماً بما ينقل اليه.

٤- مكانة المتحدث: حيث يتمّ التّركيز من قبل المستمع إلى الشّخص ذو المكانة الاعلى ويكون كلامه مصدر اهتمام من قبل مستمعيه.

٥- مستوى ثقة المتحدث في نفسه: حيث تنعكس درجة ثقة المتحدث في نفسه على مدى اهتمام المستمع بما يقول، ولكن بحيث لا تصل إلى مستوى الغرور أو اشعار الآخرين بأنهم أقل منه في المستوى فإنّ ذلك سيجعلهم ينفرون منه.

- **العوامل الخاصة بالرّسالة:**

تتأثر فاعليّة الاستماع بجملة عوامل خاصة بالرّسالة ذاتها، منها:

١- صحة العبارات والصّياغات الّتي تمت معالجة الرّسالة بها من قبل المتّصل، من حيث وضوحها وترابطها المنطقي.

٢- ملاءمة مستوى ارتفاع صوت المتحدث، حيث إنّ له أهميّة كبيرة في عمليّة الاستماع، فإنّ المستمعين إن لم يستطعوا سماع ما يقوله المتحدث سيشغلون أنفسهم بأشياء أخرى.

٣- مراعاة أن لا يكون الصّوت على وتيرة واحدة طوال الوقت، بل تتفاوت وتيرته بين حين وآخر، وخاصة بما يتلاءم مع التّعبير عن مضمونه، حتى لا يشعروا بالملل.

- **العوامل الخاصة بالمستمع:**

وهو الطّرف المستهدف من عمليّة الاتّصال والاساسي في عمليّة الاستماع وعليه

يتوقف نجاح أو فشل العمليّة الاتّصاليّة ولذا ينبغى أن تتوافر في المستمع مجموعة من المقومات والقدرات الّتي تساهم في نجاح عمليّة الاستماع وهي:

١- القدرة على فهم اللّغة الشّفهيّة للمتحدث.

٢- القدرة على تحديد التّفاصيل الفرعيّة المرتبطة بموضوع الاتّصال.

٣- تمييز العلاقات الواضحة بين الأفكار، ذات العلاقة المباشرة أو غير المباشرة بموضوع الاتّصال.

٤- القدرة على استدعاء أو استرجاع الأفكار والمعلومات، والخبرات والتّفاصيل السّابقة، ذات الصّلة الرّئيسة بموضوع الاتّصال.

٥- ولابدّ من تحقّق المقدرة اللّغويّة والدّافع.

❖ **معوّقات الاستماع الجيد:**

هناك مجموعة من المعوّقات الّتي تفقد الاستماع فاعليته يمكن إجمالها فيما يلي:

١- عدم الإعداد الجيد للحديث، مما يجعل المستمع ينصرف عن الاستماع له.

٢- اللامبالاة، وعدم الاهتمام بالمتحدث، أو بموضوع الحديث.

٣- الاتجاه السّلبي ضد المتحدث، أو عدم قبوله، أو عدم الارتياح له.

٤- السّلوك النّقدي المتشدد ضد المتحدث.

٥- تركيز المستمع واهتمامه بمحاولة السّيطرة على الطّرف الأخر. وللقدرة على التّعبير، ولمهارة التّفاوض والإقناع دور كبير في ذلك.

٦- فقدان الهدف، فالمستمع الّذي يشعر أنّ الحديث لن يقدم له معلومات جديدة لن يتوافر لديه استشعار أهمّيّة الحديث، فلن يشجع المتحدث على الاستمرار.

٧- فقدان الإحساس بالمسؤوليّة لدى المستمع، وفقدان الإحساس بأهمّيته كعضو أساسي ومشارك، وفعّال في عمليّة الاتّصال.

٨- وجود عوائق بيئيّة، مثل: الضّوضاء، حلول موعد الرّاحة في الجلسة، أو عدم

القدرة على تسجيل وتدوين ما تم الاستماع إليه.

٩- وجود عوائق متّصلة بالمشاعر، مثل الضّغط، والإجهاد، والغضب، والتّحيز.

١٠- وجود عوائق ذهنيّة، مثل السّرحان وعدم التّركيز، وضعف الطّلاقة اللّغويّة.

ب- القراءة:

تعدّ مهارة القراءة لدى المستقبل مؤثّراً مهمّاً في فاعليّة الاتّصال. ولعلّ فشل الاتّصال في أحد نواحيه يرجع إلى اختلال مهارة الاستقبال لدى المستقبلين، ولا تزال القراءة أهمّ الوسائل الّتي تنقل إلينا ثمرات العقل البشريّ، وهي ليست مجرّد ضمّ حروف إلى بعضها لتكون مقطع أو كلمات. إنّها عمليّة غاية في التّعقيد، تقوم على أساس تفسير الرّموز المكتوبة أي الرّبط بين اللّغة والحقائق، فالقارئ يتأمل الرّموز ويربطها بالمعاني، ثمّ يفسّر تلك المعاني وفقاً لخبراته، فهو يقرأ رموزاً ولا يقرأ معاني، وتكون القراءة عمليّة يبنى فيها القارئ الحقائق الّتي تكمن وراء الرّموز، ولابدّ لهذا البناء من أن يتصل بالخبرة لتفسّر له تلك الرّموز.

ومن الخطأ أن نعدّ مجرّد تمييز الحروف والنّطق بالكلمات قراءة، فتلك عمليّة آليّة لا تتضمّن صفات القراءة الّتي تنطوي على كثير من العمليّات العقليّة كالرّبط والإدراك والموازنة والفهم والاختيار والتّقويم والتّذكر والتّنظيم والاستنباط والابتكار في كثير من الأحيان.

والقراءة أسلوب من أساليب النّشاط الفكريّ في حلّ المشكلات وهي نشاط فكري متكامل، يبدأ بإحساس الإنسان بمشكلة من المشكلات، ثمّ يأخذ الإنسان في القراءة لحل هذه المشكلة، ثمّ لابدّ له من تفكير وعمل.

والقراءة أداة العالم في الاستزادة، وفي أن يضيف إلى حصيلته الثّقافيّة في كلّ يوم شيئاً جديداً. وهي تحدّد الميول وتزيدها اتساعاً وعمقاً، وتنمي الشّعور بالذات وبذوات الآخرين، وتدفع العقل إلى حب الاستطلاع والتّأمل والتّفكير، وتكسب الفرد شعوره بالانتساب إلى عالم الثّقافة، حيث إنّ القراءة أداة للاستزادة من المعرفة، كما أنها تساعد الشّخص على التّوافق الشّخصي والاجتماعيّ، وللقراءة أيضاً أهمّيّة في تكوين شخصيّة الفرد وتدعيمها ويكتسب الإنسان عن طريقها ثقته بنفسه.

ويعرفها بعضهم بأنها: "عمليّة تتناول قدرة الإنسان على وضع المعاني للكلمات المطبوعة أو المكتوبة، في علاقاتها مع القرينة والسّياق، والّتي تَعتمِدُ على خبرته وتجربته، وقدرته على الإدراك".

❖ **المهارات اللازمة للقراءة:**

ليست القراءة بالمهارة البسيطة كما يظن البعض، وإنما هي معقدة ومركبة، وتعتمد على الكثير من القدرات الّتي تشكل أساساً لمهارات متعددة لغويّة وبصريّة وسمعيّة أيضا، ولعل نمو القدرة على القراءة يعدّ حصيلة لمجموعة من المهارات يجب أن تحصل وان تكتسب. والتّقدم نحو مهارات القراءة الأكثر تطوراً إنما يعتمد إلى حدّ كبير على اكتساب مهارات أساسيّة في القراءة. ولا شك أن المهارات الأكثر تعقيداً تبنى على أساس المهارات المكتسبة من قبل والّتي تعدّ سهلة بالنّسبة لما يليها.

وهناك مجموعة من القدرات اللازمة للقارئ ليتمكن من القراءة الجيدة وهي:

١- القدرة على النّظر إلى الكلمات المكتوبة وإدراك النّقاط الأوّليّة المهمّة في الموضوع بمجرد النّظر إليها.

٢- القدرة على ترتيب وتنظيم المادة المقروءة.

٣- القدرة على إدراك المعنى العام للمادة المقروءة.

٤- القدرة على القراءة مع التّنبؤ بالنّتائج.

٥- القدرة على التّمييز بين أجزاء وفصول وتفريعات المادة المقروءة.

٦- القدرة على نقد وتمحيص المادة المقروءة.

وكلّ نوع من هذه القدرات يحتاج في تكوينه إلى جملة مهارات مختلفة. وتتمثل هذه المهارات في: التّعرّف على الكلمات، والتّأكد من معاني الكلمات، وفهم ما يقرأ وتفسيره، وإدراك العلاقات بين الكلمات والجمل والعبارات، والقراءة في صمت بما يحقّق الاقتصاد في الوقت والجهد ويحقّق عائداً من الفَهْمِ أقوى وأشملَ، والقراءة جهراً في صحة وسلامة، واستعمال الكتب بمهارة.

❖ **مقاييس مهارة القراءة:**

وقد تم استخلاص جملة بنود استخدمت في قياس مهارة القراءة تمثلت فيما يلي:

١- قوّة عادة قراءة المطبوعات والرّغبة فيها.

٢- الوقت الّذي تتمّ فيه قراءة المطبوعات.

٣- التّوقيت المخصّص للقراءة من اليوم.

٤- الزّمن المستغرق في القراءة.

٥- المكان الّذي تتمّ فيه القراءة.

٦- مشاركة الآخرين أثناء القراءة.

٧- أسلوب أداء القراءة.

٨- الأسلوب المتبع في قراءة الموضوع.

٩- تكرار قراءة الموضوع.

١٠- المحافظة على المطبوعات، والرّجوع اليها.

❖ **تنمية مهارات القراءة:**

تتعلق مهارة القراءة بمدى قدرة القارئ من خلال الممارسة على استيعاب النّص المكتوب والتّعامل معه وفهمه. وهناك الكثير من العوامل الّتي تساعد على تحسين مهارة القراءة تتحدد في مجموعة من النّقاط الآتية:

١. تحديد الأوّلويات: على القارئ أن يختار دائماً قراءة الأكثر أهميّة والّذي يمثل للقارئ إضافة جديدة.

٢. الانتباه أثناء القراءة: والانتباه نشاط عقلي يعني التّغلب على تأثير المثيرات الأخرى الّتي تؤثر على التّركيز وتشتيت الانتباه. ويعدّ عدم الانتباه من المعوّقات المهمّة الّتي تؤثر على فاعليّة عمليّة القراءة.

٣. فهم ما يقرأ: ولتنمية مهارة الفهم للمادة المقروءة فهناك خطوات محددة تساعد

على ذلك وهي:

{١}- القراءة بالسّرعة المناسبة لطبيعة المادة المقروءة ووفقاً للغرض من القراءة.

{٢}- ممارسة القراءة مع التّفكير في ما يقرأ.

{٣}- الاهتمام برصد الاستجابات النّاشئة عن القراءة مع التّفكير مع التّدوين لبعضها أو عمل التّلخيص لما قرأ.

{٤}- تنمية الرّغبة في تذكر ما يقرأ.

{٥}- التّعرّف على الأفكار الرّئيسة والفرعيّة.

٤. توفير البيئة المناسبة للقراءة: وتتضمن بيئة القراءة عوامل كثيرة تؤثر على فاعليّة القراءة كنشاط يمارسه القارئ مثل: تلافي تأثير المشكلات الشّخصيّة أو العامة، ومراعاة الحالة المزاجيّة، والاتجاهات نحو المادة المقروءة سلبيّة كانت أم إيجابيّة، ومراعاة الوضع السّليم للقراءة لتجنب الإجهاد والشّد العضلي.

٥. استخدام الأسلوب الأمثل للقراءة: والطّريقة المثلى للقراءة كما حددها العلماء تتضمن الخطوات التّالية:

أ- المسح: وهي قراءة عابرة للكتابة.

ب- الفحص: وهي قراءة بتركيز أكثر من السّابقة، وتساعد في تقييم الموضوع ونقده والتّعرّف على الفكرة الرّئيسة للموضوع وفهم واستيعاب اتجاهه العام.

ت- القراءة: وفيها يتخذ القارئ قراره بقراءة الموضوع ككلّ، وقد يلخص بعض الأجزاء، أو يضع إشارات أو خطوط ذات دلالات معينة.

ث- المراجعة: وهي خطوة ضروريّة، تساعد على ثبيت الأفكار غير الواضحة، أو المشوشة، وتفيد كذلك إعادة قراءة ما لم تستطع تذكره خلال مرحلة الاسترجاع.

ثانياً- مهارة التفكير

تعرف هذه المهارة بأنها سرعة استعمال الفكرة في المواقف والعلاقات المحيطة بالعمل

خلال عمليّة الاتّصال، ولابدّ من التّفريق بين نوعين من التّفكير أثناء استخدام أو دراسة مهارة التّواصل مع الآخرين هما:

❖ **التّفكير التّحليليّ:**

هو التّفكير الّذي يعتمد على المنطق كأساس للوصول إلى حل لمشكلة ما، ولابدّ من اتباع خطوات علميّة منطقيّة للتّعرّف على المراحل الّتي تمر بها المشكلة.

❖ **التّفكير الابتكاريّ:**

هو التّفكير الّذي يعتمد على الخيال والإبداع للوصول إلى حل لمشكلة ما، ويتميّز هذا النّوع بتعدد الأفكار المختلفة الّتي تقود الشّخص للوصول إلى الحل.

الفرق بين نوعي التّفكير التّحليليّ والابتكاريّ

التّفكير التّحليلي	التّفكير الابتكاري
الاعتماد على المنطق	الاعتماد على الخيال والإبداع
اتباع أسلوب متسلسل في خطوات معينة	القفز من فكرة لأخرى ومن مسار تفكير لأخر
اشتراط الصّواب في كلّ خطوة من خطواته	لا يشترط الصّواب في كلّ خطوة من خطواته
استبعاد الأفكار المعروضة أوّلاً بأول	توليد أفكار جديدة وكم هائل من الأفكار المختلفة

ثالثاً- مهارات أساسية للإرسال باللّغة اللّفظيّة:

أ- التحدث:

تعدّ القدرة على الحديث من الصّفات المهمّة الّتي يجب أن يتصف بها رجل الاتّصال وتنبع أهمّيّة الحديث كمهارة من مهارات الاتّصال من خلال الوظائف الّتي يؤديها الحديث. إذ هو الحديث أحد وجهي الاتّصال اللّفظي، فكلنا يتكلم لكن هناك القليل منّا ممّن يمتلك المهارات المتقدمة في الحديث، والقدرة على استعمال الكلمات هي ميزة وسمة من سمات القيادة والقدرة القياديّة للأفراد.

إنّ المحادثة عمليّة اجتماعيّة، لكنّها لا ترتبط بالمواقف الاجتماعيّة فحسب، بل توجد

أيضاً في الكثير من التّفاعلات الإنسانيّة، وهناك تعبيرات محددة وشائعة تستخدم في المحادثات الاجتماعيّة، حيث نستخدم مثلاً كلمات للترحيب مثل: (أهلا، مرحبا، كيف الحال.... إلخ). وقد تكون تلك الكلمات على سبيل المدخل الرّئيس لفتح مجال للمحادثة والتّعارف، وبناء علاقات اجتماعيّة أو تقوية الصّداقات.

ويعرف الحديث أيضاً بأنه "الكلام الّذي يستطيع أن يعبر المتحدث من خلاله عما بداخله من مشاعر وخواطر وإحساسات وأفكار ومعلومات في طلاقة وبصوت معبر ووقفات مناسبة وأفكار واضحة ونطق سليم". كما يعرف الحديث بأنه "التّعبير الّذي يحقّق وظائف اجتماعيّة على مستوى الفرد أو مستوى الجماعات، والهدف من اتّصال النّاس بعضهم ببعض لتنظيم حياتهم وقضاء مصالحهم". فللاتّصال أهمّيّة خاصة في عمليّة الاتّصال باعتباره الأسلوب الطّبيعي للتعامل والاتّصال بين الأفراد وهو أهمّ ألوان النّشاط اللّغوي للإنسان، وعن طريق الحديث يكون الأفراد الانطباعات الأوْلى عن المتحدث. ولكي ينفذ المتحدث إلى قلوب مستمعيه يجب أن يرتب وينسق لما يقول حتى يكون مؤثراً قادراً على الإقناع ويتكون بداخل مستمعيه اتجاهاً إيجابياً نحوه.

وتعرف هذه المهارة بأنها: قدرة الشّخص على التّحدث بفاعليّة مع الآخرين وتجنب الوقوع في الأخطاء أثناء الحديث، وعمليّة توجيه الأسئلة إلى المستمع بالطّريقة الّتي تساعد الشّخص على إيصال رسالته بصورة فعّالة.

وحتى يتمكن المرسل من التّحدث بفعّاليّة إلى المستقبل، يجب أن يراعي النّقاط التّالية:

١- اختيار التّوقيت المناسب للتحدث مع المستمع.

٢- معرفة محتوى الرّسالة، وما تتضمنه من مفاهيم.

٣- استخدام أساليب متنوعة في الحديث والتّركيز على جوهر الموضوع.

٤- استخدام لغة بسيطة ومصطلحات واضحة.

٥- استخدام الأمثلة المباشرة أثناء الحديث.

❖ **قواعد مهمّة للمحادثة:**

وهناك أربع قواعد يجب مراعاتها لإجراء المحادثة هي:

١- لا تحاول أن تكون سيّد المحادثة وأن تحتكر الحديثَ منفرداً حتى لا يعزف الآخرين من الاستماع إليك أو إهمال الاهتمام بحديثك.

٢- لا تغيّر موضوع المحادثة: طالما هذا الموضوع هو مركز اهتمام الحاضرين، حتى لا يشعر الآخرين بعدم الاهتمام بوجودهم حتى تحين الفرصة المناسبة لذلك.

٣- لا تتدخل وتقاطع المتحدث وتكمل حديثه، فغالباً يكون استكمال الحديث يسير في اتجاه مغاير لقصد المتحدث الاصلي.

٤- يجب أن تتحكّم في أعصابك أثناء الحديث فلا تمل أو تغضب أو تبدى الرّغبة في إنهاء الحديث، واعرض وجهة نظرك بمهارة وليس بالصّوت المرتفع.

❖ **التّخطيط الجيد للحديث:**

التّخطيط للحديث هو أوّل خطوات التّأثير في المستمعين وإقناعهم وهناك مهامّ يؤديها المتحدث كي يكتسب حديثه أهمّيّة وفاعليّة لدى المستمعين. ويمكن تقسيم هذه المهامّ إلى مراحل:

- مرحلة الإعداد للحديث.
- مرحلة توجيه الحديث.
- مرحلة تقييم الحديث.

أوّلاً: مرحلة الإعداد للحديث:

وتشتمل هذه المرحلة على مهامّ يؤديها المتّصل قبل عرض موضوعه وقد تم تحديدها فيما يلي:

١- تحديد الهدف من الحديث: ويعني تحديد الإجابة عن سؤال محدد وهو لماذا يتحدث؟ والإجابة سوف تساعد في تحديد قيمة الحديث، وإذا لم يتضمن الحديث هدفا محدد فلن يكون هناك تفاعل، وبالتّالي لن يكون هناك اتّصال.

٢- تحليل المستمعين: أو تحديد نوعيّة الجمهور: ينبغي على المتحدث أن يحدد شخصيّة

مستمعيه قبل أن يقوم بالحديث معهم حتى يساعده ذلك في تحديد الطّريقة والأسلوب المناسب الّذي يجب أن يستخدمه في الحديث.

٣- إعداد وتجهيز الموضوع: من خلال تحديد المراجع والمصادر الّتي يلجأ المتحدث إليها ليحصل منها على المعلومات الّتي تساعده في إعداد الموضوع.

٤- اختيار الوقت والمكان المناسبين: لابدّ للمتحدث أن يحدد متى وأين سيتمّ الحديث على أن يتناسب هذا التّوقيت مع استعداد المستمع لسماع الحديث، وأيضا المكان الّذي سوف يؤدى فيه المتحدث الحديث يجب أن يكون معدا إعدادا جيداً.

ثانياً: مرحلة توجيه الحديث:

تنطوي مرحلة توجيه الحديث على مهامّ يؤديها المتحدث قبل العرض مباشرة تتمثل في بعض الاستعدادات الحركيّة الجسميّة يتمثل أهمّها فيما يلي:

١- المظهر الجيد: من خلال الثّقة بالنّفس والإشارات المناسبة والملبس المناسب والتّعبيرات المبهجة، وحسن استخدام الوقفات في بداية الحديث وأثناءه حتى يكتسب الحديث فاعليّة وجاذبيّة.

٢- وضع الجسم: ينبغي أن يكون المتحدث واقفا في مواجهة الحاضرين وجها لوجه، ولا يكن صلبا في وقفته، وان يستخدم يديه بحساب للتعبير عن حركات بسيطة.

٣- تعبيرات الوجه والإيماءات: يجب ألا تكون تعبيرات الوجه جامدة أثناء الحديث مع الحرص على تركيز النّظر على المستمعين بالتّساوي، واجتذاب المستمع بصريا من خلال الحركات والإشارات والنّظرات، وعدم تركيز النّظر على الصّفوف الأولى فقط.

٤- حسن الاستهلال للحديث: مع التّركيز على أهميّة الموضوع ومناسبته، والعرض المنظم، واستخدام اللّغة المناسبة.

٥- تجنب الإفراط في استخدام الأوراق المكتوبة: وتستعين بها في تحديد تسلسل الموضوع فقط، وتجنب التّطويل، واستخدام الجمل القصيرة..

٦- بدء الحديث بالآراء المقبولة من قبل الجمهور: لكسب ثقتهم، والحرص على الخاتمة الجيدة الّتي تبلور الموضوع.

٧- الصّوت والنّطق الصّحيح: فالصّوت أداة موسيقيّة قادرة على إحداث نغمات منوعة للحصول على الاستجابات المطلوبة. ويجب هنا أن نوضح أهمّيّة استخدام الصّوت باعتباره أداة مؤثرة في العمليّة الاتّصاليّة بل ويتوقف عليها نجاح المتحدث.

خصائص الاستعمال الفعال للصوت:

ويمكن توضيح خطوات التّحكم في الصّوت، واستخدامه بصورة فعّالة في العمليّة الاتّصاليّة من خلال مراعاة ما يلي:

أ- نطق الكلمات بطريقة واضحة: ويعني النّطق السّليم " إخراج الحروف من مخارجها الصّحيحة بصورة تمكن المستمع من فهم مدلول الحروف والكلمات". كما انه يعني الالتزام بقواعد النّحو والصّرف، والالتزام بالنّطق العام السّائد للكلمات والمتعارف عليه.

ب- وضوح الصّوت: ويعني أن يتمكن المستمع من سماع ما يقوله المتحدث، وإذا كان عدد المستمعين كبير فيمكن للمتحدث أن يستخدم مكبراً لتوصيل الصّوت إلى كلّ المستمعين مع التّنويع في استخدام العلو والانخفاض، والسّرعة والبطء، والرّقة والفخامة.

ج- السّرعة والطّلاقة: على المتحدث أن يعي أنّ كلّ جمهوره يتكون من أشخاص مختلفين في درجة ذكائهم. لذلك على المتحدث أن يستخدم السّرعة العاديّة لكي يرضى غالبيّة أفراد المستمعين، وبحيث يبطئ ويسرع من حين لآخر، ويتمكن من ذلك بالاستحواذ على اهتمام كلّ فرد. أما الطّلاقة فهي تعني قدرة المتحدث على تكوين الأفكار واستدعائها وإبرازها في كلمات وتراكيب مقبولة لغويا بسهولة.

ح- استخدام الوقفات: وهي مواضع الوقوف أثناء الحديث وقد تكون في بداية الحديث لجذب انتباه الجمهور، وقبل وبعد النّقاط المهمّة، وعند نهاية كلّ جملة مفيدة، مع استخدام نبرة الصّوت والأساليب المختلفة كالاستفهام والتّعجب وغيرها.

ثالثاً: مرحلة التّقييم للحديث:

وهي مرتبطة بكلّ الخطوات السّابقة، حيث يقوم من خلال رجع الصّدى والاستماع إلى ملاحظات المستمعين التّعرّف على مدى وصول الرّسالة بصورة مفهومة وواضحة من قبل المستقبلين لها، وهل حقّقت الغرض الّذي يسعى المتّصل إلى تحقيقه من عمليّة الاتّصال، وبالتّالي يمكن من خلالها الوقوف على السّلبيات الّتي يمكن للمتحدث أن يتجنبها في أحاديثه القادمة.

ب- الكتابة:

قد ينزعج البعض من الكتابة، على الرّغم من أنّها قد تكون الوسيلة الوحيدة لتوصيل الرّسالة في بعض الأحيان. والواقع أن الكتابة مهارة تحتاج إلى تركيز وممارسة وجهد في صياغة وعرض الأفكار. ويرى البعض أنها مجهود ذهني مضاعف، فنحن نجتهد لنخرج أفضل ما لدينا وانسب العبارات الّتي تعبر عن المعنى الّذي نقصده.

وقد تكمن صعوبة الاتّصال كتابة في أنه اتّصال يعتمد على الكلمة المكتوبة أو العبارة المدونة فقط فلا يمكن دعمه باتّصال غير لفظي من حركة أو إشارة أو انفعّال معين، بل تكون الكلمة المكتوبة هي البطل الّذي يناضل وحْدَه ليوصل المعنى فلا توجد لغة تدعمه أو حركة تؤكده أو لغة وجه تفسره.

ومن الضّروري تحرير النّص من أي خطأ أو لَبْسٍ أو سوء فهم.

فكثيرا ما تنشأ المشكلات بين النّاس بسبب سوء التّواصل، وذلك في مختلف المستويات من الأسرة إلى الأصدقاء، وصولاً إلى العمل.. بل وحتى إلى الصّعيد الدّولي، كما في مسألة قرار الأمم المتحدة: /٢٤٢/[1].

---

(١) في ٢٢ /١١/١٩٦٧م بعد خمسة أشهر من حرب حزيران، التي احتل خلالها الكيان الصهيوني الغاصب سبعين ألف كيلومتر مربع من الأرض العربية، تبنى مجلس الأمن بالإجماع القرار /٢٤٢/ الذى أعدته بريطانيا، وتضمن صيغاً تدعو إلى جملة من التأويلات، ويؤكد القرار على "عدم القبول بالاستيلاء على أراض بواسطة الحرب، والحاجة إلى العمل من أجل سلام دائم وعادل تستطيع كلّ دولة في المنطقة أن تعيش فيه بأمن". ويدعو القرار إلى "الاحترام والاعتراف بسيادة ووحدة أراضى كلّ دولة في المنطقة واستقلالها السياسى وحقها في العيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها وحرة من التهديد وأعمال القوة". ولكن الاختلاف في صياغة النصين الفرنسى والإنجليزى- وكلاهما يعد نسخة رسمية- ترك مجالاً =

ولعل من المناسب هنا أن نذكر ما قاله سقراط لتلميذه النّجيب أفلاطون: "اكتب ثمّ اقرأ ما كتبت ستهمله. ثمّ اكتب ثمّ اقرأ ما كتبت ستمزقه، ثمّ اكتب ثمّ اقرأ ما كتبت ستعدله، ثمّ اكتب ثمّ اقرأ ما كتبت ستقبله". نعم إنّ مراجعة ما نكتبه تتضمن دائماً إضافة أو حذف أو ربما تعديل وإعادة صياغة. إننا لا نقبل فكرة تثبيت ما نطرحه؛ لأنّه ببساطة لا يعبر بالدّقة الكافية عما نفكر فيه أو نشعر به.

والاتّصال عبر الكلمة المكتوبة أوثق Concrete من الاتّصال الشّفهي بمعنى أنّه بمجرد أن يوضع شيء ما في نص مكتوب فلا يمكن تداركه، فلا يحتمل الخطأ أو حتى مجرد سوء الفهم والتّأويل، فمن يدافع عنا عندها ومن يفسر وجهة نظرنا أو حقيقة ما نطلبه. هنا نؤكد مرة أخرى على ضرورة مراجعة كلّ ما كتب.

وعمليّة المراجعة تسرى وفق خطوات ومراحل ومستويات كثيرة، تبدأ من المستويات الشّكليّة، وهي من المستويات المهمّة؛ وتصل إلى المستويات الموضوعيّة فيما يظهر في محتوى النّص المكتوب. وتعني المراجعة على المستوى الشّكلي تلك الّتي تتمّ فيما يتعلق بتنسيق وإخراج النّص المكتوب ومراجعة اللّغة العربيّة والأجنبيّة والأخطاء المطبعيّة في الكتابة خاصة أنها تعني عدم الدّقة وعدم الاحتراف وتبرز صورة سيئة لصاحب النّص والمؤسسة الّتي يعمل بها.

والملاحظ أنّ التّطور التّقني أتاح إمكانيات تصحيح النّص المكتوب مثل برامج المدقق الإملائى الا انه لا يجب أن نركن لها في كلّ الحالات. أما بالنّسبة للمراجعة على مستوى الموضوع فتتضمن التّأكد من صحة المعلومات ودقة النّسب والأرقام والتّقديرات وعدم وجود احتمال للخطأ أو سؤ التّقدير.

إنّ عمليّة المراجعة على الرغم من بساطتها إلا أنّ لها دوراً في منتهى الأهمّيّة؛ لأنّها تُبرز الصّورة العامة للنص بأسلوب محترف. فالاحتراف يعني الدّقة وليس فقط تقليل

=

واسعاً للتأويل، وخلف الكثير من الجدل. فالنص الإنجليزى، تحدث عن انسحاب إسرائيلى من "أراض محتلة" دون أن يحدد ما هى هذه الاراضى، في حين نصت النسخة الفرنسية على "انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضى التي احتلت في النزاع الأخير".

الأخطاء وإنما عدم وجود الأخطاء وهذا عموما يعرف بالرّقابة على الجودة والرّقابة على المخرجات النّهائية.

والبساطة والوضوح والمباشرة أهمّ مميزات النّص القوي، فيجب الابتعاد عن الكتابات المزية أو التّحذلق في استخدام الكلمات وصياغة العبارات، فالأمر ليس مباراة للاستعراض بل أحد مهامّ توصيل المعنى المرغوب.

❖ **تحديات تواجه كاتب النّص:**

١- الانفصال الجغرافي بين الكاتب والقارئ:

هنا يجب على الكاتب أن يجتهد في فهم واستيعاب حاجات القارئ واهتماماته ومنظومة قيمه كي يمكنه تفصيل رسالة مناسبة تراعى ذلك كله، وتراعى في الوقت نفسه الخلفية المعرفية للقارئ. فلا توجد فرصة للقاء المباشر بين القارئ والكاتب حتى يمكنه توضيح ما يقصده أو تبرير ما يطرحه أو تبسيط ما يعرضه.

٢- الإملاء وتهجئة الكلمات:

فالدّقة مطلوبة في كتابة الكلمات والمصطلحات، وقد أتاح التّقدم التّقني إمكانية تصحيح النّص المكتوب، ولكن- كما سبق القول- لا يجوز الاطمئنان لذلك في جميع الحالات، فلا بديل عن المراجعة والتّدقيق من جانب الكاتب.

٣- بناء الجمل وصياغة العبارات:

ليس من السّهل صياغة عبارة جيدة أو بناء جملة متكاملة. ويفيد في تحقيق ذلك كثرة القراءة والتّدريب حتى يمكننا التّعبير عما بداخلنا بدقة. فتعلم الكتابة كتعلم الحديث يجب الاجتهاد لإتقانها.

٤- علامات التّرقيم وتنظيم العرض:

فلا يمكن إعداد نص لا يتضمن رموزَ وعلاماتِ الوقفِ، والفاصلات، والمسافات البادئة أوّل كلّ قطعة، وأقواس القول، وإلا فسيختل معناه ويكون ناقصا ومشوهاً.

❖ **متطلبات نجاح عمليّة الاتّصال الكتابي:**

١- وضوح الهدف في ذهن الكاتب.

٢- سهولة وبساطة العرض ودقة الكلمات.

٣- ترابط وتماسك مادة الرّسالة.

٤- المباشرة والتّركيز وتجنب الإطالة دون داعي.

٥- التّنظيم في عرض الأفكار وتسلسلها المنطقي.

٦- احترام القارئ وتفصيل الرّسالة المناسبة له.

٧- اللّباقة والكياسة وتجنب التّجريح أو الاتهام الضّمني.

٨- الصّدق والموضوعية واكتساب ثقة القارئ.

٩- الجدية والحماس وإشعار القارئ بأهمّيّة الموضوع.

١٠- الرّقابة الدّاخلية كنوع من الرّقابة الوقائية.

١١- مراجعة النّص المكتوب مراجعة واعية. (وتأكد من أن برنامج مصحح الأخطاء مثبت على جهاز الكمبيوتر، ولكن لا تثق فيه بصورة مطلقة).

❖ **إرشادات لبناء وتنظيم النّص المكتوب:**

١- تجنب استخدام الكلمات العاميّة.

٢- حاول ألا تستخدم الاختصارات (إلا إذا اتفق على معانيها).

٣- ابتعد عن استخدام الرّموز الّتي قد لا يعي البعض ماذا تعني.

٤- استخدم الجمل القصيرة والمباشرة.

٥- ضع الكلمات والعبارات المهمّة والموضحة للمعنى بين قوسين.

٦- احذر دائماً من الأخطاء في كتابة أسماء الأشخاص أو الشّركات.

٧- ضع الكلام المقتبس بين علامتي تنصيص.

٨- عبر عن الأرقام الّتي تقل عن عشرة كتابة، وكذلك الأرقام الّتي تأتي في أوّل الجملة، في حين يمكن تدوين كلّ ما زاد عن عشرة بالأرقام.

رابعاً- مهارة الاتّصال غير اللفظي:

يمكن أن نعدّد من أنواع المهارات الخاصة باللّغة غير اللّفظية: (التّواصل بالعين، مهارة الوضع والحركة، ملامح وتعابير الوجه، اللّبس والمظهر، الصّوت والتّنوع الصّوتي، اللّغة غير المنطوقة [وقفات، كلمات]، إشراك المستمع، استخدام المرح، الشّخصيّة الطّبيعيّة غير المتكلّفة).

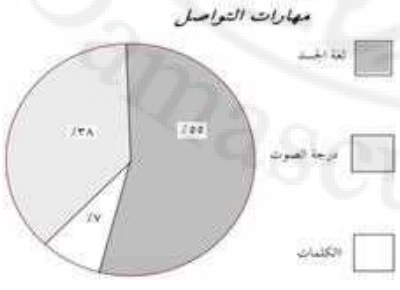
:

تعرف هذه المهارة بأنها مجموعة من الصُّوَر الحركيّة والإيماءات التّعبيريّة الّتي توحي إلى معاني يتفق عليها مجموعة من النّاس، وتستخدم هذه المهارة لتوضيح فكرة ما دون التّعبير عنها بالكلام.

إنّ العلاقة بين السّمع والبصر كما قلنا علاقة قويّة، فالّذي لا نسمعه بوضوح قد نستدل عليه من ملاحظة حركات وجه أو جسد المتحدث أو أفعّاله دون كلامه. فالرّؤية تساعد على الفهم وتصحيح المعاني، وتدعيم وتقوية الرّسائل المستقبلة.

والاعتماد على الرّموز البصريّة (حركات الجسد والوجه) تعني أننا يجب ألا نعتمد على-أو ننخدع- بالكلمات فقط، وهو ما سميناه بالاتّصال غير اللّفظي.

حيث إنّ بعض حركات الجسد أو ملامح الوجه تكون واضحة، ولها معان محددة، متفق عليها بين أفراد الثّقافة الواحدة، أو تستخدم حركات مختلفة لمعنى واحد. فهناك اتفاق على شكل ومعنى حركات مثل: التّهديد، والوعيد، والتّحيّة، والسّلام، والصّداقة والود، والملل، والغضب...



ومن خلال نمو الفرد وتعلمه يكتسب القدرة على الاستجابة لكثير من المثيرات اللّغويّة (الاتّصال اللّفظيّ)، ويقل اعتماده على الرّسائل غير اللّفظيّة. ومن الأنوع المهمّة لهذه الاتّصالات غير اللّفظيّة والتّعبيريّة ما يلي:

١- النّواحي الصّوتيّة المصاحبة للكلام.

٢- الإنصات بالنّظرات.

٣- الحركات الصّامتة.

٤- استخدام الوضع الجسماني في الاتّصالات.

يستطيع كلّ متحدث مؤثر أن يستخدم الإيماءات حيث تعمل اللّغة الجسديّة على إضفاء حركة وفاعليّة على الكلمات. وعلى الرّغم من أن اليدين والذراعين تنتجان غالبيّة الإيماءات إلا أنّ الجسد كله ينشغل في إضفاء الكثير على الكلمة المنطوقة كوسيلة اتّصال.

والإيماءات هي مجرد تعبير خارجي للتعبير عن حالة داخليّة وهي أشياء شخصيّة تختلف من شخص لأخر. والإشارات والحركات وتغيير الأوضاع الجسميّة علامات مميزة يستخدمها المتحدث كجزء من اللّغة المنطوقة أو في نفس توقيت استخدام اللّغة المنطوقة ويقصد بها الحركات والإشارات الاختياريّة ذات الوظيفة الاتّصاليّة.

ويشير "هاري ميلز" أن اللّغة الجسديّة تؤثر على الإدراك بنسبة ٥٥٪، وتسهل وتؤكد معنى الرّسالة إلى المستمع.

فيجب على المرسل استخدام اللغة غير اللّفظية مع مراعاته لأمور:

١. أهميّة استخدام الاتّصال غير اللّفظي، أو الرّموز غير اللّفظية، ودورها في إيصال الرّسالة إلى المستقبلين.
٢. أن ينوّع في استخدام اللّغتين اللّفظية وغير اللّفظية؛ لأنّه لا يمكن فصلهما.
٣. أن يهتمّ باستخدام صور اللّغة غير اللّفظية المختلفة، كالإشارات وحركات الجسم، وتعبيرات الوجه، والتّواصل العينيّ، والإيماءات، والرّسوم واللّوحات، والصُّوَر الثّابتة.

وهناك سلوكيات يجب على المتحدث أخذها بعين الملاحظة حتى تكون تعبيرات جسده ذات تأثير وفاعليّة:

١. ألا يجعل تعبيرات وجهه جامدة أثناء الحديث، بل يجب أن يجعلها معبرة عما يقول.
٢. أن يجعل المتحدث عينيه عل المستمعين باستمرار حتى يقف على الصّدى أوّل بأوّل

من الجمهور.

٣. أن يوزع نظراته على جميع الحاضرين حتى يعطى كلّ واحد منهم أن الحديث موجه له شخصياً.

٤. استخدام الإيماءات الطّبيعيّة المناسبة الّتي تخدم معاني الكلمات.

الإيماءات المتفق عليها في مجال الاتّصال غير اللّفظي

الرّقم	الإشـــــــــــــارة	المعنى
١	اتّساع حدقة العين مع الابتسامة	الصّداقة
٢	رفع الرّأس وخفضه في حركة واحدة	الموافقة
٣	رفع الرّأس مع الحاجبين	عدم الموافقة
٤	تحريك الرّأس بالالتفات قليلاً يمنة ويسرة	عدم الموافقة
٥	فتح الفمّ بدرجة كبيرة	عدم التّصديق
٦	فتح الفمّ نصف فتحة	الخوف
٧	مسك الذّقن	عدم الرّاحة
٨	قبض الشّفاه للأمام	عدم الرّضا
٩	الضّغط على الأسنان	التّوتّر
١٠	التّحريك لعضلات الوجه	العصبيّة
١١	تقطيب الوجه	الاعتراض
١٢	تقطيب الجبين واتّساع حدقة العين	الغضب

ج- التلقي بالبصر:

للبصر أهميّة في استقبال الرّسائل غير اللّفظيّة، ونحن نعرف أنّ الأطفال أكثر قدرة من الكبار على الاستجابة للرسائل غير اللّفظيّة، فالطّفل يتجول بعينيه في وجه أمّه وأبيه ليعرف حقيقة مشاعرهما نحوه، وليعرف مدى جدّيّة ما يتلفظان به.

كما يمكن لحركات الحاضرين فوق كراسيّهم في اجتماع إرشاديّ مثلاً، أن تعطي من المعلومات أكثر مما لو تكلم أحدهم ليعبر عن استمتاعه أو ضيقه من موضوع الاجتماع.

فملاحظة الجالسين يمكن أن تساعد المرشد أي: (المتّصل) في الاستمرار في موضوع الاجتماع أو تعديله أو التّوقف... إلخ.

فقدرة المتّصل على قراءة الوجوه أثناء الاجتماع، والتّعرّف على ما تعبر عنه حركة الجالسين تحتاج إلى خبرة طويلة، وقدرة على ربط الأمور ببعضها للوصول إلى رسالة غير لفظيّة ذات معنى. مع مراعاة أن سلوك النّاس لا يتصف بالبساطة، ولكنّه معقد ومتنوع ومتغيّر من فرد لأخر ومن وقت لأخر.

خامساً- مهارة الإقناع

الإقناع هو عمليّة فكريّة وشكليّة، يحاول فيها أحد الطّرفين التّأثير على الآخر وإخضاعه لفكرة ما، وحتى يستطيع أي شخص إقناع الآخرين بأيّة فكرة لابدّ له من أن يستخدم جملة أساليب، من أكثرها أهمّيّة ما يلي:

١- التّجارب الميدانيّة المعزّزة بالأرقام والأدلة والبراهين.

٢- القصّة القصيرة ذات المعاني والدّلالات.

٣- الأمثال العربيّة الأصيلة المستندة على الإرث الحضاريّ والفكريّ.

٤- البراهين والحجج.

٥- التّعابير الطّبيعيّة المتمثلة بالمودّة والاحترام والتّقدير والاعتزاز والسّرور.

الفَصْل الثَّاني

مقوّمات المنهج التّربويّ الإسلاميّ

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

المبحثُ الأوَّلُ
مفهوم التّربية في الإسلام
وأهدافها وخصائصها

المطلب الأوَّل
مفهوم التربية الإسلامية والعلاقة بين التربية والتعليم

قد يطلق لفظ التربية الإسلامية ويراد به تأديب الطفل وتوجيهه في سنواته الأوْلى، وقد يطلق ويراد به مجمل المقررات الدراسية ذات الصبغة الإسلامية، في مراحل الدراسة المختلفة. ولكنّ المقصود هنا معنى أعم وأشمل، نتبينه من خلال توضيح النقاط الآتية:

المعنى العام للتربية:

التربية هي ((عملية اجتماعية، تُعنى بتطبيع أفراد المجتمع على مستوى معين من الخلق والسلوك، وتكسبهم المهارات في مختلف الفنون، والخبرات العملية، لهذا فإنها تختلف من مجتمع إلى مجتمع، تبعاً للظروف الخاصة بكل مجتمع))[1].

والتربية بهذا المفهوم العام ذات طابع تفاعلي بين المربي وبين المتلقي، إذ يكون العطاء من المربي، ويكون التلقي والتأثر والانفعال من المتلقي. وما لم تقم التربية على التفاعل والانفعال بين المربي والمتلقي تصبح عملية التربية عملية ميتة لا روحَ فيها ولا حياة ولا نماء، ولا يكاد يترتب عليها أثر ذو فاعلية أو فائدة[2].

---

(١) تربية المراهق بين الإسلام وعلم النفس، د. محمد السيد الزعبلاوي، ص١٠.

(٢) نحو تربية إسلامية راشدة، محمد بن شاكر الشريف، ص١١.

المعنى اللغوي للتربية:

يعود لفظ التربية من حيث الأصل اللغوي إلى ثلاثة جذور:

الأوَّل: رَبا يربو بمعنى زادَ ونما، وفي هذا المعنى نزل قوله تعالى:

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[الروم: ٣٩].

الثَّاني: رَبِيَ يَربى على وزن خفي يَخفى، ومعناها: نشأ وترعرع.

الثَّالث: رَبَّ يَرُبّ بوزن مدّ يمدّ بمعنى أصلحه، وتولى أمره، وساسه وقام عليه ورعاه. وربّاه تربية: أحسن القيام عليه ووليه حتى يفارق الطفولية[١].

فالتربية لغةً يقصد بها: إصلاح الفرد وتهيئته حتى يبلغَ درجةَ الاعتماد على نفسه والاستغناء عن غيره، مع مراعاة التدرج والمداومة والحفظ[٢].

المعنى الاصطلاحي للتربية:

وردت مادة لفظة (التربية) في جملة من المواضع في القرآن الكريم، فمن ذلك:

- قوله تعالى عن الوالدين: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾[الإسراء: ٢٤] قال ابن جرير- رحمه الله تعالى- في تفسير ذلك: (كما تعطفا عليّ في صغري فرحماني، وربياني صغيراً حتى استقللت بنفسي واستغنيت عنهما)، وقال: (وعنى بقول ربياني: نمياني)[٣]. وقال القرطبي: (خص التربية بالذكر؛ ليتذكر العبد شفقة الأبوين وتعبهما في التربية، فيزيده ذلك إشفاقاً لهما وحناناً عليهما، وهذا كله في الأبوين المؤمنين، وقد نهى القرآن عن الاستغفار للمشركين الأموات، ولو كانوا أولي قربى)[٤]، وهذا مما يتبين معه أن التربية تحتاج إلى بذل جهد ومشقة ونصب.
- وقوله تعالى في قصة موسى عليه السلام حكاية عن فرعون: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا... ﴾ الآية [الشعراء: ١٨]، قال ابن كثير: (أي: أما أنت الذي ربيناه فينا وفي بيتنا على فرشنا،

---

(١) لسان العرب مادة (رب ب)، ومادة (رب و).

(٢) نحو تربية إسلامية راشدة، محمد بن شاكر الشريف، ص١٢.

(٣) تفسير ابن جرير الطبري: ١٥ /٦٧- ٦٨.

(٤) تفسير القرطبي: ١٠/٢٠٧.

وأنعمنا عليه مدة من السنين؟)[1]

- وقد دل على أن معنى النماء والزيادة قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، وقول الرسول ﷺ: {من تصدَّقَ بعدلِ تمرةٍ من كسبٍ طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلُها بيمينه ثم يربِّيها لصاحبها، كما يربي أحدكم فَلُوَّه، حتى تكون مثل الجبل}[2].

- وفي تفسير قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الفاتحة: ٢] قال الإمام البيضاوي: (الربُّ في الأصل بمعنى التربية وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً، ثم وصف به تعالى للمبالغة)[3].

وقد سبق الراغب الأصفهاني إلى القول: (الربُّ في الأصل التربية وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حدِّ التمام)...[4]

وقد استخلص العلماء من ذلك نتائج أساسية في فهم التربية الإسلامية:

أولها: أنّ التربية عملية هادفة، لها أغراضها وأهدافها وغايتها.

ثانيها: أنّ المربي الحق على الإطلاق هو الله الخالق: خالق الفطرة وواهب المواهب، وهو الذي سنّ سنناً لنموها وتدرجها وتفاعلها، كما أنه شرع شرعاً لتحقيق كمالها وصلاحها وسعادتها.

النتيجة الثّالثة: أنّ التربية تقتضي خططاً متدرجة تسير فيها الأعمال التربوية وفق ترتيب منظم صاعد.

النتيجة الرَّابعة: أنَّ عمل المربي تالٍ وتابعٌ لخلق الله وإيجاده، كما أنه تابع لشرع الله ودينه[5].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤٤٣/٣.

(٢) البخاري: الزكاة، الصدقة من كسب طيب، رقم ١٤١٠ (واللفظ له)، ومسلم: الزكاة، قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم ٢٣٨٩. والفَلُوُّ: المهر الصغير.

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٢/١.

(٤) المفردات في غريب القرآن: ص١٨٤.

(٥) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، د. عبدالرحمن النحلاوي، ص١٧.

فالتربية الإسلامية في معناها الاصطلاحي لا تخرج عن معناها اللغوي أو المعنى العام إلا من حيث ربط التربية بالله ﷻ وبالشريعة الحقة، وبالتالي **التربية الإسلامية في الاصطلاح هي**: (تنشئة الفرد وإعداده على نحو متكامل في جميع الجوانب العَقَدية والعبادية والأخلاقية، والعقلية والصحية، وتنظيم سلوكه وعواطفه، في إطار كليّ يستند إلى شريعة الإسلام، من خلال الطرق والإجراءات التي تقبلها الشريعة)[1].

العلاقة بين التربية والتعليم:

كما تنقسم التربية إلى معنى عام وآخر اصطلاحي يميز التربية الإسلامية، كذلك تنقسم التربية الإسلامية باعتبار آخر إلى مفهومين آخرين:

-الأوَّل: مفهوم عام يتعلق بالتربية.

-الثَّاني: مفهوم خاص يتعلق بالتعليم.

والمفهوم الأوَّل يتعلق بالعملية التربوية ككل، وهو الذي سبق تحديده في المعنى الاصطلاحي، وهو الذي يغطي المجتمع المسلم باعتباره ظاهرة مرتبطة بالحياة، لا تتوقف في زمن أو مكان معين.

أما **المفهوم الخاص**، فهو يقتصر على عملية التعليم، أو التعليم الإسلامي كفرع من فروع الفكر الإسلامي، الذي على أساسه توضع البرامج التعليمية، وتُختار المواد الدراسية، وتصاغ الأهداف التربوية في كل مرحلة من مراحل التعليم[2]، وليس هو المقصود بهذه التربية في كتابنا هذا.

ومن جهة أخرى**فهنالك علاقة تداخل وافتراق بين مفهومي التربية والتعليم**، على اعتبار أن التعليم هو التزويد بالمعارف والمعلومات التي تزيل الجهل، ولكنّ العلم أو التعليم لا يراد لذاته وإنما يراد لما يترتب عليه من العمل، قال الشاطبي في بيان أن العلم يطلب من أجل العمل: (وكان رجل يسأل أبا الدرداء، فقال له: كل ما تسأل عنه تعمل به؟ قال:

---

(١) نحو تربية إسلامية راشدة، محمد بن شاكر الشريف، ص١٣.

(٢) نحو تربية إسلامية، د. حسن الشرقاوي، ص١٠-١١.

لا، قال: فما تصنع بازدياد حجة الله عليك؟)[1]، والعمل يكافئ التربية، والتي لا تكون صحيحة إلا إذا كانت معتمدة على العلم.

وبذلك تتبين العلاقة بين مصطلحي التربية والتعليم؛ فالتربية إذا ذكرت مع التعليم في سياق واحد، فإن التربية تأخذ معنى العمل القائم على دعائم العلم، والتعليم يأخذ معنى التزويد بالمعارف والمعلومات، أما إذا ذكرت وحدها فإنها تشمل التعليم أيضاً، وكذا التعليم إذا ذكر منفرداً فإنه يشمل التربية، إذ لا يكون للتعليم فائدة إلا إذا تبعه العمل. فالتربية والتعليم إذا اجتمعا استقل كل مصطلح بمعناه الخاص، وإذا افترقا دخل أحدهما في الآخر.

ويجدر التنبيه أخيراً إلى أن الحرص على التعليم فقط من غير أن يتبعه عمل لا يقدم جيلاً حسناً أو فاضلاً قد أحسنت تربيته، وفي المقابل يمكننا أن نجد فئاتٍ حسنة التربية، وإن كان محصولها العلمي قليلاً[2].

حكم التربية الصحيحة:

إن التربية الإسلامية بمفهومها السابق، وعلاوة على أنها عمل أخلاقي والتزام أدبي؛ فهي **واجبة شرعاً** على من تناط بهم التربية، وهذا ما دلت عليه الأدلة الشرعية، ومنها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾[التحريم: ٦]قال قتادة: (يقيهم: أن يأمرهم بطاعة الله وينهاهم عن معصيته، وأن يقوم عليهم بأمر الله يأمرهم به، ويساعدهم عليه، فإذا رأيت لله معصية ردعتهم عنها وزجرتهم عنها)[3]، وقال ابن كثير: (أي: مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر، ولا تدعوهم هملاً؛ فتأكلهم النار يوم القيامة)[4].

وهذا الوجوب دلت عليه كذلك سير الأنبياء والصالحين، ممن سبقت دعوتهم رسالة نبينا محمدﷺ. فذكر الله تعالى عن نبيه إسماعيلعليه السلام: ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾[مريم: ٥٥]، ونقل عن نوحعليه السلام خطابه لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[هود: ٤٢]، وعن لقمان

---

(١) الموافقات: ١/٦٥.

(٢) نحو تربية إسلامية راشدة، محمد بن شاكر الشريف، ١٥-١٦.

(٣) تفسير ابن جرير الطبري: ١٢/١٥٦.

(٤) تفسير ابن كثير: ٣/١٦٩.

قوله واعظاً ابنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾[لقمان: ١٣]، ثم قوله في وصايا تربوية كثيرة: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴾[لقمان: ١٦ – ١٩]. فهذه جملة مميزة ومنوعة من الوصايا التربوية التي كانت وما تزال نبراساً يهتدى به، وقواعدَ هامةً تُصلح كل زمان.

المطلب الثَّاني
أهداف التربية الإسلامية وغايتها

في هذه الصفحات سنتعرف إلى هدف التربية الإسلامية وغايتها؛ لأن معرفة الهدف توضح معالم الطريق، وتحدد نهايتها، وتيسّر سلوكها للسّالكين. ثمّ سنقيّم هدف التّربية الإسلاميّة ونتبيّن مكانته بين أهداف التّربية الغربيّة.

أهمية تعيين الهدف:

إن لتعيين الهدف أهمية تجعله ضرورياً لكل ضروب السلوك الواعي، حيث يوجّه الهدف النشاط الإنساني، ويدفع إلى الإنجاز، ويساعد على النجاح.

فلو أن إنساناً أُمر أن يمشي في طريق معين، دون بيان أي سبب لهذا المسير؛ لسار متردداً، ولكان اندفاعه ضعيفاً. ولكن لو قيل له: إن في نهاية الطريق بستاناً جميلاً، له أصحاب كرام، يدعون الوافدين للغداء عندهم، وكان هذا الإنسان جائعاً مستعداً للطعام، لاندفع مسروراً، راغباً، ولقطع الطريق بقوة وعزم، وبأقل وقت وجهد[1].

وكذلك فإن تحديد الهدف من التربية الإسلامية من الأهمية بمكان ليتحمل المرء أعباء هذه التربية ومتطلباتها المختلفة.

هدف التربية الإسلامية العام والنهائي:

بما أن المجتمع يتكون من جملة وحدات إنسانية، وأصغر وحدة مترابطة فيه هي الأسرة، والتي تتكون بدورها من مجموعة من الأفراد المترابطين فيما بينهم برباط وثيق؛ فإن تربية الأفراد تربية حسنة، يُحدِث للمجتمع ما ننشده له وفق هذه التربية.

وبالتالي فإن **هدف التربية الإسلامية العام أو الكلي هو**: تنشئة الفرد بوصفه لبنةً من لبنات المجتمع الفاهم لحقائق الإسلام فهما صحيحاً، والعامل بما دلت عليه، مع المشاركة

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ص ٨٩.

الفعالة في عمارة المجتمع وتطويره، وتبليغ رسالة الله إلى العالمين، ليحقق الغاية التي خلق من أجلها، كلٌ حسب قدراته واستعداداته التي منحها الله له[1].

أما **الغاية النهائية التي خُلق لأجلها الإنسان** وتحققها التربية الصحيحة فهي (تحقيق العبودية لله)،

وقد صرح بهذه الغاية قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات: ٥٦].

هذه الغاية لأجلها وبها يُعدّ (الإنسان الصالح)، والذي من صفاته أنه الإنسان الأتقى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ...﴾[الحجرات: ١٣]، وهو الإنسان الذي يتبع هدى الله: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[البقرة: ٣٨]، وهو بالجملة الذي يفي بشرط الخلافة في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[البقرة: ٣٠][2].

الإسلام وأهداف التربية الغربية:

إن تحقيق الغاية النهائية والهدف الأسمى للتربية الإسلامية- وهو تحقيق العبودية لله عز وجل- لابد أنه يتحقق من خلال تربية جوانب الإنسان المختلفة (الجسدية – الروحية- العقلية) والتي سنبحثها لاحقاً. ولكنّها تنطوي جميعاً تحت الهدف الأسمى وهو تنشئة الفرد الصالح لمجتمعه، والذي جُلُّ غايته تحقيق عبوديته لله عز وجل.

ولكن عند مقارنة هدف التربية الإسلامية بأهداف التربية الغربية سنلحظ تركيز الغرب على الأهداف الجزئية واعتبار كلٍ منها هدفاً نهائياً للتربية- بنظر أحد مدارس التربية الغربية – دون غيره، ولذلك سنبحث هذه الأهداف من وجهة نظر التربية الغربية، ونبين موضع الإشكال في الاقتصار على أحدها كهدف نهائي، ثم نوضح انطواءه فعلياً تحت هدف التربية الإسلامية.

---

(١) نحو تربية إسلامية راشدة، ص٢٣-٢٤.

(٢) منهج التربية الإسلامية، ص١٤.

هدف تحقيق الذات[1]:

ومن أبرز من قال بهذا الهدف التربوي (برسي نن)، فقد قال في كتابه (التربية): ((إن الذاتية هي الهدف الأسمى الذي تسعى إليه التربية، ولا خير يمكن أن يصيب هذا العالم إلا عن طريق النشاط المطلق للأفراد، رجالاً كانوا أو نساء. وإن التربية التي تتخذ مبدأ (تحقيق الذاتيّة) هدفاً لها، هي التربية الوحيدة التي تسير وفق قوانين الطبيعة، والتي تشهد لها الحقائق المستمدة من علم الحياة))[2].

وهذا الهدف يعني أن لكل إنسان بمفرده ذاتية وخصائص تميزه عن غيره من الناس، والتربية الحقة في رأيهم هي التي تُعنى بإبراز هذه الخصائص عن طريق إطلاق حرية كل الناس ليحققوا ذاتيتهم في جو اجتماعي يناسب الجميع.

ولكن يؤخذ على هذا الهدف أمران:

الأوَّل: إن إطلاق حرية الأفراد يحتاج إلى ضوابط تعصم الأفراد عن الغرور بذاتيتهم، أو الطغيان على غيرهم واستعمال خصائصهم الذاتية في شر الإنسانية وضرر المجتمع.

فإذا نشأ كل فرد وهو يرى أن المجتمع كله مجال لذاتيته هو، دون أن يكون لهذه الذاتية هدف أسمى يوجه طاقاتها، فأيّ مجتمع تخرجه لنا هذه التربية؟!

والثَّاني: هو أن إطلاق الذاتيات يحتاج إلى هدف أسمى مشترك تحققه هذه الذاتيات، مع بقاء مجالات للتميز الفردي لكل ذاتية.

وهذا الهدف الأسمى لم ينص عليه القائلون بهدف (تحقيق الذات) وإن كان (برسي نن) قد أشار إليه بقوله: ((ويخطئ من يعتقد أن نظريتنا هذه لا تميز بين المثل العليا الحسنة للحياة، والمثل الرديئة، ولا تميز بين أنواع الذاتية التي يجب تشجيعها وأنواع الذاتية التي يجب إخمادها))[3].

---

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ص ٩١-٩٤.

(٢) نقلاً عن: أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ص ٩١.

(٣) نقلاً عن: أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ص ٩٢.

إلا أنه في هذه الإشارة العابرة لم يعتمد على مبدأ أو معيار للخير والشر، وحتى لو وضع مبدأ لاختلف مع غيره من المربين والفلاسفة، ولا يزال الناس يختلفون، فلابد من معيار إلهي يُجمع عليه البشر في هذا الموضوع؛ لأنّ معايير الناس تختلف باختلاف ظروفهم الاجتماعية والنفسية والعائلية، ولا يصلح واحد منها لتربية جميع البشر.

أما كيف يشتمل هدف التربية الإسلامية، وهو إخلاص العبادة لله، على هدف تحقيق الذات، **فإليك تفصيل ذلك:**

أ- عندما كلف الله الإنسان بعبادته، كلفه على أساس أنه مميز بين الخير والشر، وقد بيّن له نتيجة كل طريق، وفي هذا كل التقدير لذاتية الإنسان، حيث أعطاه حرية الاختيار، ثم بيّن له مسؤوليته عن هذا الاختيار.

ب- أنه ترك مجال التسابق للخيرات مفتوحاً لجميع الناس، وجعل مبدأ الجزاء على حسب العمل، فهو قدرّ مبدأ التفاوت بين الناس في تحقيق ذاتيتهم.

ج- أنه جعل هدفاً أسمى لتحقيق الذاتية، وهو العبودية لله، حتى لا يضيع الناس في سبل مآلها الخسران.

د- أنه زوَّد كل إنسان بقدرات وكفاءات معينة، ثم يسر له من المجالات ما يناسب ذاتيته وكفاءته ومقدرته، وصور له مُثُلاً عليا يطمح إليها، ثم أمَرَه بالعمل سعياً إلى تحقيق مَثَلِه الأعلى حسب قدرته وذاتيته. فقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ...﴾[التوبة: ١٠٥]، وسأل عمران بن حصين رضي الله عنه رسول الله ﷺ: فيم يعمل العاملون؟ فقال رسول الله ﷺ: {كل ميسر لما خلق الله}[(١)].

ويقول ابن القيم موضحاً هذا المبدأ: ((ومما ينبغي أن يعتمد، حال الصبي، وما هو مستعد له من الأعمال ومهيأ له منها، مما كان مأذوناً منه شرعاً، فيعلم أنه مخلوق له، فلا يحمله على غيره، فإنه إن حمل على غير ما هو مستعد له لم يفلح فيه، وفاته ما هو مهيأ له، فإذا رآه حسن الفهم صحيح الإدراك جيد الحفظ داعياً، فهذه من علامات قبوله

(١) البخاري، التوحيد، قول الله تعالى (ولقد يسرنا القرآن للذكر)، رقم ٧٥٥٢. مسلم، القدر، كيفية الخلق الآدمي...، رقم ٦٩٠٧.

وتهيئته للعلم، لينقشه في لوح قلبه مادام خالياً، فإنه يتمكن فيه ويستقر ويزكو معه، وإن رآه بخلاف ذلك من كل وجه، وهو مستعد للفروسية وأسبابها، من الركوب والرمي واللعب بالرمح، وأنه لانفاذ له في العلم، ولم يخلق له، مكنه من أسباب الفروسية والتمرن عليها، فإنه أنفع له وللمسلمين، وإن رآه بخلاف ذلك، وأنه لم يخلق لذلك، ورأى عينه مفتوحة على صنعة من الصنائع، ومستعداً لها، قابلاً لها، وهي صناعة مباحة نافعة للناس، فليمكنه منها، هذا كله بعد تعليمه له ما يحتاج إليه في دينه))[1].

ويذكر ابن سينا في رسالته (في السياسة المنزلية) قولاً مشابهاً[2].

هدف النمو بجوانبه المختلفة[3](العقلية، الجسمية، الروحية، الاجتماعية)

يرى بعض علماء التربية أن الهدف الأوحد للتربية هو النمو، نمو الإنسان بنواحيه المختلفة، مع التأكيد أن الزيادة الكمية وحدها ليست هي النمو المقصود، وإنما المقصود النمو الكيفي المتطور، حيث يتطور سلوك الإنسان- برأيهم – بأحد وجهين:

الأوَّل: اعتبار ردود أفعال الإنسان منعكسة تأتي نتيجة المؤثرات الخارجية؛ كسعيه واندفاعه نحو تحقيق شهوة من شهواته المختلفة.

والثَّاني: أن الإنسان يتطور سلوكه على أثر ما يتكون عنده من خبرات نتيجة التجارب والأحداث المختلفة.

والرأي الأوَّل لا يحتاج إلى كثير من النقاش، ولا يصمد أمام الاحتجاج بإرادة الإنسان، وتغير الاستجابة من إنسان إلى آخر، بحسب تربية كل إنسان، وظروفه الحالية، وآماله المستقبلية.

أما الرأي الثَّاني فهو وإن صح، ولكن ليست جميع الخبرات سواء في تحقيق خير الإنسانية، وبالتالي ليس كل نمو يستخدم للخير، فبعض هذه الخبرات قد تستخدم لأغراض الشر، والتي لا يمكن أن تعد هدفاً تربوياً بحال.

---

(١) تحفة المودود بأحكام المولود، ابن قيم الجوزية، ص١٤٤-١٤٥. الطبعة الهندية١٣٨٠هـ.

(٢) نقلاً عن: المذهب التربوي عند ابن سينا، د. عبد الأمير شمس الدين، فصل (في سياسة الرجل ولده) ص٢٥٤.

(٣) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، عبد الرحمن النحلاوي، ص ٩٤-١٠٠.

لذلك لابد وأن يكون النمو بهذا الفهم وسيلة لتحقيق هدفٍ أبعد منه حتى لا يصبح وسيلة لتحقيق الشر، هذا ما تفعله التربية الإسلامية حين عدّت النمو بجميع جوانبه وسيلة لتحقيق مثلها الأعلى وهو (العبودية لله وطاعته وتحقيق عدالته وشريعته في جميع شؤون الحياة الفردية والاجتماعية).

مميزات هدف التربية الإسلامية:

يتميز هدف التربية الإسلامية بمميزات كثيرة؛ لأنّه هدف رباني، ونذكر من هذه المميزات:

١. شمول الهدف الإسلامي لجوانب الحياة المختلفة، وللنفس الإنسانية من كل نواحيها.
٢. عموم الهدف الإسلامي لكل الناس، على الرّغم من اختلافهم.
٣. كمال الهدف الإسلامي؛ لأنّه يستمد كماله من الكمال الإلهي، فهو في كل المجالات، يبعدنا عن النقائص ويوجهنا نحو الفضائل وخير الإنسانية أفراداً وجماعات.
٤. صلاحه على مر الزمن، وخلوده؛ لأنّه جاء من عند الله عز وجل.
٥. موافقته للفطرة الإنسانية؛ لأنّه مستجيبٌ لخالق الفطرة في النفس الإنسانية[١].

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ص ١٠٣- ١٠٤.

المطلب الثَّالث

خصائص المنهج التربوي الإسلامي

تُعدّ التربية الإسلامية الحجر الأساس في تشكيل المجتمع السليم، ونموه وارتقائه؛ لأنّ من شأنها تربية الإنسان الصالح، فالأسرة المتماسكة، وبالتالي المجتمع الناجح القوي. ويعد من سمات أو خصائص المنهج التربوي الإسلامي ما يلي:

١- هو منهج رباني: فهو منهج وضعه الحكيم العليم، خالق الإنسان وفاطره. ولهذه الربانية وقع مؤثر يبدأ باشتقاق كلمة المربي من الرب ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[إبراهيم: ١]، والرب هو الخالق على أحسن حال ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾[الأعلى ١-٢]، ثم هو الذي أقرأ الإنسان وعلمه ووضع له دستور حياته﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[العلق: ١]، ولأن منهجنا التربوي رباني فهو:

- **منهج مقدس:** ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾[فصلت: ٤٢] وهذه القداسة تساهم في إحكام العلاقة بين الخالق والمخلوق، فهو منهج بعيد عن التناقض أو النقص.

- ثم هو **منهج خالد** لا يتغير بمرور الزمن؛ لأنه من وضع الله عز وجل وهو أعلم بما ينفع الإنسان وما يضره بما أودع فيه من غرائز وشهوات لا تتغير بتغير الأزمان، فهي هي كما في الإنسان الأوّل﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾[سورة ص: ٧١][(١)].

٢-هو منهج شامل لمراحل حياة الإنسان كلها:

فهو يبدأ اهتمامه بالإنسان قبل ولادته إلى ما بعد موته، والقرآن أشار إلى هذه المراحل واعتنى بتفاصيلها وما يصلح للإنسان فيها في مواضع كثيرة منه، كقوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً

(١) مقال: المنهج التربوي في القرآن الكريم، كفاح الحداد.

يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾[الروم: ٥٤].

وألمح إلى براءة الطفولة في قوله﴿ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النور:٣١].

وإلى النضج وما يصلح له في قوله﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[القصص: ١٤].

وإلى الشيخوخة وحالها من الضعف في قوله﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾[النحل: ٧٠]... وغيرها في القرآن كثير[١].

٣-هو منهج تناول أبعاد الشخصية الإنسانية بكل جوانبها، فأعطى أنموذجاً صالحاً للتربية الجماليةوالروحية والصحية والفكرية، فقال تعالى مثلا: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١]. وقال: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[الشورى: ٤٣]' وقال: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾[البقرة: ١٠]، وقال أيضاً: ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة: ١١] إلى غير ذلك[٢].

٤- هو منهج اهتم بكل المؤسسات التربوية ابتداءً من الأسرة والمدرسة فالمسجد وانتهاءً بالمجتمع، ووضع ضوابط وتشريعات تسوس ذلك كله، وحرص على حسن اختيار الصديق والقرين، ويظهر ذلك في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦] وقوله: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ [النساء: ٧٥]. وقوله: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾[الصافات: ٥١- ٥٧]. وغيرها كثير.

---

(١) انظر للتوسع: ملامح المنهج التربوي عند أهل البيت عليهم السلام، ص ٩٩.

(٢) انظر للتوسع: منهج التربية الإسلامية، ج١/ ١٨.

٥- **هو منهج قرن القول بالعمل** فدعا إلى تطبيق مبادئه باعتبارها أعمالاً صالحة يثاب فاعلها بالجزاء الحسن في الدنيا والآخرة، ويظهر ذلك في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[النحل: ٩٧] وقوله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾[البقرة: ٢٥].

٦- **هو منهج متوازن** لا إفراط فيه ولا تفريط ولا طغيان فيه لجانب على آخر فهو يوازن بين متطلبات الروح والجسم، وبين السعي للدنيا والسعي للآخرة، وبين متطلبات الفرد والمجتمع فلا يقع في الإشكاليات المعاصرة التي آثرت الفرد على المجتمع كما في المذهب الرأسمالي أو آثرت المجتمع على الفرد كما في المذهبالشيوعي.

وبهذا يخلص الإنسان من كثير من الصراعات الداخلية والتوترات النفسية أو الحيرة والارتباك الذي يساور الإنسان فيما تضيع عليه الأمور ولا يدري في أيّ اتجاه يسير وكيف يسير، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[القصص: ٧٧]. وقوله: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود: ١١٢] وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[الفرقان: ٦٧].

٧- **هو منهج يُعنَى بالإنسان في كل العصور** ولا يختص بجماعة دون أخرى، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾[الحجرات: ١٣]. وهو يراعي التفاوت بينهم في القدرات والطاقات ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[البقرة: ٢٨٦]. كما يراعي حال الضعف فيكون التخفيف ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥].(١)

٨- **هو منهج متنوع الأساليب**، ويرجع التنوع لجملة أسباب؛ منها مراعاة الفروق

(١) مقال: المنهج التربوي في القرآن الكريم، كفاح الحداد.

الفردية، ولأنه اتبع كل الطرائق للوصول إلى غاياته المتعددة. ومن هذه الأساليب:

* التربية بضرب الأمثال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

* والتربية بالترغيب والترهيب، بالترغيب كقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥] وبالترهيب قوله تعالى: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾[الكهف: ٨٧].

وكذا التربية بالقصة، وبالحوار، وبالموعظة، وبالعبرة.. إلى غير ذلك من الأساليب والوسائل التي اعتمدتها التربية الحديثة وكأنها اختراع غربي، في حين أنها منهج إسلامي أصيل، وسندلل على ذلك في الصفحات التالية.

المبحث الثَّاني
مجالات التربية الإسلامية

تمهيد

انطلاقاً من المقولة الصادقة: (إنّ الإسلام يُصلح كلَّ الأزمان والأمكنة)؛ فإن **منهجه التربوي يُصلح كل إنسان وفي أيّة مرحلة عمرية** كان.

ونقصد بذلك أن التربية الإسلامية كما تتجه إلى الإنسان منذ طفولته فتصبغه بصبغتها؛ فهي كذلك قادرة على توجيهه وتشكيله بحسب مبادئها وقواعدها، وإن تلقى هذه التربية بعد أن كَبُر في السن.

وهذه القدرة ترجع إلى أن **الإسلامَ رسالةٌ سماوية ومنهج إلهي** أُنزل من عند الله تعالى إلى الإنسان الذي هو صنعة الله، والله ﷻ هو الأقدر على إصلاح هذه الصنعة في كل حين.

ولو كان الأمر على خلاف ذلك لاقتضى عدل الله عز وجل أن لا يُطالب الرعيل الأوَّل من أمة محمد ﷺ بالإيمان به وإتباع منهجه، ولأعلم رسول اللهﷺصحابته بأن هذا الدين موجه بادئ ذي بدء إلى أبناء الصحابة ممن سيولدون داخل المجتمع الإسلامي فيما بعد.

ولا يظن ظان بأن هذا التوجه يخلط بين الدعوة إلى الإيمان بالله ﷻ، وبين إيجاد وتحقيق التربية الإسلامية، أو بمعنى آخر: أن التربية على منهج الإسلام شيء، والدعوة إلى الإيمان بالله شيء آخر.

فنقول: إن الإيمان بالله ﷻ تلبية لدعوة محمدﷺ لم يقتصر في مجمله على عمل اللسان؛ فلم يؤمر الصحابة ﷺ بالإيمان برسالة الإسلام بألسنتهم فقط، أو حتى بقلوبهم،

ثم تُركوا يقيمون حياتهم كما يشاؤون، ولكن حملت الدعوة الإسلامية منذ البداية مبادئ ومفاهيم، وأوجبت على المسلم اِتباعها والتقيد بها. فالإسلام لم يهتم بالأقوال إلا وهي مقترنة بالأعمال، ومنهجه في العقيدة والسلوك هو الذي نستمد منه الفكر التربوي الذي تتحدث عنه هذه الدراسة.

مقارنة بين تربية الصغير وتربية الكبير وفق المنهج الإسلامي:

لا بأس من الإشارة هنا إلى أن التربية الإسلامية عندما تتوجه إلى الإنسان منذ طفولته تتسم باليسر والسهولة، وإن اقتضت التدرج المدروس، بخلاف ما لو وُجهت للإنسان بعد كمال نموه؛ لأنّ الإنسان في طفولته كالصفحة البيضاء[1] التي تقبل كل نقش أو رسم لاتساعها وخلوها، وهذا مصداقٌ لقول الرسول ﷺ: {ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟} ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: واقرؤوا إن شئتم ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ الآية[2].

ولكن عندما تُوجه أسس التربية الإسلامية إلى الإنسان بعد كمال نموه، واصطباغه بتربية قومه، أياً كان شكلها؛ فدور التربية في هذه الحالة يقتضي تغيير وتعديل المفاهيم والسلوك الذي عليه الإنسان، واستبدال ذلك بمبادئ الإسلام وقيمه وسلوكه.

وغالباً ما تحتاج التربية في هذه الحال إلى مدة أطول من سابقتها، ولا أدل على ذلك من المقارنة بين حال الدعوة الإسلامية في مكة المكرمة، وحالها في المدينة المنورة؛ فقد ركزت التربية الإسلامية في الفترة المكية، على مدار ثلاث عشرة سنة تقريباً، على ترسيخ مفهوم توحيد الله ﷻ وإقامة البراهين على وحدته، والتحذير من عذابه، ووصف يوم الدين وأهواله، والإيمان برسول الله ﷺ، والحث على التمسك بمكارم الأخلاق التي بُعث الرسول ﷺ ليكمّلها، مع ربط ذلك كله بما أصاب الأمم الماضية حينما خالفت ما دعاها إليه

---

(١) ولكنها مشوبة بخطوط باهتة...، كما سيتضح عند الحديث عن عامل الوراثة في الفَصْل اللاحق.

(٢) البخاري، الجنائز، ما قيل في أولاد المشركين، رقم ١٣٨٥. مسلم، القدر، معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم ٦٩٢٦ (واللفظ له).

أنبياؤها.

وإن فُرضت في هذه المرحلة بعض الأحكام فقد كان ذلك بصورة إجمالية، ودون ذكر تفصيلات، والغاية منها تقوية وترسيخ الأهداف السابقة من الإيمان بالله وأركان الإيمان الأخرى. في حين حملت المرحلة الثّانية- وهي الفترة المدنية- كل الأحكام التشريعية اللاحقة، مع التذكير وتكرار ضرورة الإيمان بِما دعت إليه المرحلة الأوْلى[1].

نتائج التربية متشابهة في الصغير والكبير:

فإذا سلمنا أن تربية الكبير تحتاج إلى مزيد من الجهد والوقت، فإن نتائج هذه التربية لا تقل شأناً عن تربية الصغير. ويدل على ذلك (شهادة التاريخ على التحول الضخم الذي حدث في نفوس المسلمين الأوائل حين انتقلوا من الجاهلية إلى الإسلام، بكل وراثاتهم، وبكل انحرافتهم المكتسبة من الجاهلية.. لأنّ انحرافات البشرية كلها في أيّ زمان وأيّ مكان وأيّ ظروف، لا تستعصي على العلاج حين يوجد المنهج الحق، مهما احتاجت من جهد، وإنما تستفحل وتستعصي حين لا يكون هناك تربية.. أو حين تكون التربية والتوجيه فاسدين)[2].

ولهذا فقد نجح القرآن الكريم بمنهجه الحق في التأثير في شخصيات الناس، وفي تغييرها تغييراً كبيراً كانت له نتائج بعيدة الأثر في وضع أسس جديدة لنظام حياة الإنسان الشخصية، ولنظام العلاقات الإنسانية سواء داخل الأسرة، أو في المجتمع عامة.. (فقد نجح القرآن الكريم في فترة وجيزة من الزمن في تكوين الشخصية الإنسانية المتكاملة المتزنة الآمنة المطمئنة التي استطاعت بطاقتها الجبارة التي تولدت عن هذا التغيير الذي حدث فيها، أن تهز العالم وتغير مجرى التاريخ)[3].

سبب نجاح الإسلام في صوغ الشخصية الإنسانية السليمة:

كيف استطاع الإسلام بمنهجه التربوي تحقيق كل ذلك الإنجاز في صوغ الشخصية

---

(١) التربية في عهد الرسول ﷺ نشأتها وتطورها، د.حامد سالم عايض الحربي، ص ٢٨-٣٦.

(٢) منهج التربية الإسلامية، ص٣٢٧-٣٢٨.

(٣) القرآن وعلم النفس، د. محمد عثمان نجاتي، ص٢٨١.

الإنسانية السليمة؟.

يرجع ذلك إلى أن المنهج التربوي في الإسلام ارتكز على فهم الإنسان بكل خصوصياته وأبعاده؛ لأنّه معدّ في الأصل لصناعة هذا الإنسان، ووازن بين حركات الروح وحركات الجسد، وبين القلب والعقل وبين الدنيا والآخرة، فجاء هذا المنهج ملبياً لحاجات الإنسان المختلفة[1].

فالإسلام يأخذ الكائن البشري كله، يأخذه على ما هو عليه، بفطرته التي خلقه الله عليها، لا يغفل شيئاً من هذه الفطرة، ولا يفرض عليها شيئاً ليس في تركيبها الأصيل. ويتناول هذه الفطرة في دقة بالغة فيعالج كل وتر فيها، وكل نغمة تصدر عن هذا الوتر، فيضبطها بضبطها الصحيح. وفي الوقت ذاته يعالج الأوتار مجتمعة. لا يعالج كلاً منها على حدة فتصبح النغمات نشازاً لا تناسق فيها. ولا يعالج بعضها ويهمل البعض الآخر، فتصبح النغمة ناقصة غير معبرة عن اللحن الجميل المتكامل، الذي يصل في جماله الأخّاذ إلى درجة الإبداع[2].

لقد حرص الإسلام في منهجه التربوي على معالجة جوانب الإنسان المختلفة-كما سبق – والتي يمكن حصرها بثلاثة جوانب هي: (الروح – العقل – الجسم)، وإن زاد بعض العلماء على هذه القسمة[3]، فهي ترجع في مضمونها إلى هذه الأقسام الثلاثة.

وهذه الجوانب للنفس الإنسانية عامة، لا تختلف في ذلك بين صغير في السن أو كبير؛ فإن اختلف منهج تربية الصغير عن الكبير انحصر ذلك في اختيار الأساليب المناسبة. ولهذا فإن تربية الإسلام للجوانب السابقة قد جاءت على النحو المبين في المطالب الثلاثة الآتية.

---

(١) المنهج التربوي وصناعة الإنسان، محمد حسين فضل الله، مقال نُشر في ٢٠٠٨ في موقع (عهد التكليف).

(٢) انظر: منهج التربية الإسلامي، ص ١٨.

(٣) انظر على سبيل المثال: نحو تربية إسلامية راشدة، محمد بن شاكر الشريف، ص ١٨- ٢٠. فن تربية الأولاد في الإسلام، محمد سعيد مرسي، ج٢/١٣-٤٥.

المطلب الأوَّل

تربيـــة الـــــروح[1]

ما الروح؟ الروح شيء مبهم غامض ليست له حدود، وكنهه غير معروف، ويدل على ذلك قوله تعالى على لسان رسوله محمد ﷺ عندما سأله اليهود عن معنى الروح: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[الإسراء: ٨٥].

فالله ﷻ لم يرد أن يبين لنا ماهية الروح، وإنما اكتفى بنسبتها إليه تعالى، كما قال تعالى في خلق آدم عليه السلام: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾[الحجر: ٢٩].

ولهذا فنحن لا نعرف الروح من خلال ماهيتها، ولا من خلال طريقة عملها، **وإنما من خلال معرفة أثرها**، فنحن نعلم أن في الإنسان طاقة يتصل بها بالكون الذي حوله، بالغيب المحجوب عن الحواس، طاقة يتصل بها بالله ﷻ. ويدل على وجودها الأثر الذي تتركه عند مفارقتها للجسد حال الموت، لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى...﴾ [الزمر: ٤٢].

ولا يختلف مؤمن وملحد على وجود قوى غير محسوسة عند الإنسان، قال ألدوس هكسلي فيما مضى: (إنه لم يعد لنا مناص من الاعتراف بأن بعض البشر مزود بالقدرة على استشفاف المجهول بطريقة خارجة عن نطاق الحواس، وإنَّ جَهْلنا بالطريقة التي يتم بها هذا الاستشفاف لا يبرر إنكارنا له، فإنه لا يزيد على جهلنا بالطريقة التي تتم بها عملية الإدراك وعملية التذكر. من منّا يستطيع أن يعرف كيف تتم معجزة الإدراك أو التذكر؟ كذلك نحن لا نعلم كيف يتمّ الاستشفاف، ولكنّه رغم ذلك حقيقة علمية)[2].

---

(١) انظر: منهج التربية الإسلامية، ص ٣٨-٧٤.

(٢) نقلاً عن: منهج التربية الإسلامية، ص ٣٨.

فألدوس هكسلي قرّر أنّ في الإنسان طاقة مجهولة يقدر بها على الاستشفاف، وأنّه على الرغم من جهلنا بكُنْهِهَا غير أنّها موجودة، وهي حقيقة علمية. ولكنّه يقصر عملها في القدرة على الاستشفاف، ثم يقصرها على بعض الناس فقط. ولا يجعلها طاقة بشرية أصيلة، وهذا ما نخالفه فيه.

صلة الروح بخالقها ﷻ:

والروح تهتدي إلى الله بفطرتها، وتتصل به على طريقتها: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ولكنّ الإنسان قد يضل عن ذلك الهدى، يضل حين تنحرف فطرته ويصيبها المرض، ولهذا كان من مهمة العقيدة مساندة الفطرة وتوجيهها وجهتها في الاهتداء إلى الله، الاهتداء الكامن في كيانها ولو حجبتها عنه الأمراض.

والإسلام اعتنى عناية فائقة بالروح؛ لأنّ طاقة الروح لا تعرف الحدود والقيود، وهي وحدها تملك الاتّصال بما لا يدركه الحس، ولا يدركه العقل، تملك الاتّصال بالوجود كله، تملك الاتّصال بالله.

طريقة الإسلام في تربية الروح:

هي أن يعقد صلة دائمة بينها وبين الله، في كل لحظة وكل عمل وكل فكرة وكل شعور. وهو يستخدم لذلك وسائل شتى:

١. فهو من ناحية **يثير حساسية الإنسان لتأمل هذا الكون المبدع** فيحس دائماً بوجود الله، وقدرته المطلقة التي ليست لها حدود.

فالكون آية الله الكبرى، ومعرض قدرته المعجزة التي تبهر العقول. ولكنّ الإلف والعادة يفسدان روعة التطلع لآية الكون، فتتبلد الحواس لما ترى وما تسمع، فتمر بكل شيء كأنه لا وجود له، وتنسى- بحكم التعود – أن كل شيء حولها آية للقدرة المبدعة الخالقة التي تبدع كما تريد.

والإلف جزء من كيان النفس، يؤدي لها مهمة ضرورية لا محيص عنها. فلابد أن تألف النفس والحواس والأعصاب ألواناً معينة من التجارب والأحاسيس والأماكن

والأشياء..لكي تنطلق إلى تجارب جديدة وأحاسيس جديدة وأماكن جديدة.. ولولا الإلف والعادة لقضى الإنسان حياته كلها يتعلم النطق مثلاً، أو يتعلم القراءةأو الكتابة، أو يشغل أعصابه بالعادي من الأمور، فلا تبقى فيها طاقة لتحمل شيء جديد.

ولكن في أحيان كثيرة يتجاوز الإلف وظيفته، فيطغى على كل مساحة النفس، فتتبلد المشاعر، وتُغلق البصائر، وتتجمد الأفكار، فيصبح الإلف عائقاً عن التقدم، معطلاً ومجمداً للكيان.

وعندئذ لابد من إيقاظ النفس من سباتها لتتفتح و ((تستنشق)) الحياة، وهنا يأتي دور القرآن الكريم بأسلوبه الساحر، ووجهه المشرق، وروحه الصافية، فينقل الإنسان من إلفه وعاداته، ويهزه ليستيقظ، ليعيش الأشياء كأنها تحدث لأول مرة، ويستمتع بسحر هذه الجدة ومتاعها العجيب. يقول الله ﷻ– على سبيل المثال لا الحصر–: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]. ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠ – ١١]. ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وهكذا.. يوقظ القرآن الحس لآيات الله في الكون وفي النفس، ليعيش متفتحاً لها، حفياً بها، محساً بعظمتها، متتبعاً لها في كل صغيرة وكبيرة، شاعراً بالقدرة القادرة من وراء كل آية.واليد المبدعة من وراء كل تدبير، ومن ثم تتوجه الروح إلى الخالق، تسبح بحمده، وتتطلع إلى حماه.

بل يصل استخدام الطبيعة في إيقاظ الحس، وإحياؤها داخل النفس، إلى حد استخدام تشبيهات من الطبيعة الحية لتمثيل المواقف النفسية، والاجتماعية والاقتصادية، مثلاً: ﴿..كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ

صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ [البقرة: ٢٦٤- ٢٦٦]. ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ﴿٢٦﴾﴾ [ابراهيم: ٢٤- ٢٦].

٢. **وكذلك يوجه القرآن المسلم إلى الخشوع لقدرة الله القاهرة التي تمسك بيدها كل أمر،** وتدبر وحدها كل تدبير، مثلاً: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [البقرة: ١٠٧] ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ [مريم: ٣٥] ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]

٣. وكذلك **يوجه القرآن القلب البشري إلى علم الله الشامل** الذي لا يند عنه شيء في السموات ولا في الأرض، ولا في داخل النفوس، مثلاً: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد: ٩-١٠]. ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ﴾ [سبأ: ٢].

فإذا وجه القرآن القلب هذه التوجيهات، وهزه بها من أعماقه، وجعله ينفعل بها انفعالاً حياً متجدداً لا ينقطع.. فقد انعقدت بين الله وبين القلب البشري صلة لا تنقطع في نهار أو في ليل، ولا تنقطع في عمل أو شعور أو فكر، ولا تنقطع في سر ولا جهر، ولا

تنقطع في خلوة ولا صحبة، لا تنقطع ما دامت الحياة..

فيتصل القلب بالله صلات شتى:

١- يتصل القلب بالله خشوعاً وتقوى:

فالخشوع والتقوى هما سمة المؤمن الذي تأثر بالقرآن، واهتز للمساته وانفعل لتوجيهاته، وهما ثمرة الجولات الهائلة التي يجولها القرآن مع القلب البشري في آيات الكون، وآيات النفس، وقدرة الله القادرة والقاهرة، وعلمه الشامل، وملكه العظيم، ويقول الله ﷻ في وصف ذلك المؤمن:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾[المؤمنون: ١-٢]

﴿.. وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ..﴾[الحج: ٣٤- ٣٥]

﴿.. إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[مريم: ٥٨]

٢- ويتصل القلب بالله مراقبة له في كل أمرٍ من أمور الحياة:

فحين يتيقظ القلب لعلم الله الشامل المحيط، العلم الذي لا يند عنه شيء في كل لحظة، فحينئذ يحس القلب بمراقبة الله الدائمة له في كل تصرف، وكل شعور، وكل هاجس، وكل عمل، فلا يعمل شيئاً بغير إخلاص، ولا يعمل الشر، ويعلم أنه محاسب على عمله ظاهراً وباطناً، يقول الرسول ﷺ: {إنما الأعمال بالنية، وإنما لكل امرئ ما نوى..}[1].

٣- ويتصل القلب بالله حباً وتطلعاً:

فحين يعيش الإنسان في جو الإسلام والقرآن، لا يملك نفسه من حب الله، حتى وهو يخافه ويخشاه.

فالمراقبة الدائمة لله في كل عمل وكل فكرة وكل شعور، والإحساس الدائم بالله في كل لحظة، والمصاحبة الدائمة لله في كل أمر، والصلاة والعبادة وقراءة القرآن..

كل ذلك يجعل الحب يتدفق في النهاية، حب أعمق من أن يصفه اللفظ، وألطف من

---

(١) البخاري، الأيمان والنذور، النية في الأيمان، رقم ٦٦٨٩. مسلم، الإمارة، الأعمال بالنية، رقم ٥٠٣٦.

أن يمسكه التعبير، سارب في النفس، مشع في الكون.

ذلك الحب، هو قمة العبادة؛ لأنه الكفيل بطاعة الله طاعةً منبعثة عن الرضا، لا عن القهر والخوف من العقاب.

٤- ويتصل القلب بالله اطمئناناً إلى قدره، وتسليماً بما يرضاه:

فحين يعيش الإنسان في جو الإسلام وجو القرآن لا يملك نفسه من أن يستسلم لله؛ لأنّ الله هو مالك الملك، وهو موزع الرزق، وهو مالك الحياة والموت، وهو مدبر الأمر لا شريك له، فلمن يلجأ الإنسان إلا إليه، وما قيمة اللجوء لغير الله وما نتيجته إلا المذلة للناس والهوان والضعف، يقول تعالى: ﴿.. أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[النساء: ١٣٩].

ثمرات الصلة الدائمة بالله:

١) الإحساس الحي بالصلة الوثيقة بين الإنسان والكون.. صلة التعاطف والقربى والحب والإعجاب. وهذا التعاطف يحييه القرآن بوسائل شتى:

- منها إحياء مشاهِد الكون وجعلها تتحرك حركة الأحياء:

﴿..فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾[فصلت: ١١]

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ..﴾[الحشر: ٢١].

- ومنها رد الإنسان إلى منشئه من تراب الأرض وطينها وتربتها:

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾[نوح: ١٧-١٨].

٢) حب الحياة في جميع الأحياء، حتى عندما يصارع الإنسان ما يضره من هذه الأحياء، فهو إنما يصارعها ليدفع أذاها عن نفسه، ولكنّه – فيما عدا ذلك- يحس نحوها بالصداقة والود، ويهفو لها بالوئام والسلام. وهذا ما يفسر-مثلاً- تربية الإنسان لكل أنواع الحيوان، الأليف منها والمتوحش، ورغبته الدائمة في إيجاد علاقة بينه وبينها.

٣) الحب كذلك للناس.. حتى والإنسان يصارع فيهم الشر ويصيبه منهم الأذى في الطريق، فكم عادت قريش رسول الله ﷺ وهو يدعو لقومه: {اللهم اغفر لقومي فإنهم لا

يعلمون}[1]، ومن ذلك توجيهه لمعاملة أعدائه: {استوصوا بالأسارى خيراً}[2].

٤) الموازنة بين سمو الروح ومتطلبات الجسد؛ فجسد الإنسان جزء من كيانه، وهو جزء مطلوب لذاته، ولكنّه حين يترك وحده يهبط بالإنسان عن مستواه اللائق بخليفة الله في الأرض، فيعمل الإسلام على موازنته بإطلاق الروح في ملكوت الله، وصلة القلب الدائمة به، فالروح يخفف من تشبث الإنسان بالأرض، ويخفف من ثقل الجسم، ليهنأ بذلك.

٥) الاستعلاء على كل قوة في الأرض.. فما وزن هذه القوى الأرضية كلها بإزاء قوة الله؟ ففي صميم عقيدة المؤمن أنه خير من كل قوة فاسدة على الأرض، وأقوى منها. أقوى ولو ضعفت قوته المادية أمام الباطل، أقوى ولو انهزم، أقوى ولو غُلب على أمره، أقوى ولو غُلّت قوته المادية عن الجهاد، أقوى بروحه المتصلة بالله، وأعز بروحه المهتدية بهداه.. فحين وقف أبو بكر ﷺ في حروب الردة وحده، من كان يسنده من كل قوى الأرض؟ الجيوش لا تريد أن تحارب، والأفكار تجزع من حدوث الصدام. وأبو بكر ﷺ وحده.. وحده حتى من دون عمر بن الخطاب ﷺ، أشدّ الناس حماسة في الجاهلية وفي الإسلام. فكيف وقف أبو بكر وانتصر، وانحاز له كل شي، لولا إيمانه وصلته بالله ﷻ!! فتلك هي ثمرات صلة الإنسان الدائمة بالله، ومن ثَمّ هي ثمرة تربية الروح في الإسلام.

?

(١) البخاري، أحاديث الأنبياء، حديث الغار، رقم ٣٤٧٧.

(٢) المعجم الصغير للطبراني، حرف الحاء، من اسمه الحسين، رقم ٤٠٩. المعجم الكبير للطبراني، مسند من يعرف بالكنى من أصحاب رسول الله ﷺ، أبو عزيز بن عمير بن هاشم أخو مصعب، رقم ٩٧٧.

المطلب الثَّاني
تربيـــة العقـــل[1]

العقل البشري طاقة كبيرة في الإنسان، ونعمة من نعم الله عليه، يقول تعالى:

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾[الملك: ٢٣]، و(**الفؤاد**) يُستخدم في القرآن بمعنى العقل، أو القوة الواعية في الإنسان، أو القوة المدركة على وجه العموم.

ولقد فُتن الإنسان بعقله، ولاسيما في العصور الحديثة، حين رأى المخترعات التي ينتجها، والكشوف التي يقع عليها، والقوى التي صار يمتلكها. فجاءت هذه الفتنة على حساب الروح التي تتصل بالله.

فضخّم الإنسان من طاقة عقله، في حين أنه فرّط بطاقة روحه، مع العلم أن العقل البشري على الرغم من قدراته، محدود الإمكانية، لا تتجاوز معارفه حدود المادة.

ولهذا كانت فتنة الإنسان بعقله فتنة عمياء، لا تبصر، فلو كانت تبصر ما رضيت أن تقص أجنحة الكائن البشري وتقعده عن الانطلاق، ليجثم على الأرض، في حين أنه قادر على ارتياد الأرض بقدميه في ذات الوقت الذي يرتاد بروحه السماء.

منهج الإسلام في تربية العقل:

يبدأ الإسلام التربية العقلية **بتحديد مجال النظر العقلي**: فيصون الطاقة العقلية أن تتبدد وراء الغيبيات التي لا سبيل للعقل البشري أن يحكم فيها، وفي الوقت نفسه يُعلِم الإنسان ما يحتاج إليه من هذه العلوم الغيبية، ويوصله بها عن طريق طاقته الروحية.

ثم بعد ذلك يأخذ الإسلام في **تدريب الطاقة العقلية**- عند الإنسان – على طريق الاستدلال المثمر والتّعرّف إلى الحقيقة، فيتخذ إلى ذلك وسيلتين:

---

(١) انظر: منهج التربية الإسلامية ص ٧٥-١٠٤.

الوسيلة الأولى: وضع المنهج الصحيح للنظر العقلي، ويتم ذلك على النحو الآتي:

حيث يبدأ الإسلام بتفريغ العقل من كل المقررات السابقة التي لم تقم على يقين، ثم يأمره بالتثبت من كل أمر قبل الاعتقاد به واقتفائه، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾[الإسراء: ٣٦]

والتوجيهات في هذا الباب كثيرة، فأصحاب الكهف (مثلاً) يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ..﴾ [الكهف: ١٥]، وفي حديث الإفك يقول تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النور: ١٣].

الوسيلة الثانية: هي تدبر نواميس الكون وتأمل ما فيها من دقة وارتباط، فإن ذلك يعوّد العقل على دقة النظر وانضباط الأحكام، فيعلم المرء أن أيّ خلل بسيط في التفكير أو التقدير ينتج عنه أخطاء جسيمة، لو حدث مثلها في الكون لانفلت عقده وتهاوى ما فيه من أفلاك.

وطريقة الإسلام في تفعيل هذه الوسيلة، تظهر من خلال ما يأتي:

١- توجيه الطاقة العقلية إلى التأمل في حكمة الله وتدبيره:

فالله الخالق المدبر الذي خلق السموات والأرض إنما خلقها بالحق، ويدبرها بالحق، فذلك موضع التأمل. ويكرر القرآن هذه الحقيقة في كثير من آياته، منها:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ..﴾[الأنعام: ٧٣]

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ..﴾[الحجر: ٨٥]

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا..﴾[سورة ص: ٢٧]

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾[الدخان: ٣٨]..

فالكون لم يوجد مصادفة، ولم يوجد باطلاً، ولم يوجد عبثاً، وكذلك الإنسان: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾[المؤمنون: ١١٥]

كما يربط القرآن بين خلق السموات والأرض بالحق، وجزاء كل نفس بما كسبت:

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الجاثية: ٢٢].

وبذلك يكون الإنسان منذ نشأته إلى رجعته، إلى توفيته الجزاء يوم الجزاء، قائماً بالحق في كل مرحلة، لا باطل في خلقه ولا عبث ولا لهو، وهذا المبدأ هو أساس العقيدة التي تنشأ عليها الحياة.

ثم هناك ما هو أكثر من ذلك، فالكون القائم بالحق باعث على التفكر لذوي العقول، الذين لا يتفكرون بمعزل عن الله، فيضلوا، وإنما يتفكرون وهم يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، وهذا سيجعل نتيجة التفكر متصلة بالتفكر لاحقةً به وكأنه لا زمن يفصل بينهما، فيعرفون لتوِّهِمْ أنه الحق. ثم هم لا يقفون عند النتيجة الذهنية التي انتهوا إليها، وإنما تتحرك في الحال قلوبهم وأرواحهم بالتسبيح.. ثم لا يلبثون أن يصلوا ذلك بمعرفة المنهج الإيماني الذي يعيشون به على الأرض، وينفذونه في واقع الحياة، ويجاهدون في سبيله.. وهذا المعنى كاملاً يبينه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩٥].

٢- توجيه الطاقة العقلية إلى النظر في حكمة التشريع، وقوانينه، كقوله تعالى:

﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[البقرة: ١٧٩].

﴿..وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾[البقرة: ١٨٤]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩﴾ [الجمعة: ٩].

فالتشريع منزل من عند الله، والبشر هم القائمون على تنفيذه، فينبغي أن يكونوا واعين لحكمة التشريع، وإلا فلن يطبقوه على وجهه الصحيح. ولاسيما أن الحياة لا تسير بصورة آلية بحيث تنطبق عليها القاعدة التشريعية انطباقاً آلياً، وإنما هناك مئات من الحالات للقاعدة الواحدة.

وما لم يكن الإنسان فاهماً للحكمة الكامنة وراء التشريع، وفاهماً لترابط التشريعات في مجموعها، فلن يتمكن من تطبيقها في تلك الحالات المختلفة التي تَعْرِضُ للبشر في حياتهم الواقعية.

ومن الأمثلة المميزة على فهم حكمة التشريع: عدم تطبيق عمر بن الخطاب رضي الله عنه لحدّ السرقة على غلمان عبد الرحمن بن حاطب ابن أبي بلتعة الذين سرقوا ناقة لرجل مُزَنِيٍّ؛ لأنّ عمر عدّ الجوع الذي يقاسونه شبهة تدرأ عنهم الحد، وقال: (والله لولا أني أظن أنكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى لو أن أحدهم يجد ما حرّم الله عليه لأكله؛ لقطعت أيديهم..)[1].

وفيما يتعلق **بالتشريعات المتعلقة بأمور متغيرة** في الحياة البشرية، فقد اقتضت حكمة الله عز وجل أن **يقتصر التشريع فيها على الأسس والمبادئ** دون ذكر تفصيلات من شأنها التغير والتجدد. ففي سياسة الحكم مثلاً ورد أساسان شاملان هما العدل والشورى دون توضيح طريقة تطبيقهما، قال تعالى: ﴿..وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ..﴾ [النساء: ٥٨]، ﴿..وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ..﴾ [الشورى: ٣٨]، وإنما يُترك التطبيق لكل أمة لتصوغه حسب ظروف المرحلة التي تعيشها، مع الخضوع التام لحكمة التشريع العامة، وطلب التوفيق دائماً من الله للاهتداء إلى الحق في ذلك.

٣- توجيه الطاقة العقلية إلى سَنّ قوانين تضمن سير الأمور في المجتمع على منهج

(١) مصنف عبد الرزاق، اللقطة، سرقة العبد، رقم ١٨٩٧٧ (واللفظ له). سنن البيهقي، السرقة، ما جاء في تضعيف الغرامة، رقم ١٧٧٤٩.

صحيح: وذلك من خلال وجود سياسة واعية للمجتمع ينفذها الحاكم والشعب معاً {كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته}[1]، ثم من خلال مطالبة كل فرد في المجتمع بالرقابة على المجتمع كله للمساهمة بدوره في تصحيح ما يفسد فيه، وإلا أصاب الضرر الجميع، يقول تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ .. ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وللقرآن توجيهات أخرى في هذا الجانب لنجاح هذا الأمر، ومن ذلك:

أ- يبصّر المسلمين بأعدائهم الذين يتربصون بهم ليحذروهم، ويكونوا على الدوام متيقظين لهم واعين لمؤامراتهم ودسائسهم، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩ ﴾ [آل عمران: ١١٨-١١٩]

ب- يوجه المسلمين إلى طريقة تلقي الأنباء والتصرف في الأمر حين تشيع الشائعات حول أمر من الأمور، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣ ﴾[النساء: ٨٣].

جـ- يوجه المسلمين إلى حسن الحكم على الأشياء والأشخاص، وعدم التسرع في إصدار حكم على أمر لم تتبين كل خطوطه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ ﴾[الحجرات: ٦].

د- يوجه المسلمين إلى طاعة أولي الأمر في حدود طاعة هؤلاء لله والرسول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ... ﴾ [النساء: ٥٩].

ويلاحظ في كل التوجيهات السابقة وما يجري مجراها، مصاحبتها للأمر بالتوجه إلى الله،

(١) الأدب المفرد، البخاري، الخدم والمماليك، العبد راع، رقم ٢٠٦، الرجل راع في أهله، رقم ٢١٢.

وطلب تقواه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[المائدة: ١٠٠].

٤- توجيه الطاقة العقلية إلى النظر في سنن الله في الأرض وأحوال الأمم والشعوب على امتداد التاريخ: وهذه الدعوة تلح على الناس أن ينظروا في تاريخ من قبلهم، ويدرسوا عوامل الفناء والبقاء في المجتمعات، ليعلموا أنها تتبع سنة معينة: سنة التمكين للمؤمنين، والتدمير للكافرين، ومصداق ذلك في الكثير من آيات القرآن:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[آل عمران: ١٣٧].

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾[الأعراف: ١٣٦].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾[الأعراف: ٩٦].

وإن القرآن يوجه القلوب والعقول ألا تستعجل النتائج، فأعمار الأفراد ليست هي المقياس لتحقيق سنة الله، **فقد ينتصر الباطل فترة من الوقت ويزدهر**، ولكنّ هذا ليس نهاية المطاف، بل إنه جزء من سنة الله المتشعبة الجوانب:

- فقد يكون ذلك لأنّ الناس ضعفوا واستكانوا ولم يطلبوا التغيير: ﴿..إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ...﴾[الرعد: ١١].
- وقد يكون لأنّهم استطابوا الظلم، يقول ﷺ: {إن يعلم الله فيكم خيراً يولّ عليكم خياركم}[1].
- وقد يكون فتنة للذين ظلموا: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ..﴾[النحل: ٢٥].
- وقد يكون لأنّ الله يريد أن يمحص المؤمنين ليحملوا العبء عن سلامة وتمكن واستعداد:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم، كتاب معرفة الصحابة، ذكر مقتل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، رقم ٤٦٨١. كنز العمال في سنن الأقوال، كتاب الفضائل، قتل علي رضي الله عنه، رقم ٣٦٥٦٢.

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾[آل عمران: ١٣٩-١٤١].

■ وقد يكون.. وقد يكون.. ولكنّ السنة دائماً واحدة لا تتبدل، ماضية لا تتخلّف ولا تنحرف عن السبيل.

وفي المقابل نجد أن **التفسير المادي للتاريخ** يتخذ من وسائل الإنتاج المادي وتطورها مفسِّراً ومقرراً لوقائع التاريخ، ويتصور أن الأطوار التي يرسمها هي أطوار التاريخ وأطوار الإنسان، ولكنّها في الحقيقة هي أطوار الحضارة المادية على الأرض، لا أطوار التاريخ، وأطوار الإنسان، فالقرآن يؤكد مراراً أنه ليست العبرة بالقوة المادية: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ﴾[غافر: ٢١]

وليست العبرة بالتمكين المادي: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ..﴾[الروم: ١٠].

فليست العبرة إلا بالهدى والضلال، فالنصر ملازم للمؤمنين والخذلان دائماً للكافرين.

٥- توجيه الطاقة العقلية إلى استخلاص الطاقة المادية وتذليلها لخدمة الإنسان:

والإسلام يوجه المسلم إلى استخلاص هذه الطاقة غير مفتون بها، ولا شاعر بأنها خلاصة الحياة وجوهرها الأوحد، فينتفع بثمارها وهو مالك لأمره منها، غير مستَعبدٍ لها، ولا منجرف في طريقها، يقول تعالى:

﴿..كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ..﴾ [الأعراف: ١٦٠].

﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ...﴾[الأعراف: ١٠]

﴿.. فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾[الملك: ١٥]

ولقد برع المسلمون الأوائل في تطبيق هذا المنهج، فانتقلوا به من حياتهم البدوية- التي لا تعرف من الحضارة المادية إلا القليل – إلى التفكر والتعلم والاختراع والعمل.. فبرعوا في الطب والفلك والطبيعة والكيمياء.. وأصبحوا نبراساً اهتدت به أوربا حين صحت من غفوتها.ولكن لم يفتنهم تقدمهم المادي قط، ولم يخرجهم عن إنسانيتهم، ولم يؤثر سلباً في

علاقتهم بالله عز وجل ومنهج عبادته، والسير على هداه، وذلك في أعظم فترات تاريخهم ازدهاراً. وهذا ما يؤكد أنه لا وجود لتلك النفرة الكريهة بين الدين والعلم عند المسلمين.

وبالمقارنة مع الغرب نلحظ تأثر الأوربيين في اللاشعور بأسطورة (برومثيوس سارق النار) اليونانية، التي تُصور العلاقة بين البشر والآلهة وكأنها علاقة صراع دائم وضغينة وأحقاد، سببها المعركة القائمة بين الطرفين على النار المقدسة (نار المعرفة). فالبشر يريدون أن يستولوا على هذه النار ليعرفوا أسرار الكون كلها ويصبحوا آلهة، والآلهة تنكل بهم في وحشية وعنف، لتنفرد وحدها بالقوة، وتنفرد دونهم بالسلطان..

تلك إذن هي طبيعة العلاقة بين البشر والله عندهم، والتي اندست في أوهام الأوربيين، ولهذا يشعر الأوربيون بأن كل خطوة يخطوها العلم ترفع الإنسان فوق نفسه درجة، وتنزل الإله من عليائه بنفس القدر. ثم تتوالى الدرجات حتى تأتي اللحظة المرقوبة التي يخلق فيها الإنسان الحياة، ويصبح هو الإله..وهذا ما يفسر حال الغرب في الوقت الراهن، وانتشار الفكر الذي يجعل الإنسان مركز الكون في الكثير من المؤلفات الحديثة، ورغبتهم الجامحة في إقصاء الدين عن كل مجالات الحياة. وهذا الدافع لا وجود له، ولا مبرر لوجوده في فكر المسلمين ومنهجهم، كما سبق.

المطلب الثَّالث

تربيـــة الجســـم[1]

يُنظر إلى جسم الإنسان على أنه الأعضاء المكونة من عضلات وحواس ووشائج، وكذا الطاقة الحيوية المنبثقة من الجسم، والمتمثلة في مشاعر النفس.

والأصل أن الكائن الإنساني وحدة مترابطة لا يمكن أن تحل إلى أجزاء، وإنما هي ضرورة البحث التي تملي علينا أن نتحدث عن كل جزء على حدة، وإن لم يكن في الحقيقة كذلك.

فالأصل عدم الفَصْل بين النفس والجسم؛ لأنه لا يوجد نشاط جسماني واحدلا يدخل في نطاق النفس. فالسمع والبصر والذوق والشم واللمس كلها حواس جسمية، ولكنّها لا تؤدي وظيفتها منفصلة عن الكيان النفسي كله. ولا يمكن الحديث عنها منفصلة إلا إذا تحدثنا عن تركيبها أو أردنا معالجة اختلال في وظائفها.

أما ماعدا ذلك فالرؤية بلا وعي، والسمع بلا تدبر، والذوق والشم واللمس بلا انعكاس على محيط النفس[2].. ليست هي الشيء الذي له قيمة في حياة الإنسان، ولا هي شيء يُربى لذاته، يقول تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[الأعراف: ١٧٩].

والإسلام في تربيته للجسم والطاقة الحيوية يراعي الأمرين معاً، فهو يراعي الجسم من حيث هو جسم ليصل منه إلى الغاية النفسية المرتبطة به. فحين يقول الرسولﷺ: {إن لجسدك عليك حقاً}[3] من إطعام وراحة وتنظيف وتقويم، فهو يدعو إلى هذه العناية الشاملة

---

(١) انظر: منهج التربية الإسلامية ص١٠٤- ١٠٦.

(٢) أي عندما تتحول الحواس إلى آلات تؤدي وظائفها بلا انفعال..

(٣) سنن البيهقي، الصوم، صيام التطوع والخروج منه، رقم ٨٦٠٤. المعجم الكبير للطبراني، باب الواو، وهب بن عبد الله، رقم ٢٨٥.

للجسم كله، ليأخذ الإنسان نصيبه من المتاع الحسي الطيب الحلال الذي أمر الله به في توجيهات كثيرة: ﴿..وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا..﴾[القصص: ٧٧]، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ..﴾ [الأعراف: ٣٢]

فمنهج التربية الإسلامية في هذا الميدان يُقصَد به تربية الجسم ورياضته ليتحمل المشاق وبذل الجهد، كما يُقصد به الأخذ بنصيب الإنسان من الحياة والاستمتاع به. فالجسد الهزيل المريض لا يأخذ نصيبه الحق من المتاع؛ كما أنه لا يوصل شحنة الحياة إلى النفس إيصالاً صحيحاً تقوم عن طريقه بمهمتها المفروضة عليها.

ومن ناحية أخرى فالإسلام لا يحتقر ((الجسم)) ولا يستنكره ولا يستقذره، وأبلغ دليل على ذلك أن العبادات الإسلامية تشرك الجسم في العبادة ولا تسقطه من الحساب.

ففي الصلاة ترى الوضوء عملية جسمية- وإن كانت له معان روحية- قصد بها تطهير البدن قبل الدخول في الصلاة. والصلاة ذاتها حركة جسم، وفي ذات الوقت هي يقظة للفكر وطلاقة للروح. ويظل الجسم مشاركاً للعقل والروح في أثناء الصلاة، يشارك بالحركة والخشوع، ويشارك بالمحافظة على الطهارة، وإلا فسدت الصلاة.

والصيام عبادة نفسية وجسمية في آن، وكذلك العبادة بمعناها الواسع؛ عبادة ((العمل))، مشاركة جسمية في التوجه إلى الله.

وأما الجانب الآخر في تربية الجسم، فهو **تربية الطاقة الحيوية** المنبثقة من الجسم **والمتمثلة في مشاعر النفس**- كما سبق.

ومنهج الإسلام في تربية هذه الطاقة **يبدأ بالاعتراف بها، واحترام رغباتها**، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها: يقول تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾[الكهف: ٧]

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ..﴾[البقرة: ٢٢٣].

ولكنّ الإسلام وهو يحترم الطاقة الجسمية، لا يتركها دون ضبط وتنظيم؛ لأنّها إذا تُركت وشأنها لا تقف عند حد، وتدمر الكيان. وهنا مكمن الخطر في رغائب النفس، فرغم أنها ضرورية جداً لبقاء الحياة واستمرارها، لكنّها في الوقت ذاته معرضة للانطلاق العنيف،

وحين تنطلق كالمطية الفارهة تعرض راكبها للعطب والهلاك:

فهي **أولاً:** تعطب جسمه بالعلل والأمراض، والاستهلاك السريع قبل الأوان.

وهي **ثانياً**: تشقيه ولا تتركه في راحة؛ لأنها لا تشبع، بل تطلب المزيد دوماً، وحينئذ تنقلب اللذة إلى ألم، والمتعة إلى عذاب.

فالذي يُسرف في الطعام لا يشبع كما يبدو لأول وهلة، بل يصيبه النهم فلا يقنع ولا يستريح.

والذي يُسرف في إمتاع الجسم بالراحة لا يشعر بمزيد من الراحة، بل يصيبه الكسل والترهل.

والذي يسرف في التملك، لا يزداد متعة بما يملك، بل يصيبه الجشع فلا يشبع مهما امتلك.

ثم إن الإسلام يذكر المسلم دائماً بأن **هذه الشهوات ليست غاية في ذاتها**، ليستغرق الإنسان في طلبها والانكباب عليها؛ بل هي وسائل إلى غايات أخرى أرفع منها وأولى بالالتفات.

فالطعام- مثلاً- وسيلة لحفظ الأود، قال رسول الله ﷺ: {ما ملأ آدمي وعاءً شراً من بطنه، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه}[1].

والجنس وسيلة لبقاء النوع، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[النساء: ١].

والمال وسيلة لإقامة الجماعة، يقول تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥].

ففي ظل هذه الفكرة لا تجد في منهج التربية الإسلامية للجسم أيّ توجيه لكبت رغبات النفس بالقضاء عليها نهائياً. فـ **(الضبط)** الذي يوجه إليه الإسلام ليس هو **(الكبت)** وإن تشابها في مظهر الامتناع.

وحتى فرويد يفرق بينهما بقوله: ((وفرق بين هذا (الكبت اللاشعوري) وبين الامتناع

---

(١) السنن الكبرى للنسائي، ج٤/٦٧٦٩. سنن ابن ماجة، الأطعمة، الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع، رقم ٣٣٤٩.

عن إتيان العمل الغريزي، فهذا مجرد تعليق للتنفيذ))[1].

فليس الكبت هو الامتناع عن إتيان العمل الغريزي، ذلك الامتناع الواعي المقصود، وإنما الكبت هو استقذار الدافع الغريزي واستنكاره، وعدم اعتراف الإنسان بينه وبين نفسه بأنه يحق له أن يشعر بوجود ذلك الدافع أو يخطر له على بال.

أما الضبط فعملية أخرى واعية يقصد بها تنظيم العمل الغريزي، ووضعه موضعه الصحيح- كما سبق.

والله ﷻ لم يخلق الكائن البشري بهذه الغرائز بوظائفها الهامة، ليأمره بكبتها، بل ليأمره بتوجيهها لتأدية أهداف الحياة المتنوعة.

وثمة أمر أخير يتجلى في الصورة التي فُطرت عليها الحياة لتلبي دوافع الجسم البيولوجية والنفسية؛**فقد فطرت الحياة على هذا الكون على قدر من الجمال**، جمال زائد عن الضرورة، والغاية منه ظهور الإحسان في أداء وظائف الجسم البيولوجية والنفسية، لا أن تؤدى مجرد أداء.ونظرة واحدة في الكون الواسع العريض تفتح بصيرة الإنسان إلى ذلك.

فجمال الزهرة مثلاً بألوانها المتناسقة، ورائحتها الزكية، ليس ضرورياً لجذب النحل الذي يؤدي وظيفته في تلقيح النبات، وإنتاج العسل؛ لأنّ النحل يحط على الزهرة الجميلة كما يحط على الزهرة العادية. فليس جمال الزهرة إذن ضرورة، ولكن وجد الجمال ليظهر الأداء بأحسن صوره.

وكذلك كل الوظائف البيولوجية عند الإنسان يمكن أن تؤدى بكل صورة، ولكن أريد لها أن تؤدى بأحسن صورة، ولهذا كان جمال الأطعمة بألوانها وصورها، وجمال الأصوات كخرير الماء، وحفيف الشجر، وجمال كل ذكر وأنثى..

وبهذا يجمع الإسلام في تربيته للجسم بيْن الدّعوة إلى تلبية رغباته المتنوعة، والتي ضَمِن له أن تؤدَّى بأحسن صورها، وبيْن ضبطِ تلك الرغبات حتى لا تخرجَ عن الأهداف الحيوية التي وجدت لأجلها. وبهذا يرتقي الإسلام بحياة المسلم بكل الاتجاهات.

وقد كان الرسول ﷺ صورة حية حملت تطبيق منهج الإسلام في التربية بصورة

(١) نقلاً عن: منهج التربية الإسلامية، ص١١٣.

رائعة، فقد كانﷺ مقبلاً على شؤون الحياة، قوي التمكّن، جاداً في كل شأن من شؤونه. وكان يمشي بنشاط كأنما يتقلع من الأرض، ويأكل من طيبات ما رزقه الله، ويعيش حياة زوجية سليمة، ويدعو إلى الزواج ويحضّ عليه..

نفس تفيض بالحياة، وتمتلىء بالطاقات، لكنّه مع ذلك كان المحارب القوي، والمجاهد القوي، والمتعفف عن أيّ متاع يصرفه عن الجهاد.

وتلك هي النفس المتكاملة، التي تأخذ انطلاقها الكامل في كل اتجاه بقوة وإصرار وتمكّن، وفي الوقت ذاته تخلع نفسها بقوة من كل متاع حين تريد.

المبحث الثَّالث

وسائط التربية الإسلامية

تمهيد

اتضح في المبحث السابق أن (مجالات التربية الإسلامية) هو مصطلح أُريد به جوانب النفس البشرية التياهتم الإسلام بتربيتها، وهي: الروح والعقل والجسد..

ولكن ما هي وسائل التربية الإسلامية لتحقيق أهدافها المرجوة في تلك المجالات؟..

يمكن القول: إن للتربية الإسلامية وسائل مادية وبشرية ذات أثر معنوي عظيم، وهي:

الأسرة، والمسجد، والمدرسة، والمجتمع، والمربي، وهذه الوسائل يمكن أن تسمى بـ (وسائط التربية) بمقابل وسائل أخرى تعليمية ونفسية، أيضاً لها أثر معنوي كبير، كالاعتماد على القصة، أو الحوار، أو الإيماء.. وتسمى أساليب التربية[1]، وهي ستدرس في موضع لاحق من هذه الدراسة.

ولكي يتضح أثر وسائط التربية المختلفة في العملية التربوية، سنعرض لها فيما يأتي بشيء من التفصيل.

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ص ١٠٨.

المطلب الأوّل

الأســـــرة

الأسرة هي المؤثر الأوّل في تشكيل شخصية الإنسان وإكسابه العادات التي تبقى ملازمة له طوال حياته، فهي البذرة الأولى في تكوين النمو الفردي وبناء الشخصية[1]، لأسباب منها:

أن البيت يتسلم الطفل – في العادة – في أول مراحله فيبذر فيه بذوره قبل أيّ شيء آخر أو أيّ أحد آخر، ولأنّ الزمن الذي يقضيه الطفل فيه أكثر (في سنواته الأولى على الأقل)، ولأن الأشخاص المحيطين بالطفل فيه هم ألصق الناس جميعاً به وأحبهم إليه (وخاصة أمه)، ومن ثمّ هم أكثر الناس تأثيراً فيه بالقدوة والتلقين، لأن الطفل في أغلب أحواله مقلد لأبويه في عاداتهما وسلوكهما[2].

وقد يقوم بدور الأبوين – في بعض الأسر – الجدات والأجداد وغيرهم..، ولكنّنا نتحدث هنا عن الأعم الأغلب حيث تقوم الأسرة بركنيها: الزوج والزوجة، ثم الأوّلاد..

أهداف تكوين الأسرة:

والأسرة في الإسلام لا تحوز مكانتها المرجوة في العملية التربوية إلاّ إذا تحقق فيها أهداف تكوينها، وذلك:

١- بأن تكون بين زوجين مسلمين يقيمان حدود الله بينهما، أي يحققان شرعه ومرضاته في كل شؤونهما وعلاقتهما، ولهذا فقد قال تعالى:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾[البقرة: ٢٢٩].

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

---

(١) النظام التربوي في الإسلام، ص ٦٩.

(٢) منهج التربية الإسلامي، ص ٣٢٩.

٢- وبأن تقوم العلاقة بينهما على أساس من الرحمة والاطمئنان النفسي المتبادل، لقوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[الأعراف: ١٨٩].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[الروم: ٢١][(١)].

ويقول أحد علماء الغرب المتخصصين مبرزاً هذا المعنى: (لا يقوم الزواج المثالي حقاً على توافق الشهوة فقط، وإنما يقوم على اتحاد غير شهواني، أساسه مودة عميقة تتوثق على مرّ الأيام وتشتمل شتى نواحي الحياة، وهو اتفاق الأذواق، والمشاعر، والميول، وهو اتفاق على الحياة المشتركة، بما قد تستلزمه من أعباء الأبوة)[(٢)].

واجبات الأسرة التربوية:

فإذا وُجِدت الأسرة بوصفها السابق، أمكنها أن تقوم بواجبها التربوي تجاه الأبناء، ومن ذلك:

١ – أن تُشيع في البيت الاستقرار والود والطمأنينة، وترك الكلفة، واجتناب هُجْر القول ومرّه، فإن لذلك أثراً عميقاً في تكوين الأبناء تكويناً سليماً.

وقد أكد الرسول ﷺ على ضرورة اجتناب سفه القول وبذاءة اللسان، وشراسة الطبع لعامة المسلمين حين قال: {إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من ردعه أو تركه الناس اتقاء فحشه}[(٣)].

وقد حملت تصرفاته الشخصية ﷺ للأطفال خاصة كثيراً من معاني العطف والود: فقد روى أحمد عن عبد الله بن الحارث ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يصفّ عبد الله وكثيراً من بني العباس ﷺ، ثم يقول: {من سبق إليّ فله كذا وكذا قال: فيستبقون إليه فيقعون

(١) أصول التربية الإسلامية، وأساليبها، ص ١١١ – ١١٢.

(٢) نقلاً عن النظام التربوي في الإسلام، ص ٧٨.

(٣) البخاري، الأدب، ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب، رقم ٦٠٥٤. مسلم، البر والصلة، مداراة من يتقى فحشه، رقم ٦٧٦١ (واللفظ له).

على ظهره وصدره، فيقبلهم، ويلزمهم}[1].

وكان ﷺ لا يمزح إلاَّ صادقاً، فقد روى أحمد عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: {من قال لصبي تعال هاك ثم لم يعطه فهي كذبة}[2].

وروى النسائي من طريق جعفر بن سليمان بن ثابت أنَّ النبي ﷺ كان يزور الأنصار فيسلم على صبيانهم، ويمسح برؤوسهم، ويدعو لهم[3]... إلى غير ذلك من الشواهد..

فإن لم يوفق البيت لأداء مهمته التربوية هذه، فإن الطفل قد يصاب بانحرافات خطيرة، منها القضاء على شعوره بالأمن، وتحطيم ثقته بنفسه، وقد يصاب الأبناء بعقد نفسية تسبب لهم كثيراً من المشاكل في حياتهم فيما بعد، يقول بعض التربويين:

(ونحن لو عدنا إلى مجتمعنا الذي نعيش فيه فزرنا السجون، ودور البغاء ومستشفيات الأمراض العقلية، ثم دخلنا المدارس، وأحصينا الراسبين من الطلاب والمشاكسين منهم، والمتطرفين في السياسة، والذاهبين بها إلى أبعد الحدود، ثم درسنا من نعرفهم من هؤلاء جميعاً؛ لوجدنا أن معظمهم حرموا من الاستقرار العائلي، ولم يجد معظمهم بيتاً هادئاً فيه أب يحدب عليهم، وأم تدرك معنى الشفقة).

ويقول آخر: (إن السعادة العائلية للأطفال تبعث الطمأنينة في نفوسهم بعد ذلك، حتى إذا مات أبوهم بقيت هذه الطمأنينة، وقد وجد عند إجلاء الأطفال.. في الحروب.. أن الذين سعدوا منهم بوسط عائلي حسن تحملوا الغربة أكثر مما تحملها الذين لم يسعدوا بمثل هذا الوسط؛ وذلك لأنّ الوسط العائلي القلق الذي نشؤوا فيه يزداد بالغربة، وإذا أعطينا الطفل – مدة طفولته في العائلة – الحب والطمأنينة، أعطى هو مثل ذلك)[4].

٢ – أن يشرف كلا الأبوين بنفسيهما على تربية أبنائهما وتعهدهم بالعطف والحنان والحدب عليهم والرأفة بهم، حفظاً وصيانةً لهم من الكآبة والقلق.

ويبين العلماء مدى أهمية قضاء الأب بعض الوقت يومياً مع أبنائه، بقولهم: (إن

---

(١) مسند أحمد بن حنبل، ج ٣، رقم ١٨٣٦.

(٢) مسند أحمد بن حنبل، ج ١٥، رقم ٩٨٣٦.

(٣) السنن الكبرى للنسائي، ج ٥، رقم ٨٣٤٩.

(٤) النصّان نقلاً عن: النظام التربوي في الإسلام، ص ٧٠-٧٢.

أفضل ميراث يتركه الأب لأطفاله هو بضع دقائق من وقته كل يوم).

ويبين تقرير للأمم المتحدة عن المؤثرات التي تحدث للطفل من حرمانه عطف أبيه، جاء فيه: (إن حرمان الطفل من أبيه – وقتياً كان أم دائماً – يثير فيه كآبة وقلقاً مقرونين بشعور الإثم والضغينة، ومزاجاً عاتياً متمرداً، وخوراً في النفس، وفقداناً لحس العطف العائلي، فالأطفال المنكوبون بحرمانهم من آبائهم ينزعون إلى البحث في عالم الخيال عن شيء يستعيضون به عما فقدوه في عالم الحقيقة، وكثيراً ما يكوّنون في مخيلتهم صورة الأب مغواراً أو الأم من الحور... وقد لوحظ في (معاهد الأطفال) أنه إذا كانت صحة الطفل البدنية، ونموه العضلي، وضبط دوافعه الإرادية تتفتح، وتزدهر بصورة متناسقة في تلك المعاهد، فإن انفصاله عن والديه قد يؤدي من جهة أخرى إلى ظهور بعض المعايب كصعوبة النطق، وتمكن العادات السيئة منه وصعوبة نمو حسه العاطفي)[1].

وقد سبق الإسلام بالاعتناء بهذا الجانب عناية فائقة، **وقد كان رسول الله ﷺ أسوة حسنة** لكل من جاء بعده:

فقد روى البخاري عن أبي قتادة الأنصاري أن رسول الله ﷺ كان يصلي وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ زوج أبي العاص بن ربيعة بن عبد شمس، فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها[2].

وكان رسول الله ﷺ يأخذ أسامة بن زيد فيقعده على فخذه، ويقعد الحسن على فخذه الأخرى، ثم يضمهما، ثم يقول: {اللهم ارحمهما فإني أرحمهما}[3].

وهذه الأمثلة غيض من فيض، وهي تبين تعليم الرسول ﷺ لأمته ضرورة إلتزام الكبار للأطفال ذكوراً وإناثاً، ومنحهم فرصة الاقتراب من الكبار، حتى عند القيام بأجلّ الأعمال وأرفعها عند الله تعالى، كالصلاة.

٣ – الأسرة مسؤولة عن صيانة فطرة الطفل عن الزلل والانحراف، فإن من

---

(١) نقلاً عن النظام التربوي في الإسلام، ص ٧٢ – ٧٣.

(٢) البخاري، كتاب الصلاة، إذا حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة، رقم ٥١٦ (واللفظ له). مسلم، المساجد، جواز حمل الصبيان في الصلاة، رقم ١٢٤٠.

(٣) البخاري، الأدب، وضع الصبي على الفخذ، رقم ٦٠٠٣.

خصائص الطفل الذاتية الصفاء والبراءة، وسلامة العاطفة وبساطة الفكر.

فعلى الأبوين أن يفتحا عينيه على الفضائل، وأن يغرسا في نفسه النزعات الخيرة ليكون لهما قرة عين في حياتهما، قال تعالى حكاية عن عباده الصالحين: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[الفرقان: ٧٤]. لهذا على الأبوين أن يكونا قدوة حسنة لأولادهما، ومثلاً أعلى للخير والصلاح، يعودان الطفل على تذكر عظمة الله ونعمه، والاستدلال على توحيده من آثار قدرته، لإبقاء فطرة الطفل على صفائها واستعدادها لتوحيد الله وتمجيده[1].

وللأسرة بعد ذلك وظائف ومهام كثيرة وتفصيلية ذكرها العلماء، اكتفينا بالإشارة إلى أهمها؛ لأنّ المراد هنا بيان دور الأسرة – عموماً – كوسيط في العملية التربوية، دون بسط ذلك الدور تفصيلاً.

أثر عامل الوراثة في النشأة:

وتبقى نقطة أخيرة قبل الانتقال للحديث عن وسيط آخر في العملية التربوية، وهي توضيح أثر عامل الوراثة عند الطفل على دور الأسرة:

سبق أن قلنا إن البيت هو المؤثر الأوَّل في بناء التكوين التربوي للطفل لأنه يتسلّم الطفل في أولى مراحله..، ولكنّ السؤال المطروح هنا:

هل يكون الطفل عند ولادته خالياً تماماً من أيّة مؤثرات مرافقة؟ ما أثر عامل الوراثة فيه؟ وهل يشكّل ذلك – في بعض الأحيان – عائقاً أمام الدور الذي تقوم به الأسرة؟..

اعترف الإسلام بظاهرة الوراثة، ودلل على كثير من آثارها ومميزاتها، وأن لها مدخلاً إيجابياً في التكوين السليم وعدمه للإنسان. فهي تؤثر أثراً ذاتياً في الشخص منذ بداية تكوينه، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى عندما قصَّ قول نوح عليه السلام: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾[نوح: ٢٦ – ٢٧].

ولهذا ركز الإسلام على ضرورة الاختيار السليم لكل من الزوج، والزوجة، فقال

(١) أصول التربية الإسلامية، ص ١٤– ١١٥، النظام التربوي في الإسلام، ص ٧٤.

رسول الله ﷺ: {تخيّروا لنطفكم وأنكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم}[1][2].

والحقيقة أن المزاج الشخصي للطفل، ووراثاته القريبة والبعيدة من أبويه وأهله ذات أثر في تكوين شخصيته لا يمكن إهماله[3]، فهو يولد بها قبل أن يتلقى أيّ مؤثر خارجي. ففي البيت الواحد يمكن أن ينشأ أخوان في ذات البيئة، وفي ذات الجو، ويكون أحدهما كريماً والآخر بخيلاً، أو يكون أحدهما شجاعاً والآخر جباناً... إلى غير ذلك من الفروق بين شخص وآخر[4].

وينبغي التنبيه بداية إلى أن **التوجيه والتربية لا يراد لهما أن يلغيا أثر الوراثة**، وليس لهما ذلك؛ لأنّ الله ﷻ خلق الناس مختلفي الطبائع والأمزجة لحكمة يريدها سبحانه، لكي تتنوع الحياة البشرية وتثرى، ولا يكون الناس نسخة واحدة مكرورة كالدودة أو الجرثومة أو الحيوانات الدنيا؛ لأنّ التنوع سمة من سمات الرقي في عالم الخلق لتحقيق الخلافة بكامل وجوهها، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي، كتاب النكاح، باب اعتبار الكفاءة، رقم ١٤١٣٠.

(٢) النظام التربوي في الإسلام، ص ٦٣ – ٦٤.

(٣) وقد أثبت العلم أنّ (وراثة المولود لا يحددها أبواه المباشران فقط، بل هو يرث من جدوده وآباء جدوده وجدود جدوده وهكذا... وبديهي أنّ معظم وراثة الإنسان تنحدر إليه من آبائه الأقربين وأنّ أثر الجدود الأباعد يقل كلما زاد بعدهم، وعلى هذا نستطيع القول: بأنّ نصف الوراثة من الأبوين، وربعها من الجدود، وثمنها من آباء الجدود وهكذا. انظر (علم النفس التربوي، الدكتور فاخر عاقل، ص ٣٩، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٥.)

(٤) والخصائص والصفات التي يمكن توريثها هي باختصار:

١ ـ الصفات الجسمية.

٢ ـ الصفات العقلية: كحدة الذكاء أو البلادة، والطباع النفسية والعقلية، وصدق النظر في الميولالاهتمامات.

٣ ـ الطباع والسجايا: كالاهتمام أو عدم المبالاة، والرعونة وحدة الطبع، وسرعة الإجابة أو الخمول والجمود، والإحساس أو تعب الأعصاب، والانشراح والاكتئاب.

٤ ـ الميل في أعضاء الجسد نحو القوة أو نحو الضعف.

٥ ـ المزاج العصبي.

٦ ـ غرابة الطبع وشواذ الحالات العصبية. انظر (سيكولوجية النمو والارتقاء، الدكتور عبدالفتاح دويدار، ص٨١، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٣).

ولكنّ **التربية والتوجيه من واجبهما أن يقوّما فقط الانحرافات الناتجة عن الوراثة** ويخففا من غلوائهما حين تكون تلك الوراثات ذات طبيعة حادة متجاوزة للقصد. أي أن تستخلص التربية خير ما في عامل الوراثة، وتقوّم ما قد يكون فيه من غلوّ وانحراف[1].

ولهذا فالوراثات ليست في الحقيقةبالضخامة التي يتصورها الناس عادة، إلاّ حين تترك وشأنها بغير توجيه يقوّم انحرافاتها أو يخفف من غلوائها.

فحين لا تكون هناك تربية، أو حين تكون التربية أو التوجيه فاسدين، فإن انحرافات العامل الوراثي تتأكد بدلاً من أن تقوّم، وتبرز بدلاً من أن تسوّى. فيخيل للناس حينئذٍ أن الوراثة هي الغالبة، وهي الحاسمة في تكوين الشخصية، وليس الأمر في حقيقته كذلك، وإنما تكون كذلك عندما تترك من غير توجيه. وكل شيء يترك وشأنه لابد أن يستفحل وأن يصل إلى غاية مداه؛ لا لأنه هو في طبيعته بهذه القوة وهذا العنف، ولكن لأنه لا يجد عائقاً يعوقه أو يشذبه وهو ماض في طريقه.

ولهذا يشبه الطفل عند ولادته صفحة بيضاء ذات خطوط باهتة لم تتميز بعد، ولكنّها ستتميز لا محالة، إما على صورتها الموروثة بغير تعديل إذا لم يحدث تدخل معين في شأنها، وإما على صورة معدلةإذا حدث تدخل مقصود[2].

وبنفس المعنى يمكن القول إن أثر الأسرة في التربية وإن كان له مكان الصدارة، فإنها بتخليها عن هذا الدور كلياً أو جزئياً تعطي الوسائط الأخرى (المسجد – المدرسة– المجتمع..) دوراً أقوى في توجيه الفرد...

وحتى إن قامت بدورها كاملاً فلابد أن تساندها الوسائط الأخرى في تربية الطفل.

ولهذا كان من المهم توضيح بقية الأدوار، والصورة التي ينبغي أن تكون عليها.

---

(١) منهج التربية الإسلامية، ص ٣٢٥ – ٣٢٦.

(٢) منهج التربية الإسلامية، ص ٣٢٥، ٣٢٧، ٣٤٣.

المطلب الثَّاني
المســـــجـد

يمكن أن نعد المسجد ثاني الوسائط بعد الأسرة من حيث الأثر التربوي في التنشئة. لأنّ الطفل يبدأ بالتردد على المسجد مع إمكانية خروجه من المنزل برفقة أحد الكبار، وذلك بالطبع قبل التحاقه بالمدرسة..

وعلاقة المرء بالمسجد تدوم طوال عمره، ولاسيما إن جعل عادته أن يصلي فيه الصلوات الخمس المكتوبة، وأن يحضر بعض المجالس العلمية والتوجيهية، فضلاً عن الأمور الواجبة كصلاة الجمعة، وصلاة العيدين..

والمسجد بما تشتمل عليه جنباته من هدوء وخشوع، ينقل هذه السمات إلى وجدانيات الطفل والشاب والكهل، فتدخل في نفوسهم وشائج المحبة، وإلى قلوبهم الإلفة والسكينة، وإلى عقولهم الأمل والثقة في الله تعالى[1].

مكانة المسجد:

ومما يبين أهمية المسجد ومكانته في المجتمع الإسلامي:

أن بناء المسجد كان أول عمل قام به رسول الله ﷺ عندما وصل إلى المدينة المنورة، فكان مسجد (قباء)، وقد ذكره الله تعالى في محكم تنزيله بقوله: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[التوبة: ١٠٨].

ثم تتابع بناء المساجد في كل موقع تحل به دعوة الإسلام، وتنافسَ المسلمون في بنائها وعمارتها، وهي شاهد عدل على عظمة الإسلام وعظمة رسالته..

والمسلمون حيث يقيمون، يسارعون إلى بناء المسجد لأنه قبلتهم، وملتقى عواطفهم،

(١) نحو تربية إسلامية، د.حسن الشرقاوي، ص ٢٨٥.

والمورد العذب للتثقيف الديني الذي يربطهم بأخوة الإسلام[1].

وظائف المسجد:

وقد تعددت وظائف المسجد وتنوعت في عصور الإسلام الأوْلى ومن ذلك:

١) كان المسجد الموضع الذي يضم شتات أمر المسلمين، يجمعون فيه أمرهم، ويتشاورون لتحقيق أهدافهم، ودرء المفاسد عنهم، والتعاون لمجابهة المشكلات، وصد العدوان عن عقيدتهم، وعن أنفسهم وأموالهم.

٢) كما كان المعقل الذي يلجأ فيه المسلمون إلى بارئهم، يستمدون منه السكينة والقوة والعون، ويعمرون قلوبهم بشحنة جديدة من الطاقات الروحية، بما يمنحهم الله صبراً وبأساً وإقداماً ووعياً وتبصراً ورباطة جأش، وبعدَ نظر، وتفاؤلاً ونشاطاً..

٣) وكان المسجد مركزاً تربوياً، يُربى فيه الناس على الفضيلة، وحب العلم، وعلى الوعي الاجتماعي، ومعرفة حقوقهم وواجباتهم، في الدولة الإسلامية، التي أقيمت لتحقيق طاعة الله وشريعته وعدالته ورحمته بين البشر.

٤) ومنه انطلق تعليم القراءة والكتابة... فكان مصدر إشعاع علمي وخلقي ثم سياسي وعسكري حيث تخرّج منه أعظم القادة السياسيين والعسكريين والعلماء بقيادة المعلم الأوَّل رسول اللهﷺ، ومن هؤلاء أجلاء الصحابة رضوان الله عليهم، كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن عباس وزيد بن ثابت.. وغيرهم ممن جاء بعد...[2].

أثر المسجد في التربية:

ولهذا يعدّ المسجد من أعظم المؤثرات في نفوس الناشئين:

١. ففيه يرون الراشدين مجتمعين على كلمة الله، فينمو في نفوسهم الشعور بوحدة المجتمع المسلم، والاعتزاز بالجماعة الإسلامية.

٢. وفيه يسمعون الخطب والدروس العلمية، فيبدؤون بوعي العقيدة الإسلامية وفهم هدفهم في الحياة، وما أعدَّهم الله له في الدنيا وأعدَّه لهم في الآخرة.

---

(١) التربية الإسلامية، دراسة مقارنة، محمد أحمد جاد صبح، ج٢ / ص ٢٦٨.

(٢) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ص ١٠٨-١٠٩. التربية الإسلامية دراسة مقارنة، ، ج٢/ ٢٦٩.

٣. وفيه يتعلمون القرآن ويرتلونه، فيجمعون بين النمو الفكري والحضاري بتعلم القراءة ودستور المجتمع الإسلامي، وبين النمو الروحي وهو الارتباط بخالقهم..

٤. وفيه يتعلمون الحديث والفقه، وكل ما يحتاجون إليه من نظم الحياة الاجتماعية، كما أراد الله أن ينظمها للإنسان، ومن كتاب الله وسنة رسوله.

فالمسجد على هذا يعلم الناشئين أن كل أمور الحياة تابعة للارتباط بالله، وصادرة عن هدف التربية الإسلامية الشامل الذي هو إخلاص العبودية لله، وينغرس هذا المعنى في نفس الناشئ عفواً من غير قصد ولا تكلف[١]. لأنه سبَق وذكرنا أن التقليد والمحاكاة هو السبيل الأوَّل لتعليم الطفل وتربيته.. وعن طريقه يعتاد ويتطبع بالميول والعادات، ولهذا كان للمسجد الأثر الأعظم في العملية التربوية، ولاسيما، لخلوه عن الأخطاء العفوية التي لا يخلو عنها البيت عادة.

إحياء رسالة المسجد في العصر الحديث:

الصّورة المعروضة للمسجد في الفقرات السابقة، إنما تبيّن حال المسجد في عصور الإسلام الزاهرة، حيث كان المسجد أمل الشباب ومكانهم المفضّل، وكانت المساجد منارات للعلم والهدى، كالمسجد الحرام، والمسجد النبوي الشريف، وجامع المنصور، ومسجد قرطبة، والجامع الأموي، وجامع الزيتونة والقرويين، حيث تخرّج من هذه المساجد رجال استطاعوا أن يزرعوا في الصدور والقلوب قوة خارقة، بنت مجدنا الإسلامي التليد..

ولكنّ دور المسجد بدأ يتضاءل في عصور الانحطاط والتأخر التي منيت بها أمة الإسلام، فاقتصر دور المسجد فيها على أداء العبادات من دون الاهتمام بالمهام التربوية الأخرى. فكان نتيجة ذلك ابتعاد الطفل والشاب والكهل عن المسجد، وتراجعٌ في وظائفه التربوية والاجتماعية[٢].

وأحد أسباب هذا التراجع هو: انجذاب الصبية والشباب في مجتمعاتنا المعاصرة إلى تلكم الأدوات والمستحدثات بما تقدم من فنون رخيصة وغواية تثير الشهوات، مع أنه من

---

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ص ١١٠.

(٢) التربية الإسلامية، دراسة مقارنة، ج٢ /١٧٧.

الممكن الاستفادة منها بتقديم ما هو خير وإيجابي.

ولأن الطفل والشاب ينجذبان لكل ما هو محبوب ومرغوب، وجب علينا أن نجعل من المسجد مكاناً مرغوباً ومحبوباً لاستعادة شبابنا إلى بيوت الله.

ولهذا وجب تطوير رسالة المسجد وتوسيعها لتشمل جميع أنشطة الحياة، وذلك بإنشاء أقسام أخرى إليه تجمع مختلف الأنشطة الاجتماعية والثقافية وحتى الرياضية، وبذلك نضمن مكوث الناشئة فيه أطول مدة ممكنة.

فمثلاً يكون للمسجد مدخل خاص يقود إلى حرم العبادة والصلاة، ومدخل آخر يقود إلى المكتبة العلمية والثقافية، ثم يكون هناك دور ثانٍ منفصل كذلك، يكون بمثابة دائرة تلفزة مغلقة تُعرض فيها برامج مدروسة عن التراث وقصص الصالحين والأتقياء، وموضوعات تربط بين العلم والإيمان. ولا مانع من إنشاء قسم خاص بالتربية البدنية، يشرف عليها متخصصون من المجتمع الديني، وكذلك وجود أخصائيين اجتماعيين ونفسيين يعنون بتوجيه الطفل والمراهق وإرشاده..

كل ذلك سيكون بمثابة مجمع ثقافي ديني يشجع الكثير من الفتيان والشبان ويجذبهم نحو المسجد، لتأدية الشعائر والاستمتاع بالبرامج التثقيفية والعلمية والترفيهية بصورة جماعية[1].

فإذا ارتكز هذا العمل على عمد راسخة من القيم والمفاهيم الإسلامية، فسيكون بمثابة المنارة الهادية في بحر متلاطم الأمواج، وسيقود السفن الضالة بأنواره الساطعة إلى حظيرة الأمن، وشاطئ الأمان.

ثم إن أجمل ما في العقيدة الإسلامية أنها فطرية، يقبلها العقل الرشيد، وتواكبها النفس المطمئنة، ويطمئن إليها القلب السليم، فلا خوف إذن في الإسلام من ربط الأنشطة المختلفة بالعقيدة الدينية، إذ إن ذلك يعين على تطبيق الفكرة الصحيحة بأسلوب يتمشى مع واقع المسلمين ويواكب شؤونهم الحياتية[2].

---

(١) ويمكن إقامة قاعات خاصة للفتيات بنفس النظام السابق، وتشرف عليها نساء متخصصات.

(٢) نحو تربية إسلامية، ص ٢٨٥ – ٢٩٠.

المطلب الثَّالث

المـدرســـــة

وهي إحدى الوسائط في العملية التربوية، والتي تعمل على تكوين الطفل، وتقويم تربيته، فهي تقوّم وتصحح ما قد يخطىء فيه البيت' أو لم يحسن التوجيه فيه، ثم تضيف إليه ما عساه أن يشكل لبنات أخرى في بنائه التربوي.

إذ إن مدة الطفولة السابقة للمدرسة تكون الحياة الفكرية فيها ضعيفة، والحياة الوجدانية ساذجة، فلا تسمح حالة الطفل بتكوين عناصر حياته كاملة من دون الإضافة التي تقدمها المدرسة، ومن هنا جاءت العناية بها[1].

ولقد كانت المدرسة في المجتمع الإسلامي الأوَّل تقام داخل المسجد، ولهذا دلالته الخاصة في منهج التربية الإسلامي، فلا فرق بين المدرسة والمسجد، كلاهما يقوم بالتربية، وكلاهما يقوم بالتعليم.

ولئن صار التخصص سمة هذا العصر، وصار للمدرسة صورة معينة في نظام فصولها، وسبوراتها، ومقاعدها.. والمسجد لا يتسع لكل ذلك ولا يصلح له، فضلاً عن أن المسجد يؤمه معظم الناس بمختلف أعمارهم.. فلئن كان هذا كله قد فرّق بين مبنى المسجد، ومبنى المدرسة، فإنه بالنسبة للتربية الإسلامية لا يفرّق بينهما في المنهج ولا يفصل بينهما في الغاية.. إنما يؤدي كل منهما دوره على طريقته، متكاملين، ومتلاقيين على الغاية، ومشتركين في الطريق[2].

ولقد بيّنا في الصفحات السابقة تراجع دور المسجد، وسبل تحسينه، وكذلك يمكن القول إن المدرسة إن حسنت مقاصدها، وسلمت مناهجها، وقام برعايتها وإدارتها رواد مخلصون؛ أثمرت في تكوين جيل واع مؤمن بأهداف أمته ووطنه، وإذا أهملت ما عليها من

---

(١) انظر: النظام التربوي في الإسلام، ص ١١٤.

(٢)انظر: منهج التربية الإسلامية، ص ٤١١.

الواجبات والمسؤوليات انهارت قيم الأمة، وأصيبت الناشئة بسلوكها ومقاصدها[1].

وظائف المدرسة في الإسلام:

ولهذا فإن من وظائف المدرسة ومهامها أمور، أهمها:

١ – إن مهمة المدرسة الإسلامية أوسع بكثير من مجرد تلقين العلوم، إذ إن مهمتها الأساسية تكوين الشخصية، وهي في منهجنا هذا (الشخصية الإسلامية) بطابعها المتميز. وما التحصيل العلمي إلا جانب واحد من جوانب الشخصية، وإن كانت له أهميته الذاتية، لكنْ ليس هو أكثرها أهميّة على أيّة حال من الأحوال، وأهم منه كيفية الاستفادة من هذا العلم، وكيفية التصرف في الحياة العملية، وكيفية التعامل مع الناس والأحداث[2].

٢ – تدريس مناهج وكتب لسائر المعارف والعلوم، ولكنّها معدّة من منطلق إسلامي، يتماشى مع المنهج الإسلامي، ويقوم بتدريسها مدرسون متخصصون أعدوا إعداداً تربوياً إسلامياً صحيحاً، مؤمنون برسالتهم، وقادرين على أدائها أحسن الأداء.

٣ – ربط الناشئة بمجتمعهم، من جهة التّعرّف على مشاكل المجتمع، والأحداث التي تواجهه، ثم الحرص على تخريج مصلحين حقيقيين ورواد اجتماعيين، يساهمون في إصلاح المجتمع ورقيه[3].

٤ – إشباع حاجات التلاميذ النفسية، فتتسع مداركهم، وتسمو آفاقهم وميولهم، ويبرز استعدادهم، فيسود المدرسة مناخ صحي يشيع بالحرية، والعدالة، والمساواة، ويعلو صوت الحق، والرأي والسلام.

٥ – بعث الحماسة في نفوس الطلبة، والقدرة على تحمل المسؤولية، وتدريبهم على الخدمة الاجتماعية.

٦ – الكشف عن منابع الخير عند الناشئة، ومنحهم الفرص للوصول إليه، ثم الكشف عن مواهبهم وتنميتها وتزكيتها ثم استغلالها لخيرهم.

---

(١) النظام التربوي في الإسلام، ص ١١٣.

(٢) منهج التربية الإسلامية، ص ٤١٣. النظام التربوي في الإسلام، ص ١٢٠.

(٣) أصول التربية الإسلامية، وأساليبها، ص ١٣٣.

وإن المدارس لتحقق أغراضها مادامت تنجح في تحقيق النمو الحر للفرد، ومادامت تعين هذا الفرد ذكراً كان أو أنثى للوصول إلى أعلى درجات النمو التي يستطيع أن يصل إليها في الحياة الاجتماعية[1].

مزالق المدرسة الحديثة، وعلاجها:

على الرغم من العبء الكبير الذي تتحمله المدرسة اليوم في تعليم الأجيال، فقد وقعت أكثرها في مزالق رهيبة، كادت معها أن تودي بالأمة الإسلامية، وتسلم أجيالها إلى الخذلان والاستسلام، والإباحية والإلحاد.. ومن تلك المزالق، وأساليب العلاج[2]:

١ – الانعزالية، وعلاجها:

تكاد تكون المدرسة الحديثة- في أيامنا هذه- في معزل عن الحياة الاجتماعية، قلّما تشعر بحاجات مجتمعها فتحققها، أو بأخطائه فتقومها. وأصبح همّ المدارس ينحصر في إنهاء المناهج وتنظيم الطلاب، وتهيئة الجو المدرسي الملائم والسمعة الطيبة، والنتائج المدرسية المرجوة، ونسبة النجاح المرموقة.

وعلاج ذلك أن تدعو المدرسة طلابها – في المنهج الإسلامي – إلى المشاركة الفعلية في النصح للمجتمع والمساهمة في إصلاحه، وذلك بأن ترسل من طلابها وعاظاً إلى المساجد، ومساهمين في الحضّ على نظام السير – مثلاً- أو نظافة المدينة وحدائقها، والحضّ على جمع التبرعات للجهاد، ولمساعدة الفقراء، والعمل على محو الأمية.. وكل ما يحتاجه المجتمع[3].

٢ – التبعية لثقافة الغرب وفلسفتها المبنية على الإلحاد، وعلاجها:

تعتمد معظم كتبنا المدرسية على مواد مترجمة بالنص أو بالمعنى عن المراجع والثقافات الغربية، فتاريخنا ينقله المؤلفون عن مراجع لمؤرخين أجانب، وكتب العلوم الطبيعية من فيزياء وكيمياء وتشريح لجسم الإنسان، مترجمة عن الأبحاث الطبيعية التي قام

---

(١) التربية الإسلامية، دراسة مقارنة، ص ٢٤٧ – ٢٤٨.

(٢) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ص ١٣٢ – ١٣٨.

(٣) المرجع السابق، والنظام التربوي في الإسلام، ص ١٢٥، ١٢٧.

بها علماء الغرب، وكذلك سائر العلوم الإنسانية من تربية وعلم نفس وعلم اجتماع وغيرها...

وتكمن المشكلة في علوم الغرب أنها تعتمد الأساليب المنطقية والتجريبية، من دون الأسس الدينية والفكرية. أي أنها تعتمد منطلقاتٍ عقديةً تعارض عقيدة التوحيد التي نؤمن بها، إذ تَعُدُّ الوجود كلَّه منحصراً في الطبيعةِ والإنسانِ الذي هو جزء منها، ونوع من أنواعها، وترى أن الطبيعة وجدت بنفسها، وكذلك سننها وقوانينها، وأن العقل هو وحده طريق معرفة الحقائق، وليس ثمة طريق آخر. وحتى المثل الأخلاقية والقيم والمفاهيم الحقوقية ماهي إلاَّ وقائع أو حوادث كالحوادث الطبيعية، نشأت وتطورت، فهي ليست ثابتة. والإنسان إنما هو حيوان اجتماعي مفكر فحسب، وليست النفس الإنسانية إلاَّ مجموعة من الغرائز.

هذا التصور الغربي الوجودي للكون ليس فيه مكان للإله وصلته بالإنسان وبالكون وبنظامه السببي، ولا بالوحي والنبوءات، ولا بالجزاء والحياة الخالدة ولا لسائر الغيبيات التي نؤمن نحن بها، وتحيا في قلوبنا وأسسنا الفكرية الإسلامية، ونسعى لنقلها للناشئة في مدارسنا الإسلامية.

فحل هذه المشكلة – كما سبق – لا يكون إلاَّ بإعادة صياغة هذه العلوم جميعاً صياغة إسلامية، تبنى على أسس إسلامية، وذات منطلقات إسلامية[1].

وقد سبق الغرب بمختلف أطيافه ومنذ قرن تقريباً، إلى إدراك مكانة التعليم، ومناهجه، وأنها ليست آلات صماء لتعليم القراءة والكتابة ونقل لمعلومات لا تجمع بينها غاية ولا يسيطر عليها إيمان وعقيدة[2]، ولا تصل الجيل الحاضر بالماضي.. بل أصبح ينظر إلى النظام التعليمي من حيث هو قنطرة تصل الماضي بالحاضر، والخلف بالسلف، والمعلومات بالعقائد، وبذلك يربط التعليم بين الإنسان ومجتمعه ودينه وثقافته.

فقد قال عالم طبيعي من كبار علماء البلاد السوفييتية- قبل سقوط الشيوعية في

---

(١) أصول التربية الإسلامية، أساليبها، ص ١٣٤ – ١٣٥.

(٢) بغض النظر عن رأينا بصحة هذه العقيدة أو بطلانها.

العالم-: «إن العلم الروسي ليس قسماً من أقسام العلم العالمي، إنه قسم منفصل قائم بذاته، يختلف عن سائر الأقسام كل الاختلاف، فإن سمة العلم السوفييتي الأساسية أنه قائم على فلسفة واضحة متميزة. إن التحقيقات العلمية لا تزال في حاجة إلى أساس، وإن أساس علومنا الطبيعية الفلسفةُ المادية التي قدمها ماركس وانجلس ولينين وستالين، إننا نريد أن نخوض – وفي أيدينا هذه الفلسفة – معترك العلم الطبيعي ونصارع جميع التصورات الأجنبية التي تناهض فلسفتنا المادية والماركسية بكل حزم وقوة».

وكذلك فقد قال أستاذ أمريكي من كلية التربية والحرية: «إن عملية التربية ليست تعاطي بيع وشراء، وليست بضاعة تصدر إلى الخارج أو تستورد إلى الداخل، إننا في فترات من التاريخ خسرنا أكثر مما ربحنا باستيراد نظرية التعليم الإنجليزية والأوربية إلى بلادنا الأمريكية»[1].

كما ذكر أحد خبراء التعليم في بريطانيا في مقال كتبه لدائرة المعارف البريطانية:

«إن التربية هي الجهد الذي يقوم به آباء شعب ومربوه لإنشاء الأجيال القادمة على أساس نظرية الحياة التي يؤمنون بها، إن وظيفة المدرسة أن تمنح للقوى الروحية فرصة التأثير على التلميذ تلك القوى الروحية التي تتصل بنظرية الحياة، وتربي التلميذ تربية تمكن من الاحتفاظ بحياة الشعب وتمد يدها إلى الأمام».

وتعدُّ إسرائيل من أشد (الدول!) تمسكاً بمبدأ تقديم الفكرة الدينية مع العلم، فقد جاء في مقال عن التعليم العالي في إسرائيل ما يلي: «إن سياسة التعليم العالي تهدف إلى تنمية العقيدة اليهودية والولاء لها، بالإضافة إلى الدعاية لإسرائيل وكسب الأصدقاء»[2].

فقد آن لنا بعد كل ما ذُكر أن نعي حجم الكارثة التي جلبناها لأنفسنا باستيراد نظم تعليم لا تتوافق مع عقائدنا وقيمنا، وأن نستبدل بها علوماً ذات صبغة إسلامية هادفة.

٣ – انشطار شخصية الناشئ وانفصام عرى وحدتها، وعلاج ذلك:

هذا المنزلق نتيجة عفوية لما قبله؛ لأنّ الناشئ عندما يقارن بين ما تقدمه له المناهج

(١) نقلاً عن: نحو التربية الإسلامية الحرة، أبو الحسن الندوي، ص ٤١، ٤٣.

(٢) نقلاً عن التربية الإسلامية الحرة، أبو الحسن الندوي، ص ٤٧، ٤٨.

الدراسية الحالية القائمة على الفلسفة الوجودية الغربية، وبين ما تعلمه في أسرته المسلمة ومسجد حيه، وحتى في المدرسة نفسها في حصص التربية الدينية خاصة، عن الإيمان بالله ورسله وشرعه الحنيف...إن هذه المقارنة لن ينتج عنها إلاّ بلبلة وحيرة، وفقد الثقة واليقين بالعلم والإيمان معاً.

يقول أحد المربين: «ولكي تتصور مدى خطورة هذه البلبلة والتردد، عليك أن تتصور أعصاب الطالب وأفكاره وهي تستقبل مابين كل صباح ومساء خليطاً من الآراء والمبادئ المتناقضة المتعاكسة، وهو يُحمل على أن يعتقد بجميعها، ويؤمن بها كلها.. يدخل عليه أستاذ الدين فيشرح له كل شيء عن الكون طبق المبدأ الإسلامي الحق، ولا يكاد يدبر حتى يخلفه أستاذ علم الاجتماع فيهدم جميع ما كان قد بناه زميله الأوَّل، ويريد من الطلاب أن يعتقدوا بأفكار أخرى.. ثم إذا خرج جاء من ورائه مدرس آخر يهدم كل ما بناه كل من الزميلين السابقين، ويمضي في تشييد آراء جديدة على عقول الطلاب المساكين، وقس على فكرة الكون جميع البحوث الأخرى كالأخلاق، والتأريخ والاقتصاد وما وراء الطبيعة»[1].

وهذه النتيجة سبق أن سعى إليها الغرب بكل طاقاته عن طريق المبشرين والمستعمرين عندما غزوا البلاد الإسلامية وزينوا لتدريس مناهجهم فيها للقضاء على العقيدة الإسلامية في نفوس الناشئة، وبالتالي القضاء على الإسلام عدوهم الذي يخافونه ويحاربونه، وقد حدّث أحد القساوسة مبتهجاً بتحقيق أحد نجاحاته في هذا الصعيد:

«لقد استطعت أن أقنع التلاميذ المسلمين مرة، وأضع بين أيديهم كرة تمثل الكرة الأرضية ثم حولت عليها نوراً قوياً، وأقنعتهم بذلك أن الأمر بصيام شهر رمضان ليس آتياً من عند الله؛ لأنّه يتعذر أداء هذه الفريضة»..

ويصرح أحدهم في زُهو ونشوة عما أحدثته التربية الغربية – فترة الاستعمار– من زعزعة العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين، فيقول:

«لقد استطاع النشاط التعليمي والثقافي عن طريق المدارس العصرية والصحافة أن

(١) نقلاً عن: النظام التربوي في الإسلام، ص ١٣٢. أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ص ١٣٦.

يترك في المسلمين – من غير وعي منهم – أثراً جعلهم يبدون في مظهرهم لا دينيين إلى حد بعيد.. ولا ريب أن ذلك خاصة هو اللب المثمر في كل ما تركت محاولات الغرب–لحمل العالم الإسلامي على حضارته– من آثار.. فالواقع أن الإسلام كعقيدة، وإن لم يفتقد إلاّ قليلاً من أهمّيّته وسلطانه ولكنّ الإسلام كقوة مسيطرة على الحياة الاجتماعية قد فقد مكانه»[1].

فإذا كان الاستعمار قد خرج من البلاد الإسلامية بجنوده وآلياته، فقد ترك الفكر الذي زرعه فيها، ونحن بعد مضي أكثر من نصف قرن على خروجه، لم نزل تابعين لفكر الغرب وفلسفته المستقرة في كتبنا ومناهجنا، وإن تُرجمت هذه المناهج إلى اللغة العربية في كثير من بلداننا.

ولحل هذه المشكلة نكرر ضرورة إعادة صياغة مختلف العلوم في المراحل التعليمية المختلفة صياغة إسلامية بمنطلقات وأهداف إسلامية.

٤– هدف الدراسة الوحيد: الحصول على الشهادة، وعلاج ذلك:

وهذا المنزلق أصبح مشاهَداً عند الكثير من خريجي الجامعات والمعاهد في أيامنا هذه، إذ (صارت جامعاتنا ومدارسنا تخرّج شباباً قليلة ثقافتهم، سطحياً تفكيرهم لا هم لهم إلاّ الوصول إلى الشهادة، لا يؤمنون بالحقائق العلمية لذاتها، ولا يستمتعون بنتائجها الفكرية والتطبيقية[2]. إنما همهم أن يصبوا حروفاً وعبارات على ورقة الامتحان ثم ينسونها إذا تخرجوا، فإذا تسلموا عملاً في دائرة أو شركة، أصبحوا موظفين كالآلة الصماء، يتحركون حسب الأوامر المعطاة لهم، فاقدين كل قدرة على المبادهة والأصالة وابتكار الحلول الشخصية للمشكلات التي تعترضهم، ولا هم لهم إلا أنْ يعدوا الأيام ليقبضوا رواتبهم، والأشهر والسنوات لينتظروا علاواتهم وترفيعهم)[3].

وحل هذه المشكلة يكمن في الاقتناع بأن المعرفة ليست فوزاً دائماً إلاّ إذا فهم معناها

(١) نقلاً عن: النظام التربوي في الإسلام، ص ٢٠–٢١.

(٢) لا ننسى أن اضطراب التعليم هو السبب في ذلك..

(٣) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ص ١٣٨.

ومغزاها واستخدمت فعلاً، واستفاد منها صاحبها في حياته وسلوكه، واستفاد منها المجتمع في بناء نفسه، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلاّ إذا عني التعليم بعقلية المتعلم وميوله ونشاطه وقدرته وسلوكه بما يحقق له إيجابية فعّالة في حاضره ومستقبله[1].

٥ – التعليم المختلط للجنسين، وعلاجه:

ذهب كثير من التربويين إلى أن من منزلقات التعليم الحديث- المعوق لنمو التعليم وازدهاره والمتسبب في شيوع التحلل والتفسخ بين الطلاب- التعليم المختلط، وذلك لأسباب كثيرة منها:

١) إن محاولة تعليم الجنسين في صف واحد يجعلهما في جو لا يستطيعون فيه استعمال ينابيع ذكائهم، واستخدام فرص تعليمهم بصورة تامة؛ لانشغالهم بالآخر المختلف، أو خوفهم من الفشل أمامه.

٢) للتعليم المختلط نتائجه الأخلاقية والعاطفية الخطيرة في زمن الطفولة والمراهقة على حد سواء.. فقبل أن يكون لدى الصغار الوقت الكافي لفهم أنفسهم، وبينما تكون حساسيتهم في طريقها إلى التيقظ قد يؤدي النظام المختلط بالبنين إلى فقدان النشاط والصراحة، وفي البنات إلى فقدان الرقة والنعومة.. واجتماع المراهقين والمراهقات في المدرسة يثير في كثير من الأحيان الانفعالات الجنسية التي تسيء إلى الحب والزواج في حياة الرشد.

٣) إن التوجيه المهني والاجتماعي يختلف بالنسبة إلى الجنسين اختلافاً كبيراً، فمن المستحيل وضع برنامج خاص في أيّ معهد من المعاهد العلمية يلائم البنين والبنات معاً، ولهذا فكلا الجنسين سيخسران من الناحية التربوية.

٤) إن نمو البنات أسرع من نمو البنين ولاسيما في زمن المراهقة، مما يخلق مشكلة، إذ يضمهم النظام المختلط مجتمعين عدداً من الساعات يومياً لكي يقوموا بعمليات مشتركة في مرحلة يكون بينهم فيها تفاوت في النواحي الجسمية والانفعالية والاجتماعية[2].

---

(١) النظام التربوي في الإسلام، ص ١٢٨.

(٢) النظام التربوي في الإسلام، ص ١٢٨ – ١٢٩.

وقد وعت المؤسسات التربوية في بلاد إسلامية كثيرة وعورة هذا المنزلق وبادرت في أماكن كثيرة إلى فصل الدراسة بين الجنسين، ولكنّها لم تعنَ بعد بإعداد خطط تربوية تناسب كل جنس على حدة.

وللخروج من هذا المنزلق يفترض المنهج التربوي الإسلاميّ- والذي يعدّمناهج الدراسة في المدارس الإسلامية عملية ونظرية معاً- أن تكون في مدرسة البنين (ورشة) ضخمة إلى جانب الفصول، وفي مدرسة البنات بيت متكامل يدبرن شأنه. ولابد أن تكون الروح العسكرية واضحة في مدارس البنين، والروح المنزلية واضحة في مدارس البنات، لإعداد كل لدوره في مستقبل حياته بغير خلط، كالذي تخلطه الجاهلية الحديثة بين البنين والبنات، فتخرج في النهاية هذا الجيل المترهل المتميع الذي يملأ الآن وجه الأرض، والذي لا تستطيع أن تحكم لأول وهلة هل هو ذكر أم أنثى؟!..

إن الإسلام منهج جاد للحياة لا يهزل، ويرفض التميع والانحلال من البنين والبنات، ويرفض صراحة المتشبهين والمتشبهات لقول الرسولﷺ: {لعن رسول اللهﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال}[1].

ولهذا فالإسلام حريص على إعطاء الرجل المسلم شخصية الرجل الكامل الرجولة، وإعطاء المرأة المسلمة شخصية المرأة الكاملة الأنوثة.

فهو دين الفطرة، المنزل من عند الله خالق هذه الفطرة، وخالق الزوجين الذكر والأنثى ليكونا زوجين اثنين، وليس جنساً متميع الصفات[2].

ولهذا وجب إعادة النظر بهذا الجانب في مدارسنا الحديثة، كما تجب العناية بغيره من الجوانب؛ **كمراجعة عدد سنوات التعليم وتقليصها كمّاً لا كيفاً بما يتناسب مع حاجات الذكر والأنثى، ومراعاة انتهاء الدراسة والانتقال إلى العمل مع بلوغهم سن الرجولة والأنوثة الكاملة، ليتسنى لهم الانخراط في الحياة العملية، وتحمل مسؤولياتهم كاملة.**

---

(١) البخاري، كتاب اللباس، المتشبهون بالنساء والمتشبهات بالرجال، رقم ٥٨٨٥.

(٢) منهج التربية الإسلامية، ص ٤١٣ – ٤١٤.

المطلب الرَّابع
المجـتـمــع

من البدهيات المقررة في منهج التربية الإسلامية أنها تقوم في مجتمع مسلم؛ لأنّ كل الجهود المضنية التي تبذل فيها تكون عرضة لأنْ تذهب هباءً إذا بذلت في مجتمع غير مسلم، أو في مجتمع يعادي الفكرة التربوية الإسلامية ويعمل على تحطيمها.

والمجتمع المسلم يجمع بين أمرين: فهو حصيلة ونتيجة تربية إسلامية قامت بها الوسائط السابقة، وهو في الوقت ذاته أداة موصلة إلى تثبيت المفاهيم الإسلامية وتنشئة الأفراد عليها؛ لأنّ المجتمع إنما هو مجموع الأسر والمدارس والمساجد وبقية المؤسسات المختلفة، وحتى الشارع، وما فيه من مارة ومحلات.. وكذلك تعتبر أجهزة البث الحديثة من تلفاز وفضائيات وشبكات التّواصل الأخرى أجزاء من المجتمع المؤثر في العملية التربوية[1].

وأثر المجتمع في العملية التربوية إنما يظهر جلياً في الفرد **(العادي)** الذي مهما بُذل في تنشئته كفرد فهو بحاجة إلى المجتمع ليسانده ويرسخ في نفسه الإيمان بالفضائل التي يؤمن بها، ويساعده بالقدوة الصالحة لتحويل تلك الفضائل إلى سلوك عملي في واقع الحياة.

فإن لم يكن المجتمع إسلامياً عاش ذلك الفرد في صراع دائم بين (القيم والآداب والفِكَر) التي تربى عليها وبين إغراء مجتمعه الفاسد المخالف لكل ذلك، فغالباً ما يضيع هذا الفرد ويخسر كثيراً مما اكتسبه في نشأته الأوْلى.

ولكن تبقى قلة من الناس، أفراداً معدودين يحققون **البطولة**، فيمسكون في أيديهم القياد، ويرتفعون على المجتمع الدنس وعلى أنفسهم، فلا ينجرفون في التيار، ولا يغرقون في الوحل، ويمسكون في أيديهم الراية التي يتجمع حولها كل الراغبين بتكوين المجتمع

---

(١) منهج التربية الإسلامية، ص ٢١٦، النظام التربوي في الإسلام، ص ١٣٩.

المسلم[1].

وهذا ما يفسر وجودنا كمسلمين متمسكين بإحياء المجتمع المسلم المنشود على الرغم من كل النكسات التي مرت وتمر بها بلادنا الإسلامية، تلك النكسات التي ما استطاعت يوماً أن تقضي على الإسلام وأهله بصورة كاملة، بفضل الله ومنّته.

من سمات المجتمع المسلم:

هناك سمات كثيرة للمجتمع المسلم، منها ما هو موجود حالياً في مجتمعاتنا-ولو كان ذلك على نطاق ضيق- ومنها ما نتوسم وجوده فيها، من ذلك:

١- هو مجتمع متواد متحاب مترابط، تقوم بين أفراده أخوة الإسلام على غير قرابة ولا تعارف سابق، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾[الحجرات: ١٠].ويقول الرسول ﷺ: {لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم}[2].

٢- وهو مجتمع يقوم على الحق والعدل، فيقيم الموازين العادلة للناس في الجهد والجزاء، فلا يفتنهم عن الإيمان بالفضيلة، والإيمان بالعمل في سبيل الخير، وفي الوقت نفسه يقاوم الشر ولا يسمح له أن يستشري في الأرض، ويقاوم الفجور والفساد والفاحشة.

٣- وهو مجتمع متحرر وفي الوقت ذاته نظيف؛ فهو متحرر من كل ما يكبل النشاط السوي للفرد والجماعة، ومتحرر من كل القيم الزائفة والعوائق التي تعوق رفعة البشرية وتقدمها ونمائها. وهو نظيف، نظافة التعامل بين الحاكم والمحكوم، وبين العامل وصاحب العمل، وبين الرجل والمرأة.. نظافة السلوك الظاهر والنية المضمرة، نظافة العمل والتفكير والشعور.. الخ.

٤- وهو مجتمع يقوم على التكافل الاقتصادي والاجتماعي والفكري والروحي بين

(١) منهج التربية الإسلامية، ص ٢١٩.

(٢) مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، رقم ٢٠٣.

أفراده.

٥- وهو مجتمع يقوم على القيم الإنسانية التي لا تهمل الواقع المادي والإنتاج المادي، ولا تعطيهما فوق حقهما المقدر، ولا تهمل الواقع الروحي للبشرية، الذي هو وسيلتها الحقيقية للرقي النفسي والتحضر والارتفاع.

فالمجتمع المسلم – باختصار – هو الترجمة الواقعية لمبادئ الإسلام وقيمه وأخلاقه..[١].

نماذج من مسؤولية المجتمع التربوية[٢]:

١ – إن الله جعله آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ آل عمران: ١٠٤.

وتطبيق هذا الأمر من الراشدين نحو الناشئين يعني صون فطرتهم الطاهرة عن التدنس وارتكاب الأخطاء، بل وغرس معاني الإيمان في قلوبهم في شتى المناسبات.

٢- اعتبار الناشئين أبناء أو أبناء إخوة للراشدين، ولهذا اشتهر لفظ (يا بني)، وكذا (يا عم) في المجتمع الإسلامي، فعن أنس ﷺ قال: {كنت خادماً للنبيﷺ، قال: فكنت أدخل بغير استئذان، فجئت يوماً فقال: كما أنت يا بني، فإنه قد حدث بعدك أمر، لا تدخلن إلاّ بإذن}[٣]. وهذا مما يوطد العلاقات بين الناشئة والراشدين في المجتمع.

٣ – التأديب بسخط المجتمع وتعنيفه للمسيء، فقد اتخذ رسول اللهﷺ المجتمع وسيلة لتأديب الرجل يؤذي جاره، فقد ورد عن أبي هريرة ﷺ، قال: {قال رجل يا رسول الله: إني لي جاراً يؤذيني، فقال: انطلق فأخرج متاعك إلى الطريق، فانطلق فأخرج متاعه فاجتمع الناس عليه فقالوا: ما شأنك؟!.. قال: لي جار يؤذيني، فذكرت ذلك للنبيﷺ فقال: انطلق فأخرج متاعك إلى الطريق، فجعلوا يقولون: اللهم الْعنه، اللهم اخْزه، فبلغه

---

(١) منهج التربية الإسلامية، ص ٢٢٠، ٤٢٠.

(٢) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ص ١٤٤- ١٥٠.

(٣) الأدب المفرد للبخاري، الألفاظ، باب قول الرجل يا بني لمن أبوه لم يدرك الإسلام، رقم ٨٠٧.

فأتاه فقال: ارجع إلى منزلك فوالله لا أؤذيك}[1].

٤ – التأديب بالحرمان الجماعي والهجر والمقاطعة، كما فعل الرسول ﷺ: -بأمر من الله – حين اتخذ من المجتمع وسيلة لتأديب من تخلف عن الحرب، فأمر الصحابة بمقاطعة الثلاثة الذين تخلفوا حين أعلن النفير العام، فكانت هذه التربية بواسطة الضغط الجماعي المقصود من أبلغ الوسائل وأشدها تأثيراً في النفوس، فقد ذكر الله تعالى توبتهم في محكم تنزيله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة: ١١٧- ١١٨]

٥ – تربية الناشئة على الحب في الله، فالمجتمع المسلم يجعل أساس المحبة بين أفراده محبة المؤمن لكل من يشاركه في الولاء لله ومحبته وطاعته والانقياد لشريعته، والاعتزاز بالسير تحت لوائه، ولذلك روى أنس عن النبيﷺ قوله: {ثلاثة من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. وأن يحب المرء لا يحبه إلاَّ الله. وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار}[2].

(١) الأدب المفرد للبخاري، الجار، باب شكاية الجار، رقم ١٢٤.

(٢) البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم ١٦. مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصائص من اتصف بها وجد حلاوة الإيمان، رقم ١٧٤.

المطلب الخامس

المـــربـــي

المربي هو لقب يطلق على من يقوم بمهام التربية بطريقة مقصودة، كالأبوين والمرشدين والمعلمين، سواء أكانوا في البيوت أو المدارس أو المساجد.

كما يمكن أن يطلق لفظ المربي (مجازاً) على من يُقتدى بهم –دون قصد منهم– ويكون لهم تأثير ضخم في تربية الأجيال، قد يتجاوز في بعض الأحيان دور المربين المقصودين[1]. وهم في عصرنا هذا – أصحاب الشهرة من أهل الفن والموضة.. وحتى من العلماء والمفكرين ممن يظهرون على شاشات التلفزة يومياً.

وقلنا هم مربون مجازاً لتحقق التأثر بهم، وإن لم يكن على سبيل التفاعل والانفعال المباشر بين المربي والمتلقي، والذي يعد شرطاً في العملية التربوية.

ويختلف تأثير المربي المقصود على المتلقي باختلاف المرحلة العمرية – ضمن عوامل أخرى في التأثير– ففي مرحلة الطفولة الأوْلى يكون المربي الأكبر للطفل والديه، مع روافد أخرى من الإخوة والأخوات والأقارب.. ثم بعد الاحتكاك بالمجتمع الخارجي كالمدرسة والمسجد يظهر تأثير المعلم وإمام المسجد والأصدقاء و.. و...

وقد يضعف دور المربي المقصود، أو ينقلب إلى ضده عند فقده لصفات وخصائص كان ينبغي أن يتصف بها قبل تصديه للعملية التربوية؛ لأنّ التربية ليست مجرد أوامر ونواه تلقّن أو تصدر للإنسان فيستجيب لها، وإنما هي عملية تغيير المحتوى للإنسان، وصياغة لأفكاره وعواطفه وممارساته، ولا يكون ذلك إلاّ عن اقتناع منه[2].

وقد جمع العلماء والتربويون كثيراً من الصفات التي يتحلى بها المربي الناجح،

---

(١) نحو تربية إسلامية راشدة، محمد بن شاكر الشريف، ص ١٧-١٨.

(٢) ملامح المنهج التربوي عند أهل البيت عليهم السلام، شهاب الدين العذاري، ص ٦٢ وما بعدها.

فأجمل البعض الحديث عن هذه الصفات سواء أكان المربي والداً أم معلماً أو مرشداً، وفصّل البعض صفات كلٍّ على حدة. وطريقتنا هنا الجمع بين الصفات لعموم دراستنا هذه، ولاشتراك أنواع المربين بمعظم الصفات المذكورة.

ولذلك ننبه على أنه قد يتعذر اجتماع كل الصفات في شخص واحد، أو يتطلب ذلك جهداً كبيراً منه، ولكن عليه أن يحاول التحلي منها بقدر طاقته واستطاعته كماً وكيفاً، ثم يستعين بالله عزَّ وجلّ لإعانته في القيام بمسؤوليته وإنجاح مهمته.

صفات المربي الناجح:

١ – أن يكون **ربانياً** في هدفه، وسلوكه وتفكيره، يقول الله تعالى مخاطباً رسله: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾[آل عمران: ٧٩]. أي تنتسبون إلى الرب عزَّ وجلَّ بطاعتكم، وعبوديتكم وفي كل شؤونكم.

وإذا كان المربي ربانياً، استهدف من العملية التربوية أن يجعل من تَحت رعايته ربانيين كذلك، يرون آثار عظمة الله ويستدلون عليها في كل أمورهم، فيخشعون لله ويشعرون بإجلاله. ومن دون هذه الصفة لا يمكن للمربي تحقيق هدف التربية الإسلامية، والتي تجعل عبادة الله تشمل كل أحوال الإنسان وأعماله.

وعندما يكون المربي ربانياً، فهو لابد أن يكون مخلصاً، صبوراً، صادقاً، عادلاً، متفائلاً بالنجاح، مندفعاً ذاتياً بلا انتظار شكرٍ أو جزاء[(١)].

٢ – أن يكون **أعلى** ممن يتلقى عنه التربية، لكي يقنع المتلقي بالأخذ عنه. والعلو هنا شامل لمسائل كثيرة في وقت واحد، تختلف أهميتها باختلاف الوضع، كالعلو الروحي، والتفوق العقلي، والنفسي، والمعرفي، ولهذا فعلى المربي أن يتزود بالعلم والمعرفة، ويحيط بأساليب التربية، يعي الاتجاهات المجتمعية في بلده، قادر على هضم واستيعاب كل جديد..[(٢)].

(وبهذه المناسبة نقول إنه مما ييسر على جميع الآباء تربية أطفالهم في السنوات الأولى

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ص ١٤٠– ١٤١.

(٢) منهج التربية الإسلامية، ص ٢٧٩. النظام التربوي في الإسلام، ص ١١٩. التربية الإسلامية، دراسة مقارنة، ص ٣٤٦.

أن شخصيتهم تكون-بالطبيعة-أكبر من شخصية أطفالهم، فيتلقى هؤلاء عنهم في سهولة طبيعية.

ولكن تبدأ بعد ذلك المشاكل! فكلما كبر الطفل احتاج إلى بقاء شخصية الوالدين أكبر منه، وهنا يسقط بعض الآباء في الاختبار؛ إما لأنّ شخصياتهم ليست أكبر من أبنائهم بالقدر الكافي، وإما لأنّها ليست أكبر منهم على الإطلاق! بل يحدث في أحيان نادرة أن يحس الطفل-الكبير- أن شخصيته أكبر ممن شخصية والديه، وهنا يرفض التلقي منهما ويتمرد عليهما.

أما بالنسبة لتربية الكبار فالأمر أشق وأدق. فهو محتاج إلى قيادة، وإلى زعامة، يحس الكبار أمامها أنهم أصغر من قائدهم، وأنهم في موقف التلقي لا في موقف الند ولا في موقف التوجيه..)[1].

٣ – أن يشعر المربي **أن لديه ما يعطيه للآخرين**، فلا يكفي أن يكون صاحب شخصية مميزة ومتفوقة لإتمام العملية التربوية، بل لابد أن يجد ضرورة نقل علمه وخبرته لمن يتلقون عنه التربية، ويكون لديه القناعة بحاجتهم إليه، فيقصد نقل تجربته إليهم.

وقد أشار الإمام الغزالي إلى هذا الأمر عندما قسم حال طالب العلم إلى أربعة أحوال، كما يُقسم صاحب المال إلى أربعة أحوال:

فصاحب المال إما أن يكون مستفيداً بالمال، فيكون مكتسباً به، أو يكون مدخراً لما اكتسبه، فيكون غنياً عن السؤال، أو منفقاً على نفسه فيكون منتفعاً به، أو يكون باذلاً لغيره، فيكون سخياً متفضلاً، وهذا هو أشرف أحوال صاحب المال.

وكذلك العلم، يُقتنى كما يُقتنى المال فهو في حال طلبه واكتسابه، ثم يكون في حال تحصيل العلم الذي يغني عن السؤال، ثم هو في حال التفكر والتمتع بما حصّله من العلم، ثم هو في حال الإرشاد والتبصير لغيره، وهو الحال الرَّابع، وهو أشرف الأحوال[2].

٤- أن يكون المربي **حسن الإعطاء**؛ فبمجرد أن يكون لديه ما يعطيه ليس كافياً في

---

(١) منهج التربية الإسلامية، ص ٢٨٠.

(٢) نقلاً عن: نحو تربية إسلامية، ص ٣٣١. الغزالي، إحياء علوم الدين، ج١/٥٥، بيان وظائف المرشد المعلم.

شؤون التربية، إنما ينبغي أن يعطيه بطريقة حسنة كذلك، وإلاّ ضاع الأثر المطلوب أو انقلب إلى ضده حين يعطي المربي ما عنده بطريقة منفرة.. يقول تعالى لنبيهﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران: ١٥٩].ويقول تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[البقرة: ٨٣].

وقال رسول اللهﷺ فيما رواه أبو هريرةرضي الله عنه: {إنما أنا لكم مثل الوالد..}[(١)].

والحب هو الضمان الأوَّل لحسن الإعطاء، فما لم يشعر المتلقي بحب المربي فلن يقبل على الخير الذي عنده، ولو أيقن أن لديه الخير كله.

ولهذا يجب أن لا يشك الأبناء-مثلاً- بحب ذويهم لهم؛ لأنّ توهم الأبناء بكره آبائهم لهم يجعلهم يتصورون أن توجيهاتهم تصدر عن تسلط ومصلحة، لا عن إشفاق واهتمام، يقول الرسولﷺ: {إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق مالا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه}[(٢)]، ويقول الرسولﷺ: {ألا أخبركم بمن يحرم على النار؟ أو بمن تحرم عليه النار؟ على كل قريب هين سهل}[(٣)].

والحب والرفق واللين لا يمنع ضرورة الحسم في موضعه حتى لا تنقلب الأمور فوضى، وهذا الأمر يعود لتقدير المربي وحكمته[(٤)].

٥ – أن يكون المربي **قادراً على المتابعة والتوجيهالمستمر**. فالتربية عملية مستمرة لا يكفي فيها توجيه عابر، مهما كان مخلصاً ومهما كان صواباً، ولأن المتلقي نفس بشرية وليس آلة تضغط أزرارها مرة ثم تتركها وتنصرف إلى غيرها، فتظل على ما تركتها عليه.

هذه النفس البشرية دائمة التقلب متعددة المطالب متعددة الاتجاهات، وكل تقلب، وكل مطلب، بحاجة إلى توجيه.

---

(١) مسند أحمد بن حنبل، ج١٢، رقم ٧٣٦٨. السنن الكبرى للبيهقي، كتاب الطهارة، النهي عن استقبال القبلة، رقم ٤٣٩.

(٢) البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين..، إذا عرض الذمي وغيره بسب النبي..، رقم ٦٩٢٦. مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، فضل الرفق، رقم٦٧٦٦ (واللفظ له).

(٣) سنن الترمذي، كتاب الطهارة، ما جاء في نضح بول الغلام..، رقم ٢٤٨٨. وقال حديث حسن غريب.

(٤) منهج التربية الإسلامية، ص ٢٨١ – ٢٨٢. الدور التربوي للوالدين في تنشئة الفتاة المسلمة، حنان الطوري الجهني، ج٢/ ص ٣٢٠ – ٣٢٨.

وليست الحالة المستجدة فقط هي التي تحتاج إلى توجيه، بل كل حالة سابقة بحاجة إلى توجيه مرات ومرات حتى تنطبع بنفس المتلقي، فيقوم هو بذاته بعملية المتابعة والضبط بدلاً من المربي[1].

وليس معنى التوجيه المستمر المحاسبة على كل هفوة، فذلك ينفر ولا يربي، فمما نقل عن الغزالي قوله: (ولا تكثر عليه بالعتاب في كل حين فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح، ويسقط وقع الكلام من قلبه)[2].

وعلى المربي أن يتحين الوقت المناسب للتوجيه حتى يضمن حسن الإصغاء والاستجابة[3].

٦ – أن يكون المربي **قادراً على القيادة**، فضلاً عن أن يكون قدوة في نفسه:

وكون المربي قدوة لأنه من أكثر أفراد المجتمع عرضة للتشبه به ثم تقليده ثم الاقتداء به، فشعور المتلقي بعلو المربي وحرصه على إفادته – كما سبق – يدفعه للتأسي بقوله وسلوكه، وقد قال تعالى في وصف رسولهﷺ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[الأحزاب: ٢١]،كما حذر تعالى من مخالفة القول للعمل بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٢-٣].

فالمربي يربي بسيرته وسلوكه قبل لسانه، وهذا في مرحلة الطفولة آكد، فهذا ابن عباسرضي الله عنهما يصف نفسه في طفولته عندما شاهد رسول اللهﷺ يقوم الليل، فسارع هو لذلك فتوضأ ولحق برسول اللهﷺ، ويحكي ابن عباسرضي الله عنهما ذلك فيقول: {بت عند خالتي ميمونة ليلة، فنام النبيﷺ، فلما كان في بعض الليل قام رسول اللهﷺ فتوضأ من شن معلَّق وضوءاً خفيفاً..، وقام يصلي، فتوضأت نحواً مما توضأ، ثم جئت فقمت عن يساره.. فحولني فجعلني عن يمينه، ثم صلى ما شاء الله..} الحديث[4].

---

(١) منهج التربية الإسلامية، ص ٢٨٢– ٢٨٣.

(٢) نقلاً عن: فن تربية الأولاد في الإسلام، محمد سعيد مرسي، ج١/ ٤٠٧. الغزالي، إحياء علوم الدين، ج٣/ ٧٣، بيان الطريق في رياضة الصبيان.

(٣) الدور التربوي للوالدين في تنشئة الفتاة المسلمة، حنان الطوري الجهني، ج٢/ ٣٣٠ – ٣٣٢.

(٤) البخاري، كتاب الوضوء، التخفيف في الوضوء، رقم ١٣٨. مسلم، صلاة المسافرين، الدعاء في صلاة الليل، رقم

ويروي الغزالي قصة سهل بن عبد الله التستري المولود سنة ٢٠٠ للهجرة، وبداية صلاحه وزهده نتيجة تأثره بخاله محمد بن سوار، وفيها أن سهل بن عبد الله كان ابن ثلاث سنوات وكان يقوم بالليل ينظر – معجباً – بصلاة خاله، وكان خاله صالحاً، وكان سهل يأنس بهذه الصلاة أنساً كبيراً، ويحاول أن يقلدها، فلما رأى خاله تعلقه بذلك قال له: (ألا تذكر الله الذي خلقك؟ فقلت: -أي سهل- كيف أذكره؟ قال: قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك، الله معي الله ناظر إلي الله شاهدي. فقلت ذلك ليالي ثم أعلمته، فقال قل في كل ليلة سبع مرات، فقلت ذلك ثم أعلمته، فقال قل ذلك كل ليلة إحدى عشر مرة، فقلته، فوقع في قلبي حلاوته، فلما كان بعد سنة قال لي خالي: احفظ ما علمتك ودم عليه إلى أن تدخل القبر فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة، فلم أزل على ذلك سنين فوجدت لذلك حلاوة في سري، ثم قال لي خالي يوماً: يا سهل من كان الله معه وناظراً إليه وشاهده أيعصيه؟ إياك والمعصية)..[1].

فالاقتداء بالمربي أبرز سمات الاستجابة عند المتلقي، وهي تحدث بصورة عفوية في حال التقليد والمحاكاة، أو بصورة مقصودة في حال تلبية نصائح المربي وتوجيهاته.

فإذا امتنع المتلقي عن الاستجابة، فإما أن يكون ذلك لعيب في المتلقي، كأن يكون عاصياً متمرداً.. وإما أن يكون ذلك لعجز المربي عن القيادة.

ولهذا ينبغي في المربي أن يكون قادراً على القيادة، أي أن يكون له من شخصيته ما يفرض طاعته على الناس بغير سلطان، وإلاّ لفشل في العملية التربوية.

والقيادة موهبة عند بعض الناس، تصقلها التجارب وتزيدها مضاء وقدرة، ولكنّها لا تنشئها حيث لا تكون، وهي شرط نحتاجه بصورة أكبر في غير الوالدين[2].

وأخيراً.. لا ينجح مربي مهما أوتي من خصائص وصفات مالم يلتجئ إلى الله ﷻ بالدعاء لهداية المتلقي إلى ما فيه خيره وصلاحه. وهذا الأمر آكد في دعاء الوالدين لأبنائهما،

=

١٨٢٩. وانظر: الدور التربوي للوالدين في تنشئة الفتاة المسلمة، ج٢ / ٣٢٠ – ٣٢٣.

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج٣/ ٧٤ بيان الطريق في رياضة الصبيان.

(٢) منهج التربية الإسلامية، ص ٢٨٤.

إذ إن دعاء الوالدين مستجاب عند الله تعالى، وقد علمنا رسول اللهﷺ الدعاء للأطفال، عندما دعا – مثلاً – لابن عباس فقال: {اللهم علمه الحكمة}[1]، وبفضل هذه الدعوة كان ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن[2].

كما نهى ديننا الحنيف الوالدين من الدعاء على أولادهم؛ لأنّ هذا مناف للخلق الإسلامي، ومنهج التربية الإسلامية، فقال رسول اللهﷺ: {لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على خدمكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله – تعالى – ساعة نيل فيها عطاء فيستجيب لكم}[3].

دور المربي في تفعيل قوى الاستجابة لدى المربَى (المتلقي):

لا يكتمل دور المربي مهما أوتي من حُسنٍ وإتقان إلا إذا كان لدى المربَى (المتلقي) القابلية والرغبة للأخذ عن مربيه والامتثال لقوله..

ولن نركز على أسباب رفض المربَى للتلقي سواء أكانت أسبابه حقيقية أم مفتعلة، وسواء أدرك رفضه للتلقي أم كان رفضه عفوياً تلقائياً، ولكنّنا سنهتم بجملة من العوامل إذا تمكن المربِّي من إحيائها وتنميتها لدى المربَّى ساهمت بصورة كبيرة في تحقيق درجة عالية من الاستجابة لدى المربَى (المتلقي). ومن هذه العوامل[4]:

١- تنمية الحياء:

الحياء هو الشعور بالانفعال والانكسار النفسي نتيجة للخوف من اللوم والتوبيخ من الآخرين، وهذا الشعور يراعي المثل والقيم والضوابط الاجتماعية، ويسهم بصورة فعّالة في ضمان تنفيذ القوانين والمنع من الإقدام على التجاوز والاعتداء، وهو الذي يحصن الإنسان من جميع ألوان الانحراف والرذيلة.

وللحياء آثار تربوية إيجابية فهو مفتاح كل خير، ويصدُّ عن فعل القبيح، ومن كساه

---

(١) البخاري، كتاب المناقب، باب ذكر ابن عباس رضي الله عنهما، رقم ٣٧٥٦.

(٢) الدور التربوي للوالدين في تنشئة الفتاة المسلمة، حنان الطوري الجهني، ج٢/ ٣٣٥ – ٣٣٦.

(٣) سنن أبي داود، الوتر، باب النهي عن أن يدعو الإنسان على أهله وماله، رقم ١٥٣٤.

(٤) ملامح المنهج التربوي عند أهل البيت عليهم السلام، شهاب الدين العذاري، ص ٥١ – ٦٠.

الحياء ثوبه خفي عن الناس عيبه. والحياء الإيجابي هو الحياء من الله تعالى والنفس والمجتمع والقانون، وهو الذي يحقق آثاراً صالحة في الفكر والسلوك. فالحياء من الله تعالى ومن النفس يردع الإنسان عن الانحراف الخفي وغير المعلن، والحياء من المجتمع والقانون يردعه عن الانحراف العلني والمخفي معاً خوفاً من انكشافه أمام الملأ.

والحياء له دوران: الأوّل الصد عن العمل القبيح والشائن، والثّاني التخلق بالأخلاق الحسنة والصالحة وخصوصاً في العلاقات الاجتماعية، وبه ترعى حقوق الآخرين.

٢- تنمية الضمير:

الضمير هو الرادع الداخلي الذي يقدر ما هو حسن وما هو قبيح، فيساعد الإنسان على اتخاذ السلوك والقرار الصالح والسليم، والتخلي عن السلوك والقرار المخالف للقواعد الصالحة والضوابط الاجتماعية السليمة.

ويرى الباحثون في حقول التربية وعلم النفس أنه لا الفكر ولا المنطق يأمران الإنسان بالتصرف، فهما أداتان تمكنان الإنسان من الوصول إلى هدف ما، ولكنّ الضمير هو الآمر، أما الفكر فمنفّذ.. ويرى العلماء أن الإنسان يفضل التصرّف الخاطئ على الصواب إذا رضي ضميره، ولو دلّه المنطق إلى خطأ عمله وأرشده إلى الصواب.

ويتكون الضمير من خلال التأثيرات الاجتماعية والثقافية وتجارب الطفولة مع الآخرين، فالضمير يتكون على شاكلة ضميري الأب والأم، ولا يوجد ضمير واحد للفرد، فهو يمتلك مجموعة من الضمائر تؤلف الضمير الكلي للفرد.

والضمير ينمو باتجاه الاستقامة من خلال التربية المتواصلة والتوجيه الدائم من قبل الوالدين والمعلمين وعلماء الدين، ومن خلال توجيه الأنظار إلى احترام القواعد السلوكية للمجتمع، وينمو عن طريق الإيحاء والتلقين، ومن خلال ملاحظة القدوة الحسنة، فاعتراف الكبار بالخطأ الذي يرتكبونه يقوّي في أعماق الطفل القدرة على ضبط سلوكه وسيرته.

ومن العوامل المساعدة على تنمية الضمير أن يعامل الطفل على أساس أنّه شخصية مستقلة؛ لأنّ ذلك ينمي في داخله الإحساس بالمسؤولية ومعرفة الخطأ والصواب وتمييز الانحراف عن الاستقامة.

والأهم من جميع ذلك فإنّ الارتباط بالغيب هو الأساس في تنمية الضمير ليؤدي دوره في التوجيه والتهذيب والردع؛ لأنّه يشعر بالرقابة الغيبية التي تراقبه وتتابعه وتحصي عليه سكناته وحركاته.

وفي جميع الظروف والأحوال لابدّ من تمكين الإنسان وخصوصاً في مرحلة الطفولة من تكوين ضمير سليم لا متعصب ولا متساهل بل ضمير معتدل متوازن.

٣- إثارة الوجدان:

إذا أدرك الفرد حقائق السنن التي تتحكم في العلاقات والمسيرة الاجتماعية، وآثارها الإيجابية والسلبية التي تسهم في تجنب الموبقات والتوجه للكمال والسمو؛ انفعل بها.

ومن السنن المؤثرة في الوجدان الإنساني سنة الصيانة عن التعرض لأعراض الناس، فمن صان نفسه عن التعرض لأعراض الآخرين فسيصان عرضه من الانحراف والدنس ومن اعتداء الآخرين، ومن اعتدى على أعراض الناس اعتدي على عرضه، فإذا انغرست هذه السنن في وجدان الإنسان فإنها ستنتقل من مرحلة التأثر الوجداني إلى مرحلة العمل الإيجابي، فلا تبقى مجرد حقيقة وجدانية راكدة ومعطلة وإنما ستكون ذات حيوية متحركة في الواقع بعمل وحركة وسلوك يحصن الإنسان من الانحراف والاعتداء الذي يعود ضرره عليه وعلى ذويه.

والآثار المترتبة على الانحراف تتحقق بتحقق أسبابها الطبيعية، فالمنحرف أو المعتدي على أعراض الناس يشارك في تهيئة أجواء الانحراف لذويه، ويكون أقل مراقبة لهم، إضافة إلى تأثرهم بسلوكه من خلال المحاكاة والمشاهَدات الحسية.

فكما قلنا إدراك الفرد لهذه السنن وأمثالها بجهود المربين يثير وجدانه، فينفعل لفعل الصواب والاستجابة له.

٤- التقييم الذاتي ومحاسبة النفس:

التقييم الذاتي للنفس عمل هام وضرورة نفسية واجتماعية، به يتعرف الإنسان إلى صفاته وقدراته العقلية والعاطفية والخلقية، ويرى في نفسه عوامل القوة والضعف، وفكرة المرء عن نفسه من خلال التقييم الصحيح والواقعي لها الأثر الأكبر في توجيه سلوكه

ومستوى طموحه، وفكرة المرء عن نفسه هي التي توجهه في اختيار أعماله وأصدقائه وزوجته ومهنته وملابسه..، وهي التي تبين له ضروب السلوك التي هو جدير بها، وتكفه عن فعل ما يمس احترامه لنفسه.

ومن معرفة النفس معرفة عيوبها، وهي ظاهرة إيجابية وصحية، فمن خلال معرفة عيوب النفس ينشغل الإنسان عن عيوب غيره، ويتوجه إلى إصلاح عيوبه بالطرائق والأساليب المتاحة، والتي يوجهه إليها المربي.

وبعد التقييم الذاتي ومعرفة النفس يأتي دور المحاسبة لها، وهي تسهم في إيقاف الانحراف، والتوجه إلى الإصلاح والتكامل والبناء التربوي الصالح للفرد نفسه ولذويه وللمجتمع. ومحاسبة النفس تتم على أساس عرض السيرة والممارسة على الموازين والمعايير الإسلامية الثابتة، فهي الميزان والمعيار في التقييم الذاتي ومعرفة النفس ومحاسبتها.

٥- التقييم الاجتماعي:

معرفة النفس وتقييمها تنشأ ذاتياً من داخلها، وتنشأ أيضاً من موازنة الإنسان نفسه بغيره من أفراد المجتمع سواء كانوا صالحين أم طالحين. وقد يقوم الآخرون بتقييم الإنسان بصورة مقصودة أو عفوية؛ فيتعرف إلى نواحي القوة والضعف في نفسه وسلوكه، وإلى إمكانات خافية أو غير معلومة، وإلى الأغراض والدوافع التي تقوم وراء سلوكه.

وعلى العموم فإنّ التقييم الاجتماعي يؤثر في تقييم الإنسان لذاته، ويؤثر على ممارساته العملية، فمثلاً الطفل الذي يسمع من الآخرين ألفاظ جبان أو كذّاب أو سارق قد ينشأ على تقييم نفسه على ضوء هذه الألفاظ، بل قد يصبح بالفعل جباناً أو كذّاباً أو سارقاً كرد فعل للتقييم الخاطئ له، أو التقييم المتسرع الذي اعتمد على ظاهرة واحدة أو ممارسة واحدة قد تكون غير مقصودة[1].

والتقييم الاجتماعي قد يكون علنياً أو سرّياً، وبما أن الإنسان دائماً يعتز بنفسه ورأيه، فإنّه لا يتنازل عن رأيه أو موقفه إلاّ إذا اطمأنّ أن الناصح له مخلص في نصيحته ويريد له الصلاح والخير، وهذا الاطمئنان غالباً ما يتأتى إذا كان الناصح رفيقاً به ينصحه

(١) ملامح المنهج التربوي عند أهل البيت عليهم السلام، شهاب الدين العذاري، ص ٥١ – ٦٠.

بأسلوب شيّق وجذّاب، أو ينصحه سرّاً لا أمام الناس؛ لأنّ النصح أمام الناس كشف للأخطاء وأحياناً يكون إهانة وتشهيراً له، وبهذا الأسلوب لا يحقّق المصلح أيّ تقدّم ملحوظ. يقول الإمام الشافعي:

تغمدني بنصحك في انفرادي وجنبني النصيحة في الجماعه
فإن النصح بين الناس نوع من التوبيخ لا أرضى استماعه
وإن خالفتني وعصيت قولي فلا تجزع إذا لم تعطَ طاعه

فالتقييم غير العلني يحفظ للإنسان كرامته، بل يشعره بأنّ الناصح له مخلص وصادق في نصحه لا يريد خدش كرامته أو ترذيله أو تقبيحه، وهذا الشعور يسهم في دخول النصيحة إلى العقل والقلب بصورة يتفاعل معها المراد إصلاحه أو تغييره أو تربيته، وهذا ما ينبغي أن يتنبه إليه كل مربٍ ناصح.

المبحث الرَّابع
التربية بحسب المراحل العمرية

المطلب الأوَّل
مرحلة الطفولة

تبدأ تربية الطفل المسلم من نقطة سابقة كثيراً على مولده.. وهي وجود أبوين مسلمين هما ذاتهما قد تربيا على الإسلام.. ويبغيان إقامة أسرة تقيم حدود الله وتلتزم أوامره. (كما سبق توضيح ذلك في بحث الأسرة).

فإذا بدأت حياة الطفل في هذه الدنيا، فإن الأم هي ألصق الناس به، وأقربهم في التعامل إليه، ومع أن مطالب هذه المرحلة تتشابه عادة عند الأطفال، إلا أنّ لكل طفل طبعه ومزاجه الخاص، والذي تدركه الأم شيئاً فشيئاً..

كل الأطفال يطلبون الحب والحنان والرعاية والأمن في حضن الأم أو قريباً منها، والأم بفطرتها تعطي ذلك الحب والحنان، وتؤدي الرعاية المطلوبة، وهي لن تتمكن من أداء دورها هذا بحقه إلا إذا تفرغت لهذا الأمر، ولاسيما في سنوات الطفل الأوْلى، ومن يشجع الأم على العمل في هذه المرحلة فإنما يسيء إليها وإلى أسرتها، إلا إذا دفعتها إلى ذلك الضرورة القاهرة..[1]

*** الخطوة الأوْلى في تربية الطفل تنمية مشاعر(الحب) لديه:**

يولد الطفل وهو يحمل في فطرته جملة من الصفات والمشاعر المتقابلة كالحب والكره، والخوف والرجاء، والواقع والخيال، والسلبية والإيجابية..، فتكون في نفسه كالخطوط

(١) منهج التربية الإسلامية، ص ٣٤٣ – ٣٤٤.

المتقابلة التي ستؤدي عملها في تكوينه النفسي.

وهي تكون باهتة لم تتميز بوضوح بعدَ ولادةِ الطِّفلِ، فتأتي التربية والتنشئة فتقوم بدورها في تعميق هذه الخطوط وإبرازها، أو وقف نموها، أو كبتها، وثمرة ذلك كله إما إنسان سوي أو منحرف..

الحب والكره مثلاً أهم الخطوط المتقابلة وأولها تأثيراً ـ فإذا لم يجد الطفل الحب لأي سبب من الأسباب؛ كغياب الأم، أو غلظ طبعها، أو لافتقادها هي للحب والأمان في عائلتها، فلن ينمو لديه هذا الخط، أو سيضعف مقابل خط الكره الذي سينمو ويتعزز، فتنشأ في نفسه الكراهية للآخرين والحقد عليهم، وقد يتطور الأمر فينزوي الطفل وينطوي على نفسه فيكون سلبياً لا ينتفع منه المجتمع بشيء..وهكذا تسير الأمور.

* الخطوة الثَّانية في تربية الوليد، هي تعويده على (الضبط):

إذا أخذ الطفل حقه من الحب والعطف والحنان من الأبوين، فقد جاءت المرحلة الثَّانية من مراحل تربية الوليد، وهي تعويده على الضبط:

وضوابط الفعل -كدوافعه- فطرية عند الإنسان، ولكنّها تتأخر في الظهور وتحتاج إلى معونة خارجية من الوالدين، مثل وقوف الطفل على قدميه، ومثل نطقه بالأحرف والكلمات، ومثل ضبط إفرازاته، أو ضبط رضاعته.. في كل ذلك يتعود الطفل هذه الأمور بالتدريج، وينبغي مساعدة الوالدين للطفل على ضبط نفسه دون تشديد عليه حتى لا يخسر شيئاً من حيويته وقدرته على الانطلاق والتفاعل الإيجابي مع الحياة. فالموازنة بين المنح والضبط ضروري ليستقيم في نفس الطفل الموازنة بين الصواب والخطأ، واللذين من خلالهما تنشأ المبادىء والقيم التي تبنى عليها الحياة في المستقبل..[1]

* الخطوة الثَّالثة من خطوط التربية الإسلامية فهي(القدوة) لدى الطفل:

عندما يكبر الطفل قليلاً، يكبر معه وعيه وإدراكه، فتصبح قدرته على الالتقاط الواعي وغير الواعي بالتقليد والمحاكاة كبيرة جداً، وهنا تزداد مسؤولية الأبوين في ضبط تصرفاتهم أمام الطفل حتى لا يعتاد التصرفات والأقوال السيئة، فمرة واحدة من القدوة

(١) منهج التربية الإسلامية، ص ٣٤٨ – ٣٥٢.

السيئة تكفي في قيام الطفل بذلك الفعل السيئ ، والطفل في هذه المرحلة لا يتأثر بالآخرين كما يتأثر بأبويه..

ولا نعني بذلك أن الطفل سيكون نسخة مكررة من أحد الوالدين؛ لأنّ صفاته الوراثية ستعدل ما يتلقاه بالتقليد والمحاكاة سلباً أو إيجاباً، ولكن في مراحل متقدمة..[1]

* في هذه المرحلة من التربية لابد كذلك من (التلقين):

والتلقين أمر لا غنى عنه لكل الناس في كل الأعمار، وهو للأطفال ألزم؛ لأنّ مداركهم لا تتسع لفهم الحكمة من كل تصرف ينبغي القيام به، وإن تم توضيحه لهم، فيلزمهم الأبوان بالفعل أو الترك دون انتظار اقتناعهم بصواب الفعل أو الترك- وهذا خلافاً لمن يذهب إلى ضرورة الاقتناع-؛ لأنّ مدارك الأشخاص وطباعهم وصفاتهم تتفاوت في قبول الصواب فلا يمكن انتظار موافقتهم على كل أمر، مع ضرورة شرح الحكمة أو السبب للفعل ما أمكن.

* ظهور (الكذب) عند الأطفال، وتربيته في هذه المرحلة:

في هذه المرحلة قد يصدر عن الطفل تصرفات سيئة في ظاهرها كالكذب والسرقة والعدوان للسيطرة على أشياء الآخرين..

وهذه حالات مرضية تحتاج إلى علاج ولكن دون مواجهة بل بحَثّ الطفل على فعل الصواب، والسبب أن هذه الانحرافات قد لا يقصدها الطفل لسوء في نفسه.. فمثلاً قد يكذب بدافع من قوة خياله الذي يصور له أشياء لم تحدث، وهو يتمناها، فيصدق ما يتمناه، وقد يسرق الحلوىلمحبته لها وهو لا يملك المال أو لا يعلم طريقة الحصول عليها.. ولذلك لابد هنا من التوجيه والتلقين بأيسر السبل، مع الحفاظ على إنسانية الطفل وسلامته.

* التربية (بالمثوبة والعقوبة) في هذه المرحلة:

في نفس الطفل أو الإنسان عموماً خطان متقابلان أحدهما يتصل بالخوف، والآخر يتعلق بالرجاء. وإنهما لمن أعمق الخطوط المتقابلة لدى الإنسان، وإنهما ليستيقظان في نفس الطفل قبل الخطوط الأخرى كلها. ومنهج التربية الإسلامية استخدام هذين الخطين في

(١) منهج التربية الإسلامية، ص ٣٥٣ – ٣٥٧. فن تربية الأولاد في الإسلام، ج١/١١٦-١١٨.

توجيهات تربوية هامة، ونقصد التربية بالمثوبة والتربية بالعقوبة.

والتربية بالمثوبة قد تكون بابتسامة، أو قبلة حانية من أحد الأبوين، أو بتربيتة على جسم الطفل.. أو إظهار الفرح بما عمل، أو إعطائه لعبة أو حلوى كمكافأة.. ولا بد من التنويع بين ألوان المثوبة بحسب الفعل، مع التحذير من الانصراف إلى التشجيع المادي دائماً حتى لا يعتاده الطفل ويصبح شرطاً لقيامه بالأمر أو الكف عنه، كثمن لحسن تصرفه.

أما **التربية بالعقوبة** فهي لازمة وضرورية أحياناً، وتتراوح بين العقوبة المعنوية كالعبوس والإعراض.. إلى العقوبة المادية وهي الضرب الخفيف المراد منه الإصلاح لا الانتقام، وذلك بحسب شخصية الطفل وما يحتاجه، مع التحذير من أن يصبح الضرب عادة فيخرج عن هدفه ويصبح بلا جدوى حين يعتاد الطفل عليه[1].

* من أوجه التربية في هذه المرحلة التربية (بالعادة):

ونعني تعويد الطفل على أشياء معينة حتى تصبح عادة ذاتية له، يقوم بها دون حاجة إلى توجيه، وكل أنماط السلوك الإسلامي وأخلاقيات وآداب الطعام والشراب واللباس والاستيقاظ والعبادات..إلخ.. هي من هذا النوع.

يقول الإمام الغزالي: (والصبي أمانةعند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة، فإن عُوّد الخير وعُلّمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة)[2].

وينبغي التحذير في العبادات بالذات كالصلاة عندما تتحول إلى عادة أن تصبح آلية، فاقدة للإحساس بروحانية الصلاة وجماليتها، وهنا يجب الاستذكار بالمبادئ والقيم الإسلامية الحية الكامنة خلف هذه العبادات من قبل أفراد العائلة جميعاً بين حين وآخر لينطبع ذلك في نفس الطفل ووجدانه[3].

---

(١) منهج التربية الإسلامية، ص ٣٥٨ – ٣٨٠. وانظر في تدرج المثوبة والعقوبة: فن تربية الأولاد في الإسلام، ج١/١٠٣-١١٥.

(٢) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج٣/ ٧٢ بيان الطريق في رياضة الصبيان.

(٣) منهج التربية الإسلامية، ص ٣٨١ – ٣٨٦. وانظر في تفصيل للعادات: فن تربية الأولاد في الإسلام، ج١/١٣٩-١٤١.

*** ومن وسائل التربية الفعالة في هذه المرحلة التربية (بالأحداث):**

والمقصود استغلال حدث معين لإعطاء توجيه معين، وميزته عن التوجيهات الأخرى أنه يجيء في أعقاب حدث يهز النفس كلها هزاً فتكون أكثر قابلية للتأثر من الطرائق الأخرى، ويكون التوجيه هنا أفعل وأعمق وأطول أمداً في التأثير من التوجيهات العابرة.

*** ومن وسائل التربية أيضاً التربية (بالقصة):**

ويرجع الأثر فيها إلى أن قارئ القصة أو سامعها يضع نفسه في موضع أشخاص القصة، أو يضع نفسه إزاءهم، ويظل طيلة القصة يعقد مقارنة خفية بينه وبينهم، فإن كانوا في موقف البطولة والتميز، تمنى لو كان في موقفهم ويصنع فعلهم، وإن كانوا في موقف يثير الازدراء والكراهية حمد لنفسه أنه ليس كذلك. وبهذا التأثير المزدوج تثير القصة انفعالاتنا وتؤثر فينا تأثيراً توجيهياً نتبعه في أفعالنا مستقبلاً، أو نبني عليه مواقفنا. وهكذا هي لدى الطفل[1].

*** في هذه المرحلة يمتلك الطفل (الجهد) الفائض (والوقت) الفائض:**

واللذين ينبغي استخدامهما في أعمال نافعة طيبة عن طريق اللعب والتعليم وغير ذلك.. ومشاركة الأبوين في ذلك أحياناً ضروري، والإشراف لازم منهما.. وإلا خشي على الطفل أن يصرف جهده ووقته بأمور سيئة عند غياب مراقبة الأهل.

*** السؤال عن (الخالق) يجيء في هذه المرحلة:**

والطفل هو الذي ينبعث للسؤال بفطرته، ولا يحتاج أن ينبهه أحد إلى ذلك. فقد تكفل الخالق سبحانه- وهو يأخذ على ذرية آدم (عليه السلام) ميثاقها[2]- أن يوقظ فطرته ويوجهها لتبحث عنه وتهتدي إليه. ومن رحمته أن أرسل الرسل يذكّرون الفطرة بذلك الميثاق ويهدونها إلى طريق الحق: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى

(١) منهج التربية الإسلامية، ص ٣٨٧ – ٣٩١. وانظر في توضيح أنواع القصة المناسبة: فن تربية الأولاد في الإسلام، ج١/١٢٠- ١٢٣.

(٢) ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾ الأعراف: ١٧٢.

ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥].

وينبغي أن نتذكر في هذه المرحلة أن مدارك الطفل ما تزال صغيرة، وأن قدرته على الاستيعاب ما تزال محدودة ، فنحدثه بما يناسب قدرته ومداركه، لا بما نعرفه نحن عن حقيقة الألوهية؛ كأن نخبره بأن الله خالق كل شيء، وأنه قوي وعظيم جلّ جلاله..

وسنقول له أشياء لن يستطيع تصورها ولا تخيلها، من آيات القرآن نفسه، حتى تستقر في خلده الآن ويتم إدراكها فيما بعد، عندما ينضج عقله ويتسع إدراكه، كأن نقول بأن الله يرانا ويسمعنا ونحن لا نراه، ولن يدرك بعقله الصغير ذلك بداية،فإذا كبر فهم وعلم. ولكن ينبغي أن نحذر أن نثقل ذهنه بالكثير من الأمور التي لا يستطيع أن يعقلها أو يدركها، ونتلطف في ذلك مع المداومة بربط قلبه ومشاعره بالله، حتى يتحقق في نفسه حق الألوهية لله، وواجب العبودية نحوه[1].

* (الخروج) من المنزل يبدأ في هذه المرحلة:

في هذه المرحلة سيخرج الطفل إلى الشارع، فالمدرسة، وسيبدأ احتكاكه بالمجتمع الكبير، من خلال الوالدين أو وحده،.. وهنا سيتعرف الطفل على أنماط إيجابية أو سلبية من التصرفات والأفكار التي يصطدم بها بصورة غير ممنهجة أحياناً ومن دون إرادة الوالدين.. ولهذا يزداد دور الوالدين هنا لمعالجة كل خطأ أو سلوك أو فكر يتمثله الطفل وهو مخالف لما قد تربى عليه. وخروج الأبناء إلى المجتمع أمر واقعي ولا ينبغي تأجيله مخافة المفاسد المتوقعة، ولكن يحرص الوالدان على تخفيف التأثير السلبي للخروج بالمتابعة والتوجيه[2].

---

(١) منهج التربية الإسلامية، ص ٣٨٧ – ٤٠٠. وانظر في تفصيل عقيدة الطفل: فن تربية الأولاد في الإسلام، ج١/٢٧٤-٢٨١.

(٢) أغفلنا الحديث عن اللعب وطرقه وفوائده، لصعوبة تفصيل كل ذلك هنا. انظر: فن تربية الأولاد في الإسلام، ج١/١٧٣-١٧٥.

المطلب الثَّاني
مرحلة الصبا

هذه المرحلة التي نحن بصددها هي مرحلة **المراهقة**، ثم **البلوغ**.

من سمات فترة المراهقة:

*في هذه المرحلة يحدث **انقلاب كامل** في حياة الطفل، وإن كنا لا ننتبه إلى ذلك كثيراً..

فالطفل في بداية المرحلة السابقة خياليٌ جداً، فمن ذلك أنه يضفي الحياة على كل ما حوله حتى الجمادات؛ فالحائط حي والعصا حية، واللعبة يناديها أو يخافها، وحين يقع على الأرض وهو يتعلم المشي فإنه يتخيل أن الأرض قد ضربته، ويغضب منها لأنها آلمته، حتى إذا جاءت أمه وضربتها، فإنه يصدق أنها تألمت بالفعل من الضرب، وأن أمه ثأرت له منها، فيرضى.

أما في هذه المرحلة **فيخف هذا النوع من الخيال كثيراً**، ويتململ الطفل من ألعابه قليلاً، ويميل إلى أن يعيش عالم الحقيقة الحسية الملموسة. فالصبي لم يعد يتخيل العصا حصاناً ولا البنت تتخيل العروس بنتاً حية، وإن استمرا باللعب بهما. أما ما يشبع نهمهما أكثر فهو **المعرفة وجمع المعلومات وكثرة الأسئلة** في كل شيء.

*في هذه المرحلة يبدأ الأطفال **يتململون من النظر إليهم كأطفال** ـ حتى قبل التغيرات الجسدية المرافقة للبلوغ ـ فيحب الصبي أن يعامل كرجل، والصغيرة أن تعامل كامرأة شابة.

والصواب أن يستجيب الوالدان لهذه الرغبة، وأن يسارعا بفرح إلى تقبل الأمر، وأن يعلنا ذلك أمام الأهل والأصدقاء. وأن يشركا الأبناء في رعاية شؤون الأسرة ويدربوهم على ذلك بما يناسب أعمارهم في الحقيقة، كشراء بعض الحاجات، أو تحضير الطعام أو غير ذلك.. أما إن تجاهل الأبوان رغبة الأبناء في ذلك فقد يحول رفضهما الأبناء إلى معاندين

وغير مطيعين للآباء، وهنا يحدث خلل تربوي كبير.

*في هذه الفترة من المراهقة- وقبل البلوغ- **يتجمع الصبيان في مجموعات من الذكور لا تقبل الإناث قي وسطها، وتتجمع البنات في مجموعات من الإناث لا تقبل الصبيان** في وسطها كذلك. وهذا ما يثبته علم النفس أيضاً، وكان الأوْلى أن يراعى هذا الأمر في فصل مدارس الذكور عن الإناث في هذه المرحلة استجابة لهذه الفطرة. ولأنها مقدمة لمرحلة البلوغ، التي ستظهر فيها المشاعر الجنسية المفاجئة عند الطرفين، والأوْلى أن لا يكون بينهما احتكاك كبير في تلك الفترة.

*داخل المجموعات المتشكلة من الذكور أو الإناث المذكورة آنفاً، **تنشأ روابط عميقة، وتكون هناك (قيم) معينة داخل هذه المجاميع**، يُعدُّ اتباعها ضرورياً لأعضاء المجموعة، ونقضها مبرراً للطرد منها، أو التنديد بصاحبها؛ منها المحافظة على المواعيد والوعود، ومنها عدم تغيير الصديق، فهذه خيانة ولا سيما عند البنات، ومنها أن التعامل ينبغي أن يكون له أصول من الصدق والأمانة وعدم الغش وعدم الوشاية بالأسرار..وغير ذلك.

فما يلاحظ على النفس الإنسانية في هذه المرحلة أن القيم والمثل العليا فطرة فيها، تنشأ تلقائياً داخلها.. وهذا يشكل حصناً منيعاً للمراهقين ينشأ فطرياً قبل دخول مرحلة البلوغ مباشرة.

ويجب على الأهل متابعة الأبناء في هذا كله، والتدخل لمصلحتهم عند وجود خلل ما، فمثلاً إذا انتبه الأبوان إلى أن صديق ابنهما يفتقد ما عليه ابنهما من السلوك التربوي السليم كأن لم يتلق تربية صالحة في المرحلة السابقة، فالأوْلى إبعاد الابن عنه بالنصح والتحبب إليه وإيجاد البديل، حتى يستجيب الابن بكل رضى[1].

فترة البلوغ والتكيف معها:

ثم تبدأ فترة البلوغ، وما يصاحبها من تغيير كبير في النفس الإنسانية، فالتغيرات الجسدية التي تعلن بدء النضوج الجنسي تفرض نفسها فرضاً على الفتى والفتاة، فتشغلهما وتشد انتباههما إلى علاقات الجنس ومشاعره.

---

(١) منهج التربية الإسلامية، ص ٤٣٤ – ٤٤١.

فإذا سارت التربية بخطها المرسوم سابقاً فلسنا أمام مشكلة في الحقيقة، فليس في المنهج الرباني وفطرته مشاكل بالمعنى المراد للكلمة[1].

فالجنس- ككل طاقة حيوية في كيان الإنسان- خلقه الله ليعمل، ورتب له من المشاعر والأفكار في داخل النفس ما يوائم هذه الطاقة الجسدية، ثم رتب له من التنظيمات والتوجيهات والتشريعات في منهجه المنزّل ما يحقق أهدافه في أسلم وأنظف وضع، كطريقة الإسلام في كل شيء[2].

ولو تتبعنا المنهج التربوي من أوله في المرحلة السابقة نجد أن الإسلام قد ربى الطفل على حب الله وخشيته من ناحية، وعلى القدرة على الضبط من جانب آخر. فالقدرة على الضبط قد تعودها الفتى منذ طفولته وعلى المدى الطويل حتى أصبح اليوم في مرحلة البلوغ.

فإذا تفاجأ الفتى والفتاة بهذه الطاقة، **قابلاها بما ترسخ في النفس من حب الله، وضبط النفس**، ثم صرفا جزءاً كبيراً من اهتمامهما إلى الصلاة والصيام واجتهدا في جميع أحكام الإسلام التي أصبحا يعاملان فيها كمسؤولين ومحاسبين لطروء التكليف الذي لم يكن قبل هذه المرحلة[3].

وهذا من منهج الإسلام حيث يعامل الإنسان ككل، فيشغله بأمور نافعة يستنفد فيها طاقاته الأخرى، حين يتعذر تلبية جانب ما.

---

(١) لمعرفة بعض الإرشادات للفتى البالغ وما ينبغي أن يتعلمه انظر: فن تربية الأولاد في الإسلام، ج١/٣٦١- ٣٦٣، وللفتيات البالغات، ج٢/ ١٢٧ ومابعدها.

(٢) ينتقد أحد علمائنا أن يتفق علماء النفس أو أكثرهم على أن المراهقة تبدأ ببلوغ الإنسان، ويؤكد بأن هذا لا يمكن قبوله، إذ جعلت الشريعة البلوغ علامة على التكليف ولزوم الشرائع، وكيف يبدأ التكليف مع بداية الاضطراب وعدم الاتزان والقلق.. وهي مسوغات للتخفيف وليس للتكليف! بينما لفظ المراهق قد تعلقت به أحكام شرعية، مثل: هل يصلح المراهق مَحرماً؟ وهل يجوز له الخلوة بالأجنبية؟ وهل إذا سرق تقطع يده؟.. وغير ذلك من المسائل التي بنى الفقهاء جوابهم فيها على مقتضى لغة العرب، وهو أن المراهق هو من لم يبلغ الحلم، وهو الصبي في آخر مرحلة الصبا. انظر: نحو تربية إسلامية راشدة، ص ١٢٩.

(٣) نؤكد على أن القدرة العقلية عند البالغ تصل إلى الكمال الواجب الذي تثبت به الحجة وتلزم به التكاليف. ويظهر على الفتى في هذه المرحلة القدرة على التفكير المجرد، كما يمكنه إدراك الأبعاد المتعددة للقضية الواحدة، ويكون قادراً على ممارسة مهارات التفكير العليا: التحليل والتركيب والنقد والتقويم، كما يمكنه حل المشكلات، وجمع الفروض المناسبة لحلها.. إلى غير ذلك. انظر: نحو تربية إسلامية راشدة، ص ١٣١.

نظرة الإسلام إلى الزواج المبكر، ومقدماته:

لا يوجد في الإسلام ما يمنع من **حدوث الزواج**- وهو الحل الطبيعي لمشاعر الجنس- في أيّ وقت، إذا توافرت الشروط الكافية في الطرفين لإقامة زواج ناجح، فإن كان لابد من التأخير فينبغي العفة وصون النفس عن إثارة هذه الرغبات عند الطرفين، وعلى الأهل والمجتمع أخذ الدور في تحقيق ذلك بما شرعه الإسلام أساساً من التقليل من الاختلاط بين الجنسين، وإظهار الحشمة في اللباس والتمسك بمحاسن الأخلاق، والإقبال على العلم والعمل النافعين وغير ذلك..

ومع ذلك قد يظهر عند الجنسين في هذه الفترة **سعي كل جنس إلى الحصول على إعجاب الجنس الآخر**، وهذا من توابع الفطرة التي خُلقا عليها، حيث يريد الإسلام أن يبذل كل جنس جهده في رفع طاقاته إلى أقصى مدى قبل أن يحدث الزواج، فإذا حدث كان الزوجان في قمة نشاطهما وحيويتهما، وتهيئهما لهذا الحدث الضخم.

وهنا لم يعدم الإسلام وسائله للحصول على هذا الإعجاب، فجعل **وسيلة الفتاة** إلى ذلك هي المحافظة على أخلاقها، وتعزيز خلق الحياء والاحتشام في لباسها وحديثها، والتزود بالعلم، وإتقانها لإدارة البيت وحسن التهيؤ للأمومة ولوازمها من رعاية الأبناء.. وجمّل الإسلام هذه الوسائل عند الشاب وشجعه على اختيار من تتوافر فيها هذه الصفات عند الزواج.

وكذلك جعل الإسلام **وسائل الفتى** للحصول على إعجاب الفتاة أن يتربى على الرجولة الحقة، على الجد والشهامة والكرامة، وعلى الصلابة وتحمل المشاق، وعلى العلم النافع والعمل الصالح.. ثم جمّل الإسلام هذه الصفات عند الفتاة وشجعها على اختيار من تتوافر فيه هذه الصفات عند الزواج.

الرغبة في المثالية، ومخاوف الاستهواء:

في هذه المرحلة، ومع بدء التكليف كما ذكرنا عند البلوغ، واستنفاد الجهد والطاقة الزائدين في ربط الفتى والفتاة بالله؛ كالإكثار من العبادات المسنونة إلى جانب الواجبة، والإكثار من تلاوة القرآن وحفظه، والحديث المستفيض عن الرسولﷺ والجماعة المسلمة

الأوْلى من الصحابة رضوان الله عليهم، **ستتشكل لدى الفتى والفتاة نزعة التسامي إلى المثل العليا**، ورغبة عيشها في الواقع، فإذا اصطدما بفقدان الحالة المثالية على الأرض انسحبا إلى عالم الخيال، ونسجا في أحلام اليقظة ما يشبع نهمهما.. وهنا ينبغي الحذر من أن يستهلكا طاقتهما النفسية بغير ثمرة، ويكتفيا بالأحلام عن مواجهة الواقع وتحدياته؛ فيتوجب على المربين التدخل لإيجاد الحالة الوسط، حيث الاستفادة من الرغبة لتحقيق المثالية في الحياة ولكن دون الهروب من الواقع، بل بتحقيق الإيجابية الواقعية الفاعلة في الأرض.

صورة مقابلة للأبناء قد تواجه الآباء عند غياب التوجيه التربوي الصحيح، وعدم ربطهم بصور مشرقة من رجال الإسلام وقادته؛ وهي أن تستهوي هؤلاء الأبناء أيّة صورة أو أنموذج سيء في المجتمع يطلعون عليه بوسائل التّواصل المختلفة، فيستهوي الفتى المغني (النجم) ومرتكب الجرائم (الخطير)، وكذلك يستهوي الفتاة المغنية (كوكب الشرق) وغيرها، فيسعيان إلى محاكاة هذه الشخصيات التي استهوتهم..

ويجب الانتباه إلى أن (الاستهواء) وخلق حالة (المثال) في هذه المرحلة عند البالغ أمر فطري كما سبق، فإن لم يتم ملء هذا الجانب بالشخصيات البطولية الحقة التي تستحق أن تتخذ نماذج تحتذى، فسيملأ هذا الفراغ بما نعلمه يقيناً من هذه النماذج الهابطة، أو فارغة المضمون، وسيعاني الوالدان كثيراً في صرف أبنائهم عن هذه النماذج السيئة، وعن محاكاتها في اللباس والسلوك والتصرفات، وإعادتهم ثانية إلى جادة الصواب. فلينظر الوالدان ما يسببه التفريط في أيّة جزئية من متطلبات التربية السليمة[1].

(١) منهج التربية الإسلامية، ص ٤٤٣ – ٤٨٠. ولمعرفة ألوان الثواب والعقاب المناسبين لهذه المرحلة انظر: نحو تربية إسلامية راشدة، ص١٤١-١٤٨.

المطلب الثَّالث
مرحلة الشباب

وصف المرحلة، وسماتها:

هذه المرحلة من أخصب مراحل العمر، وأكثر الفترات حيوية ونشاطاً وتدفقاً وتطلعاً وحركة. إنها مرحلة نمو واع وتطلع إلى الزيادة في كل اتجاه.

نمو جسدي وعقلي ونفسي، ونمو في الخبرة ونمو في القدرة ونمو في المعرفة ونمو في المواهب والاستعدادات. هي فترة العواطف المتدفقة من كل نوع، وفترة التحصيل العلمي والقراءة والاطلاع، وفترة النشاط الجسماني الكبير. وفترة التعلق بالمثل والمثاليات، وفترة التفكير في مشاكل المجتمع، ومشاكل البشرية. وهي فترة الرغبة الدافقة في الإصلاح والعمل المتحمس للتغيير.. ولكن كثيراً ما يكون البريق الخاطف أكثر لفتاً للشباب في هذه المرحلة من الجوهر والمضمون.

ليس في هذه الفترة التغير السريع كالطفولة، ولا التفجر المتقلب كالمراهقة، وإنما فيها النمو المفضي إلى النضج. كالثمرة التي كادت تنضج، فإن فيها كل ملامح الثمرة الناضجة ولكنّها لم تنضج بعد، فهي تتغير كل يوم ولكنّ ملامحها أصبحت ثابتة، تسعى إلى الاكتمال الداخلي.

وهكذا هي هذه المرحلة، فإن الإضافة الهامة فيها هي الإضافة التي توسع وتعمق ما هو موجود بالفعل، أو ما قد وجد فعلاً حتى الآن. وهذا ما يمكن أن يرصده في هذه المرحلة الناظر من الخارج إلى الشاب أو الفتاة، فيما يظنان أنّ ما ينتابهما هو تغير كامل[1].

الفتيات في هذه المرحلة:

البنات أسرع نضجاً من البنين في هذه المرحلة، فبينما تسرع الفتاة فتأخذ تمام نضجها

---

(١) منهج التربية الإسلامية، ص ٤٨١ – ٤٨٣.

الجسدي ابتداءً من السَّادسة عشرة أو السابعة عشرة، يتأخر الفتى فلا يصل إلى مثل هذا المستوى من النضج قبل العشرين أو الحادية والعشرين.

ومن هنا فلا تلبث الفتاة أن تكون مراهقة حتى تكون شابة، وقد يظل نموها العقلي في طريقه المتدرج، ولكنّ نموها النفسي والعاطفي ينضج أسرع فتكون أكثر انشغالاً بأمور ذات صبغة خاصة أو عائلية، فلهذا تحتاج حلولاً مختلفة عن الشاب على مستوى الدراسة والمستويات الأخرى لمساعدتها على الجمع بين هذه المحاسن، وكذا تكوين الأسرة وتحقيق رغبة الأمومة، وما ينبغي أن توليه الأنثى لهذه المسألة من اهتمام وتفرغ، ولا سيما في مراحلها الأوْلى.

الشبان في هذه المرحلة:

أما الشاب وإن تأخر قليلاً عن الفتاة في هذه النقطة فهو لا يكاد يصل إلى الخامسة والعشرين إلا وتحمله الفطرة السوية على البحث الجاد عن شريكة الحياة، ولكي يكون مؤهلاً وقادراً على تحمل أعباء الأسرة مادياً فيجب إعادة النظر كذلك في المناهج الدراسية التي تقرر لأبنائنا في المدارس والجامعات كماً وكيفاً بحيث يصل الشاب إلى ما قبل هذه السن وقد حدد تخصصه الذي يعمل به، بل وسار خطوات في العمل المهني الجاد.

*من الفطرة في بداية هذه المرحلة أن **يهتم الشاب بنموه الجسدي**، فيبدأ بإبراز عضلاته، وممارسة ألوانٍ من الرياضة البدنية بغير ملل، ولا يمنع هذا من وجود حالات لا تميل إلى الرياضة البدنية لأسباب مختلفة.

والمهم هنا أن من منهج التربية الإسلامية تعزيز هذه الظاهرة عند الشاب ليستزيد من قوة الجسد إلى حد كبير، مع التنبيه أن تقوية الجسد ليست غاية في حد ذاتها وإنما لأنّ الإسلام رغّب بالمسلم القوي، فهو خير وأحب إلى الله، ولأن الجهاد في سبيل الله يحتاج إلى الأقوياء.

*ينشغل الشاب في هذه المرحلة بالمجتمع من حوله، بل بالبشرية جمعاء، ينظر في سبب تعاسة الناس وما يقع على البشر من مظالم.. ومن أين يبدأ الإصلاح والتغيير، وما الطريق إلى ذلك. وتصل مشاعر الشباب في هذه الأمور إلى درجة الحماسة المتوقدة بل إلى

درجة التضحية بالنفس في سبيل ما يرى أنه الحق، وتستغل الجماعات والدول هذه المشاعر لما تريد تحقيقه من خير حقيقي أو مزيف، فتجند طاقة الشباب في ذلك وتستهويهم.. وهنا ينبغي أن لا نخشى على الشاب المسلم الذي تربى على قيم الإسلام وأحكامه، وعلى منهج الله في الاعتقاد وأخوة الإسلام، أن ينجرف وراء دعوات زائفة تستغله لمصالحها، أو شعارات جوفاء، بل يحكمه إسلامه الذي يستنبط منه الحلول الناجعة للإصلاح كالتعاون على الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والسعي إلى تعليم أبناء الأمة ما يصلح حالهم ونبذ الجهل.. وغير ذلك من حلول[1].

النمو العقلي، ومستوى الذكاء في هذه المرحلة:

هذه المرحلة هي مرحلة النمو العقلي واسع المدى.. صحيح أن خبرات المرء لا تكتمل في هذه المرحلة من العمر، بل إن مرحلة النضوج ذاتها لا تكتمل الخبرة في أولها، ولكنّ استعداد الشاب لتلقي التجارب واستفادة الخبرة منها هو الذي يحدث في هذه المرحلة على نطاق واسع.

أما مستوى الذكاء المقدر للإنسان فإنه يبلغ ذروته في هذه الفترة ولا يكاد يزيد بعد ذلك. ولا يكاد يوجد نوع من المعرفة يستعصي على الشاب في هذه الفترة مع مراعاة الاستعداد والميول بالطبع، ولهذا ينجز الشاب دراسته الجامعية بنجاح، بل يزيد قدراً عن ذلك بالدراسات العليا.

وهنا يتعرض الشاب لمناقشة كل المشكلات شاعراً بأن لديه القدرة على مناقشتها. وكثيراً ما تكون مناقشته سطحية أو متفلسفة بغير موجب. ذلك أن النظر في المشكلات والبحث عن حلول لها أمر يتعلق بالخبرة والممارسة أكثر مما يتعلق بالمعلومات المحشودة في ذهن الإنسان. ولكنّ الشاب لا يدرك هذه الحقيقة إلا متأخراً. ولهذا يجد في نفسه الجرأة على النقد، وإعلان رأيه بكل اعتداد، وقد يكون مندفعاً أو متحيزاً..

وحتى يسلم شابنا المسلم في هذه المرحلة، فإن من منهج التربية الحقة توجيه الشاب المسلم إلى منهج التفكير السليم حيث البحث عن الحقيقة والتجرد لها وعدم التأثر بمقررات

(١) منهج التربية الإسلامية، ص ٤٨٤ – ٥٠٠.

سابقة ولا مقررات ذاتية لا برهان عليها، ولا بمجرد الظن، يقول تعالى ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[الإسراء: ٣٦]، وقال تعالى ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾[المؤمنون: ٧١]، فيكون الإسلام بقواعده الثابتة هو الميزان الذي تمحص فيه ألوان الفكر كاملة.

البحث عن المثل الأعلى في هذه المرحلة:

في هذه المرحلة واستكمالاً لمرحلة المراهقة، وإلى جانب اعتداد الشاب بذاته، والاعتداد بالعلم، والاعتداد بالرأي، والاعتداد بالقدرة على النظر في الأمور، فإن في نفس الشاب- كما كان المراهق من قبل- قابلية شديدة للاستهواء. بل ربما كانت أوسع مدى وأعمق غوراً من قابلية المراهق لها.

فهو هنا شديد الإعجاب بالبطولة والتفوق، وقد يصل الأمر إلى (عبادة) البطولة في أشخاص القادة والزعماء والفنانين والكتاب، وأبطال الرياضة وغيرها.. والتجمع حول هؤلاء، والتحمس لهم، والدفاع عنهم ضد المنتقدين.. إلى غير ذلك..

فإذا كنا نتحدث عن الشاب المسلم الذي تربى على منهج التفكير السليم، والذي ما زال ينمي قدرته على ضبط النفس، وعلى الانضباط وعدم الانسياق وراء العواطف الجامحة من دون تقييد.. ويسير قدماً في ارتباطه الروحي بحب الله خشيته، وحب نبيه المصطفىﷺ وسيرته، ويعيش على نهج الصحابة رضوان الله عليهم وبطولاتهم، وينمي وعيه بتدبر القرآن وآياته، ويصطبغ بشعائر الإسلام وعباداته، فلن نخشى على هذا الشاب المسلم من أي استهواء يحيده عن جادة الصواب، أو يجرفه وراء بطولة (مزيفة)[1].

مشكلة الصراع (الاختلاف) بين الأجيال:

ترتبط هذه المرحلة بمشكلة الصراع بين الأجيال، وصورة المشكلة هي ما يحدث في داخل حدود الأسرة من صراعات بين الأبناء والآباء، تنتهي بالتمرد الكامل على سلطة الأبوين، وما ينجم عن ذلك من تفكك روابط الأسرة وجنوح الصغار ووقوعهم في عالم

(١) منهج التربية الإسلامية، ص ٥٠١ – ٥٣٥.

الجريمة والرذيلة والمخدرات وما أشبه ذلك.. أو في أقل تقدير الاستخفاف بالوالدين، والتحرر من طريقتهم (القديمة) في التربية والأخلاق واللباس.. وما يعززه الفن والإعلام عموماً لهذه الصُّوَر..

أما مشكلة الصراع هذه فهي غريبة ومستوردة من الخارج، وإن أتت ثمارها في مجتمعنا الحالي، لابتعادنا عن منهجنا الإسلامي التربوي الصحيح.

هي غريبة النشأة لأنّها ترجع بأصولها إلى الداروينية التي تنطلق من فكرة أن الحياة البيولوجية للكائنات الحية دائمة التطور والتغير، وأنها لا تعود إلى الوراء ألبتة.. وعلى الرغم من أن العلماء قد أثبتوا خطأ هذه النظرية في عالم الحياة والأحياء. إلا أنّها خرجت من نطاقها المعملي التجريبي، لتطلق فكرة التطور هذه على المجالات الأخرى الاقتصادية والنفسية والاجتماعية، وتهدم الثوابت في حياة البشرية.. فكل شيء دائم التغير ولا يعود للوراء.. في الدين والأخلاق وقواعد الاجتماع.. فأنّى للأجيال المتتابعة أن تلتقي على أمر واحد من أمور الحياة، والزمن المتطور قد فصل بين جيل وجيل إلى غير لقاء! فإذا تواجه جيلان في أي أمر فهي مواجهة الصراع لا مواجهة الاتفاق!

أما في المجتمع الإسلامي السليم فالصّورة ستكون على خلاف ذلك، لأنّ الإسلام يقر بأن للحياة البشرية جانبين أحدهما ثابت والآخر متغير:

أما **الجانب الثابت** فهو قضية الألوهية وما يتفرع عنها ويترتب عليها من مبادئ وقيم؛ فكون الله هو الإله الخالق، قضية أزلية لا تتغير. وما يترتب عليها من أن يعبد الإنسان ربه الذي خلقه ولا يشرك به شيئاً وأن ينقاد لكل أحكامه وتشريعاته.. أمور ثابتة.

وأما **الجانب المتغير**، فهو صورة الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتي تتغير على الدوام بفعل الإنسان في الأرض وتفاعله مع الكون المادي بما ينشئ صوراً متجددة لهذا الجانب، وإن كان محكوماً بأصول ثابتة عامة وضعها الإسلام، أما ضبط التفصيلات فتتغير حسب المصلحة. وهذا الذي أعطى شريعة الإسلام مرونتها وصلاحيتها لجميع الأجيال إلى قيام الساعة.

ولهذا فإن مشكلة الصراع التي يعيشها الغرب، لا يعيشها المجتمع الإسلامي الصحيح.

بل سيكون أمام قضية أخرى هي (**الاختلاف بين الأجيال**).

هذا الاختلاف الذي تنبه إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في وقت مبكر جداً من التاريخ الإسلامي، حين قال: (أحسنوا تربية أولادكم فقد خلقوا لجيل غير جيلكم). وكان يلمح بهذا إلى ما يحدث في حياة البشر من تغير في الجانب الثّاني المتغير. ولهذا أكد على ضبط القيم الثابتة بعبارته (أحسنوا..) حتى لا يجرفهم التغيير فيحيدوا عن سواء السبيل.

ولهذا فعندما تتغير صور الحياة المحكومة بمنهج الله الثابت، يظل البناء الرئيسي للفرد والأسرة والمجتمع والدولة ثابتاً لا يتغير، وهو قيامه على تقوى الله، وتنفيذه لأوامر الله.

فلا مشكلة ـ مثلاً ـ أن يركب المرء الجمل، فالسيارة، ثم الطائرة، وبعد ذلك الصاروخ، فيقول راكب الصاروخ المسلم وهو يصعد إلى الصاروخ ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾[الزخرف: ١٣ – ١٤] فيظل وهو يستخدم الصاروخ شاعراً بفضل الله عليه في وصوله إلى هذه الدرجة من العلم، ويظل موصول القلب بالله شاكراً لأنعمه، عابداً له.

ويستطيع الاقتصاد أن يتطور ويتطور.. ولكن لا يلجئه هذا إلى استخدام الربا لأنّه حرام، أو الاحتكار لأنّه ملعون، ولا السرقة أو الغش أو الترف.. لحرمة ذلك كله.

وتستطيع الفتاة أن تتعلم، وأن تحذق كثيراً من العلوم، وتحصل على الكثير من الدرجات العلمية حتى أعلاها، ولكنّ هذا لا يحتم عليها أن تتبرج، ولا أن تفقد أخلاقها أو ترفض الحياة الأسرية والزوجية السليمة بأحكامها وحدودها[1].

(١) منهج التربية الإسلامية، ص ٥٥٥ – ٥٦٣.

المطلب الرَّابع
مرحلة النضوج

الإنسان الصالح ثمرة المراحل السابقة:

مرحلة النضوج هي المرحلة المثمرة في حياة الفرد والأمة، حيث يحمل الفرد مسؤوليته الفردية والاجتماعية، ثم يقوم بدوره في إنشاء جيل جديد يخلفه في مهمته على الأرض. إنها بالنسبة للإنسان المسلم مسؤولية الخلافة الراشدة، ومهمة عمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني.

في هذه المرحلة وبعد رحلةٍ مع منهج التربية الإسلامية التي اجتهدت في تربية الطفل، فالصبي، فالشاب، نصل إلى المرحلة الأخيرة مع **الإنسان الصالح** الذي يحمل الأمانة التي ناط الله به حملها بعد أن أشفقت من حملها السماوات والأرض[1].

الإنسان الصالح هو الإنسان العابد لله، على المفهوم الشامل للعبادة الذي يشمل الحياة كلها، وهو كذلك الإنسان الذي تتمثل في أخلاقياته لا إله إلا الله.

التربية في مرحلة النضج:

لا تتوقف التربية في مرحلة النضج، فالإنسان بحاجة إلى توجيه مادام على قيد الحياة، ولكنّه توجيه من نوع مختلف، هو التوجيه العام الذي يخاطب البشرية كلها أو يخاطب جماعة المؤمنين بصفة خاصة، والمربي هنا غير المربي الخاص الذي كان يلازم الطفل ثم المراهق.. المربي هنا له صفة القيادة الفكرية أو الروحية أو السياسية أو الاجتماعية أو غيرها من القيادات.

وتوجد هذه القيادة بادئ ذي بدء في شخصية الرسولﷺ، والسيرة النبوية الشريفة،

---

(١) قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ثم في أعلام الصحابة والتابعين، فالعلماء العاملين الذين يربون بعلمهم الناس، ويعطون في سلوكهم الواقعي ترجمة عملية لما يقولونه لطلابهم من أمور هذا الدين، هم الذين يخشون الله حق خشيته[1].

السمات العامة لمرحلة النضج:

إن السمات العامة لهذه الفترة هي الرغبة في حمل المسؤولية، والرغبة في العمل واكتساب الخبرة العملية، ثم النظرة الواقعية للأمور.

أولا: فأما من حيث **الرغبة في حمل المسؤولية**، فإننا نرى في صحابة الرسولﷺ نماذج فريدة نادرة في التاريخ البشري كله، فشباب صغير مما نراه في أيامنا هذه يلهو ويلعب كان في عهد الرسولﷺ يعهد إليه بمهام خطيرة يعجب الإنسان لها!

فهذا أسامة بن زيدرضي الله عنه يعهد إليه رسول اللهﷺ بقيادة جيش من جيوش المسلمين وهو في الثامنة عشرة من عمره، كما كان محمد بن القاسم في التاسعة عشرة حين وصل بفتوحاته في عهد الوليد بن عبد الملك إلى حدود الصين. وكان عبد الرحمن الداخل الملقب بصقر قريش دون الخامسة والعشرين حين أقام دولته في الأندلس..

وليس الأمر أمر قتال فحسب، فلم يكن همّ الرسولﷺ أن يرى جيشاً من المقاتلين الشجعان فقط، وإلا كانت المهمة سهلة؛ وإنما كان همّه بناء تلك النفوس التي صنعت تلك العجائب على الأرض.

علّم تلك النفوس أن الله واحد لا شريك له في الخلق ولا في الرزق ولا في الضر ولا في النفع ولا في التدبير.. ثم علّمها أن مهمة الإنسان محصورة في عبادة الله، وأنها راجعة إلى الله فمحاسبها على الكبيرة والصغيرة، فمالت تلك النفوس إلى الله فخافته وأطاعته ثم خشيته، خضعت إلى مرضاته وتقواه، وترجمت ذلك كله إلى واقع عملي من إقامة الدنيا كلها على شريعة الله من العدل والتكافل والبناء..

ثانياً: وأما من حيث **الرغبة في العمل واكتساب الخبرة العملية:**

فهاتان الرغبتان مترابطتان في نفس الإنسان، وموجودتان منذ الطفولة ولكنّهما

(١) منهج التربية الإسلامية، ص ٥٨٠.

تتمثلان في صورٍ شتى..

ففي الطفولة تتخذان صورة اللعب، وعن طريق اللعب يكتسب الطفل كثيراً من خبراته، وفي المراهقة والشباب الباكر ينصرف معظم العمل إلى التحصيل الدراسي والألعاب المختلفة.

أما في مرحلة النضج فإن العمل يأخذ طابع المسؤولية؛ لأنّ المرء يعمل عملاً يحس أنه مسؤول عنه، وأنه وسيلته إلى الرزق، كما يحس بمسؤولية اجتماعية في تبعات هذا العمل. وكل عمل يحتاج إلى خبرة، بل ينجح بما لدى صاحبه من خبرة ، فالناس تبحث عن العامل الماهر، كما تبحث عن المهندس والطبيب الماهر..

والإسلام حثّ على العمل، ثم حث على إتقانه، ووضع توجيهات تعد دستوراً شاملاً للعمل، كقولهﷺ: (إن الله يحب المؤمن المحترف)[1]. وقوله: (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه)[2] [3].

وحين نتحدث عن العمل فماذا عن عمل المرأة ؟

يمكننا القول إن المرأة تختلف حياتها كثيراً عندما تكون أماً وزوجة في أسرة صغيرة أو كبيرة، أو عندما تكون عازبة فتخف مسؤوليتها عند زواج الإخوة والأخوات أو وفاة الوالدين..

المرأة عليها أن تتزود بالعلم النافع لها ولمجتمعها، ولما يتوائم مع خَلقِها وميولها، وحبذا لو أتقنت بعض الحرف المناسبة لأنوثتها كالخياطة، والتجميل، وما أشبه ذلك.

فإن انشغلت بعد ذلك أو معه بالزواج والإنجاب فالتفرغ لتربية الأوَّلاد هو الأصل، فوجود المرأة في المنزل سكنٌ وسعادة لسكان هذا المنزل.. ولتعمل في هذه الحالة ما يناسب وقتها وحاجتها فحياكة الملابس للأبناء، أو تعليمهم، أو تعليم الأقارب وأبنائهم كافٍ لها، ولن تجد وقتاً لأكثر من ذلك.

---

(١) أخرجه الطبراني، المعجم الأوسط، ٨٩٣٤. والبيهقي، شعب الإيمان، ١٢٣٧ وقال: تفرّد به أبو الربيع عن عاصم وليسا بالقويّين.

(٢) أخرجه الطبراني، المعجم الأوسط، ٨٩١. والبيهقي، شعب الإيمان، ٥٣١٥.

(٣) منهج التربية الإسلامية، ص ٥٧٣ – ٥٨٤.

أما إن وجدت وقتاً وفراغاً لعدم زواجها، أو موت والديها، ثم انشغل الإخوة عنها بحياتهم الخاصة فلتتخذ عملاً أوسع يشغلها وتخدم مجتمعها به.

ولا ينبغي أن ينحصر تفكيرنا في العمل في إحدى دوائر الدولة من تدريس أو غيره مما يفرض خروجاً يومياً من المنزل وفي ساعات الصباح الأولى عادة، فالمرأة يمكنها أن تعمل بغير هذه الظروف، بما يناسبها أكثر.

ثالثاً: النظرة الواقعية للأمور:

في فترة الشباب الباكر ذكرنا أنَّ الشاب يفكر في حلول عملية لمشكلات الكون من حوله، ولكنّ هذه الحلول العملية هي في الحقيقة غير عملية على الإطلاق، بل غالباً ما تكون مثالية أو خيالية، أما مع هذه المرحلة فقد أخذت الأدوات تكتمل عند الناضج، وأصبح للواقعية رصيد حقيقي عنده، فمع تحمل المسؤولية وتبعاتها، تجيء النظرة الواقعية لتؤدي دورها في حياة الإنسان.

والإسلام قد جهز المسلم لهذه الواقعية عبر منهج متكامل ومتدرج، فمن ذلك:

- ما رسخه من النظر العقلي للأمور ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[الإسراء: ٣٦].
- ثم التجرد عن الهوى ﴿ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ﴾[النساء: ١٣٥].
- وعدم اِتباع الظن ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾[النجم: ٢٣].
- وأن يكون لكل علم غاية مقصودة وواضحة، نافعة للحياة والمجتمع، ولكنَّها تندرج تحت المفهوم الشامل ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات: ٥٦].

ولكن ينبغي التحذير هنا أن الواقعية التي يبتغيها الإسلام:

- ليست هي الانصراف عن المثالية، ثم معاملة الإنسان على مستواه الأدنى، قريباً من غرائزه ودوافعه الدنيا.
- وليست الواقعية هي البحث عن المنفعة من أيّة سبيل تجيء، وإقصاء الأخلاق..
- وليست هي الانكباب على الحياة الدنيا، والانصراف عن الآخرة بوصفها غيبيات..
- وليست هي في حصر الأمور كلها في السبب الظاهر والنتيجة الحتمية، ونفي قدر الله

المهيمن في الأرض.

- وليست هي في نبذ العواطف الإنسانية بدعوى أنها مضيعة للوقت والجهد دون مقابل مادي. **بل واقعية الإسلام هي:** (الواقعية المثالية) التي تضع المثال على أنه قابل للتطبيق، وتحاول الوصول إلى درجة المثال لكن من دون عنت أو إهلاك للنفس.

هذه الواقعية هي التي تقول للمؤمنين: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾[البقرة: ٢١٦]، فتقر الواقع على صورته الدنيا، ثم تعمل على رفعه فتقول: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾[البقرة: ٢١٦] حتى تصل إلى النماذج العالية من المقاتلين ﴿ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾[النساء: ٧٤].

- وواقعية الإسلام هي التي تبحث عن المنفعة والمصلحة المسيّجة بسياج عال من الأخلاق، كالوفاء والأمانة وتحريم الغش والتدليس وغير ذلك. فعند خوف خيانة الأعداء مثلاً لا يجوز نقض الميثاق غدراً، لحرمة الميثاق المبرم، يقول تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾[الأنفال: ٥٨]
- وواقعية الإسلام تقرن بين صلاح الدنيا وصلاح الآخرة، ولا تعارض بينهما، بل إن الإيمان بالغيبيات وتصور المسلم تصوراً كاملاً للبعث والنشور والحساب والجزاء، دافع له لإصلاح الحياة الدنيا على المنهج الذي رسمه الإسلام ودعا إليه، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾[يوسف: ١٠٨].
- وواقعية الإسلام في أنه لا يتعارض في حس المسلم إيمانه بارتباط السبب والنتيجة بحسب السنة الربانية الجارية، ولكنّه يؤمن بأن الله قادر على تغيير نظام الكون كله متى شاء. وبهذا الشكل من الإيمان لا تلغى فاعلية الإنسان؛ لأنه يعدُّ العدَّة ويتخذ الأسباب ويعمل على أساس أن السنة الجارية هي الأقرب احتمالاً، ولكنَّه في نفس الوقت لا يلغي طلاقة المشيئة الربانية التي قد تغير وتبدل كما تشاء. فالحتمية ليس لها وجود في الإسلام، بل الأمل الدائم بما عند الله تعالى.
- وواقعية الإسلام لا تجفف العواطف الإنسانية، ولا تنزع روح المحبة والود بين الناس بل

تجعل ذلك متمماً للإيمان، وقريناً للإيمان، يقول تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴾[النساء: ٣٦]، ويقول الرسولﷺ: (ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم) أخرجه مسلم[1] [2].

على هذا النحو الشامل المحكم يربي الإسلام الإنسان في مرحلة النضج ويضع أمامه مسؤولياته، ويعمق في حسه التوجه إلى الله تعالى، ويحثه على العمل المنتج واكتساب الخبرة، ويربي فيه النظرة الواقعية للأمور بالتفصيل السابق.

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون...، رقم ٥٤.

(٢) منهج التربية الإسلامية، ص ٥٨٨ – ٦٠٦.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الفَصْل الثَّالث
الأساليب التّربويّة في الإسلام

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

تمهيد

مفهوم الأسلوب لغةً واصطلاحاً:

أولاً: في اللّغة: الأسلوب بضمّ الهمزة؛ هو الطّريق، والفَنُّ، وهو على أُسلوبٍ من أساليب القوم: أي على طريقٍ من طرقهم[1].

ويقال: سلكت أُسلوب فلانٍ في كذا: طريقتَهُ ومذهبَهُ، والأُسلوب: طريقة الكاتب في كتابته؛ يقال: أخذنا في أساليب من القول: أي في فنونٍ متنوّعةٍ منه. والجمعُ أساليب[2].

ثانياً: في الاصطلاح: أمّا عند علماء اللّغة والأدب فالأُسلوب: هو الطّريقة الكلاميّة التي يسلكها المتكلّم في تأليف كلامه، واختيار ألفاظه، أو هو المذهب الكلاميّ الذي انفرد به المتكلّم في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه، أو هو طابع الكلام أو فنّه الذي انفرد به المتكلّم كذلك[3]. ويلاحظ هنا ارتباط الأُسلوب باللّغةِ والألفاظ وطريقة التّعبير والإنشاء، وتتعدّد الأساليب بتعدّد الأشخاص، وهو معناه الشّائع على الألسنة.

وأما عند علماء التّربية فالأُسلوب: هو الإجراء المحدّد لنقل المعلومات أو المعارف أو المهارات أو الاتّجاهات والقيم، بهدف تحقيق هدفٍ تربويٍّ مرغوبٍ فيه[4]. ويلاحظ هنا أنّ الإجراء قد يكون قولاً ولفظاً، أو فعلاً عمليّاً وسلوكيّاً، أو منهما معاً، ومن ثَمَّ فالأساليب التّربوية متعدّدة ومتنوّعة، وهي مستمدةٌ- كما سيأتي ذكره – من النّصوص والتّوجيهات القرآنيّة والنّبويّة، وذلك في حالة التّربية الإسلامية. وبهذا يكون معنى الأُسلوب هنا أعمَّ وأشملَ من المعنى الشّائع السّابق.

وذلك لأنّ التّربية الإسلامية تعرّف بأنّها: «مجموعة الأصول الخاصّة ببناء الإنسان المسلم والواردة في القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة الصّحيحة، والآراء والتّطبيقات التّربويّة التي

---

(١) المصباح المنير للفيومي١/٢٢٤.

(٢) المعجم الوسيط١/٤٤٠.

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن لعبد العظيم الزرقاني٢/ ٣٠٣.

(٤) القيم الإسلامية والتربية لعلي مصطفى أبو العينين١٣٠.

ترعاها الجهود الفرديّة والجماعيّة في أيِّ مكانٍ أو زمانٍ؛ بهدف بناء الشّخصيّة الإسلاميّة المتكاملة التي تعمل لخير دنياها وآخرتها»[1].

وممّا سبق يبدو لنا جلياً أنّنا ننطلق في حديثنا عن الأساليب التّربويّة الإسلاميّة من أساسٍ واضحٍ ومحدَّدٍ للتّربية، وهو مفهومها العامُّ الشّامل؛ الذي يغطي المجتمع المسلم، ولا يرتبط بزمانٍ أو مكانٍ معيّنٍ، ولا بمنهاجٍ دراسيٍّ.

هذه التّربية يمكننا أن نتلمّس أساليبها المختلفة، من خلال النّصوص والتّوجيهات القرآنيّة والنّبويّة، التي استطاع النّبيﷺ من خلالها أن يُكوّنَ مجتمعاً متماسكاً مترابطاً، يتّصف أفراده بالالتزام بالحقّ والخير، ونَبْذِ البَاطلِ والشّر، وتسود فيه الأخلاق والقيم الفاضلة. وهذا يرشدنا إلى أهمّيّة هذه الأساليب في العمل التّربويّ.

وسندرس-إن شاء الله- الأساليب التّربوية التالية في ستة مباحث:

المبحثُ الأوَّلُ: التربية بالتطبيق العملي: ويشتمل على أساليب: القدوة الحسنة- المعايشة والمصاحبة- الممارسة والعمل

المبحث الثّاني: التربية بأسلوب الحوار: وفيه: الحوار في القرآن الكريم- الحوار النبويّ

المبحث الثّالث: التوجيه بواسطة النماذج: ويحتوي على: الأمثال- الأحداث والمواقف

المبحث الرّابع: التربية بالعظة والعبرة: وفيه: الموعظة والإرشاد- القصة- التوجيه غير المباشر (التّعريض).

المبحث الخامس: التربية بأسلوب التحفيز[2]: يشمل: المزاح والمرح- التدريج والرفق- التعويد على تحمل المسؤولية- التشجيع وإثارة الحماس

المبحث السّادس: التربية بأسلوب التعزيز: يشتمل على: المدح والثّناء- الترغيب والترهيب والعقوبة.

لا يمكن للمربّي أن ينجح بعمله التّربوي النّجاح الأمثل ما لم يجعل من هذه

---

(١) معجم المصطلحات التربوية والنفسية، إعداد حسن شحاته وزينب النجار، مراجعة حامد عمار، ص ٩٧.

(٢) حَفَزَه: دفعه من خلفه بالسَّوق أو غيره. يقال: حَفَزَتِ القوسُ السَّهمَ، والليلُ يحفز النهار. يقال: حَفَزَه إلى الأمر: حثّه عليه. المعجم الوسيط (حفز) ص ١٨٤.

الأساليب التّربويّة نبراساً له يهديه السّبيل ويوضّح له معالم الطّريق. ومن ثَمَّ فلو وُجِدَ المربّي الكفءُ، وكانت المنهجية سليمةً في أصولها وقواعدها؛ إلا أنّ المربّي لم يوفّق للأسلوب الأمثل، فإنّه لن يحقق النّجاح المرغوب به، ولكان ثَمَّ قصورٌ في أدائه لمهمّته التّربويّة، وربّما كان منفّراً للمتربّين على الرّغم من صحّة منهجه إجمالاً.

فما أحرانا أن نتعرّف الأساليبَ التّربويّة الإسلاميّة، كي ننهل منها في مسيرتنا وعملنا التّربويّ النّافع إن شاء الله تعالى.

ولا بدّ لي من الإشارة هنا إلى أنّه في كثيرٍ من الشّواهد- ولا سيما النّبوية منها- كنت أذكر جملة من الفوائد التربويّةٍ الّتي يمكن استنباطها من الشّاهد بغض النّظر عن الهدف أو المقصد الأساسيّ من ذكره، وذلك تتميماً للمنفعة، واستكمالاً للفوائد التّربويّة المستنبطة منه؛ إذ تحصيل الغرض التّربويّ هو الهدف وعليه التّعويل في هذا العمل العلميّ، فبأيّة مناسبةٍ حصلنا عليه اقتنصناه، وصوّبنا النّظر إليه.

المبحثُ الأوَّلُ
التَّربيَةُ بالتَّطبِيْقِ العَمَلِيّ

المطلبُ الأوَّل
التَّربِيَةُ بالقدوة الحَسَنةِ

١- الحاجة إلى القدوة: «مهما يكن من أمر إيجاد منهجٍ تربويٍّ متكاملٍ، ورسم خطةٍ محكمةٍ لنمو الإنسان وتنظيم مواهبه وحياته النّفسيّة الانفعالية والوجدانيّة والسّلوكيّة واستنفاد طاقاته على أكمل وجه.

مهما يكن من ذلك كلّه، فإنّه لا يغني عن وجود واقعٍ تربويٍّ يمثّلهُ إنسانٌ مُرَبٍّ يحقّقُ بسلوكه وأسلوبه التّربويّ كلّ الأسس والأساليب والأهداف التي يراد إقامة المنهج التّربويّ عليها.

لذلك بعث الله محمداً ﷺ عبده ورسوله، ليكون قدوةً للنّاس يحقّق المنهج التّربويّ الإسلاميّ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ولقد سئلت أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، عن خلق رسول الله فقالت: (كان خلقه القرآن)»[1]. ومقتضى هذا التّوجيه الإلهيّ السّابق أن يكون المسلم المربّي موافقاً في أقواله وأفعاله وسلوكه وأخلاقه لهديه وسمتهﷺ حذوَ القُذَّة بالقُذَّة.

ولسنا بحاجة إلى تأكيد أهمّيّة القدوة في التّربية، إذ كلُّ أمرٍ افتقدت القدوة المثلى فيه

---

(١) مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب: جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض(٧٤٦).أصول التربية الإسلامية وأساليبها لعبد الرحمن النحلاوي ص ٢٠٥.

انبعثَت الشّكوك في صلاحيّته وأهميّته ومدى الحاجة إليه. وعلى العكس من ذلك كلُّ أمرٍ تجسّدت القدوة الحسنة فيه في الواقع اشرأبت النفوس إليه وتسامت نحو تقليده ومحاكاته، وتطلّعت إلى تحصيل آثاره الطّيبة في الحياة، وتأكّدت الحاجة إليه. فشتّان ما بين النّظريّ والعمليّ، وما بين المقال والحال في التّأثير والحمل على التزام القيم والعواطف والاتجاهات النّبيلة.

٢- أهمّ الجوانب التي نحتاج فيها إلى القدوة: لعلَّ أبرزَ ما تتجلّى فيه الحاجة إلى القدوة هو «في المواقف التي تحتاج إلى التّضحية، كالحروب والإنفاق ونحو ذلك، وكان رسول اللهﷺ في الغزوات يتقدّم الصّحابة أو يوجّههم من مركز القيادة، وكان في غزوة الخندق يربط الحجر على بطنه ويحفر الخندق مع الصّحابة، ويرتجز مثل ما يرتجزون، فكان مثالاً للمربّي القدوة يتبعه الناس ويعجبون بشجاعته وصبره.

وكان قدوةً في حياته الزّوجية والصّبر على أهله وحسن توجيههنّ فقال: (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي)[١].

وكان قدوةً في حياته الأبوية وفي حسن معاملته للصّغار ولأصحابه ولجيرانه، وكان يسعى في قضاء حوائج المسلمين، وكان أوفى النّاس بوعده، وأشدّهم ائتماناً على الودائع، وأكثرهم ورعاً وحذراً من أكلِ مال الصّدقة، أو الاقتراب ممّا استرعاه الله من أموال المسلمين.

وكان أفضل داعيةٍ إلى الله يصبر على الشّدائد النّاجمة عن كيد أعداء الله وأعداء الفضيلة وتواطئهم، وكان حازماً لا يفقد حزمه في أشدِّ المواقف هولاً وهلعاً وجزعاً؛ لأنّ ملجأه إلى الله يستلهم منه القوة والصّبر؛ وموقفه من ثقيف في الطّائف عندما ذهب لدعوتهم خير دليلٍ على ذلك»[٢].

٣- الأُسس النّفسيّة لاتّخاذ القدوة (التّقليد): لا بدّ للطّفل الصّغير من قدوةٍ في

---

(١) الترمذي في المناقب باب: فضل أواج النبيﷺ(٣٨٩٥) من حديث عائشة رضي الله عنها، وقال: حسن غريب صحيح.

(٢) أصول التربية الإسلامية وأساليبها لعبد الرحمن النحلاوي ص ٢٠٦. وكان قول النبيﷺ معهم أثناء الحفر: اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة، ليس من كلامه بل من رجز ابن رواحةﷺ، ومع ندرته وقلته لا يعني أنهﷺ قال الشعر.

أسرته ووالديه، لكي يتشرّب منذ نعومة أظافره المبادئ والقيم الإسلاميّة، وينهج على طريقها القويم. وهل يتأتّى للطّفل أن يتعلّم فضيلة الصّدق إذا كان أبوه أو أمّه ممّن يكذب؟!

وكذلك التّلميذ في المدرسة لا بدّ له من قدوةٍ حسنةٍ في معلّمه ومدرِّسه، ولا يختلف الحال بالنسبة للطّالب في جامعته مع أستاذه ومربّيه.

إنّ تأثير القدوة قد يكون مقصوداً كما في قولهﷺ: (صلّوا كما رأيتموني أصلّي)[1].

وقد يكون عفوياً غير مقصود، ويعتمد هنا على مدى اتّصاف القدوة بصفاتٍ تدفع الآخرين إلى تقليده كتفوّقه بالعلم، أو الرئاسة، أو الإخلاص...إلخ[2].

ويرتكز التّقليد على ثلاثة عناصر:

أولها: الرّغبة في المحاكاة والاقتداء: فالطّفل أو الفتى مدفوعٌ برغبةٍ خفيّةٍ لا يشعر بها، نحو محاكاة من يُعجب به في لهجة الحديث، وأسلوب الحركة والمعاملة والكتابة، ومعظم عادات السّلوك؛ من دون أن يقصد، وهذا التّقليد غير المقصود لا يقتصر على حسنات السّلوك، بل قد يتعدّاها إلى غيرها.. لذلك نبّهﷺ البشرية عموماً إلى ما يتحمَّله كلٌّ من يؤثّر في سلوك الآخرين، من النّتائج حين يقلّدونهُ بخيرٍ أو شرٍ بقوله: (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من يتّبعُه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالةٍ كان عليه من الإثم مثل آثام من يتّبعُه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً)[3].

الثّاني: الاستعداد للتّقليد: فلكلّ مرحلةٍ من العمر استعداداتٌ وطاقاتٌ محدودةٌ لذلك لم يأمر الإسلام الأطفال بالصّلاة قبل سبع سنين، ولا يمنع ذلك من ترك الطّفل ليقلّد أبويه بحركات الصّلاة قبل أن يبلغ سبع سنين، ولكن لا يؤمر بكلّ أذكارها.

ومن الأسباب التي تهبُ النّاس عموماً استعداداً للتّقليد: الشّعور بالضّعف أمام القوة، فالمغلوب يقلّدُ غالبَهُ بعد أن يستكين ويخضع لحكمه، والمرؤوس يقلّد رئيسه، والطّفل يقلّد أباه... وقد نبّه ابن خلدون إلى هذا المبدأ في مقدّمته، وذكر أدلةً ووقائع تاريخيةً على

---

(١) البخاري في الأذان، باب: الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة، والإقامة (٦٠٥) من حديث مالك بن الحويرثﷺ.

(٢) انظر: أصول التربية الإسلامية وأساليبها لعبد الرحمن النحلاوي ص ٢١٠.

(٣) الترمذي في العلم، باب: ماجاء فيمن دعا إلى هدى فاتُّبع أو إلى ضلالة (٢٦٧٤) وقال: حديث حسن صحيح. من حديث أبي هريرةﷺ.

ذلك، بيد أنّ الرّسولﷺ حذّرنا من مغبّة هذا التّقليد إذا كان بغير هدفٍ، وكأنّه انكشفت له حجب الغيب فتوقّع الضّعف الذي سينزل بهذه الأمّة فقال: (لتتّبعنّ سنن من كان قبلكم شبراً بشبرٍ وذراعاً بذراعٍ...)[1].

الثّالث: الهدف: لكلّ تقليدٍ هدفٌ قد يكون معروفاً لدى المقلِّد وقد لا يكون، والهدف الحيويُّ (الغامضُ)[2] الأوّل من غريزة التّقليد والانقياد لدى الأطفال والجماعات هو غرضٌ دفاعيٌّ، إنّه الدّفاع عن الكيان الفرديّ، وكأنّه انضواءٌ في ظلّ الشّخص القويّ المرموق، يقلّده شخصٌ أضعفَ منه، لعلّه يستمدُّ من هذا التّقليد قوةً وبأساً، من جنس قوة الشّخص الذي حاز إعجابه فراح يحاكيه في كلّ شيءٍ.

فإذا ارتقى الوعي عند المقلّد عرفَ الهدفَ من التّقليد، فأصبح هذا التّقليد عمليةً فكريةً، يمزج فيها بين الوعي والانتماء والمحاكاة والاعتزاز، ويصبح لهذا التّقليد الواعي في التّربية الإسلامية اسمٌ آخر هو **الاتّباعُ**، وأرقى أنواعه ما كان على بصيرةٍ أي معرفةٍ بالغاية والأسلوب. وفي هذا المعنى يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٨][3].

٤- فضل القدوة الأوّل وشرفه: لعلّ أفضل ما يُظهر فضل القدوة المتّبع وشرفه ما روي عن جرير بن عبد الله البجليرضي الله عنه قال: كنّا عند رسول اللهﷺ في صدر النّهار، فجاءَهُ قومٌ حفاةٌ عراةٌ، مُجتابي النِّمارِ، أو العباء، متقلّدي السّيوف، عامّتُهم من مضرٍ، بل كلُّهم من مضر، فتمعّر وجهُ رسول اللهﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذّن وأقام، فصلّى، ثم خطب، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء: ١]. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحشر: ١٨] (تصدّق رجلٌ من دينارِه، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُرِّه، من صاع

(١) البخاري في الأنبياء، باب: ما ذُكر عن بني إسرائيل (٣٢٦٩) من حديث أبي سعيد الخدريرضي الله عنه.

(٢) أي الذي قد لا يشعر به الطفل أو الحيوان.

(٣) أصول التربية الإسلامية وأساليبها لعبد الرحمن النحلاوي ص ٢٠٨-٢٠٩ ملخصاً وبتصرف يسير.

تمره،- حتّى قال- ولو بشقّ تمرة). قال: فجاء رجلٌ من الأنصار بصرّةٍ كادت كفّه تعجز عنها، بل قد عجزت، قال: ثمّ تتابع النّاس، حتى رأيت كومين من طعامٍ وثيابٍ، حتّى رأيت وجه رسول اللهﷺ يتهلّل كأنّه مُذْهَبَةٌ، فقال رسول اللهﷺ: (من سنّ في الإسلام سنةً حسنةً فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيءٌ)[1].

ويؤخذ من الحديث الفوائد التّربوية الآتية[2]:

١) إنسانيّة الرّسول الإنسانِ الكاملِ انفعلت لمشهد فاقة القوم انفعالاً بالغاً ظهر في:

أ- تمعّر الوجه.

ب- دخوله إلى حجرته لعلّه يجد فيها ما يواسيهم به.

ج- خطبته في أصحابه، ودعوته لمواساة المضريّين.

٢) تلطّفه بدعوة المسلمين إلى الصّدقة، وذلك باستخدام أسلوب الخبر لا الأمر؛ ليكون الرّفق بالطّلب والتّعريض به أدعى إلى صدق البذل. وعلى سبيل التّنكير والإبهام لا الخطاب واليقين؛ ليكون وقع الطّلب على نفوسهم هيّناً، وأيضاً على مقدار الاستطاعة حتّى لا يعتذر منهم معتذر.

٣) ذكره فضل أوّل القوم مبادرةً إلى تقديم صدقته، وتنويهه بشأن القدوة بقوله: (من سنّ في الإسلام سنةً حسنةً...).

---

(١) مسلم في الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو بكلمة طيبة وأنها حجاب من النار (١٠١٧). النمار بكسر النون جمع نمرة – بفتحها – وهي ثياب صوفٍ فيها تنمير. والعباء – بالمد وفتح العين – جمع عباءة وعباية، لغتان. وقوله: مجتابي النمار أو العباء: أنهم خرقوها وقوروا أوساطها. فتمعّر: أي تغيّر.

(٢) انظر: أساليب الرسول في الدعوة والتربية ليوسف خاطر حسن الصوري ص٢٤-٢٥.

المطلبُ الثَّاني
التَّربِيَةُ بالمعَايشةِ والمصَاحَبَةِ

إنّ أسلوب التّربية بالمعايشة من أنجع الأساليب التّربويّة. فهو يسهم في معرفة جوانب النّقص لدى المتربّي والصّاحب، ومن ثمّة التّعامل معها ومعالجتها، كما يوفر الفرصة الجيدة للتّأثير والتّوجيه المستمر والقدوة الإيجابيّة المباشرة.

ولكي يؤتي ثماره لا بدّ من المحافظة على حدٍّ أدنى من الاحترام وعدم رفع الكلفة بين الطّرفين: المربّي والمتربّي، وإلّا ذهبت جهود المربّي عبثاً.

والأصل في هذا الأسلوب التّربويّ: ما ورد في القرآن الكريم، كما في هذه الآيات:

* ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨ ﴾ [الكهف: ٢٨].

* ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ١١ ﴾ [عبس: ١- ١١]

* ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩ ﴾ [التوبة: ١١٩].

ونحو ذلك ما نأخذه من السّيرة النّبويّة، فلقد كان ﷺ معايشاً لأصحابه ومصاحباً لهم، ورفيقاً لهم في كلّ أحوالهم، ويهنؤهم في أفراحهم، ويساعد فقيرهم، ويعود مريضهم، يأكل ويشرب ويمزح معهم.. وهو في كلّ حالٍ ناصحٌ أمينٌ، ومربٍّ وموجّه لهم.

ولهذا دعاهم إلى المخالطة وعدم العزلة، وحثّ على تحمّل تبعاتها وما قد يكون من جرائها من الإيذاء، فقال: (المسلم إذا كان مخالطاً النّاسَ ويصبر على أذاهم خيرٌ من المسلم

الذي لا يخالط النّاس ولا يصبر على أذاهم)[1].

وكذلك رغّب في مصاحبة الصّالحين ودعا إلى مجالستهم، وحذّر من أصحاب السّوء وأمر بنبذهم والابتعاد عنهم؛ لما في الصّحبة من تأثيرٍ متبادلٍ بين المتصاحبين، وكما قيل: الصّاحب ساحب. فعن أبي موسى الأشعري ﷺ، عن النّبيّ ﷺ قال: (مثل الجليس الصّالح والسَّوْء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحاملُ المسك: إما أن يُحْذِيَكَ، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبةً. ونافخ الكير: إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحاً خبيثةً)[2].

وتعدُّ الرّحلات والمخيمات في عصرنا الحديث أبرز مظهرٍ تطبيقيٍّ لهذا الأسلوب التّربويّ، ولذا يجب على المربّين الاعتناء بها، وتنبع أهمّيّتها من أنّ فيها خروجاً عن المعتاد المألوف، وتتوافر الرّغبة بها لدى المشاركين فيها، مع ما يصحب ذلك من جوٍّ مليءٍ بالمحبّة والود.

(١) الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع، باب(٥٥) (٢٥٠٧) وابن ماجه في الفتن، باب: الصبر على البلاء (٤٠٣٢) عن شيخ من أصحاب النبيﷺ عن النبيﷺ.قال الترمذي: «قال ابن عدي: كان شعبة يرى أنه ابن عمر ».

(٢) البخاري في الذبائح والصيد، باب: المسك (٥٢١٤) ومسلم في البر والصلة والآداب، باب: استحباب مجالسة الصالحين (٢٦٢٨).

المطلبُ الثَّالث
التَّربِيَةُ بالمَمَارسةِ والعَمَلِ

١- أهمية التّربية بالعمل والممارسة:

من المعلوم أنّ التّربية والتّعليم بالأسلوب العمليّ أوقع في النّفس، وأثبت في القلب والذّاكرة ولهذا دعا النبيﷺ المسلمين- كما مر- إلى أن يصلّوا كصلاته، وقال لهم أيضاً (خذوا عنّي مناسككم)[١]. أي في الحجّ.

وأدّى ﷺ الصّلاة على المنبر كي يرى أصحابه الكيفيّة التي تؤدّى بها، فكان فعلُه هذا أبلغَ من أيِّ مقالٍ، وقد صرّح ﷺ بمقصده من هذا البيان الفعليّ وهو الاقتداء به. يقول سهل بن سعد السّاعدي رضي الله عنه: ولقد رأيت رسول اللهﷺ قام عليه فكبّر وكبّر النّاس وراءه، وهو على المنبر، ثم رفع فنزل القهقرى حتى سجد في أصل المنبر، ثم عاد حتى فرغ من آخر صلاته، ثم أقبل على النّاس فقال: (يا أيها النّاس، إنّي صنعت هذا لتأتّموا بي، ولتعلّموا صلاتي)[٢]. قال الحافظ ابن حجر: «وفيه جواز قصد تعليم المأمومين أفعال الصّلاة بالفعل، وجواز العمل اليسير في الصّلاة، وكذا الكثير إن تفرّق.. واستحباب اتخاذ المنبر لكونه أبلغ في مشاهَدة الخطيب والسّماع منه»[٣].

ولما أخطأ المسيء في صلاته، قام ﷺ بإرشاده وتوجيهه عبر وصفه القوليّ للصّورة المثلى التي ينبغي أن تؤدّى بها الصّلاة. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول اللهﷺ دخل المسجد، فدخل رجلٌ فصلّى، ثم جاء فسلّم على رسول اللهﷺ فردَّ رسول اللهﷺ السّلام، قال:

---

(١) جزء من حديث جابر رضي الله عنه. أخرجه بهذا اللفظ البيهقي في السنن الكبرى ١٢٥/٥، وبعده قوله: (لعلي لا أراكم بعد عامي هذا) وبلفظ: (لتاخذوا مناسككم، فإني لا أدري لعلّي لا أحجّ بعد حجتي هذه) مسلم في الحج، باب: استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً (١٢٩٧).

(٢) البخاري في الجمعة، باب: الخطبة على المنبر (٨٧٥) ومسلم واللفظ له في المساجد ومواضع الصلاة، باب: جواز الخطوة والخطوتين في الصلاة (٥٤٤).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٥١٤/٢.

(ارجع فصلّ، فإنّك لم تصلّ). فرجع الرّجل فصلّى كما كان صلّى، ثمّ جاء إلى النّبيﷺ فسلّم عليه، فقال رسول اللهﷺ: (وعليك السّلام) ثمّ قال :(ارجع فصلّ، فإنك لم تصلّ) حتى فعل ذلك ثلاث مرّاتٍ. فقال الرّجل: والذي بعثك بالحقّ ما أُحْسِنُ غيرَ هذا، عَلِّمْني. قال: (إذا قمت إلى الصّلاة فكبّر، ثم اقرأ ما تيسّر معك من القرآن، ثم اركع حتّى تطمئنّ راكعاً، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً، ثم اسجد حتى تطمئنّ ساجداً، ثمّ ارفع حتى تطمئنّ جالساً، ثمّ افعل ذلك في صلاتك كلّها)[1]. ثمّ قال له رسول اللهﷺ: (فإذا فعلت هذا فقد تمّت صلاتك، وما انتقصت من هذا شيئاً فإنّما انتقصتَهُ من صلاتك) وهذه الزيادة لأبي داود[2]. «ومن البدهي أنّ الصّحابي عاد فصلّى كما علّمه رسول اللهﷺ بقرينة تكرار صلاته قبل ذلك، وتلهّفه على التعلّم، ولكنّ رواة الحديث اكتفوا بإرضاء رغبتهم في وصفِ رسول اللهﷺ للصّلاة كما يجب أن تصلّى.

ويؤخذ من هذا الحديث من النّاحية التّربوية نتائج أهمّها:

أ- تشويق الرّسولﷺ لهذا المتعلّم.

ب- تركه ليحاول أن يصحح خطأه بنفسه أو أن يعجز فيسأل، وهذا أصلٌ انبثق عنه أسلوب (التعلُّم بالمحاولة والخطأ) كما يسمّونه في التّربية الحديثة.

ت- أنّ الرّسول لم يبيّن له الصّلاة حتّى سأل عنها بنفسه فكان هذا الأسلوب أوقعَ في نفس المتعلّم وأدعى إلى قبوله وانطباع أعمال الصّلاة في ذاكرته»[3].

كما علّم النّبيﷺ بعض أصحابه الوضوء بالفعل والممارسة، فعن عثمان بن عفانرضي الله عنه: أنّه دعا بماءٍ فتوضأ ومَضْمَضَ واستَنْشَقَ، ثمّ غسل وجهه ثلاثاً، وذراعيه ثلاثاً ثلاثاً، ومسح برأسه، وظهر قدميه، ثمّ ضحك، فقال لأصحابه: ألا تسألوني عمّا أضحكني؟ فقالوا: ممَّ ضحكت يا أمير المؤمنين؟ فقال: رأيت رسول اللهﷺ دعا بماءٍ قريباً من هذه البقعة، فتوضأ كما توضأتُ، ثم ضحك، فقال: (ألا تسألوني ما أضحكني؟)

---

(١) مسلم في الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وأنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر من غيرها (٣٩٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أبو داود في الصلاة، باب: صلاة من لا يقيم صلبه في الركوع والسجود (٨٥٦).

(٣) أصول التربية الإسلامية وأساليبها لعبد الرحمن النحلاوي ص ٢١٣-٢١٤.

فقالوا: ما أضحكك يا رسول الله؟ فقال: (إنّ العبد إذا دعا بوَضُوءٍ فغسل وجهه، حطَّ الله عنه كلّ خطيئة أصابها بوجهه، فإذا غسل ذراعيه كان كذلك، وإن مسح برأسه كان كذلك، وإذا طهّر قدميه كان كذلك)[1]. «وفي هذا الحديث قول عثمان ﷺ: (رأيت رسول اللهﷺ دعا بماءٍ.. فتوضأ كما توضأت) وهذا هو التّعليم بالمتابعة والعمل والممارسة والاقتداء العمليّ. وفيه أيضاً تمثيلٌ عمليٌّ للناحية العاطفيّة: أي تمثيل أقوال الرسول وانفعالاته كالضّحك، وقد يتابع الصّحابيَّ على ذلك سائرُ الرواةِ، فيضحك كلُّ راوٍ ليقول لتلاميذه الرّواة: (ألا تسألوني ما أضحكني؟) ويتوضأ أمامهم ليقول لهم: رأيت فلاناً توضأ وقد رأى فلاناً توضأ.. كما توضأ رسول الله. وهذا النّقل لحركات الرّسول راوياً عن راوٍ قد جمعت فيه أحاديث سمِّيت بالأحاديث المسلسلة[2].

فهذا أسلوب من أساليب التّربية الإسلاميّة، ترك أثره واضحاً عند بعض علماء الحديث، فلم يكتفوا بحكاية أقوال الرّسولﷺ بل قلّدوا لنا أعماله وحركاته»[3].

ومن الشّواهد على التّربية بالعمل والممارسة أيضاً أنّ النّبيّ ﷺ علّم أحد الصحابة دعاءً يقوله قبل النوم، ويردِّدُ هذا الصّحابي الدّعاء أمامه بقصد التّسميع والتّصحيح له، فعن البراء بن عازبﷺ قال: قال النّبيﷺ: (إذا أتيت مضجعك، فتوضأ وضوءك للصّلاة، ثمّ اضطجع على شقّك الأيمن، ثم قل: اللّهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلّا إليك، اللّهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيّك الذي أرسلت. فإن مُتَّ من ليلتك، فأنت على الفطرة، واجعلهنّ آخر ما تتكلّم به). قال: فردَّدتها على النّبيﷺ فلما بلغت: اللّهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، قلت: ورسولِكَ، قال: (لا، ونبيِّك الذي أرسلت)[4].

---

(١) مسند أحمد ٥٨/١.

(٢) منها للشيخ عبد الحي الكتاني ولغيره.

(٣) أصول التربية الإسلامية وأساليبها لعبد الرحمن النحلاوي ص ٢١٤.

(٤) البخاري في الوضوء، باب: فضل من بات على الوضوء (٢٤٤) ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة، باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٢٧١٠). قوله: «لا، ونبيك الذي أرسلت» فيه إشارة إلى التزام الألفاظ الواردة في الأدعية والأذكار.

٢- الأثر التّربوي للتّربية بالعمل والممارسة:

أ- الإتقان العمليُّ خير مقياسٍ لنجاح التّربية والتّعليم، سواءٌ في ذلك أداء الصّلاة أو الوضوء أو حفظ الأدعية والأذكار، وما شابه ذلك من السّلوك الفعليّ أو القولي.

ب- شعور الإنسان المتربّي بالمسؤولية عن صحّة عمله، وثقته بنفسه في الأداء والنّجاح.

ج- مظهرٌ لحبِّ المتربّي للعمل، ودالٌ على استبعاده للكسل والتّواكل.

د- مولّدُ للقناعة الذّاتية التّامة لدى المتربّي بضرورة الكسب بحيث لا يعدلها أيُّ نصح له به، باللّفظ أو القول، مهما كان فصيحاً وبليغاً، وذلك لأنّ آثاره الطّيبة محسوسةٌ وماثلةٌ أمام عينيه، فضلاً عن أثره في الآخرة. وخير ما يدلُّ على ذلك ما رواه أنسُ بنُ مالكٍ: أنّ رجلاً من الأنصار أتى النّبيﷺ يسأله، فقال: (أما في بيتك شيءٌ؟) قال: بلى، حِلْسٌ: نَلْبَسُ بعضَه ونبسطُ بعضه، وقَعْبٌ نشرب فيه من الماء، قال: (ائتني بهما) قال: فأتاهُ بهما، فأخذهما رسولُ اللهﷺ بيده، وقال: (من يشتري هذين؟) قال رجلٌ: أنا آخذهما بدرهمٍ، قال: (مَنْ يزيدُ على درهمٍ؟) مرتين أو ثلاثاً، قال رجلٌ: (أنا آخذهما بدرهمين)، فأعطاهما إيّاه، وأخذ الدّرهمين، فأعطاهما الأنصاريّ، وقال: (اشتر بأحدهما طعاماً فانْبِذْهُ إلى أهلك، واشتر بالآخر قَدوماً فأتني به) فأتاه به، فشدَّ فيه رسول اللهﷺ عوداً بيده، ثمّ قال له: (اذهبْ فاحتطب وبعْ، ولا أرَيَنَّك خمسة عشر يوماً)، فذهب الرجل يحتطِبُ ويبيعُ، فجاء، وقد أصاب عشْرَةَ دارهم، فاشترى ببعضها ثوباً، وببعضها طعاماً، فقال رسول اللهﷺ: (هذا خيرٌ لك من أن تجيء المسألَةُ نكتةً في وجهك يومَ القيامة، إنّ المسألة لا تصلُحُ إلّا لثلاثةٍ: لذي فقرٍ مُدْقعٍ، أو لذي غُرْمٍ مُفْظِعٍ، أو لذي دمٍ مُوجع)[1].

(١) أبو داود في الزكاة، باب: ما تجوز فيه المسألة (١٦٤١) والترمذي في البيوع، باب: ما جاء في بيع من يزيد(١٢١٨) مختصراً وقال: «حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث الأخضر بن عجلان » وابن ماجه في التجارات، باب: بيع المزايدة (٢١٩٨). والحلس: بكسر الحاء المهملة، كساء يلي ظهر البعير يفرش تحت القتب. قعْب: بفتح فسكون أي قدح.

المبحث الثَّاني
التَّربيةُ بالحِوَار

تمهيد

معنى الحواروأثره التّربوي:

الحوار: أن يتناول طرفان أو أكثر النّقاش حول أمرٍ معيّنٍ، وذلك عن طريق السّؤال والجواب، وقد يصلان إلى نتيجة يتّفقان عليها، وقد لا يقنع أحدهما الآخر. وللحوار أثرٌ بالغٌ على المتحاورِين وعلى القارئ أو السّامع لحوارهم، **وذلك للأسباب الآتية:**

[١] يمثّل الحوار عرضاً حيوياً لموضوع البحث بين المتحاورين، ممّا لا يدع مجالاً لعروض الملل عليهما، وكذلك الحال بالنسبة إلى السّامع أو القارئ للحوار فإنّه يتتبّع خطواته باهتمام، ويتطلّع إلى نتيجته، وهذا ممّا يبعد عن نفسه الملل أيضاً ويجدّد نشاطه[(١)].

[٢] إنّ نجاح المربّي في عمله التّربوي لا يحصل إلّا بتوليد القناعة الذّاتية لدى المتربّي فيما يرشده إليه أو يطلبه منه؛ لا بالانقياد الظّاهري له فقط. وكما قيل: «من السّهل قيادة الحصان إلى نبع الماء، ولكن من الصعب إجباره على شرب الماء»[(٢)]. فمن طبيعة النّفس الإنسانية أن لا تتقبّل أن تفرض عليها الآراء أو القناعات فرضاً من الخارج، وأن ترى في ذلك إلغاءً للذّات والهُويّة، ومن ثمّة فالحوار كفيلٌ في الغالب بالقضاء على هذا الحاجز النّفسي بين المربّي والمتربّي وإزالته كلياً. ولا أدلّ على صحّة ما ذكر من أنّ الوالدين مع وفرة محبتهما لأبنائهما وإرادة الخير لهم إذا ضاقت مساحة حوارهما مع أبنائهما أو

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية وأساليبها لعبد الرحمن النحلاوي ص ١٦٧.

(٢) مثل إنكليزي.

انعدمت، وأحسَّ الأبناء بأنهما يمارسان التّربية بطريقةٍ يسود فيها أسلوب التّحكم والفرض المتعنّت، لم ينشؤوا نشأةً سويةً، ولم تظهر عليهم ملامح الشّخصية المتزنة والواثقة، وإذا كان الأمر على هذه الصّفة مع الوالدين، فإنّ النتائج تكون أسوأ مع غيرهما من المربّين من بابٍ أولى.

[٣] لا يخلو الحوار من فائدة حتى بالنسبة إلى المربّي، فإنّه حين يمارس عملية الحوار يتعرّف إلى وجهة نظر محاوره بصورةٍ دقيقةٍ، وقد تتضّح له جوانبُ غامضةٌ لم تكن واضحةٌ لديه، وقد يجد من المفيد له أيضاً أن يعدّل شيئاً من أفكاره ويهذّبها، وعندئذٍ تتهيأ له فرصةٌ للإحاطة بالموضوع الذي يدعو إليه من جوانبه كافّة من جهةٍ؛ وللوصول بالحوار إلى النتائج المرجوة منه من جهةٍ أخرى.

[٤] وأخيراً فإنّ الحوار طريقة متّبعة في كتاب الله تعالى وسنّة رسوله- كما سيأتي بيانه- واستخدمها المسلمون على امتداد التّاريخ الإسلاميّ، وكانت طريقة السّؤال والجواب من أهمّ طرائق التّربية والتّعليم، واتُّخذت طريقاً لتربية المسلم وتوجيهه، وغرس العقيدة الصحيحة، وتأصيل العادات والقيم الأخلاقية الحسنة. ومن أوائل من استخدم هذا الأسلوب بعد النّبيّ ﷺ عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه والذي أُثِر عنه قوله: العلم خزائنُ، ومفتاحُه السّؤالُ، فاسألوا يرحمكم الله، فإنّه يؤجر فيه أربعةٌ: السّائل، والمعلّمُ، والمستمعُ، والمحبُّ لهم[١]. وعدّه بعض العلماء نصفَ العلم[٢].

(١) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ٦١/٢.

(٢) انظر: فتح الباري لابن حجر ١٨٨/١.

المطلب الأوّل
الحوارفي القرآن الكريم

(١) الحوار الخطابيّ أو التعبديّ:

خاطب الله عباده المؤمنين في مواضع كثيرةٍ من القرآن الكريم مصدّراً خطابه بنداء التّعريف بالإيمان: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٤. أو غيرها: في ٨٩ موضعاً من القرآن الكريم]وكلّما قرأه مؤمنٌ لهج قلبه بالجواب «لبّيك يا ربّ» ولذلك اعتبر أحد الباحثين هذا الأسلوب حواراً [(١)]. وقد يجري العكس، فإذا خاطب المؤمن ربَّه داعياً إيّاه في بعض آيات القرآن، أجابه الحقّ ﷻ بما يناسب المقام. وإنّ هذا الأسلوب من الحوار يبدو لأوّل وهلةٍ من طرفٍ واحدٍ، ولكنّ الطّرف الثّاني إنّما يستجيب بعواطفه ووجدانه وانفعالاته وتفكيره، وهي استجابة لا تقلُّ أثراً وأهميّة عن ظهور الطّرف الثّاني والتّصريح به في النّصوص. ومن ثمّة كان هذا الحوار بصوره المختلفة داخلاً في صميم التّربية الإسلاميّة؛ لأنّ كلّ ناشئ وقارئٍ للقرآن أو متعبّدٍ بقراءته، مخاطَبٌ فعلاً بهذه الأنواع من الأسئلة والنّداءات القرآنيّة، ولأنّه لا بدّ مستجيبٌ بفكره وعاطفته، مادام حاضر القلب والفكر أثناء تلاوة القرآن أو القيام به في الصّلاة، إذن فالحوار قائمٌ بين الله وعباده[(٢)].

ومن أشهر الأدلة على ذلك ما رواه أبو هريرة قال: سمعت النّبيّ ﷺ يقول: (قال الله تعالى: قسمت الصّلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل).

فإذا قال العبد: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [الفاتحة: ٢] قال الله تعالى: (حمدني عبدي). وإذا قال: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ ﴾ [الفاتحة: ٣]، قال الله تعالى: (أثنى عليّ عبدي)، وإذا قال: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ [الفاتحة: ٤]قال: (مجّدني عبدي)، وقال مرةً: (فوّض إليّ عبدي).

---

(١) وهو الأستاذ عبد الرحمن النحلاوي في كتابه: أصول التربية الإسلامية وأساليبها ص١٦٨.

(٢) انظر: أصول التربية الإسلامية وأساليبها لعبد الرحمن النحلاوي ص ١٦٨، ١٧٧.

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، قال: (هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل). فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦- ٧]، قال: (هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل)[١].

وأيضاً كان رسول الله ﷺ إذا قرأ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ [القيامة: ٤٠] قال: (سبحانك فَبَلى)[٢].

وإذا قرأ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١]، قال: (سبحان ربيّ الأعلى)[٣].

فهذان دليلان على الحوار التعبديّ، أحدهما دليلٌ على إجابة الربّ لعبده، والآخر دليلٌ على تلبية العبد لنداء ربّه أو سؤاله أثناء تلاوة القرآن[٤].

ويمكن تعداد أهمّ الصُّوَر لهذا الحوار الخطابيّ كما يأتي:

١- «الحوار الخطابيّ الموجّه للذين آمنوا، أو المصدَّر في نداء التّعريف بالإيمان:

وفي هذا الخطاب يكون المنادى معرَّفاً، فهو اسمُ موصولٍ صلته جملة (آمنوا) والقصد من هذا التّعريف الإيماءُ للمخاطبين:

- أن يعتزّوا بإيمانهم؛ لأنّ الله ﷻ يرفع من شأنهم ويخصّهم بهذا الوصف العظيم، ويناديهم به حتى أصبح وكأنه علَمٌ عليهم.
- وأن يحرصوا على هذا الإيمان ويستمسكوا به، فهو صفتهم المميّزة أمام النّاس وأمام الإنسانيّة، وما كان لهم أن يتراجعوا عنه.

---

(١) مسلم في الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وأنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها (٣٩٥).

(٢) الحديث بتمامه: عن موسى بن أبي عائشة، قال: كان رجل يصلي فوق بيته، وكان إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ [القيامة: ٤٠] قال: سبحانك، فبلى، فسألوه عن ذلك فقال: سمعته من رسول الله ﷺ. أبو داود في الصلاة، باب: الدعاء في الصلاة (٨٨٤).

(٣) الحديث بتمامه: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان إذا قرأ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١] قال: (سبحان ربي الأعلى). أبو داود في الصلاة، باب: الدعاء في الصلاة (٨٨٣).

(٤) انظر: أصول التربية الإسلامية وأساليبها لعبد الرحمن النحلاوي ص ١٦٨-١٦٩.

- وأن يشعروا بمسؤولية التّكليف فهو مبنيٌّ على الإيمان، وما داموا قد أخذوا أنفسهم بالإيمان بالله، فقد أخذوا أنفسهم بالعمل بكلّ ما يأمرهم به الله»[1].

٢- الحوار الخطابيّ التذكيريّ:

ويقوم على التّذكير بنعم الله، أو تذكير بعض الطّوائف بذنوب أجدادهم وانحرافاتهم التي ما زالوا يتّصفون بها. أما التّذكير بالأمر الأوّل فكقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢- ١٠٣].

وأما التّذكير بالأمر الثّاني فكتذكير بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةم بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾ [البقرة: ٢١١]. والآيات في ذلك معروفة معظمها في سورة البقرة[2].

٣- «الحوار الخطابيّ التّنبيهيّ أو الإيضاحيّ:

من أوضح صور هذا الحوار أن يرد سؤالٌ من الحقّ ﷻ يليه جوابٌ، فتكون غايته لفت الأنظار إلى أمرٍ هامٍّ، ثمّ شرح هذا الأمر كقوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ﴿٣﴾﴾ [النبأ: ١- ٣]﴿ٱلۡحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾ [الحاقة: ١- ٤]»[3]

٤- «الحوار الخطابيّ العاطفيّ:

وهو خطابٌ أو استفهامٌ يعتمد إثارة عواطف إنسانيّةٍ أو انفعالاتٍ وجدانيّةٍ، تترك أثراً فعالاً في الانقياد للسّلوك الطّيب والعمل الصّالح، كالخوف والأمل والرّغبة والرّهبة.

- فالخشوع لله والشّعور بعظمته كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾﴾ [الملك: ٣]وفي هذا تحدٍّ للإنسان ليتأمّل في

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها لعبد الرحمن النحلاوي ص ١٧٠-١٧١.

(٢) انظر: أصول التربية الإسلامية وأساليبها لعبد الرحمن النحلاوي ص ١٧١.

(٣) أصول التربية الإسلامية وأساليبها لعبد الرحمن النحلاوي ص ١٧٢.

عظمة خلق الله للسّموات والكواكب، وقد نوّه الله تعالى ببعض الآثار النّفسيّة لهذا التحدّي والتأمّل بقوله: ﴿ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٞ ۝٤ ﴾ [الملك: ٤] فالشّعور بعظمة الله هنا يتجلّى حين يرافقه شعورٌ بضعف الإنسان ويلازمه انقيادٌ وطاعةٌ وخشوعٌ لله...

- والخوف من عذاب يوم القيامة وأهواله واضحٌ في قوله تعالى: ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ۝٤١ ﴾ [النساء: ٤١] ثم يبيّن الله تعالى بعض الآثار النّفسيّة لذلك الموقف بقوله: ﴿ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ۝٤٢ ﴾ [النساء: ٤٢].
- وإثارة عواطف الشّكر لله والشّعور بفضله ومَنّه مبثوثةٌ في كثيرٍ من الآيات كقوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ۝٦٩ ﴾ [الواقعة: ٦٨- ٦٩] وقوله: ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ ۝٧٢ ﴾ [الواقعة: ٧١- ٧٢]. وبعد كلّ استفهامٍ دليلٌ دامغٌ على عجز الإنسان وعظمة الله وقدرته، فالماء الذي نشربه لا نملك أن نجعله حلواً لو كان مالحاً: ﴿ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ ۝٧٠ ﴾ [الواقعة: ٧٠] والنّبات الذي نزرعه لا نملك ريّه لو حبست عنه الأمطار، وغارت الآبار والأنهار، أو جاءته ريحٌ سمومٌ فأصبح حطاماً أو هشيماً: ﴿ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ۝٦٥ إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ۝٦٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ۝٦٧ ﴾ [الواقعة: ٦٣- ٦٧]، فلا يملك القارئ المتدبّر إلا أنْ يخشع قلبه لفضل الله، ويلهج لسانه بحمده وشكره»[1].

تربية العواطف الإيمانيّة:

«وتربية هذه العواطف أو غيرها يخضع، كما تدلّ الحياة ونتائج أبحاث علم النّفس لشروطٍ أهمُّها:

---

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها لعبد الرحمن النحلاوي ص ١٧٣-١٧٤.

- أن تثور الانفعالات الوجدانيّة في مواقف من الحياة الفرديّة أو الاجتماعيّة المناسبة، وترافقها استجاباتٌ سلوكيّةٌ مناسبة.
- أن تتكرّر هذه الانفعالات، وتتكرّر معها الاستجابات السّلوكيّة المناسبة، كالصّلاة والبكاء من خشية الله، وقراءة القرآن والدّعاء، والتّلذّذ بمعاني القرآن وأساليبه.
- أن يؤدي هذا التّكرار إلى استعدادٍ وجدانيٍّ، يجعل صاحبه مستعداً للانفعال كلّما تكرّرت المناسبة أو تكرّر المعنى أو الموضوع الذي أثار الانفعال أوّل مرةٍ، كاستعداد المؤمن للحماسة من أجل العقيدة، ولتحقيق أوامر الله، والغضب لله، والدّعوة لدينه.
- والعاطفة الفعالة تؤدي بصاحبها إلى سلوكٍ مناسب يرضيها ويحقّق غايتها، فهي قوةٌ دافعةٌ ما تزال تدفع صاحبها حتى يسلك ذلك السّلوك، فعاطفة الخشوع تدفع المؤمن الى طاعة الله وتحقيق أوامره، وكذلك الشّكر على النّعم يدفع إلى الصّدقة أو حسن استعمال المال أو الجاه أو البصر في طاعة الله وتحقيق شريعته، وهكذا دواليك»[1].

٥- الحوار العاطفيّ الترديديّ:

«وهو الذي يتردّد فيه سؤالٌ معيّنٌ، مثيرٌ لعواطفَ متشابهة، فيتكرّر عدداً من المرّات، بينها فواصلُ من الآيات المؤثّرة، فيأخذ هذا السّؤال كلّ مرّةٍ معنىً يتناسب مع ما سبقه من الآيات بالإضافةِ إلى معناه الأصليّ، كتكرار قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرحمن: ١٣] وبعدها ثلاثين موضعاً في السّورة نفسها... وهذا التّكرار يساعد على نشوء العاطفة الإيمانيّة وتمكينها وتربيتها في النّفس، ونموّها... فقد وردت آية: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرحمن: ١٣] في أول السّورة بعد ذكر نعم الله في خلق الإنسان وتعليمه، وأنّ الله سخر له الشّمس والقمر والنّجم والسّماء والميزان والأرض والنّبات، فأثار هذا السّؤال عواطف الشّكر لله، ثمّ وردت تارةً أخرى بعد ذكر قدرة الله على الإنسان ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الرحمن: ٣٥- ٣٦] فأثارت انفعال الخوف من الله تعالى، وربّت عاطفةَ الخشوع له.

---

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها لعبد الرحمن النحلاوي ص ١٧٤-١٧٥.

كلّ ذلك إلى جانب تربية العبوديّة لله، وهو الهدف الأصليّ المقصود بالدّرجة الأوْلى من هذه الآية الكريمة، فالتّصديق بآلاء الله ونعمه، وآيات قدرته ووحدانيّته، يثمر في قلب المؤمن ثمرةً عظيمةً هي إخلاص الخضوع والعبوديّة والانقياد لله وحده، وهذا من النتائج المهمّة (للعاطفة الإيمانيّة) وهي العاطفةُ السّائدةُ التي تترعرع في التّربية الإسلاميّة، فتتوجّه سائر العواطف بتوجيهها، وتُهذَّب الغرائز والنّزعات الإنسانيّة بسيطرتها، فتستقيم الشّخصيّة، وتقوى وتتضافر جميع الطّاقات والاستعدادات، وتتّجه إلى تحقيق هدفٍ واحدٍ»[1].

(٢) الحوار الوصفيّ وآثاره التربويّة[2]:

هذا النّوع الثّاني من أنواع الحوار، وقد صُرِّح فيه بالمتحاورَين، وكذلك فيما يليه من أنواع الحوار. والهدف من الحوار الوصفيّ إثباتُ وصفٍ حيٍّ لحالةٍ نفسيّةٍ أو واقعيّةٍ لهؤلاء المتحاورين، بقصد الاقتداء بصالحهم والابتعاد عن شريرهم، والتأثّر بهذا الجو تأثّراً وجدانياً ينمّي العواطف الإيمانيّة، والسّلوك الإنسانيّ التعبديّ الفاضل.

والأمثلة على هذا الحوار وافرةٌ في القرآن الكريم نذكر منها قوله تعالى في حوار أهل النار: ﴿ وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الصافات: ٢٠- ٢٣] فالحوار هنا بين الحقّ ﷻ وملائكته، بعد الحديث عن الظّالمين الذين استحقوا عذاب جهنّم، لقد استفاقوا من قبورهم فأدركوا أنّ هذا هو يوم الدّين، و جاء النّداء الرّبانيُّ لزبانية جهنّم ليدلّوا الظّالمين إلى طريق النّار. ثم استمرّ الحوار لبيان ضعفهم والاستهزاء بهم بعد أن ينالوا حسابهم في ذلك الموقف: ﴿ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الصافات: ٢٤- ٢٥] وعجزوا عن الجواب فأخبرنا الله ﷻ عن حالهم: ﴿ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الصافات: ٢٦].

ثم دار الحوار بين قادة الظّلم والباطل، والسّوقة الذين استسلموا للباطل في الدّنيا،

---

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها لعبد الرحمن النحلاوي ص١٧٥-١٧٦باختصار وتصرف يسير.

(٢) المرجع السابق ص ١٧٧-١٧٨بتصرف يسير.

فحشروا في العذاب جميعاً: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الصافات: ٢٧- ٢٨] وتنصّل قادة الظّلم من المسؤولية ﴿ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الصافات: ٢٩- ٣٣].

(٣) الحوار القصصي[1]:

هذا الحوار لا يتعدّى أن يكون جزءاً من أسلوب القصّة في القرآن. أما أن تكون هناك قصّة كلّها حوارٌ على غرار ما يسمّى اليوم بـ (المسرحية) فهذا لم يرد في القرآن بهذه الصورة المسرحية، ولكن بعض القصص جاءت يغلب فيها الحوار على الإخبار، كقصّة شعيب مع قومه في سورة هود، فالآيات العشر الأوْلى من هذه القصّة كلّها حوارٌ، ثمّ ختم الله القصّة بآيتين بيّن فيهما عاقبة قومه، وهاك القصّة بأكملها من سورة هود:

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية وأساليبها لعبد الرحمن النحلاوي ص ١٧٩-١٨٠.

ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾ [هود: ٨٤- ٩٥].

التحليل التربويّ للحوار القصصيّ:

للحوار القصصيّ أثرٌ فكريٌّ رائعٌ بالإضافة إلى أثره الوجدانيّ العاطفيّ، وذلك للأسباب الآتية:

- اعتماده على الإيحاء، فهو يوحي إلى القارئ بطريقٍ غير مباشرٍ أن يكره حجج الكافرين وأحوالهم، وخاصّة عندما يرى مصيرهم في آخر القصّة.
- تربيته للعواطف الإيمانيّة في النّفس، كالحبّ في الله، والرّغبة في الدّعوة إليه، والحماسة لأنبياء الله تعالى.
- عرضه لحجج الأنبياء وأفكارهم عرضاً يدحض حجج الماديّين الظّالمين، ويبيّن تهافت منطقهم. فقوم شعيب لم يُبقوا على حياته إلّا خوفاً من (رهطه)، وشعيب ما كان ينصحهم إلّا خوفاً من الله تعالى ورغبة في إرضائه، فانظر ما أبعد الشقّة بينهما ؟!
- ذكره نتيجة القصّة، ومصيرَ كلٍّ من الظّالمين والمؤمنين، وذلك بعد ترقّبٍ وتلهّفٍ يشدُّ القارئ والسّامع للحوار، والمتأمل لمعانيه.

(٤) الحوار الجدليُّ ونتائجه التّربويّة[1]:

هو حوارٌ يجري فيه نقاشٌ أو جدالٌ غايتهُ إثبات الحجّة على المشركين للاعتراف بضرورة الإيمان بالله تعالى وتوحيده، والاعتراف باليوم الآخر، وغير ذلك من الغايات.

ولعلّ من أشدّ ما يشهد لهذا النّوع من الحوار أهميّة قصّة إبراهيم مع النّمرود، وقد بدأت القصّة بلفت نظر القارئ- على طريقة الحوار الخطابيّ – إلى أهميّتها ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وبهذا الإيجاز بيّن الله لنا بطلي القصّة:

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية وأساليبها لعبد الرحمن النحلاوي ص ١٨١ ، ١٨٣-١٨٥باختصار وتصرف.

إبراهيم المؤمن بربّه، ورجلٌ غرّه أن آتاه الله ملكاً، فأراد أن يزعم لنفسه بعض صفات الألوهيّة، لكنّ إبراهيم ضرب له أمثلةً محسوسةً يراها كلّ إنسانٍ ولا ينكرها عاقلٌ: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فكابر الملِك الظّالم، وزعم أنّه يقتل من يشاء ويذر لمن يشاء حياته ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وشعر إبراهيم أنّ خصمه يزيغ ويحيد عن موضوع النّقاش الحقيقيّ إلى مواقف مشابهةٍ، فحاصره في أمرٍ لا يستطيع أن يحيد عنه؛ إذ لا شبيه له في عالم الإنسان ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨] ويلاحظ أنّ من أشدّ مزايا هذا الحوار أهمّيّة أنّه يدفع العقل للتّفكير الموضوعيّ الواقعيّ والارتقاء بالحجج من المشهود المحسوس إلى المطلوب المغيّب.

ومن أروع الأمثلة على هذه الميزة حوار إبراهيم مع قومه حين حطّم الأصنام إلّا صنماً كبيراً نسب إليه تحطيم الأصنام، وطالب قومه بأن يسألوا الأصنام، ليثبت لهم بطريقةٍ حسّيّةٍ، أنّ ما يعبدون من دون الله لا يستطيعون شيئاً ولا يستحقون التّقديس والعبادة[1].

كما يدفع الحوار الجدليّ إلى التّفكير السّليم للوصول إلى الحقائق بأسلوبٍ صحيحٍ كالحصر أو ما يسمّونه بـ ((الثّالث المرفوع)) فإذا كان هناك قضية لها ثلاثة حلول لا رابع لها، وأسقطنا حلّين، تعيّن أن يكون الثّالث هو الصّواب الذي نرفعه ونقيم له وزناً، كقوله تعالى في تقرير خلق الإنسان: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥] فإذا كان ممّا يستحيل عقلاً أن يخلقوا من غير خالقٍ، كما يستحيل واقعاً وعقلاً أن يخلقوا أنفسهم، إذن لا بدّ لهم من خالقٍ، ويسري هذا المبدأ على السّموات والأرض، وخزائن رزق الله: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الطور: ٣٦- ٣٧] وهذه الأمور العظام والمخلوقات الجسام لا يمكن أن توجد وحدها ولا يستطيع البشر أن يدّعوا خلقها، فلا بدّ من الاعتراف بأنّ الله خلقها.

وكالقياس الصّحيح كقوله تعالى باسطاً رأي المنكرين للبعث: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا

(١) انظر: سورة الأنبياء الآيات ٥١ – ٧٠.

﴿وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ٤٩﴾ [الإسراء: ٤٩] فيأمر الله رسولهﷺ بمحاورتهم وإقناعهم بالحجّة والمنطق ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ٥٠ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ ٥١﴾ [الإسراء: ٥٠- ٥١].

وفي هذا قياس للبعث على الخلق الأوّل، فالله كما فطرهم أوّل مرةٍ، قادرٌ على أن يعيد خلقهم مرةً أخرى، ولو كانوا من حجارةٍ أو حديدٍ أو أيّة مادةٍ أخرى. إنّه مبدأ عقليٌّ لا شك فيه ولا مراء، ولا يستطيع إنكاره عاقل.

وأخيراً يربّي الحوار الجدليّ عاطفة الحماسة للحقّ وتحرّي الصّوابِ والرّغبة في الحجّة الدّامغة، كما يربّي عن طريق الإيحاء كراهيّة الباطل والأفكار المنحرفة.

المطلب الثَّاني
الحوار النّبويّ

(١) الحوار طريقة تربويّة نبويّة[١]:

كان رسول الله ﷺ حريصاً على تعليم الصّحابة بطريق الحوار، وكانت رغبته أشدَّ في أن يكون الصّحابة هم البادئين بالسّؤال. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النّبيّ ﷺ بارزاً يوماً للنّاس، وفي روايةٍ، قال رسول الله ﷺ: (سلوني) فهابوه أن يسألوه، فجاء رجل فجلس عند ركبتيه، فقال: يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: (لا تشرك بالله شيئاً، وتقيم الصّلاة، وتؤتي الزّكاة، وتصوم رمضان) قال: صدقت، ثم سأله عن الإيمان والإحسان وموعد قيام السّاعة، قال أبو هريرة: ثم قام الرّجل، فقال رسول الله ﷺ: (ردّوه عليّ). فالتُمِسَ فلم يجدوه، فقال رسول الله ﷺ: (هذا جبريل أراد أن تَعَلَّموا؛ إذ لم تسألوا)[٢]. وفي لفظ البخاري: (هذا جبريل، جاء يعلّم الناس دينهم)[٣]. **ويؤخذ من هذه الأحاديث أمور تربويّة أهمّها:**

أ- مشروعيّة ترغيب المتعلّمين في أن يكونوا هم السّائلين، ليكون التّعليم مبنيّاً على رغبتهم، وليكون أشدّ وقعاً في نفوسهم.

ب- إجراء الحوار أمام المتعلّمين، ليتابعوه ويتعلّموا منه أمر دينهم. وهذه الطّريقة كانت مقصودةً من قبل الشّارع بدليل لفظ البخاري (هذا جبريل جاء يعلّم النّاس أمر دينهم). وكانت هذه الطّريقة تروق لبعض الصّحابة، كما رواه أنس بن مالك قال: (نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيءٍ، فكان يعجبنا أن يجيء الرّجل من أهل البادية، العاقلُ،

---

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها لعبد الرحمن النحلاوي ص ١٨٤-١٨٥ بتصرف يسير.

(٢) مسلم في الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان، ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله ﷻ (١٠).

(٣) البخاري في الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة(٥٠).

فيسألَهُ ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد أتانا رسولك، فزعم لنا أنك تزعم أنّ الله أرسلك؟ قال: (صدق)... الحديث)[1]. وحديث جبريل جاء مخصّصاً لعموم الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴿١٠١﴾ ﴾ [المائدة: ١٠١] ولعموم حديث: (إنّ الله كره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وكثرةَ السّؤال، وإضاعة المال)[2].

ولعل الصّحابة كانوا يتهيّبون السّؤال بعموم الآية والحديث، فجاء حديث جبريل مبيحاً السّؤال بقصد الاستفادة والتّعليم، وخاصّةً لأمور الدّين وأسسه وعقائده.

فثبت من هذا كلّه أنّ أسلوب الحوار من أساليب التّربية الإسلامية، لذلك أرسل الله تعالى جبريل يسأل الرّسول ﷺ ويصدّقه، والصّحابة يسمعون بكلّ لهفةٍ وشوقٍ؛ ليقتدي المعلّمون والمربّون بهذا الأسلوب في حياتهم التّعليمية والتّربويّة.

(٢) الحوار النّبويّ العاطفيّ:

استخدم النّبيّ ﷺأسلوب السّؤال الاستفهاميّ مع الجواب عنه من قِبَلِهِ استثارةً لعواطف أصحابه رضي الله عنهم، وتوجيهاً لهم إلى الموقف الصّحيح، كما حصل مع الأنصار عندما أعطى للمؤلّفة قلوبهم من غنائم حنينٍ، ولم يعطهم منها شيئاً، فوجدوا في أنفسهم وعتبوا عليه. فعن أبي سعيد الخدري قال: لما أعطى رسول اللهﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجَدَ هذا الحيّ من الأنصار في أنفسهم، حتّى كثرت منهم القالة[3]، حتّى قال قائلُهم: لقد لقي واللهِ رسولُ الله قومَهُ. فدخل عليه سعد بن عبادة، فقال: يا رسول الله! إنّ هذا الحيّ من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحيّ من الأنصار منها شيء.

قال: (فأين أنت من ذلك يا سعد ؟!) قال: يا رسول الله! ما أنا إلّا من قومي. قال:

---

(١) مسلم في الإيمان، باب: في بيان الإيمان بالله وشرائع الدين (١٢).

(٢) البخاري في الزكاة، باب: قول الله تعالى: ﴿ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗا ﴿٢٧٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٧٣] (١٤٠٧) ومسلم في الأقضية، باب: النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة (١٧١٥م) من حديث المغيرة بن شعبةرضي الله عنه.

(٣) الكلام الرديء.

(فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة). قال: فخرج سعد، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة... فأتاهم رسول اللهﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: (يا معشر الأنصار! ما قالة بلغتني عنكم، وجِدَةٌ وجدتموها عليّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالةً[1] فأغناكم الله، وأعداءً فألّف الله بين قلوبكم!) قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟! لله ولرسوله المنّ والفضل. قالﷺ: (أما والله لو شئتم لقلتم، فَلَصدقتم ولَصُدِّقتم: أتيتنا مكذَّباً فصدّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك[2]. أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاعَةٍ[3] من الدّنيا تألّفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألّا ترضون يا معشر الأنصار! أن يذهب النّاس بالشّاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمّد بيده لولا الهجرة لكنْت امرءاً من الأنصار، ولو سلك النّاس شعباً[4] وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار). قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً. ثمّ انصرف رسول الله وتفرّقوا[5].

هذه التّربية العظيمة، وهذا الحوار النّبويّ العاطفيّ، **يدلّنا من النّاحية التّربويّة على أمرين:**

(أ) إنّ الاعتماد على العواطف الإيمانيّة في المواقف الخطيرة يجب أن يسبقه تربيةٌ صحيحةٌ وعميقةٌ لهذه العواطف، وكان رسول اللهﷺ قد ربّى هذه العواطف في نفوس الأنصار، حتى أصبح اللهُ ورسوله أحبَّ إليهم من المال والولد والنّاس أجمعين.

(ب) راعى رسول الله ﷺ أنّهم بشرٌ وليسوا ملائكةً، وأرادهم أن يدافعوا عن أنفسهم بشيءٍ من القول، فلمّا استحيوا منه، واستشعروا فضله ومنّته عليهم، دافع عنهم بالنّيابة عن أنفسهم، لئلا يترك في نفوسهم شيئاً من الوجد فقال: (أما والله لو شئتم لقلتم،

(١) جمع عائل وهو الفقير.

(٢) أعطيناك حتى جعلناك كأحدنا.

(٣) اللعاعة: بقلة خضراء ناعمة، شبّه بها زهرة الدنيا ونعيمها.

(٤) الشعب: الطريق بين جبلين.

(٥) سيرة ابن هشام ص١٠٠٩-١٠١٠، والخبر بنحوه في الصحيحين. البخاري في المغازي، باب: غزوة الطائف (٤٠٧٥) ومسلم في الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه (١٠٦١) من حديث عبد الله بن زيد رضي الله عنه.

ولصدَقتم ولصدِّقتم: أتيتنا مكذَّباً فصدّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك).

وهكذا نجد أنّ على المربّي في المواقف الحرجة ألّا يصدر حكمَه قبل أن يسمع من الذين يربيّهم أو يريد أن يحاكمهم في هفوة ارتكبوها[1].

وكذلك استخدم النّبيّ ﷺ أسلوب السّؤال الاستفهاميّ وأجاب عنه بجوابٍ أظهر فيه سعة رحمة الله تعالى بعباده. فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قدِم على النّبيّ ﷺ سبْيٌ، فإذا امرأةٌ من السّبي تحلب ثديها تسقي، إذا وجدت صبياً في السّبي أخذته، فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النّبيّ ﷺ: (أترون هذه طارحةً ولدها في النّار) قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرَحه، فقال: (للهُ أرحم بعباده من هذه بولدها)[2].

قال الحافظ بن حجر: «قال الشّيخ أبو محمد بن أبي جمرة: لفظ العباد عامٌّ ومعناه خاصٌّ بالمؤمنين، وهو كقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] فهي عامّةٌ من جهة الصّلاحية وخاصّةٌ بمن كتبت له. قال: ويحتمل أن يكون المراد أنّ رحمة الله لا يشبهها شيءٌ لمن سبق له منها نصيبٌ من أيّ العباد كان حتّى الحيوانات. وفيه إشارة إلى أنّه ينبغي للمرء أن يجعل تعلّقه في جميع أموره بالله وحده، وأن كلّ مَنْ فُرِضَ أنّ فيه رحمةً ما حتى يُقصد لأجلها فالله سبحانه وتعالى أرحمُ منه، فليقصد العاقل لحاجته من هو أشدّ له رحمة...في – الحديث– ضربُ المثل بما يدرك بالحواس لما لا يدرك بها لتحصيل معرفة الشّيء على وجهه، وإنْ كان الذي ضُرِبَ به المثلُ لا يحاط بحقيقته؛ لأنّ رحمة الله لا تدرك بالعقل ومع ذلك فقرّبها النّبيّ ﷺ للسّامعين بحال المرأة المذكورة.. اهـ ملخّصاً»[3]. وضرب المثل من الأساليب التّربوية الإسلاميّة سيأتي الحديث عنه مفصّلاً فيما بعد.

---

(١) انظر: أصول التربية الإسلامية وأساليبها لعبد الرحمن النحلاوي ص ١٨٦-١٨٧باختصار وتصرف يسير.

(٢) البخاري في الأدب، باب: رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (٥٦٥٣) ومسلم في التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٤).

(٣) فتح الباري لابن حجر ١٠/٥٣٠.

(٣) الحوار النبويُّ الإقناعيُّ:

هذا النّوع من الحوار يهدف إلى الإقناع وإقامة الحجّة على المحاوِر، ولعلّ من أوضح الأمثلة عليه محاورة النّبيّ ﷺ مع الشّاب الذي جاء يستأذنه في الزّنى، ففتحﷺ عيني قلبه وبصيرته إلى ما كان غافلاً عنه.

فعن أبي أمامة رضي الله عنه: أنّ فتىً شاباً أتى النّبيّﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزّنى، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مهْ مَهْ، فقال: (اُدْنُهْ) فدنا منه قريباً، قال: فجلس، قال: (أتحبّه لأمّك؟) قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: (ولا النّاس يحبّونه لأمّهاتهم) قال: (أفتحبّه لابنتك؟) قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: (ولا النّاس يحبّونه لبناتهم) قال: (أفتحبّه لأختك؟) قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: (ولا النّاس يحبّونه لأخواتهم) قال: (أفتحبّه لعمّتك ؟) قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: (ولا النّاس يحبّونه لعمّاتهم) قال: (أفتحبّه لخالتك؟) قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: (ولا النّاس يحبّونه لخالاتهم) قال: فوضع يده عليه، وقال: (اللّهم اغفر ذنبه وطهّر قلبه، وحصّن فرجه) فقال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[(١)].

فبيّن الرّسولﷺ للشّاب عن طريق هذا الحوار المنطقيّ مفاسد الزّنى الشّنيعة التي ينفر منها أصحاب الفطر السّليمة، وأعطاه أمثلةً واقعيةً من أهله وأقرب النّاس إليه، فأقنعه بمحاورتهﷺ وشفاه الله من هذا الدّاء بلمستهﷺ الحانية عليه ودعائه له[(٢)].

ومن أمثلة أيضاً ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما: أنّ امرأةً من جهينة جاءت إلى النّبيّﷺ فقالت: إنّ أمّي نذرت أن تحجّ، فلم تحجّ حتى ماتتْ، أفأَحُجُّ عنها ؟ قال: (نعم، حُجّي عنها، أرأيت لو كان على أمّك دين أكنتِ قاضِيَتَهُ ؟. اقْضُوا اللهَ، فاللهُ أحقُّ بالوفاء)[(٣)].

قال الحافظ ابن حجر: «فيه مشروعية القياس وضرب المثل ليكون أوضح وأوقع في

(١) أحمد في المسند ٥/٢٥٧، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد١/٣٤١وقال: رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح.

(٢) انظر: أساليب الرسول في الدعوة والتربية ليوسف خاطر حسن الصوري ص ٤٦.

(٣) البخاري في الإحصار وجزاء الصيد، باب: الحج والنذر عن الميت، والرجل يحج عن المرأة (١٧٥٤).

نفس السّامع وأقرب إلى سرعة فهمه، وفيه تشبيه ما اختلف فيه وأشكل بما اتفق عليه. وفيه أنه يستحبُّ للمفتي التّنبيه على وجه الدّليل إذا ترتّبت على ذلك مصلحة، وهو أطيب لنفس المستفتي وأدعى لإذعانه. وفيه أنّ وفاء الدّين المالي عن الميّت كان معلوماً عندهم مقرّراً؛ ولهذا حسن الإلحاق به»[1].

وهكذا أعطى النّبيّ ﷺ السّائلة الجواب عن سؤالها مقروناً بحجّته الإقناعيّة. كما يصلح هذا الحديث شاهداً على أسلوب التّربية بالأمثال الآتي ذكره.

(٤) الحوار النّبويّ التّعليميّ:

تتنوّع المناسبات التي استخدم فيها النّبيّ ﷺ السّؤال في تعليم أصحابه وتربيتهم.

فقد يطرح ﷺ السّؤال المحيِّر المشكل على جمعٍ من أصحابه رضوان الله عليهم. كما في حديث ابن عمر رضي الله عنه، أنّ رسول الله ﷺ قال: (إنّ من الشّجر شجرةً لا يسقط ورقها، وإنها مَثَلُ المسلم، حدّثوني ما هي؟). قال: فوقع النّاس في شجر البوادي. قال عبد الله: فوقع في نفسي أنّها النّخلة. ثم قالوا: حدّثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: (هي النّخلة)[2]. فالنّخلةُ مِثْلُ المسلم من حيث كثرةُ النّفع واستمرار الخير، وفي هذا غرسٌ لخصال الخير وتشجيعٌ على العطاء والبذل لديه.

قال الإمام النّووي: «في هذا الحديث فوائد منها: استحباب إلقاء العالِم المسألَة على أصحابه، ليختبر أفهامهم ويرغّبهم في الفكر والاعتناء. وفيه: ضرب الأمثال والأشباه»[3].

وقال الحافظ ابن حجر: «فيه ضرب الأمثال والأشباه لزيادة الإفهام، وتصوير المعاني لترسخ في الذّهن، ولتحديد الفكر في النّظر في الحادثة. وفيه إشارة إلى أنّ تشبيه الشّيء بالشّيء لا يلزم أن يكون نظيره من جميع وجوهه، فإنّ المؤمن لا يماثله شيء من الجمادات ولا يعادله»[4].

---

(١) فتح الباري لابن حجر ٤/٨٥.

(٢) البخاري في العلم، باب: طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم (٦٢) ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم (٢٨١١).

(٣) المنهاج شرح الجامع الصحيح ٥/٢٦٩٠.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١/١٩٤.

وحديث أبي هريرة أنّ رسول اللهﷺ قال: (أتدرون ما الغيبة؟) قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (ذكرك أخاك بما يكره). قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: (إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فقد بَهَتّه)[1].

إنّ إثارة السّؤال تحفّز التجاوب والتّفاعل بين المربّي وطلابه، فيحسُّ المربّي باستجابتهم له وتفاعلهم معه[2].

وقد يسألﷺ ويكرّر السّؤال ثلاثاً «تأكيداً لينتبه السّامع على إحضار فهمه»[3]، كما في قولهﷺ: (ألا أنبّئكم بأكبر الكبائر) ثلاثاً، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: (الإشراكُ بالله، وعقوق الوالدين – وجلس وكان متّكئاً، فقال:- ألا وقولُ الزُّور) قال: فمازال يكرّرها حتى قلنا ليته سكت[4].

قال الحافظ ابن حجر: «قوله: (وجلس وكان متّكئاً) يشعر بأنّه اهتمّ بذلك حتّى جلس بعد أن كان متكئاً، ويفيد ذلك تأكيد تحريمه وعظم قبحه، وسبب الاهتمام بذلك كون قول الزّور أو شهادة الزّور أسهل وقوعاً على النّاس والتّهاون بها أكثر، فإنّ الإشراك ينبو عنه قلب المؤمن والعقوق يصرف عنه الطّبع، وأمّا الزّور فالحوامل عليه كثيرة كالعداوة والحسد وغيرهما، فاحتيج إلى الاهتمام بتعظيمه، وليس ذلك لعظمها بالنسبة إلى ما ذكر معها من الإشراك قطعاً، بل لكون مفسدة الزّور متعدّية إلى غير الشّاهد، بخلاف الشّرك فإنّ مفسدته قاصرة غالباً »[5].

وقد يطرحﷺ السّؤال على أحد أصحابه. فعن معاذ بن جبلرضي الله عنه، قال: بينا أنا رديف النّبيّ ﷺ ليس بيني وبينه إلّا آخرة الرّحل، فقال: (يا معاذُ) قلت: لبّيك يا رسول الله وسعديك، ثم سار ساعةً ثم قال: (يا معاذُ) قلت: لبّيك رسول الله وسعديك، ثم قال: (يا

---

(١) مسلم في البر والصلة والآداب، باب: تحريم الغيبة (٢٥٨٩).بهته: بفتح الهاء مخففة؛ قلت فيه البهتان، وهو الباطل.

(٢) انظر: أساليب الرسول في الدعوة والتربية ليوسف خاطر حسن الصوري ص٤٩.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر ٣٢٤/٥.

(٤) البخاري في الشهادات، باب: ما قيل في شهادة الزور (٢٥١١) ومسلم في الإيمان، باب: بيان الكبائر وأكبرها (٨٨) من حديث أبي بكرةرضي الله عنه.

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر ٣٢٤/٥.

معاذَ بنَ جبل). قلت: لبّيك رسول الله وسعديك، قال: (هل تدري ما حقُّ الله على عباده؟) قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (حقُّ الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ثم سار ساعةً ثم قال: (يا معاذَ بن جبل). قلت: لبّيك رسول الله وسعديك، قال: (هل تدري ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوه؟) قلت: الله ورسوله أعلم. قال: (حقُّ العباد على الله أن لا يعذّبهم)[1].

قال الحافظ ابن حجر: «وفيه تواضع النّبيّ ﷺ وفضل معاذ وحسن أدبه في القول، وفي العلم بردّه لما لم يُحِطْ بحقيقته إلى عِلْمِ الله ورسوله، وقرب منزلته من النّبيّﷺ. وفيه تكرار الكلام لتأكيده وتفهيمه. واستفسار الشّيخ تلميذه عن الحكم ليختبر ما عنده، ويبيّن له ما يشكل عليه منه»[2].

ويلاحظ هنا كيف وجّه النّبي المعلّمﷺ لمعاذٍ الأسئلة التي تتحدّى قدراته العقلية وتدفعه إلى التّفكير والاهتمام من أجل تطوير معلوماته.

(١) البخاري في الرقاق، باب: من جاهد نفسه في طاعة الله (٦١٣٥).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤١٣/١١.

المبحثُ الثَّالثُ
التَّوجيهُ بالنَّمَاذجِ

المطلب الأوَّل
التَّربيةُ بالأمثَالِ

١- أهمُّ معاني الأمثال في القرآن واللّغة:

[أ] تشبيه شيءٍ يراد بيان حسنه أو قبحه بشيءٍ مألوفٍ حسنُه أو معروفةٍ حقارتُه، كتشبيه معبودات المشركين وأوليائهم ببيت العنكبوت في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت: ٤١]. قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: «هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى للمشركين في اتّخاذهم آلهة من دون الله، يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسّكون بهم في الشّدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلّا كمن يتمسّك ببيت العنكبوت، فإنّه لا يجدي عنه شيئاً، فلو علموا هذا الحال لما اتّخذوا من دون الله أولياء»[(١)].

[ب] «ذِكْرُ حالٍ من الأحوال ومقارنتُها بحالٍ أخرى مع وجود جامعٍ بينهما لبيان الفارق، كقوله تعالى في أول سورة محمد: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾﴾

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/٢٧٩.

[محمد: ١- ٣] أي يبيّنُ للنّاس أحوالَهم، فالكافر يحبط عمله، والمؤمن يغفر زَلَله. والجامع بين الفريقين أنّ كليهما بشرٌ، قد وهبه الله عقلاً وأرسل إليه رسولاً، فهذا معنى التّماثل هنا، ومع هذا التّماثل كان الفَارِقُ كبيراً من حيث النتائج؛ لأنّ كلاً منهما سلك طريقاً مغايراً، واتّخذ أسباباً مباينةً لما سلكه الآخر.

[ج] بيان استحالة التّماثل بين شيئين يزعم المشركون أنّ بينهما جانباً من التّماثل، فآلهة المشركين لا يعقل بحالٍ أن ترقى إلى المماثلة مع الخالق فتُعبدَ معه، لذلك ضرب الله لها المثل الآتي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٧٣] فكيف يعبدون هذه الآلهة التي بلغ بها الضّعف هذا المبلغ مع الله خالق كلّ شيء؟!»[(١)].

٢- بعض الأهداف التّربوية للأمثال القرآنيّة والنّبويّة:

أ. تقريب الأفكار والمعاني المجرّدة إلى عقل المسلم، وتوضيحها بما هو محسوسٌ، وهو أسلوبٌ فاعلٌ في توضيح المفاهيم وإزالة الغموض عنها بحيث تصبح في متناول الإنسان ليفهمها ويتدبّرها، وقد بلغت الأمثال القرآنية ذروة الإعجاز والبلاغة من حيث كمالُ الوضوح وأداء المعنى وتقريبه للأفهام، ونذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد: ١٧]

اشتملت هذه الآية على مثلين مضروبين للحقّ في ثباته، والباطل في اضمحلاله وفنائه، فالباطل يذهب ويضمحل ولا ينتفع به، بل يتفرّق ويتمزّق، كالزَّبد الذي يحمله السّيل وإن علا على الماء، وهذا مثلٌ. والمثل الثّاني وهو ما يُسبكُ في النّار من ذهبٍ أو فضةٍ ليجعلَ حليةً، فإنّه يعلوه زبدٌ منه. فلا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أنّ الزَّبد لا يثبت مع

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها لعبد الرحمن النحلاوي ص ٢٠٠.

الماء ولا مع الذّهب والفضة، بل يذهب ويضمحل، ولا يبقى إلّا الماء وذلك الذّهب ونحوه فينتفع به[1].

وكذلك ضرب النّبيّ ﷺ الأمثال لتقريب المعاني والحقائق إلى المبلّغين وتجسيدها بالمحسوس، ومن ذلك قولُه ﷺ: (أرأيتم لو أنّ نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كلّ يوم خمسَ مراتٍ هل يبقى من درنه شيءٌ؟) قالوا: لا يبقى من درنه شيءٌ. قال: (فذلك مثلُ الصّلوات الخمس يمحو الله بهنّ الخطايا)[2].

وقولُه ﷺ: (مَثَلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقيّةٌ قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادبُ، أمسكت الماء، فنفع الله بها النّاس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفةً أخرى، إنّما هي قِيعَانٌ لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مثلُ من فَقُهَ في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فعَلِمَ وعَلَّم، ومثلُ من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به)[3].

ب. إثارة الانفعالات المناسبة للمعنى وتربية العواطف الإيمانيّة. **أما في القرآن** فإنّ «لِاختيار المشبّه به أكبر الأثر في إثارة الانفعال المناسب، فاختيار العنكبوت — كما مرّ- يثير انفعال التقزّز والاحتقار تجاه المشركين، والشّعور بضعف عقولهم، وازدراء أفكارهم.

واختيار الحمار لتشبيه من يقرأُ كتاب الله ولا يعمل به، يثير انفعال الاشمئزاز من هؤلاء، والشّعور بتفاهتهم وضياع عقولهم، واقرأ معي قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا ﴾ [الجمعة: ٥] أي كلّفوا العمل بها ولم يعملوا بما فيها ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥ ﴾ [الجمعة: ٥].

وفي الوقت ذاته يلاحظ أنّ إثارة انفعالات التقزّز والكره والاحتقار لمعاني الشّرك

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٤٤٧.

(٢) البخاري في مواقيت الصلاة، باب: الصلوات الخمس كفارة (٥٠٥) ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب: المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات (٦٦٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) البخاري في العلم، باب: فضل من علم وعلّم (٧٩) ومسلم في الفضائل، باب: بيان مثل ما بعث به ﷺ من الهدى والعلم (٢٢٨٢) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

والكفر، ولضياع التّفكير السّليم عند المشركين أو الضّالين، يقابله إثارة انفعال الارتياح لمعاني الإيمان لدى المؤمن، والاعتزاز بالولاء لله لمجرّد شعور المؤمن بالخلاص ممّا وقع فيه هؤلاء والتّرفع عن أحوالهم بما هداه الله إليه.

وقد جمع القرآن بين الإثارتين في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٤- ٢٦٦]

فهذا المثل القرآنيّ العظيم يثير في النّفس نوعين من الانفعالات: ففي الآية الأولى والأخيرة، يثير المثلُ انفعال الخوف من الخسران، وإحباط العمل وخسارة الثّواب، في حالٍ لا يستطيع فيها الإنسان الاستغناء عن ثمرات أعماله، كما لا يستطيع الأب العاجز الضّعيف الاستغناء عن ثمرات جنيه، وفيها تنفير من الرّياء الذي يؤدي إلى هذا الخسران. أما الآية الثّانية ففيها إثارة انفعال الرّغبة في ثواب الله والاعتزاز بكرم الله، والشّعور بفضله ونعمته، وبهذه الإثارات إذا تكرّرت بنوعيها تربّى عاطفة الشّكر لله والخضوع له والشّعور بقدرته وعظمته»[1].

وأما في الحديث فعن أبي هريرةرضي الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ: (إنّما مَثَلي ومَثَلُ أمّتي كمثلِ رجلٍ استوقد ناراً، فجعلت الدَّوابُّ والفراشُ يقعْنَ فيه، فأنا آخِذٌ بحُجَزكم وأنتم تقحّمُونَ فيه)[2].

---

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها لعبد الرحمن النحلاوي ص ٢٠٢-٢٠٣.

(٢) مسلم في الفضائل، باب: شفقتهﷺ على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم (٢٢٨٤). قوله: الجنادب: جمع جندب، =

وعن جابرٍ قال: قال رسول اللهﷺ: (مَثَلي ومثلُكم كمَثَل رجلٍ أوقدَ ناراً، فجعل الجَنادبُ والفراشُ يقعْنَ فيها وهو يذبُّهُنَّ عنها، وأنا آخِذٌ بِحُجَزِكم عن النّار، وأنتم تفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي)[1].

قال الإمام النووي: «ومقصود الحديث: أنّهﷺ شبّه تساقط الجاهلين والمخالفين، وحرصهم على الوقوع في ذلك، مع منعه إيّاهم وقبضه على مواضع المنع منهم، بتساقط الفراش في نار الدّنيا لهواه وضعفِ تمييزه، وكلاهما حريصٌ على هلاك نفسه، ساعٍ في ذلك لجهله»[2].

ويلاحظ هنا وفور رحمتهﷺ وشفقته على الأمة، وكيف أثار بهذا المثل العواطف الإيمانيّة؛ عاطفة الإعجاب والحبّ والتّقديس لشخصهﷺ وعواطف الخوف والرّهبة من هذا المصير القاتل المؤلم الذي ينتظر أتباع الهوى. أعاذنا الله وإيّاكم منه.

ج. تربية الإنسان على السّلوك الخيّر وتهذيب نزعاته الشّريرة. مرّ بنا أنّ الأمثال القرآنيّة والنّبويّة تغذّي عقل الإنسان وتنوّره، وتثير عواطفه وميوله واتجاهه نحو الخير والحقّ، وبهذا تسهم الأمثال في تربيته وتوجيه سلوكه إلى سواء السّبيل، فتستقيم حياة الأفراد والمجتمعات، وترتقي سلّم الحضارة المثلى، ويتحقّق فيها الرّخاء والعدل والأمن.

= وهو نوعٌ من الجراد يَصِرُّ ويقفز ويطير. والحُجَز: جمع حُجْزَة: وهي معقد الإزار والسراويل.

(١) مسلم في الفضائل، باب: شفقته ﷺ على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم (٢٢٨٥). ومعنى يذبُّهُنَّ: يطردُهنّ ويدفعُهُنّ.

(٢) المنهاج شرح الجامع الصحيح ٥/٢٣١٤.

المطلب الثَّاني
التّربية بالأحداث أو باغتنام المواقف والمناسبات

١- معنى التّربية بالأحداث وأهمّيّتها:

المراد من التّربية بالأحداث استغلال الفرصة المناسبة لموقفٍ معيَّن أو حَدَث طارئٍ، من أجل النّصيحة أو التّوجيه، أو تعديل السّلوك نحو الأفضل المطلوب، والموافق لهدي الإسلام.

ويعدُّ اغتنام الفرص والمناسبات والأحداث من الأساليب الفعَّالة في التّربية، ويجسّد ربط الدّين بالواقع والحياة، ويوفّر التّربة الخصبة للزّرع والحرث. «والأصل في هذا المبدأ ظاهرٌ وقويٌّ، وهو نزول الآيات الكريمة بحسب المناسبات لتكون أقرب إلى الفهم وأدعى للتطبيق والالتزام والتّنفيذ، وكذلك أسباب ورود الحديث»[(١)].

«ومزيَّة الأحداث على غيرها من وسائل التّربية أنها تُحدِث في النّفس حالةً خاصةً هي أقرب للانصهار. إنّ الحادثة تثير النّفس بكاملها، وترسل فيها قدراً من حرارة التّفاعل والانفعال، يكفي لصهرها أحياناً، أو الوصول بها إلى قرب الانصهار. وتلك حالة لا تحدث كلّ يومٍ في النّفس، وليس من اليسير الوصول إليها والنّفس في راحتها وأمنها وطمأنينتها، مسترخيةً، أو منطلقةً في تأملٍ رخيٍّ.. والمثل يقول: اضرب والحديد ساخن! لأنّ الضّرب حينئذٍ يسهِّل الطَّرْقَ والتّشكيل. أمّا إذا تركته يبرد فهيهات أنْ تُشَكّل منه شيئاً ولو بذلت أكبر الجهود. لذلك كان استغلال الحادثة و ((الحديد ساخن)) مهمّةً كبيرةً من مهام التّربية لينطبع على النّفس في حالة انصهارها ما يريد المربّي أن يطبعه من التّوجيهات والتّهذيبات، فلا يزول أثرها أبداً.. ولا يزول من قريب»[(٢)].

---

(١) طرق تدريس التربية الإسلامية للدكتور محمد الزحيلي ص٢٥٣.

(٢) منهج التربية الإسلامية ١/٢٠٧-٢٠٨.

٢- التّربية بالأحداث في القرآن الكريم:

كانت الأحداث الواقعة في حياة الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين مدعاةً إلى نزول التّوجيهات القرآنية ذات الأثر البليغ في نفوسهم وتربيتهم.

ففي غزوة أحدٍ تكبّد المسلمون خسائر كبيرة، واستشهد منهم سبعون صحابياً، وتساءل القوم عن سبب ذلك، فجاءهم البيان الإلهيّ موضحاً لهم أنّه من عند أنفسهم بسبب عصيان الرّماة أمر الرّسول، فأخذ المسلمون درساً بليغاً في الطّاعة وعدم مخالفة الأمر. قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وكذلك ما كان يوم حنينٍ، حين أُعجب المسلمون بكثرتهم، فلم تغن عنهم شيئاً، فكان لهم في ذلك درسٌ عظيمٌ آخر. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة: ٢٥- ٢٦].

وكذلك في حديث الإفك والافتراء على السّيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها نزلت آياتٌ قرآنيّةٌ فيها عظات ودروسٌ عظيمةٌ[(١)]. وغير ذلك الكثير من الأحداث التي كانت تنزل فيها التّوجيهات الإلهيّة المربّية للصّحابة، والتي تبيّن لهم الموقف الصّحيح الذي يجدر بهم التزامه.

٣- التّربية بالأحداث والمواقف في الهدي النّبويّ:

وعلى الدّرب نفسه سار النّبيّ محمّدﷺ يستثمر الفرص والحوادث المناسبة، ويوجّه أصحابه الكرام إلى صائب الرّأي والفعل، ويعدّل من السّلوك الخاطئ، ولا يفوّت فرصةً تسمح بتحقيق ذلك إلّا ويغتنمها، **والأمثلة على ذلك كثيرة، وهاك بعضها:**

---

(١) انظر: سورة النور/ الآيات ١١-٢٠.

أ): **هوان الدنيا:** عن جابر بن عبد الله أنّ رسول اللهﷺ مرَّ بالسّوق، داخلاً من بعض العالية، والنّاس كَنَفَتَه[1]، فمرَّ بجديٍ أسكَّ ميّتٍ، فتناولَه فأخذَ بأُذنه، ثمّ قال: (أيُّكم يحبُّ أنّ له هذا بدرهمٍ). فقالوا: ما نحبُّ أنّه لنا بشيءٍ، وما نصنع به؟ قال: (أتحبّون أنّه لكم) قالوا: والله لو كان حيّاً كان عيباً فيه؛ لأنّه أسكُّ، فكيف وهو ميّتٌ؟ فقال: (فو الله للدّنيا أهون على الله من هذا عليكم)[2].

الفوائد التربويّة:

١) التّربية بالموقف توصل المفهوم الذي يريده المربّي إلى نفوس تلامذته بصورة كاملةٍ واضحةٍ ومختصرةٍ، يغني عن كثير من المواعظ والدّروس والخواطر التي تحتاج إلى جهدٍ وتحضير.

٢) بيّن النّبيّﷺ لأصحابه حقيقة الدّنيا، وأنّها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، وأنّ هذه الدّنيا التي يتكالب عليها النّاس حقيقتها مثل الجدي الأسكّ، فعلام يتنافسون على جديٍ أسكّ؟! وعلام يتنافسون على نعيمٍ زائلٍ ويتركون المنافسة الحقيقية على النّعيم الباقي الأبديّ الخالد.

٣) وعندما يعرف الإنسان المسلم الفطن هذه الحقيقة وتستقرّ في نفسه يجعل حياته ومعاشه وحركته كلّها لله، فلا يَوْلَهُ[3] إن أقبلت عليه الدّنيا أو أدبرت، فالدّنيا تصبح في يده لا في قلبه[4].

٤) «إنّ المكان الذي وعظهم بهﷺ من خلال مشهد الجدي الميّت كان السّوق؛ الذي هو مظنّة الغفلة، والتّطلّع إلى نماء الأموال، وزيادة الثّروة، فكانت الموعظة بمثابة هزّةٍ قويةٍ تناسب غفلة أهل السّوق، دعاهم فيها إلى التّأمل والتّفكير، وأشعرهم بتفاهة الدّنيا التي هانت على الله تعالى كما هان عليهم هذا الجدي الميّت المنتن»[5].

---

(١) قال النووي في المنهاج شرح الجامع الصحيح ٢٧٨٥/٥: وفي بعض النسخ: كنفتيه، معنى الأول: جانبه، والثاني: جانبيه.

(٢) مسلم في مقدمة كتاب الزهد والرقائق (٢٩٥٧).

(٣) يوله: يذهب عقله.

(٤) انظر: أساليب الرسول في الدعوة والتربية ليوسف خاطر حسن الصوري ص٤٣

(٥) أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية لزياد محمود العاني ص ٣٨٩.

ب) : **هذا لكم وهذا هديّة :** عن أبي حُمَيْدٍ السّاعدي رضي الله عنه قال: استعمل النّبيّ ﷺ رجلاً من الأزد، يقال له ابن اللُّتْبِيَّةِ، على الصّدقة، فلما قَدِمَ قال: هذا لكم وهذا أُهدي لي. قال: (فهلّا جلس في بيت أبيه أو بيت أمّه، فينظرَ يُهدَى له أم لا؟ والذي نفسي بيده لا يأخذ أحدٌ منه شيئاً إلّا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته، إن كان بعيراً لهُ رُغاءٌ، أو بقرةً لها خُوارٌ، أو شاةً تَيْعَرُ) ثم رفع بيده حتى رأينا عُفْرة إبطيه: (اللّهم هل بلّغت، اللّهم هل بلغت) ثلاثاً[1].

الفوائد التربويّة :

١) التّربية بالموقف من الوسائل المهمّة التي يستخدمها المربّي تجاه تلاميذه ممّا له أثرٌ كبير في غرس المفهوم في حينه.

٢) مصارحة المربّي لتلميذه وعدم استخدام المداراة وخاصّة إذا كان ثَمّة أمرٌ شرعيٌّ يؤثر على دينه.

٣) المربّي النّاجح مَنْ يحاسب أفراده ويتابعهم بعد التّكليف حتّى لا يحدث نوعٌ من الفوضى والمزاجيّة.

٤) في تصحيح بعض المفاهيم لا بدّ من ذكرها للعموم حتّى ولوكان المخطئ أحد الحضور.

٥) عدم ذكر اسم المخطئ في المجلس العام من الصّفات التي يتميّز بها المربّي النّاجح حتّى لا يؤثّر على نفسيّة المخطئ.

٦) تبيان عظم هذا الأمر ومدى خطورته بأنْ رفع النّبيّ ﷺ يديه ودعا الله سبحانه، وقال: اللّهم هل بلغت.[2]

ج) : **لبناتٌ في الصّغر بناءٌ شامخٌ في الكِبر:** عن عمر بن أبي سلمة قال: كنت غلاماً في حَجْر رسول الله ﷺ يدي تطيش في الصّحْفة، فقال لي رسول الله ﷺ: ((يا غلام، سمِّ الله،

(١) البخاري في الهبة، باب: من لم يقبل الهدية لعلّةٍ (٢٤٥٧).

(٢) أساليب الرسول في الدعوة والتربية ليوسف خاطر حسن الصوري ص ٤٨.

وكُلْ بيمنيك، وكُلْ ممّا يليك)) فما زالت تلك طِعْمَتي بَعْدُ[1].

الفوائد التربويّة:

١) تطلق كلمة الغلام على الذي لم يبلغ الحلم، فلا يقول المربّي هذا صغير فعندما تكبر سنّه أُربيه وأُعلّمه، فهذا مفهوم خاطئ في التّربية.

٢) أفضل التّربية ما كان في الصّغر، فالصّغير عنده الاستعداد النّفسي لاستقبال التّوجيهات والمفاهيم أكثر من الكبير الذي يصعب تغيير طباعه، والمثل يقول: العلم في الصّغر كالنّقش في الحجر.

٣) في مثل هذه المواقف تشمئز النّفوس، ولا تستطيع أن تضبط أعصابها في النّصح والتّوجيه، ولكنّ المربّي النّاجح هو الذي يضبط أعصابه لكي تكون نصيحته ليس فيها تشنّج أو خروج عن الأدب.

٤) نتيجة التّوجيه وخاصّة التّوجيه المباشر وهو عادة ما يصلح لصغار السنّ وتكون النّتيجة إيجابيةً، فيغرس المفهوم مع الصّغير طول حياته.

٥) الرّفق في النّصح والتّوجيه ما كان في شيءٍ إلّا زانه وما نزع من شيءٍ إلّا شانه؛ كما قال رسول الله ﷺ[2].

---

(١) البخاري في الأطعمة، باب: التسمية على الطعام والأكل باليمين (٥٠٦١) ومسلم في الأشربة، باب: آداب الطعام والشراب وأحكامهما (٢٠٢٢).

(٢) أساليب الرسول في الدعوة والتربية ليوسف خاطر حسن الصوري ص ٥٤-٥٥.

المبحثُ الرَّابعُ
العِظةُ والعِبرَة

المطلب الأوَّل
التّربية بالموعظة والإرشاد

التّربية بالموعظة والإرشاد من أكثر أساليب التّربية الإسلاميّة أهمّيّة؛ وذلك لأنّ في النّفس استعداداً للتأثّر بما يلقى إليها من الكلام، وهو استعدادٌ مؤقتٌ في الغالب، ولذلك يلزمه التّكرار. وقد لا تكفي الموعظة وحدَها في التّربية، ولذلك هي بحاجة إلى غيرها من الأساليب كالقدوة الحسنة، والتّطبيق العملي، والمصاحبة، وحسن المعاملة، والتّرغيب والتّرهيب وغيرها[1].

والأصل في هذا المبدأ التّربويّ ما ورد في القرآن الكريم من آياتٍ كثيرةٍ مليئةٍ بالمواعظ والتّوجيهات كقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨ ﴾ [النساء: ٥٨]. وقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠ ﴾ [النحل: ٩٠]. وقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ

(١) انظر: طرق تدريس التربية الإسلامية للدكتور محمد الزحيلي ص ٢٧١.

تَعۡمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ [لقمان: ١٣- ١٩].

وقام النّبيّ ﷺ بالوعظ والإرشاد، حتى بلّغ الرّسالة وأدى الأمانة ونصح الأمّة، وكانﷺ لا يُثقل على أصحابه، ويتخوّلهم بالموعظة حتّى لا يسأموا. فعن ابن مسعودرضي الله عنه قال: (كان النّبيّ ﷺ يتخوّلنا بالموعظة في الأيام، كراهةَ السّآمة علينا)[1].

قال الحافظ ابن حجر: «ويستفاد من الحديث استحباب ترك المداومة في الجِدِّ في العمل الصّالح خشية الملال، وإنْ كانت المواظبة مطلوبةً لكنّها على قسمين: إمّا كلّ يومٍ مع عدم التّكلّف، وإمّا يوماً بعد يوم فيكون يوم التّرك لأجل الرّاحة ليُقبل على الثّاني بنشاطٍ، وإمّا يوماً في الجمعة، ويختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، والضّابط الحاجة مع مراعاة وجود النّشاط»[2].

ولهذا كان ابن مسعودرضي الله عنه يذكّر أصحابه في الأسبوع مرةً واحدةً، فعن شقيقٍ أبي وائل قال: كان عبد الله يذكّرنا كلَّ يومِ خميسٍ، فقال له رجلٌ: يا أبا عبد الرّحمن، إنا نحبُّ حديثك ونشتهيه، ولَوَدِدْنا أنّك حدثتنا كلَّ يوم. فقال: ما يمنعني أن أحدثكم إلّا كراهيةُ أن أملّكُم: إنّ رسول اللهﷺ كان يتخوَّلنا بالموعظة في الأيام كراهيةَ السّآمةِ علينا[3].

الفوائد التّربويّة:

١- كثرة المواعظ ينسي بعضُها بعضاً، ويورث الزّهد بها وبالواعظ.

٢- المربّي الحكيم هو الذي يسوق موعظةً واحدةً ثّم يراقب تطبيقها، حتّى إذا ما نضج

---

(١) البخاري في العلم، باب: ما كان النبي ﷺ يتخوّلنا بالموعظة والعلم كي لا ينفروا (٦٨) وقوله: يتخولنا بالموعظة: يتعهّدنا، مراعياً أوقات نشاطنا، ولا يفعل ذلك دائماً. كراهة السآمة: لا يحب أن يصيبنا الملل.

(٢) فتح الباري ١/٢١٤.

(٣) البخاري في العلم، باب: من جعل لأهل العلم أياماً معلومة (٧٠) ومسلم واللفظ له في صفات المنافقين وأحكامهم، باب: الاقتصاد في الموعظة (٢٨٢١).

تطبيقها ساق موعظةً أخرى.

٣- المربّي الحكيم هو الذي لا يكثر مجالس الوعظ والتّوجيه، ولا يواجه تلميذه بالتّوجيه والوعظ كلّما رآه، بل يترك فرصةً للمتربّي يلتقط أنفاسه فيها، وتتّضح فيها التّوجيهات والمواعظ في داخل نفسه[١].

وجدير بالذكر أنّ الموعظة الصّادقة النّابعة من القلب تؤثر في سامعيها وتلامس عواطفهم ومشاعرهم وتحفزهم على طلب المزيد من وصايا وأوامر المربّي الشّرعيّة. فعن العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول اللهﷺ موعظةً بليغةً، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجلٌ: إنّ هذه موعظةُ مودِّعٍ، فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: (أوصيكم بتقوى الله، والسّمع والطّاعة، وإنْ عبدٌ حبشيٌّ، فإنّه من يعش منكم يرى اختلافاً كثيراً، وإيّاكم ومحدثات الأمور، فإنّها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنّتي، وسنّة الخلفاء الرّاشدين المهديّين، عضُّوا عليها بالنّواجذ)[٢].

(١) أساليب الرسول في الدعوة والتربية ليوسف خاطر حسن الصوري ص ٦٣.

(٢) أبو داود في السنة، باب: في لزوم السنة (٤٦٠٧) والترمذي واللفظ له في العلم، باب: ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع (٢٦٧٦) وقال: حديث حسن صحيح.

المطلب الثَّاني
التَّربيةُ بالقِصّة

تمهيد: عن أهمّيّة القصّة التّربويّة:

القصّة محبّبةٌ إلى نفوس الكبار والصّغار على حدٍّ سواء، وأثرها فيهم جميعاً سحريٌّ. و «ممّا لا شك فيه أنّ القصّة الْمُحْكمة الدّقيقة تَطْرق المسامع بشغفٍ، وتنفذ إلى النّفس البشرية بسهولةٍ ويسرٍ، وتسترسل مع سياقها المشاعر فلا تكلُّ ولا تملُّ، ويرتاد العقل عناصرها فيجني من حقولها الأزاهير والثّمار.

والدّروس التّلقينيّة والإلقائيّة تورث الملل، ولا تستطيع النّاشئة أن تتابعها وتستوعب عناصرها إلّا بصعوبةٍ وشدّةٍ، وإلى أمدٍ قصيرٍ، ولذا كان الأسلوب القصصيّ أجدى نفعاً، وأكثر فائدة.

والمعهود- في حياة الطّفولة- أن يميل الطّفل إلى سماع الحكاية ويصغي إلى رواية القصّة، وتعي ذاكرته ما يُرْوَى له، فيحاكيه ويقصُّه.

هذه الظّاهرة الفطرية النّفسيّة ينبغي للمربيّن أن يفيدوا منها في مجالات التّعليم، لا سيما التّهذيب الدّينيُّ الذي هو لبُّ التّعليم وقِوام التّوجيه فيه»[1].

أولاً- القصص القرآنيّ

١- الميزات التّربويّة للقصص القرآنيّة[2]:

أ) تشدُّ القصّة القارئ وتوقظ انتباهه، من دون توانٍ أو تراخٍ، فتجعله دائم التأمّل في معانيها والتّتبع لمواقفها، والتأثّر بشخصياتها وموضوعاتها حتّى آخر كلمة فيها.

وذلك أنّ القصّة تبدأ غالباً، وفي شكلها الأكمل، بالتّنويه بمطلبٍ أو وعدٍ أو إنذارٍ

(١) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص ٣٠٥.

(٢) أصول التربية الإسلامية وأساليبها لعبد الرحمن النحلاوي ص١٨٩-١٩٢باختصار وتصرف يسير.

بخطرٍ، أو نحو ذلك مما يسمّى عقدة القصّة، وقد تتراكم قبل الوصول إلى حلّ هذه العقدة مطالب أو مصاعب أخرى، تزيد القصّة حبكاً، كما تزيد القارئ أو السّامع شوقاً وانتباهاً وتلهّفاً على الحلّ والنّتيجة.

ففي مطلع قصّة يوسف مثلاً، تعرض على القارئ رؤيا يوسف عليه السلام يصحبها وعدٌ من الله على لسان أبيه، بمستقبلٍ زاهرٍ، ونعمٍ من الله يسبغها على هذه الأسرة الفقيرة المتعثرة، الدّاعية إلى الله.

وتتتابع المصائب والمشكلات على بطل القصّة يوسف عليه السلام، ويتابع القارئ اهتمامه ينتظر تحقيق وعد الله، ويترقّب انتهاء هذه المصائب والمشكلات بتلهّف.

ب) تتعامل القصّة القرآنيّة مع النّفس البشرية في واقعيّتها الكاملة متمثلةً في أهمّ النّماذج التي يريد القرآن إبرازها للكائن البشريّ، ويوجّه الاهتمام إلى كلّ أنموذج بحسب أهميّته، فيَعرِضه عرضاً صادقاً يليق بالمقام ويحقّقُ الهدف التّربويّ من عرضه. ففي قصّة يوسف يعرض أنموذج الإنسان الصّابر على المصائب في سبيل الدّعوة إلى الله (في شخص يوسف)، وأنموذج المرأة المترفة تعرُض لها حبائل الهوى فتملأ قلبها بالحبّ والشّهوة، وتدفعها إلى محاولة ارتكاب الجريمة، ثمّ إلى سجن إنسانٍ بريءٍ مخلصٍ لا ذنب له إلّا التّرفع عن الدّنايا والإخلاص لسيده ومراعاة أوامر ربّه.

وأنموذج إخوة يوسف: تدفعهم هواتف الغيرة والحسد والحقد والمؤامرة والمناورة ومواجهة آثار الجريمة، والضّعف والحيرة أمام هذه المواجهة.

وأنموذج يعقوب: الوالد المحبّ الملهوف، والنّبيّ المطمئن الموصول.

يعرض القرآن كلّ هذه النماذج البشرية عرضاً واقعياً نظيفاً من غير إفحاشٍ ولا إغراءٍ بفاحشةٍ أو جريمةٍ، كما يفعل مؤلّفو القصص التي يسمّونها واقعيةً أو طبيعيةً، في العصر الحديث؛ ذلك لأنّ من أكثر غايات القصّة القرآنية أهمّيّةً: التّربيةُ الخلقية عن طريق علاج النّفس البشريّة علاجاً واقعياً. فالقصّة القرآنيّة ليست غريبة عن الطّبيعة البشريّة، ولا محلّقةً في جوٍّ ملائكيٍّ محضٍ؛ لأنّها إنّما جاءت علاجاً لواقع البشر، وعلاج الواقع البشري لا يتمُّ إلّا بذكر جانب الضّعف والخطأ في طبيعته، ثمّ بوصف الجانب الآخر الواقعيّ المتسامي الذي

يمثّله الرّسل والمؤمنون...

ج) تربّي القصّة القرآنيّة العواطف الإيمانيّة وذلك عن طريق:

١. إثارة الانفعالات كالخوف والتّرقب، وكالرّضا والارتياح والحبّ، وكالتقزّز والكره، كلّ ذلك يثار في طيّات القصّة بما فيها من وصفٍ رائعٍ ووقائع مصطفاةٍ، فقصّة يوسف مثلاً تربّي الصّبر والثّقة بالله، والأمل في نصره، بعد إثارة انفعال الخوف على يوسف، ثمّ الارتياح إلى استلامه منصب الوزارة.

٢. توجيه جميع هذه الانفعالات حتّى تلتقي عند نتيجةٍ واحدةٍ هي النّتيجة التي تنتهي إليها القصّة، فتوجّهُ مثلاً حماسةَ قارئ القصّة نحو يوسف وأبيه، حتى يلتقيا في شكر الله في آخر القصّة، وتوجّهُ بُغضَ الشرِّ الذي صدر عن إخوة يوسف حتى يعترفوا بخطئهم ويستغفرَ لهم أبوهم في آخر القصّة وهكذا...

٣. المشاركة الوجدانية حيث يندمج القارئ مع جوِّ القصّة العاطفيّ حتّى يعيش بانفعالاته مع شخصياتها، ففي قصّة يوسف يعتري القارئ خوفٌ أو قلقٌ عندما يراد قتل يوسف، وإلقاؤه في الجبِّ، ثم تنشرح العواطف قليلاً مع انفراج الكربة عنه، ثم يعود القارئ إلى الترقّب عندما يدخل يوسف دار(العزيز) وهكذا يعيش القارئ مع يوسف في سجنه وهو يدعو إلى الله، حتّى يفرح بإنقاذه، ثم بتولّيه وزارة مصر، وبنجاة أبيه من الحزن، وهو في كلّ ذلك رسول الله والدّاعية إلى دينه.

د) الإقناع الفكريّ بموضوع القصّة وذلك عن طريق:

١. الإيحاء، والاستهواء والتقمّص، فلولا صدق إيمان يوسف لما صبر في الجبّ على الوحشة، ولما ثبت في دار امرأة العزيز على محاربة الفاحشة والبعد عن الزّلل، هذه المواقف النّبيلة توحي للإنسان بأهمّيّة مبادىء بطل القصّة وصحّتها، وتستهويه صفات هذا البطل وانتصاره بعد صبرٍ ومصابرةٍ طويلةٍ، فيتقمَّص هذه الصّفات حتّى إنّه يقلّدها ولو لم يقصد إلى ذلك، وحتّى إنّه ليردِّدُ بعض هذه المواقف ويتصوّرها ويسترجعها من شدّة تأثّره بها.

٢. التّفكير والتّأمل فالقصص القرآنيّ لا يخلو من محاوراتٍ فكريةٍ ينتصر فيها الحقُّ ويصبح

مرموقاً محفوفاً بالحوادث والنّتائج التي تثبت صحّته وعظمته في النّفس وأثره في المجتمع، وتأييد الله له. ففي قصّة يوسف تجد حواراً يدور بينه وبين فتيينِ عاشا معه في السّجن فدعاهما إلى توحيد الله. وقصّة نوحٍ كلُّها حوارٌ بين الحقّ والباطل، وكذلك قصّة شعيبٍ وصالحٍ وسائر الرّسل، حوارٌ منطقيٌّ مدعومٌ بالحجّة والبرهان يتخلّل القصّة، ثم تدور الدّوائر على أهل الباطل ويُظهر الله الحقَّ منتصراً في نتيجة القصّة، أو يهلك الباطل وأهله، فيتعاون الإقناع العقليّ المنطقيّ والإثارة الوجدانيّة، والإيحاء وحبُّ البطولة (الاستهواء) والدّافع الفطري على حبّ القوة وتقليد الأقوياء...وبهذا تحيط القصّة القرآنيّة نفس النّاشئ بالتّربية الربّانيّة من جميع جوانبها العقلية والوجدانيّة والسّلوكيّة.

٢- أنواع القصص في القرآن:

«والقصص في القرآن ثلاثة أنواع:

النّوع الأوّل: قصص الأنبياء: وقد تضمّن دعوتهم إلى قومهم، والمعجزات التي أيّدهم الله بها، وموقف المعاندين منهم، ومراحل الدّعوة وتطوّرها، وعاقبة المكذّبين، كقصص نوحٍ، وإبراهيم، وموسى، وهارون، وعيسى، ومحمدٍ، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين، عليهم جميعاً أفضل الصّلاة والسّلام.

النّوع الثّاني: قصصٌ قرآنيٌّ يتعلّق بحوادث غابرةٍ، وأشخاصٍ لم تثبت نبوّتهم: كقصّة الذين أُخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وطالوت وجالوت، وابني آدم، وأهل الكهف، وذي القرنين، وقارون، وأصحاب السّبت، ومريم، وأصحاب الأخدود، وأصحاب الفيل ونحوهم.

النّوع الثّالث: قصص يتعلّق بالحوادث التي وقعت في زمن رسول الله ﷺ، كغزوة بدرٍ وأحدٍ في سورة آل عمران، وغزوة حنينٍ وتبوكٍ في التّوبة، وغزوة الأحزاب في سورة الأحزاب، والهجرة، والإسراء، ونحو ذلك»[1].

(١) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص ٣٠١.

٣- فوائد قصص القرآن:

وللقصص القرآنيّ فوائد نجمل أهمّها فيما يأتي:

١-إيضاح أسس الدّعوة إلى الله، وبيان أصول الشّرائع التي بُعث بها كلُّ نبيٍّ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥].

٢-تثبيت قلب رسول الله ﷺ وقلوب الأمّة المسلمة على دين الله، وتقويةُ ثقةِ المؤمنين بنُصرة الحقّ وجنده، وخذلان الباطل وأهله: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ١٢٠﴾ [هود: ١٢٠].

٣-تصديق الأنبياء السّابقين وإحياء ذكراهم وتخليد آثارهم.

٤-إظهار صدق محمدٍ ﷺ في دعوته بما أخبر به عن أحوال الماضين على امتداد القرون والأجيال.

٥-مقارعة أهل الكتاب بالحجّة فيما كتموه من البيّنات والهدى وتحدّيه لهم بما كان في كتبهم قبل التّحريف والتّبديل، كقوله تعالى: ﴿۞كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣﴾ [آل عمران: ٩٣].

٦-والقصص ضرب من ضروب الأدب، يصغي إليه السّمع، وترسخُ عِبَرُهُ في النّفس: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١١١﴾ [يوسف: ١١١][1].

٤- أغراض القصّة القرآنيّة:

ليست القصّة القرآنية عملاً مطلقاً مجرّداً عن الأغراض التوجيهيّة، إنما هي وسيلةٌ من وسائل القرآن الكثيرة إلى تحقيق أغراضه الدّينيّة الرّبّانيّة، فهي إحدى الوسائل لإبلاغ الدّعوة الإسلاميّة وتثبيتها. والتّعبير القرآنيُّ مع ذلك يؤلّف بين الغرض الدينيّ والغرض الفنيّ، وبهذا امتازت القصّة القرآنيّة بميزاتٍ تربويّةٍ وفنيّةٍ... وسنعرض للقارئ بعض أغراض القصّة القرآنيّة لكي يكون المربّي على بيّنةٍ من هذه الأغراض فيوجّه الطلاب بالاستجواب عن كلّ

(١) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص ٣٠١-٣٠٢.

غرضٍ إلى معرفة هذا الغرض، وتحقيقه في نفوسهم أو سلوكهم أو في تربيّة عقولهم ووجدانهم وعواطفهم. **وهاك أهمّ هذه الأغراض:**

أ-إثبات الوحي والرّسالة، وتحقيق القناعة بأنّ محمداً ﷺ- وهو الأميُّ الذي لا يقرأ، ولا عُرِفَ عنه أنّه جلس إلى أحبار اليهود والنّصارى- يتلو على قومه هذه القصص من كلام ربّه، وقد جاء بعضها في دقةٍ وإسهابٍ، فلا يشكُّ عاقلٌ في أنّها وحيٌ من الله، وأنّ محمداً رسول الله يبلّغ رسالة ربّه، فقد جاء في أول سورة يوسف قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [يوسف: ٢- ٣] وجاء في سورة هود بعد قصّة نوح: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود: ٤٩].

ب-أنّ الله ينصر رسله والذين آمنوا ويرحمهم وينجّيهم من المآزق والكروب، من عهد آدم ونوحٍ إلى عهد محمّد ﷺ وأنّ المؤمنين كلّهم أمّةٌ واحدةٌ، والله الواحد ربُّ الجميع. كما في سورة الأنبياء حيث ورد ذكر موسى وهارون، ثمّ لمحةٌ موجزةٌ عن قصّة إبراهيم ولوط وكيف نجّاهما الله وأهلك قومهما، وقصّة نوحٍ، وجانبٌ من أخبار داود وسليمان وما أنعم الله عليهما، وأيوب حين نجاه الله من الضّرّ، وورد ذكر إسماعيل وإدريس وذي الكفل وكلّهم من الصّابرين الصّالحين... ويختم الله هذه السّلسلة من الأنبياء بخبر مريم وابنها عيسى عليهما السّلام، ثم يخاطب الله مباشرة جميع أنبيائه ورسله وأتباعهم بقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

ج-تنبيه أبناء آدم إلى خطر غواية الشّيطان [الأعراف: ٢٥-٣٠] وإبراز العداوة الخالدة بينه وبينهم منذ أبيهم آدم إلى أنْ تقوم السّاعة. وإبراز هذه العداوة عن طريق القصّة أجلى وأقوى، وأدعى إلى الحذر الشّديد من كلّ هاجسٍ في النّفس يدعو إلى الشّر.

ولما كان هذا موضوعاً خالداً تكرّرت قصّة آدم في مواضع شتى، ممّا يدعو المربّي إلى الإلحاح على هذا الموضوع وتوجيه الطّلاب إلى الحذر من غواية الشّيطان في كلّ مناسبةٍ ملائمةٍ.

د-بيان قدرة الله تعالى بياناً يثير انفعال الدّهشة والخوف من الله لتربية عاطفة الخشوع والانقياد ونحوها من العواطف الإيمانيّة.

كقصّة الذي أماته الله مئة عام ثم بعثه [البقرة: ٢٥٩] وقصّة خلق آدم [البقرة: ٣٣-٣٧] و [آل عمران: ٥٩]، وقصّة إبراهيم والطّير الذي آب إليه بعد أنّ جعل على كلّ جبلٍ جزءاً منه؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢٦٠][1].

ثانياً- القصص النّبويّ

١) أهداف القصص النّبويّ:

لا يختلف القصص النّبويُّ من حيث أهمّيّته وميزاته التّربويّة عن القصص القرآنيّ ولكنّنا قد نجد فيه تفصيلاً وتخصيصاً من حيث الأهداف، **ونذكر منها على سبيل المثال:**

الهدف الأوّل: بيان أهمّيّة إخلاص العمل الصّالح لله والتّوسّل به إلى الله لتفريج الأزمات، وفيه جاءت قصّة النّفر الثّلاثة الذين آواهم المبيت إلى الغار، فانحدرت صخرة من الجبل فسدّت عليهم الغار، فقالوا: إنّه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أنْ تدعوا بصالح أعمالكم، قال رسول الله ﷺ: (قال رجلٌ منهم: اللّهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أَغْبُقُ[2] قبلَهما أهلاً ولا مالاً، فنأى بي طلب الشّجر يوماً فلم أُرِحْ عليهما حتّى ناما، فحلبت لهما غَبُوقهم[3]، فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما وأن أَغْبُقَ قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت- والقدَحَ على يدي- أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصّبية يتضاغَون جوعاً[4] عند قدميّ، فاستيقظا فشربا غَبُقوهما. اللّهم إنْ كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنّا ما نحن فيه من هذه الصّخرة، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه. قال

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها لعبد الرحمن النحلاوي ص ١٩٢-١٩٥ باختصار وتصرف يسير.

(٢) لا أسقي.

(٣) اللبن الذي خصصت لسقيهما، وهو شرب العشي.

(٤) يصيحون من الجوع.

الآخر: اللّهم كانت لي ابنة عمٍّ كانت أحبَّ النّاس إليَّ، فأردتها على نفسها فامتنعت منّي، حتى ألمت بها سَنَةٌ من السّنين، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومئة دينارٍ على أن تخلّي بيني وبين نفسها ففعلت، حتّى إذا قَدَرْتُ عليها قالت: اتقّ الله ولا تفضَّ الخاتم إلا بحقّه، فانصرفت عنها وهي أحبّ الناس إليَّ، وتركت الذّهب الذي أعطيتها، اللّهم إنْ كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافْرُجْ عنّا ما نحن فيه، فانفرجت الصّخرة غير أنّهم لا يستطيعون الخروج منها. وقال الثّالث: اللّهم إني استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غيرَ رجلٍ واحدٍ ترك الذي له وذهب، فثَمَّرْتُ أجْرَهُ حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حينٍ فقال: يا عبد الله أدِّ إليَّ أجري فقلت: كلُّ ما ترى من أجرك: من الإبل والبقر والغنم والرّقيق. فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بي! فقلت: لا أستهزئ بك، فأخذَه كلَّه فاستاقه فلم يترك منه شيئاً، اللّهم إنْ كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافْرُجْ عنّا ما نحن فيه، فانفرجت الصّخرة فخرجوا يمشون)[1].

ومن خلال هذه القصّة نجد أنّ **القصص النّبويّ يمتاز بـ:**

أ- بساطة الأسلوب وتفصيله ووضوحه، ممّا يجعله مناسباً للأطفال والكبار، سهل الفهم، قريب المنال، مبسطاً.

ب- تكرار بعض الألفاظ والعبارات للإلحاح على الغرض من الحديث أو القصّة، كتكرار قول كلّ واحدٍ منهم (اللّهم إنْ كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنّا ما نحن فيه).

ت- طرافة الموضوع وجاذبيته للنّفوس، وأخذه بمجامع القلوب.

الهدف الثّاني: الحثُّ على الصّدقة وشكر نعمة الله. وفي هذا المعنى عدد من القصص النّبويّ: منها قصّة الأبرص والأقرع والأعمى، وقد أرسل الله ملَكاً إلى كلٍّ منهم فوقف بطريقه فمسحه فعافاه الله وأعطاه مالاً، ثم أرسل الله المَلَك ذاته يطلب من كلٍّ صدقةً،

(١) البخاري في البيوع، باب: إذا اشترى شيئاً لغيره بغير إذنه فرضي (٢١٠٢) ومسلم في الرقاق، باب: قصة في أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال (٢٧٤٣) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. ونص متن الحديث من نزهة المتقين شرح رياض الصالحين ١/٢٩-٣١.

فرفض الأبرص والأقرع وأنكرا نعمة الله إذْ ذكّرهما بها الملَك؛ فأذهب الله عنهما المال، ورضي الأعمى واعترف بنعمة الله، فقال للملَك السّائل: خذْ ما شئت، فأبقى الله عليه النّعمة[1].

ومنها قصّة السّحابة: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (بينا رجلٌ بفلاةٍ من الأرض، فسمع صوتاً في سَحَابةٍ: اسْقِ حديقة فلانٍ، فتنحّى ذلك السّحابُ، فأفرغ ماءَهُ في حرّةٍ[2]، فإذا شَرْجَةٌ من تلك الشِّراجِ[3] قد استوعبت ذلك الماء كلَّهُ، فتتبَّعَ الماءَ، فإذا رجلٌ قائمٌ في حديقته يُحَوّلُ الماءَ بمسحاته، فقال يا عبدَ الله ما اسمك؟ قال: فلان. للاسم الذي سمع في السّحابة. فقال له: يا عبد اللهِ لِمَ تسألني عن اسمي؟ فقال: إنّي سمعت صوتاً في السّحاب الذي هذا ماؤُه يقول: اسق حديقة فلان لاسمك، فما تصنعُ فيها؟ قال: أما إذْ قلتَ هذا فإنّي أنظرُ إلى ما يخرج منها، فأتصدّق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثاً، وأردُّ فيها ثلثه)[4][5].

٢) صور القصص النّبويّ التاريخيّ:

يستطيع الباحث أن يميّز بين ثلاثة صور لقصص الرّسول التّاريخيّة:

أ- ما هو تكميلٌ وتوضيحٌ وتوسيعٌ لما ورد في القرآن من إشاراتٍ إلى قصصٍ مختصرةٍ في القرآن، كقصّة إسماعيل وإبراهيم عليهما السّلام إذ يرفعان القواعد من البيت، وإذ ترك إبراهيم زوجه وطفله، ثم أنعم الله عليهما ببئر زمزم. وقد أورد البخاري القصّة عن رسول الله ﷺ بما يقارب ثلاث صفحات، وكذلك قصّة الخضر وموسى عليهما السّلام، ومثل هذه القصص النّبوية منثورةٌ في كتب الحديث والسّنة[6]، وخاصّة في

---

(١) الحديث التي وردت فيه هذه القصة أخرجه البخاري في الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل(٣٢٧٧) ومسلم في الزهد، في فاتحته (٢٩٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) الحرّة: أرض ملبسة حجارة سوداً.

(٣) الشرجة: مسيل الماء إلى الأرض السهلة.

(٤) مسلم في الزهد والرقائق، باب: الصدقة على المساكين (٢٩٨٤).

(٥) أصول التربية الإسلامية وأساليبها لعبد الرحمن النحلاوي ص١٩٥-١٩٧ باختصار وتصرف يسير.

(٦) كقصة أصحاب الأخدود التي رواها مسلم.

أبواب التّفسير.

ب- وما هو ليس من كلام الرّسولﷺ كاملاً، ولكنّها قصصٌ فيها عِبَرٌ وفوائدُ عظيمةٌ، لوقائع من حياة بعض الصّحابة في عهد الرّسولﷺ، وربّما نزل فيها قرآن. كقصّة الثّلاثة الذين خُلِّفوا عن الجهاد ثم قاطعهم الرّسول والصّحابة حتّى أنزل الله توبتهم في القرآن في: [سورة التوبة: الآية ١١٨]. وقصّة الإفك حيث اتّهم المنافقون عائشة رضي الله عنها فأنزل الله براءتها في القرآن في: [سورة النور: من الآية ١١-٢٥]. وقصّة المرأة التي ظاهر منها زوجها وراحت تشتكي إلى الله حتّى نزل فيها قوله تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴿١﴾ ﴾ [المجادلة: ١] وهذه القصص نجدها أيضاً في كتب التّفسير وأسباب النّزول.

ج- والوقائع التاريخيّة وغزوات الرّسولﷺ يجدها المربّي في كتب السّيرة[1].

وهذه القصص كلّها مليئة بالمواعظ والحكم التّربوية التي يستطيع المربّي أن يقتفي أثرها، وينهج نهجها.

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها لعبد الرحمن النحلاوي ص ١٩٧-١٩٨ باختصار وتصرف يسير.

المطلب الثَّالث
التّربية بالتّوجيه غير المباشر(التّعريض)

١) معنى التّعريض، وفوائده التّربويّة:

المراد من التّوجيه غير المباشر التّعريضُ، وهو خلاف التّصريح من القول؛ يقال: عَرَّضْتَ له، وبه تعريضاً: إذا قلتَ قولاً وأنت تعنيه[١]. وهذا يعني أنّ المربّي يريد تحقّقَ شيءٍ من سامع كلامه، أو يوجّهه إليه؛ لكنّه لا يصرّح له بأنّه المقصود بالكلام. ولقد كان هذا الأسلوب التّربويّ من الأساليب التي اعتمدها النّبيﷺ في تربيته لأصحابه، لما له من أثر طيّبٍ في نفوسهم، فهو ينساب إلى القلوب، ولا يخدش الكبرياء، ولا يجرح الكرامة، **وله فوائد جمّةٌ قد لا تتوافر في غيره من الأساليب، منها:**

أ-أنّ فيه ستراً للمسيء أو المخطئ، وإعانةً لهما على تجاوز الإساءة أو الخطأ دون اطلاع الآخرين، ممّا يجنّبهما الحرجَ أو الإصرارَ على ذلك عناداً أو استكباراً، ولكأنّ شيئاً لم يحدث.

ب- يساعد المتربّي على اتّخاذ القرار المناسب، ويقوّي ثقته بنفسه، ويدفعه إلى العمل أو التّرك بدافعٍ ذاتيٍ بعيداً عن الرّياء أو المجاملة.

ج- يلائم مرهفَ الإحساس، وشديدَ الحساسية للنّقد الصّريح.

٢) إليك بعضاً من أمثلة التّوجيهات النّبويّة غير المباشرة:

أ- عن حكيم بن حِزام رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: (يا حكيم، إنّ هذا المال خَضِرَةٌ حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفسٍ بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفسٍ[٢] لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، اليد العليا خير من

---

(١) المصباح المنير للفيومي ٤٠٣/٢.

(٢) بسخاوة نفس: بغير إلحاح في السؤال، ولا طمع ولا حرص، ولا إكراه أو إحراج للمعطي. بإشراف نفس: بإلحاح في

اليد السّفلى)، قال حكيم: فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحقّ، لا أرْزَأ أحداً[1] بعدَك شيئاً، حتّى أفارق الدّنيا. فكان أبو بكر ﷺ يدعو حكيماً إلى العطاء فيأبى أن يقبله منه، ثمّ إنّ عمر ﷺ دعاه ليعطيه فأبى أن يقبل منه شيئاً، فقال عمر: إنّي أشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم، أنّي أعرضُ عليه حقَّه من هذا الفيء، فيأبى أنْ يأخذه. فلم يرزأ حكيم أحداً بعد رسول الله ﷺ حتّى توفي[2].

وليُنظر هنا كيف وجّه النّبيّ ﷺ إلى مساوئ المسألة وعيوبها، ومحاسن التعفّف وفضله، ولم يأمره بترك السّؤال بصريح اللّفظ، بل كان كلامهﷺ بصيغة العموم، وشبّه صاحب المسألة غير القانع بما يأتيه بمن أصيب بمرض الجوع الكاذب؛ الذي كلمّا ازداد أكلاً ازداد جوعاً، وكلمّا جمع من المال شيئاً ازداد رغبةً في غيره، وشحّاً وبخلاً بما في يده.

ب- عن عائشة رضي لله عنها قالت: صنع رسول الله ﷺ أمراً فترخَّص فيه، فبلغ ذلك ناساً من أصحابه، فكأنّهم كرهوه وتنزّهوا عنه، فبلغه ذلك، فقام خطيباً فقال: (ما بال رجالٍ بلغهم عنّي أمرٌ ترخَّصتُ فيه، فكرهوه وتنزّهوا عنه؟ فوالله؛ لأنا أعلَمُهم بالله، وأشدُّهم له خشيةً)[3].

ت- وعن أنس بن مالكﷺ قال: قال النّبيّﷺ: (ما بال أقوامٍ يرفعون أبصارهم إلى السّماء في صلاتهم) فاشتدَّ قولُه في ذلك، حتّى قال: (لَيَنْتَهُنَّ عن ذلك أو لَتُخْطَفَنَّ أبصارُهم)[4].

ففي حديث عائشة السّابق استخدم النّبيّ ﷺ لفظ: (ما بال رجالٍ) وفي هذا الحديث

=

السؤال، وتطلع لما في أيدي غيره، وشدة حرص على تحصيله مع إكراه المعطي وإحراجه.

(١) لا أرزأ أحداً: لا أنقص ماله بالطلب، والمعنى: لا آخذ.

(٢) البخاري في الزكاة، باب: الاستعفاف عن المسألة (١٤٠٣) ومسلم في الزكاة، باب: بيان أن اليد العليا خير من السفلى (١٠٣٥).

(٣) البخاري في الأدب. باب: من لم يواجه الناس بالعقاب (٥٧٥٠) ومسلم واللفظ له في الفضائل، باب: من علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته (٢٣٥٦). قوله: ما بال: ما شأن.

(٤) البخاري في صفة الصلاة، باب: رفع لبصر إلى السماء في الصلاة (٧١٧) قوله: لتخطفن أبصارهم: كناية عن العمى، أي تعمى أبصارهم.

لفظ: (ما بال أقوامٍ) والغرض فيهما واحد، وهو التّربيّة بالتّوجيه غير المباشر.

ث- عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النّبيّ ﷺ إذا بلغه عن الرّجل الشّيءُ لم يقل ما بال فلانٍ يقول، ولكن يقول: (ما بال أقوامٍ يقولون كذا وكذا)[1]. فلم يكن النّبي ﷺ يواجه الرّجل بما يكرهه منه بل يعرّض به عن طريق تعميم النّصح. وكلّ ذلك من شرف ونبل خلقه ﷺ. وفي السّنة أحاديث كثيرة سوى المذكور جرت على الأسلوب نفسه.

(١) أبو داود في الأدب، باب: في حسن العشرة (٤٧٨٨).

المبحث الخامس
التَّربيةُ بأسلُوبِ التَّحْفِيْزِ

المطلب الأوَّل
التَّربيةُ بالمزَاحِ والمرحِ

التّربية بالمزاح والمرح أسلوبٌ تربويٌّ محبّبٌ إلى النّفوس، ويبعث فيها البهجة والسّرور، شريطة عدم الإكثار منه، وإيذاء الممزوح معه، وعدم الكذب. وقد كان النّبيّ ﷺ يداعب أصحابه ويلاطفهم إلا أنّه لا يقول إلا الحقَّ. فعن أبي هريرةرضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله إنّك تداعبنا قال: (إنّي لا أقول إلا حقّاً)[1]. **ومن الأمثلة على استعمال النّبيّ ﷺ هذا الأسلوب ما يأتي:**

أ- روى البخاري في صحيحه في فاتحة باب: (الانبساط إلى النّاس) قولَ ابن مسعودٍرضي الله عنه: خالطِ النّاس ودينَكَ لا تكْلِمنَّهُ، ثمّ روى عن أنسِ بنِ مالكٍ قولَهُرضي الله عنه: إنْ كان النّبيّ ﷺ وسلم ليُخالِطُنَا، حتى يقولَ لأخٍ لي صغيرٍ: (يا أبا عُمَيْرٍ ما فعل النُّغَير)[2].

ب- وعن الحسن البصري قال: أتت عجوزٌ إلى النّبيّ ﷺ فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يدخلني الجنّة، فقال: (يا أمّ فلانٍ! إنّ الجنّة لا تدخلها عجوز). قال: فولّت تبكي. فقال: (أخبروها أنّها لا تدخلها وهي عجوز، إنّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧﴾ [الواقعة: ٣٥- ٣٧])[3].

---

(١) الترمذي في البر والصلة، باب: ما جاء في المزاح (١٩٩٠) وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) البخاري في الأدب، باب: الانبساط إلى الناس (٥٧٧٨). والنُّغير تصغير النُّغَر، وهو طائر صغير.

(٣) الترمذي في الشمائل مرسلاً، باب: ما جاء في صفة مزاح رسول اللهﷺ (٢٤١).

ج- وعن أنس بن مالكٍ ﷺ أنّ رجلاً استَحْمَل رسول الله ﷺ فقال: (إنّي حاملك على ولد النّاقة) فقال: يا رسول الله، ما أصنعُ بولدِ النّاقةِ؟! فقال رسول الله ﷺ: (وهل تلدُ الإبل إلا النُّوق؟)[1].

الفوائد التّربويّة:

١- المزاح أداةٌ تربويّةٌ تهدف إلى تحقيق نشاطٍ نفسيٍّ يطرد رواسب التّعب والسّأم، فهو بمثابة الزّيت لصيانة (الهندسة النّفسيّة) وأجهزتها الانفعاليّة والإدراكيّة من آفات الصّدأ، ورواسب الجفاف والتّآكل.

٢- إنّ روح الدّعابة سمةٌ رئيسةٌ في الخصائص الاجتماعيّة والنّفسيّة لشخصيّة المربّي القدير؛ لأنّها تخفّف جدّية الحياة، كما أنّها تنشر في المناخ النّفسي روحاً محبّبة، وليس في ذلك حرجٌ يخدش كمالَ الشخصيّة، بل إنّها سمةُ نفسيّةٍ منظّمةٍ؛ لأنّها تشفُّ عن روح التّواضع وتماسك الشّخصيّة.

٣- إنّ البدء بالدّعابة يقتضي حكمةً وخبرةً، حكمةً في حسن استغلال الموقف، وخبرةً ومراناً في سلامة الأداء والصّيغة، وذلك كلّه ينبثق حين يكون المربّي واثقاً بشخصيّته.

٤- إنّ المفاكهة طريقةٌ تربويّةٌ تصل إلى النّفوس بأقصر السّبل، وتلمس دوافعها لمساً خفيفاً لتزيدها طاقة ونشاطاً، **ولكن يجب ملاحظة الآتي:**

- ألّا تكون كثيرة، فكثرتها تجعلها تهريجاً عابثاً، فالدّعابة أشبه ما تكون بالملح في الطّعام؛ إذ لذّة الطّعام تظهر بقليلٍ من الملح.
- أن تكون الدّعابة طبيعيّةً بنت وقتها، وبذلك تكون أقرب إلى النّفس.
- أن يكون الباعث عليها صفاء النّية وروح الدّعابة.
- أن تكون موجّهة لمن له علاقةٌ خاصّةٌ، فيحسنُ تقبّلها أو فهمها أو إدراك غايتها.
- أن تكون ملتزمةً بالآداب[2].

---

(١) الترمذي في البر والصلة، باب: ما جاء في المزاح (١٩٩١) وأبو داود في الأدب، باب: ما جاء في المزاح (٤٩٩٨) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

(٢) أساليب الرسول في الدعوة والتربية ليوسف خاطر حسن الصوري ص ٥٢-٥٣.

المطلب الثَّاني
التَّربيةُ بالتّدريجِ والرّفقِ

«إنّ بناء النّفس وتكوين الذّات على أساس القيم والأفكار يشبه بناء البيت الذي يبنى لبنةً لبنةً، بدليل أنّ القرآن الكريم نزل منجّماً، وكانت أحكام الشريعة تنزل على المسلمين بالتّدريج، فكانت الفرائض تأتي متدرجةً، والمحرمات تأتي درجةً درجةً، مثل تحريم الخمر، وعقوبة الزّنى، وفرض الصّلاة، ومشروعية الجهاد، والاتجاه إلى البيت الحرام»[1].

وفي هذا السّياق تقول السّيدة عائشة رضي الله عنها: (إنّما نزل أوَّلُ ما نزلَ منه سورةٌ من المفصَّل، فيها ذكر الجنّة والنّار، حتّى إذا ثاب النّاس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أولُ شيءٍ: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزّنى أبداً..)[2].

وكان من منهجهﷺ في تربيته لأصحابه التّدرج ومراعاة الحال. فعن جُنْدُبِ بن عبد اللهرضي الله عنه قال: (كنّا مع النّبيﷺ ونحن فتيانٌ حَزَاوِرةٌ، فتعلّمنا الإيمان قبل أن نتعلّم القرآن، ثم تعلّمنا القرآن فازددنا به إيماناً)[3].

وأكّد النّبيّ ﷺ على أهمّيّة هذا المبدأ في التّربية والتّعليم. فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّ النّبيﷺ: بعث معاذاًرضي الله عنه إلى اليمن، فقال: (ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنّي رسول الله، فإنْ هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أنّ الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كلّ يومٍ وليلةٍ، فإنْ هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أنّ الله افترض عليهم صدقةً في أموالهم، تؤخذ من أغنيائهم وتردُّ على فقرائهم)[4]. وطلب من معاذٍ وأبي موسى الأشعري

---

(١) طرق تدريس التربية الإسلامية للدكتور محمد مصطفى الزحيلي ص ٢٥٦.

(٢) البخاري في فضائل القرآن، باب: تأليف القرآن (٤٧٠٧).

(٣) ابن ماجه في المقدمة، باب: في الإيمان (٦١). قوله: حَزَاوِرَة: جمع حَزَوَّر، وهو الذي قارب البلوغ.

(٤) البخاري في الزكاة، باب: وجوب الزكاة (١٣٣١) ومسلم في الإيمان، باب: الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام.

كما جاء في حديث آخر التّيسير والتّبشير. فعن سعيد بن أبي بُرْدَةَ قال سمعت أبي قالَ: بعثَ النّبيﷺ أبي ومعاذَ بن جبل إلى اليمن، فقال: (يسّرا ولا تعسّرا، بشّرا ولا تنفّرا، وتطاوعا)[1].

قال الحافظ ابن حجر: «وفي الحديث الأمر بالتّيسير في الأمور والرّفق بالرّعيّة، وتحبيب الإيمان إليهم، وترك الشّدّة لئلا تنفر قلوبهم، ولا سيما فيمن كان قريب العهد بالإسلام، أو قارب حدَّ التّكليف من الأطفال ليتمكّن الإيمان من قلبه ويتمرّن عليه، وكذلك الإنسان في تدريب نفسه على العمل إذا صدقت إرادته لا يشدّد عليها بل يأخذها بالتّدريج والتّيسير، حتى إذا أنست بحالةٍ ودامت عليها نقلها لحالةٍ أخرى وزاد عليها أكثر من الأوْلى، حتى يصل إلى قدر احتمالها ولا يكلّفها بما لعلّها تعجز عنه»[2].

وهكذا يسير المربّي مع المتربّين مرحلةً مرحلةً، ودرجةً درجةً، ولهذا قالﷺ: (مروا أولادكم بالصّلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشرٍ)[3].

ويحضّناﷺ على الرّفق في كلّ شيءٍ فيقول: (إنّ الله رفيق يحبُّ الرّفق، ويعطي على الرّفق ما لا يعطي على العنف)[4]. ويقولﷺ أيضاً: (إنّ الرّفق لا يكون في شيءٍ إلا زانه، ولا يُنْزَع من شيءٍ إلا شانه)[5]. فهو بلسم التّربية الشّافي، ومرهم القبول الواقي، وزاد المصلحين الرّاقي.

---

(١) البخاري في الأحكام، باب: أمر الوالي إذا وجّه أميرين إلى موضع: أن يتطاوعا ولا يتعاصيا (٦٧٥١) ومسلم في الأشربة، باب: بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام (٢٠٠١م).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١٣/٢٠٢-٢٠٣.

(٣) أحمد في المسند ٢/١٨٧، وأبو داود في الصلاة، باب: متى يؤمر الغلام بالصلاة (٤٩٥).

(٤) أحمد والبزار وأبو يعلى، قال الهيثمي: (وأبو خليفة لم يضعفه أحد، وبقية رجاله ثقات). من حديث علي بن أبي طالب ﷺ. مجمع الزوائد (٨/٤٠).

(٥) مسلم في البر والصلة والآداب، باب: فضل الرفق (٢٥٩٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

المطلب الثَّالث
التَّعويدُ على تَحمّلِ المسؤوليّة

إنّ تدريب المربّي على المشاركة في تحمّل المسؤولية هو خير وسيلةٍ لبناء شخصيّته وتعزيز ثقته بها، ومن ثمّة إعداده ليكون عنصراً فاعلاً في مجتمعه. **ومن الأساليب التي تعوّد المتربّين على المسؤولية:**

١) مشاورتهم وتعويدهم إبداء الرّأي:

اعتمد النّبيّﷺ في تربيته لصحابته الكرام- رضوان الله عليهم أجمعين- وقيادته لهم على الشّورى معهم، فمع كونه رسولاً مؤيّداً بالوحي، وموصوفاً بكمال العقل ورجحان الرّأي لم يدع المشورة معهم، بل كان يطلبها منهم، والأمثلة على استشارتهﷺ لهم وأخذه برأيهم كثيرة. فمنها قولهﷺ يوم بدر لأصحابه: (أشيروا عليَّ أيها النّاس) وإنّما يريد الأنصار؛ أي في ملاقاة قريش خارج المدينة، فَسُرَّ رسول اللهﷺ بقول سعد بن معاذرضي الله عنه ونشّطه ذلك[١].

ومنها قبوله مشورة الحباب بن المنذررضي الله عنه في تغيير مكان نزول الجيش[٢].

ومنها قبوله ما أشار به سلمان الفارسيّرضي الله عنه على رسول اللهﷺ من حفر الخندق حول المدينة[٣].

ومنها استشارته لسعد بن معاذٍ وسعد بن عبادة رضي الله عنهما في إعطاء غطفان ثلث ثمار المدينة على أن ترجع عنه وعن أصحابه، فأشارا بأنْ لا يفعل[٤].

هذا **وللمشاورة مع المتربّين وتعويدهم على إبداء الرّأي فوائد كثيرة، منها:**

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام ص ٥١٩.

(٢) انظر: المصدر السابق ص ٥٢٣.

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام ص٧٨٤.

(٤) انظر: المصدر السابق ص ٧٨٣.

أ- تنميّة عقولهم وحفزها على التّفكير المنطقيّ السّليم.

ب- تعويدهم على المشاركة والتّواصل الإيجابي مع الآخرين.

ج- إكسابهم الجرأة الأدبية، والقدرة على التّعبير الصّحيح عند إبداء الرّأي.

د- الكشف عن كفاءتهم، وقدراتهم العقلية وحذقهم، وحِدَّة رأيهم.

ه- احترامهم وإشعارهم بالثّقة في أنفسهم التي هي خير معينٍ لهم على تحمّل المسؤولية[1].

٢) تعويدهم على المشاركة والعمل وتحمّل المسؤولية:

ثمّة خطأ فادحٌ يقع فيه بعض الآباء والمربّين عن طريق تأمين جميع حاجيات المتربّين ومستلزماتهم، حتّى فيما يخصُّ شؤونهم الشّخصيّة من الأمور التي ينبغي أن يباشرها المرء بنفسه من ترتيب الملابس والغرفة والمحافظة على النّظافة، وإعداد الواجبات المدرسيّة، ومساعدة الوالدين في حوائجهما.. إلخ ممّا يفضي بهم إلى الكَسلِ والتّواكل وعدم الإحساس بالمسؤولية.

لذا يجدر بالمربّي أن ينفض غبار الكسل عن المتربّين، وأن يعوّدهم على المشاركة والعمل، وتحمّل المسؤوليات كي يكونوا قادرين على مواجهة أعباء الحياة ومشكلاتها على الصّعيد الفردي والاجتماعي.

ومن هنا نجد النّبيﷺ يحمّل مختلف الأفراد في المجتمع مسؤولياتهم بقوله: (كلّكم راعٍ ومسؤولٌ عن رعيّته، الإمام راعٍ ومسؤولٌ عن رعيّته، والرّجل راعٍ في أهله وهو مسؤول عن رعيّته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيّتها، والخادم راعٍ في مال سيّده ومسؤول عن رعيّته)[2].

وكان النّبيّ يشترط على من يبايعه النّصح لكلّ مسلم، عن جرير بن عبد الله البجليرضي الله عنه قال: أتيت النّبيﷺ قلت: أُبايعك على الإسلام، فشرط عليَّ: (والنّصح لكلّ

---

(١) انظر أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية لزياد محمود العاني ص ٢٩٣-٢٩٤.

(٢) البخاري واللفظ له في الزكاة، باب: الجمعة في القرى والمدن (٨٥٣) ومسلم في الإمارة، باب: فضيلة الإمام العادل (١٨٢٩).

مسلم) فبايعته على هذا[1].

ولم يكنﷺ يقبل السّلبية حتّى من الفقير، فيقول: (على كلّ مسلمٍ صدقةٌ). فقالوا يا نبيَّ الله، فمن لم يجد؟ قال: (يعمل بيده، فينفع نفسه ويتصدّق). قالوا فإن لم يجد؟ قال: (يعين ذا الحاجة الملهوف) قالوا: فإن لم يجد؟ قال: (فليعمل بالمعروف، وليمسك عن الشّر، فإنها له صدقةٌ)[2].

(١) البخاري في الإيمان، باب: الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم (٥٨).

(٢) البخاري في الزكاة، باب: على كل مسلم صدقة، فمن لم يجد فليعمل بالمعروف (١٣٧٦).

المطلب الرَّابع
التّربية بالتّشجيع وإثارة الحماس

إنّ الثّناء والتّشجيع من أكثر المحفزّات التي تحقّق هذا الأسلوب التّربويّ النّاجح أهميّة. ولا غنى للمربّي عن استخدام هذه الطّريقة مع المتربّي في أيٍّ عمرٍ أو على أيٍّ مستوى ثقافيٍّ كان، وذلك شحذاً للهمّة، وإثارةً للعزيمة، وحملاً على التّنافس. ويشترط عدم المغالاة في الثّناء والإطراء عليه؛ وإلّا انقلب إلى وسيلةٍ ضارةٍ لا نافعةٍ. كما ينبغي ألّا يخرج المرغَّبُ به عن حيّز الاستطاعة والإمكان عادة؛ دفعاً لليأس والإحباط.

ومن الأمثلة على الثّناء والتّشجيع وأثرهما على المتربّي:

أ- ما روي عن أُبي بن كعبٍ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (يا أبا المنذر: أتدري أيُّ آيةٍ من كتاب الله معك أعظمُ؟). قال: قلت الله ورسوله أعلَمُ. قال: (يا أبا المنذر: أتدري أيُّ آيةٍ من كتاب الله معك أعظمُ؟). قال: قلت: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. قال: فضرب في صدري وقال: (واللهِ لِيَهْنِك العلمُ أبا المنذر)[1]. فكم بعث تشجيعهﷺ وثناؤه في نفسه من حبٍّ للعلم ورغبةٍ صادقةٍ في تحصيل المزيد منه؟! وذلك على عكس ما يأتي به السّكوت عن الثّناء عند كلّ نجاحٍ أو تميّز.

ب- وما روي عن أبي هريرة ﷺ أنّه قال: يا رسول الله، مَنْ أسعدُ الناسِ بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: (لقد ظننت – يا أبا هريرة – أنْ لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أوّلَ منك، لِمَا رأيتُ من حرصك على الحديث..)[2]. وتأمّل كيف يكون حال المتربّي حينما يعلم أنّ مربّيه ينتظر منه هو بالذّات هذا السّؤال، وذلك لما يرى من حرصه وفطنته. ولكَم أُصيب الكثير من أصحاب القدرات بالإحباط وماتت مواهبهم؛

(١) مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل سورة الكهف وآية الكرسي (٨١٠).

(٢) البخاري في العلم، باب: الحرص على الحديث (٩٩).

لأنّهم لم يجدوا من يأخذ بأيديهم نحو النّجاح والتّفوق بالثّناء والتّشجيع.

ج- **وفي إثارة الحماس وأثره على المتربّي** أذكر ما رواه سهل بن سعد ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: يوم خيبر: (لأُعطينّ هذه الرّاية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحبّ الله ورسولَه، ويُحبّه الله ورسولُه). قال: فبات النّاس يدوكون ليلتهم أيُّهم يُعطاها، فلما أصبح النّاس غدَوا على رسول الله ﷺ كلُّهم يرجو أن يُعطاها، فقال: (أين عليّ بن أبي طالب؟) فقيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال: (فأرسلوا إليه). فأُتيَ به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له، فبرأ حتّى كأنّه لم يكن به وجع، فأعطاه الرّاية، فقال عليٌّ: يا رسول الله، أُقاتلهم حتى يكونوا مثلَنا؟ فقال: (انفذ على رِسلِك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعُهُم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقٍّ الله فيه، فو الله لأنْ يَهدِي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعم)[1].

الفوائد التربويّة:

١- من الفنون التّربويّة إثارة الحماسة في النّفوس، فلذلك قال النّبيّ ﷺ: (لأعطيّن هذه الرّاية) بهذه الكلمة أراد النّبيّ ﷺ أن يلهب الحماسة في النّفوس، ويبعث الهمّة في قلوبهم.

٢- إثارة الحماسة وخاصّة في الجوّ العام تجعل الفاتر وصاحب الهمّة الضّعيفة يتحمّس.

٣- عيّن النّبيّ ﷺ الرّجل الذي يريده، ومع ذلك لم يستخدم الأسلوب التّقليديّ في التّكليف ولكن أراد أن ينوّع الأسلوب.

٤- همُّ الدّاعية هداية النّاس، فهدايتهم وإرشادهم أفضل له من الدّنيا وما فيها من نِعَم[2].

(١) البخاري في المغازي، باب: غزوة خيبر (٣٩٧٣) ومسلم في فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب (٢٤٠٦). قوله: يدوكون ليلتهم: يخوضون ويتحدثون طوال ليلتهم، من الدوكة، وهي الخوض والاختلاط.

(٢) انظر: أساليب الرسول في الدعوة والتربية ليوسف خاطر حسن الصوري ص ٤١-٤٢.

المبحثُ السَّادسُ
التَّربيةُ بأسلُوبِ التَّعزيز

المطلب الأوَّل
التّربية بالمدح والثّناء

قلّةٌ من النّاس لا تبالي بثناء الآخرين عليها، والأكثرية تحبّذ الثّناء والإطراء وترغب به، ويوافق ما طبعت عليه نفوسها، ولذلك يعدُّ المدح من الأساليب التّربوية النّاجحة، وحافزاً على العمل والجِدِّ والنّشاط. [redacted] **على هذا:**

أولاً- ما رواه ابنُ عمر رضي الله عنهما قال: كان الرجلُ في حياة النّبيّ ﷺ إذا رأى رؤيا قصَّها على رسول الله ﷺ وكنت غلاماً شاباً، وكنت أنام في المسجد على عهد رسول الله ﷺ، فرأيت في النّوم كأنّ ملكين أخذاني فذهبا بي إلى النّار، فإذا هي مطويَّةٌ كطيِّ البئر، وإذا لها قَرْنان، وإذا فيها أُناس قد عرفتهم، فجعلت أقول: أعوذ بالله من النّار. قال: فلَقِيَنَا ملَكٌ آخر، فقال لي: لم تُرَعْ. فقصصتُها على حفصة، فقصتْها حفصةُ على رسول الله ﷺ فقال: (نِعْمَ الرجلُ عبدُ اللهِ، لو كان يصلي من اللّيل) فكان بعدُ لا ينام من اللّيل إلا قليلاً[1].

الفوائد التربويّة:

١- في كلّ عصرٍ وجيلٍ يكون أفضل نتاجاً وأفضل معدناً مَن تخرّج من مدرسة المسجد.

٢- أدب ابن عمر مع النّبيّ ﷺ فهو لم يتجرّأ أن يواجهه، ولكن بفطنته كلّم أخته وعرف

(١) البخاري في التهجد، باب: فضل قيام الليل (١٠٧٠) ومسلم في فضائل الصحابة، باب: من فضائل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما (٢٤٧٩). وقوله: مطوية: مبنية الجوانب. قرنان: جانبان. لم ترع: لا خوف عليك.

أنّ الكلام سيصل إلى النّبيّ ﷺ.

٣- من صفات المربّي النّاجح أنّه يستخدم أسلوب المدح والثّناء أولاً؛ إذا أراد أن يوصل مفهوماً حتى يتقبّله السّامع بصدرٍ رحبٍ.

٤- فطنة المربّي، فهذه صفةٌ أخرى من صفاته الأساسية أنّه يعرف بها ما يحتاج إليه كلُّ تلميذٍ من تلامذته على حِدَةٍ، فلذلك جاء التّوجيه لابن عمر (لوكان يصلّي من اللّيل) توجيهاً سليماً، وفي الوقت المناسب.

٥- تربية النّبيّ ﷺ المركّزة، فكان لا يعتمد على المحاضرات والبحوث، ولكنّه يعرف الأساسيات التي يحتاجها الصّغير والكبير، والتي لا يستغني عنها أحدٌ، فمن هذه الأمور ((قيام اللّيل)).

٦- فطنة ابن عمر رضي الله عنه واستغلاله لهذه الوصية الذّهبيّة، فلم يستمع للتّرف الفكري ولكنّه استمع للاستفادة والتّنفيذ.

٧- قيام اللّيل مدرسةٌ لا يعلمها ولا يعرفها إلّا من تتلمذ فيها، فاسأل عن هذه المدرسة خبراءها[١].

ثانياً- وما رواه عمرو بن تغلب: أنّ رسول الله ﷺ أُتي بمالٍ أو سَبْيٍ، فقسمه، فأعطى رجالاً وترك رجالاً، فبلغه أنّ الذين ترك عَتَبُوا، فحمد الله ثمّ أثنى عليه، ثم قال: (أمّا بعد، فوالله إنّي لأُعطي الرجلَ وأدعُ الرجلَ، والذي أدعُ أحبُّ إليَّ من الذي أُعطي، ولكن أُعطي أقواماً لِمَا أرى في قلوبهم من الجزع والهلع، وأَكِلُ أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير، فيهم عَمْرُو بنُ تغلِبَ). فوالله ما أُحبُّ أنّ لي بكلمة رسول الله ﷺ حُمْرَ النَّعم[٢].

الفوائد التربويّة:

١- على المربّي أن لا يحابي الأحبّاء أو الأقرباء على حساب المصلحة العامّة.

٢- سياسة الرّسول الفضلى، وحكمته المثلى، في المبادرة إلى مداواة قلوب أتباعه متى نابها

(١) أساليب الرسول في الدعوة والتربية ليوسف خاطر حسن الصوري ص٥٤.

(٢) البخاري في الجمعة، باب: من قال في الخطبة بعد الثناء: أما بعد (٨٨١).

شيء.

٣- جواز الثّناء العلني على طائفة من النّاس أو على شخصٍ بعينه لمصلحةٍ دينيةٍ، وأثر ذلك في مداواة ما قد يعلق في النّفوس من وساس الشّيطان ونزغاته.

٤- ينبغي للقائد أن يكون يقظاً يتحسّس ما يتهامس به أتباعه من ورائه، ليبادر إلى تدارك الأمور قبل أن تستفحل.

٥- نفاذ نظر الرّسول في معرفة خصائص نفوس أتباعه، وتربية كلٍّ منهم بما يناسب فطرته وميوله ودوافعه الخاصّة به. وعلى ذلك فالدّاعية ملزمٌ بمعرفة أتباعه وخصائصهم النّفسيّة عن قرب حتى يستطيع التّعامل معهم والقيام بتربيتهم على أكمل وجه[1].

(١) أساليب الرسول في الدعوة والتربية ليوسف خاطر حسن الصوري ص ٥٥-٥٦.

المطلب الثَّاني
التَّربيةُ بالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ

بُنِيَ هذا الأسلوب التّربوي الإسلاميّ على ما فطر الله تعالى عليه النّفس الإنسانيّة، من الرّغبة في اللّذة والنّعيم، والرّفاهية، وحسن البقاء، والرّهبة من الألم والشّقاء، وسوء المصير.

وقد استخدم كلٌّ من القرآن الكريم والحديث النّبويّ الشّريف أسلوب التّرغيب بالثّواب والتّرهيب بالعقاب في تربية المسلم وتهذيب نفسه.

وإذا أردنا أن نعرّف التّرغيب والتّرهيب فيمكننا القول:

«**التّرغيب**: وعدٌ يصحبُه تحبيبٌ وإغراءٌ، بمصلحةٍ أو لذّةٍ أو متعةٍ آجلةٍ، مؤكّدةٍ، خيرٍّةٍ، خالصةٍ من الشّوائبِ، مقابل القيام بعملٍ صالحٍ أو الامتناع عن لذّةٍ ضارّةٍ، أو عملٍ سيئٍ ابتغاء مرضاة الله، وذلك رحمةٌ من الله لعباده.

والتّرهيب: وعيدٌ وتهديدٌ بعقوبةٍ تترتّب على اقتراف إثمٍ أو ذنبٍ ممّا نهى الله عنه، أو على التّهاون في أداء فريضةٍ ممّا أمر الله تعالى بها، أو هو تهديدٌ من الله تعالى يُقصدُ به تخويف عباده.. ليكونوا دائماً على حذر من ارتكاب الهفوات والمعاصي»[1].

وأسلوب التّرغيب والتّرهيب واضحٌ وبارزٌ في القرآن الكريم، فكلمّا ذكرت النّار ذكر بعدها الجنّة وبالعكس، وعندما يذكر الله تعالى أحوال المؤمنين في الآخرة يقرنها بأحوال الكافرين.

ولنذكر أمثلة على ذلك من القرآن قوله تعالى: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها لعبدالرحمن النحلاوي ص ٢٣٠- ٢٣١.

فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾ [مريم: ٧١- ٧٢]. وقوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الزمر: ٧١- ٧٤].

وورد في السّنّة التّرغيب بالأجر والثّواب أيضاً. ومن ذلك ما رواه سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: كنّا عند رسول الله ﷺ فقال: (أيعجز أحدكم أن يكسبَ في كلّ يومٍ ألفَ حسنةٍ؟!) فسأله سائل من جلسائه: كيف يكسب أحدنا ألف حسنةٍ؟ قال: (يسبّح مئة تسبيحةٍ، فيكتب له ألف حسنةٍ، أو يحطُّ عنه ألف خطيئةٍ)[1].

وكذا التّرهيب من الوزر والعقاب. ومن ذلك قوله ﷺ: (يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرّحى، فيجتمع إليه أهل النّار فيقولون: يا فلان، مالَكَ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه)[2].

مميزات التّرغيب والتّرهيب القرآنيّ والنّبويّ[3]:

١- أنّه يعتمد على الإقناع والبرهان؛ إذ لا معنى للتّرغيب أو التّرهيب بشيءٍ من غير الإيمان والتّصديق بوعد الله تعالى ووعيده، وبأنّ ما جاء به الإسلام من عقيدةٍ وعبادةٍ وأخلاقٍ وتشريعٍ يحقّق للإنسان مصالحه، ويؤمّن له السّعادة والفوز والنّجاة في الدّنيا والآخرة، وأنّ خسرانه وهلاكه حاصلٌ بالتّنكّب عن ذلك كلّه.

هذا معناه تربوياً أن نبدأ بغرس الإيمان والعقيدة الصّحيحة في نفوس النّاشئين ليتسنّى

(١) مسلم في الذكر والدعاء والتوبة، باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩٨).

(٢) البخاري في بدء الخلق، باب: صفة النار وأنها مخلوقة (٣٠٩٤) ومسلم واللفظ له في الزهد والرقائق، باب: عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله (٢٩٨٩) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما. والأقْتابُ: الأمعاء وما تَحَوّى في البَطْنِ.

(٣) أصول التربية الإسلامية وأساليبها لعبدالرحمن النحلاوي ص ٢٣١- ٢٣٨ باختصار وتصرف.

لنا أن نرغبّهم بالجنّة أو نرهّبهم من عذاب الله، وليكون لهذا التّرغيب ثمرةٌ عمليّةٌ سلوكيةٌ.

٢- أنّه مصحُوبٌ بتصويرٍ فنيٍّ رائعٍ، لنعيم الجنّة ولعذاب جهنّم بأسلوبٍ واضحٍ يفهمه جميع النّاس. لذلك يطالب المربّي باستخدام الصُّوَر والمعاني القرآنيّة والنّبويّة في عرضه لعقاب الله وثوابه، وتقريب ذلك إلى أفهام النّاشئة، فيذكر الصُّوَر القرآنيّة في مواقف القيامة مدعومةً بالتّفاصيل النّبويّة كقصّة الشّفاعة يطلبها النّاس في موقف الحشر من جميع الأنبياء، لشدّة الهول فيعتذرون، إلّا رسول الله محمداً ﷺ وقصّة آخر رجلٍ يدخل الجنّة ونحو ذلك من القصص النّبويّ عن مواقف القيامة.

٣- أنّه يعتمد إثارة الانفعالات وتربية العواطف الإيمانيّة. كعاطفة الخوف من الله تعالى والخشوع والتذلّل له. قال تعالى: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٥- ٥٦] وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر: ٢٣].

وينبغي أن يستشعرها المربّي حتّى تنتقل إلى المتربّين بالاقتداء والتّقليد له. كما ينبغي تكرار هذه الانفعالات المتشابهة مرةً بعد أخرى، وفي مناسباتٍ مختلفةٍ، كالقصّة والحوار والاستفهام لتكوين العواطف الإيمانيّة المطلوبة.

وكما أنّ في النّفس عواطف سلبيةً ترافق التّربية بالتّرهيب كالخوف والخشوع، كذلك في النّفس عواطفُ إيجابيةٌ ترافق التّربية بالتّرغيب مثل عاطفة الحبّ والرّجاء والأمل في رحمة الله تعالى وثوابه وجزيل الأجر عنده.

٤- أنّه يعتمد ضبط الانفعالات والعواطف والموازنة بينها. فلا يجوز أن يطغى الخوف على الأمل والرّجاء فيقنطَ المذنبُ من عفو الله ورحمته، وقد نهى الله تعالى عن هذا اليأس بقوله: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر: ٥٣].

كذلك لا ينبغي أن يطغى الفرح بزوال الشدّة فينسى الإنسان عقاب الله وقدرته،

ويجعله فخوراً بنفسه، معتدّاً بحوله وقوته ممّا يدعوه للعودة إلى المعاصي.

بل ينبغي أن يجمع الإنسان بين الخوف والرجاء، الخوف من عقاب الله وعظمته ومقامه؛ فلا يطغى ولا يتملّكه الغرور، والرّجاء في رحمة الله فلا ييأس من عفوه.

وكلٌّ من اليأس والغرور يؤدي إذا تمادى صاحبه إلى الكفر أو الفسوق، قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٩]. وقال: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف: ٨٧].

فاستشعار غضب الله يجب ألا ينسينا رحمته، وإرادته المطلقة يجب ألّا تنسينا حكمته، وهكذا.

ويقول ﷺ: (لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنّته أحدٌ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرّحمة ما قنط من جنّته أحدٌ)[1].

ويقول ﷺ أيضاً: (الجنّة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنّار كذلك)[2]. نسأله تعالى لنا ولكم حسن الختام.

(١) مسلم في التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) البخاري في الرقاق، باب: الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك (٦١٢٣).

المطلبُ الثَّالث
التَّربيةُ بالعقُوبة

تمهيد: ضوابط العقوبة التّربويّة:

قد يظنُّ ظانٌّ أنّ التّربية بالعقوبة الحسيّة أو العقوبة مطلقاً أمرٌ مستنكرٌ في الإسلام وفي قواعد التّربية السّليمة أيضاً. بيد أنّ هذا الظنَّ خطأ؛ لأنّ ثمّة حالاتٍ لا ينجح فيها تقويم الاعوجاج، وإصلاح الانحراف إلّا بالعقوبة، وعندئذ يتحتّم استعمالها، وتحمد عقباها. وأما إذا لم تدع إليها الضّرورة، أو كانت زائدةً عن قدر الحاجة، ولا تتناسب مع الخطأ، أو في غير محلّها، فإنها تصبح عندئذ مفسدةً، وتزيد الطين بِلّةً.

ولهذا فإنّ العقوبة تكون أسلوباً من أساليب التّربية السّليمة بمراعاة التّدرج فيها من حيث الشّدّة، فالعقاب يبدأ من النّظرة العامة، فالإشارة، فالتّوجيه والتّنبيه، فالإعراض، فالتّوبيخ، فالضّرب[1].

ومن جانب آخر فإنّ المربّي الحكيم يراعي الفروق الفرديّة بين متربٍّ وآخر، فهناك متربٌّ يرى في الإعراض عنه لحظةً عقوبةً قاسيةً غير محتملةٍ، وآخرُ يبكي ألماً إذا عُبس في وجهه، وهكذا بحسب طبيعته النّفسيّة. وعلى كلّ حالٍ فليس المقصد من العقوبة الانتقام ولا التّشفي، بل المقصد تقويم الأخلاق، وتعديل السّلوك، ومجانبة الخطأ.

وهذه بعض النّماذج للتّربية بالعقوبة:

١- التّربية بالإعراض أو ظهور الأثر بالوجه:

يكون الإعراض بالوجه عقوبةً قاسيةً عند بعض المتربّين إذا صدر من أفرادٍ يحملون لهم في قلوبهم حبّاً صادقاً، وتربطهم بهم علاقةٌ حميمةٌ، ويكون وقعه عليهم شديداً، ولهذا سرعان ما تجدهم يستدركون الخطأ، ويصحّحون المسار.

---

(١) انظر: طرق تدريس التربية الإسلامية للدكتور محمد مصطفى الزحيلي ص٢٦٦.

ثمّ إنّ فاعلية أسلوب الإعراض بالوجه سرعان ما تتلاشى إذا ما كَثُر استعماله مع المتربّين؛ إذ يتحطّم عندئذ الحاجز النّفسيّ الذي كان يحول بينهم وبين مخالفة مربّيهم، وتغدو المخالفة أمراً هيّناً معتاداً.

لقد استخدم النّبيّ ﷺ هذا الأسلوب مع أصحابه الذين كانوا يحبّونه حبّاً جمّاً، أكثرَ من حبّهم لأنفسهم، وكان له أثرٌ كبيرٌ وفعالٌ في تدارك الخطأ وإتيان الصّواب. ومن أمثلة ذلك ما رواه عقبة بن الحارثرضي الله عنه قال: تزوّجت امرأةً فجاءتنا امرأةٌ سوداءُ فقالت: إنّي قد أرضعتكما، فأتيت النّبيّ ﷺ فقلتُ: تزوّجت فلانةَ بنت فلان، فجاءتنا امرأةٌ سوداءُ، فقالت: إنّي قد أرضعتكما وهي كاذبة، قال: فأعرض عنّي، قال: فأتيته من قِبَلِ وجهه فأعرض عنّي بوجهه، فقلت: إنّها كاذبة، قال: (وكيف بها وقد زعمت أنّها قد أرضعتكما، دعها عنك)[1].

فالنّبيّ ﷺ استخدم أسلوب الإعراض بالوجه عن الرّجل عندما رأى رغبته باستمرار الزّواج بها، وتكذيبَهُ لخبر المرأة، وإسقاطه لاحتمال صدقها، وكان الأوْلى به ترجيح جانب الصّدق دفعاً للشّبهة.

وكان الصّحابة- رضوان الله عليهم- يعرفون عدم رضا النّبيّ عن شيءٍ ما وكراهته له من وجههﷺ. فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان النّبيّ أشدَّ حياءً من العذراء في خِدرها، وإذا كره شيئاً عُرِفَ في وجهه[2].

٢- التّربية بالتّأنيب التّعليميّ:

تكون الحاجة إلى استخدام هذا الأسلوب عند ارتكاب المتربّي لخطأٍ كبيرٍ، فيحتاج إلى التّأنيب من المربّي، ويشهد لذلك ما رواه المعرور، عن أبي ذرٍّ قال: رأيت عليه بُرْدًا وعلى غلامه برداً، فقلت: يا أبا ذرٍّ، لو أخذتَ هذا فلبستَهُ كانت حُلَّةً وأعطيتَهُ ثوباً آخر، فقال: إنّه كان بيني وبين رجلٍ كلامٌ وكانت أمُّه أعجميةً، فنلت منها، فذكرني إلى النّبيّ ﷺ فقال لي: (أسابتَ فلاناً). قلت: نعم، قال: (أفنلتَ من أمِّهِ). قلت: نعم، قال: (إنّك امرؤٌ

(١) الترمذي في الرضاع، باب: ما جاء في شهادة المرأة الواحدة في الرضاع (١١٥١).

(٢) البخاري في المناقب، باب: صفة النبيﷺ (٣٣٦٩) ومسلم في الفضائل، باب: كثرة حيائهﷺ (٢٣٢٠).

فيك جاهليّةٌ). قلت على حين ساعتي: هذه من كِبَرِ السّنّ؟ قال: (نعم، هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن جعل الله أخاه تحت يده، فليطعمه ممّا يأكل، وليُلبسْه مما يَلْبَس، ولا يكلّفه من العمل ما يغلبُهُ، فإن كلّفه ما يغلبه فليُعنْهُ عليه)[1].

وليلاحظ هنا أنّ تأنيب النّبيّ ﷺ لأبي ذرٍّ رضي الله عنه كيف آتى ثماره، وكيف عدّل من سلوكه بما يوافق هديه ﷺ.

٣- التّربيّة بالدّعاء على غير المعيّن:

وذلك مبالغة في التّحذير من بعض القبائح والزّجر عنها. فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال: (رَغِمَ أنفُ، ثمّ رغم أنف، ثمّ رغم أنف). قيل: مَنْ يا رسول الله؟ قال: (مَن أدرك أبويه عند الكِبَر، أحدَهما أو كليهما، فلم يدخل الجنّة)[2]. قال الإمام النووي: «وفيه الحثُّ على برّ الوالدين وعظم ثوابه، ومعناه: أنّ برّهما عند كبرهما وضعفهما بالخدمة أو النّفقة أو غير ذلك سبب لدخول الجنّة، فمن قصّر في ذلك فاته دخول الجنّة وأرغم الله أنفه»[3].

---

(١) البخاري في الأدب، باب: مايُنهى من السباب واللعن (٥٧٠٣) ومسلم في الإيمان، باب: إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس ولا يكلفه مما يغلبه (١٦٦١). قال الحافظ ابن حجر: «وقوله: (إنك امرؤٌ فيك جاهلية) التنوين للتقليل، والجاهلية ما كان قبل الإسلام، ويحتمل أن يراد بها هنا الجهل أي: إنّ فيك جهلاً. وقوله: (قلت على ساعتي هذه من كبر السن) أي هل فيَّ جاهلية أوجهلٌ وأنا شيخ كبير؟». فتح الباري ١٠/٥٧٤.

(٢) مسلم في البر والصلة والآداب، باب: رغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر فلم يدخل الجنة (٢٥٥١).

(٣) المنهاج شرح الجامع الصحيح ٥/٢٥٠٥.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الفَصْلُ الرَّابعُ
نماذج من الجهُودِ التّربويّة في الإسلام

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

المبحث الأوَّل
جُهودُ الإمَامِ الغَزَاليّ في الميدَانِ التّربويّ

المطلب الأوَّل
تربية الأطفال عند الغزالي

يهتمُّ الغزاليُّ اهتماماً بالغاً بتربية الطّفل، ويرى أنّها من أكثر الأمور وأوكدها أهميّةً، ويسمّيها (رياضة الصّبيان)، والطّفل- كما يرى الغزالي – صفحةٌ بيضاءُ قابلةٌ لكلّ نقشٍ، ولذا كانت مسؤوليّة الوالدين والمربّين كبيرةً، فإن عوّدوه الخير، نشأ عليه، وشاركوه في ثواب ذلك، وإن عوّدوه الشّر وأُهمل شقي وهلك، وكان الوزر في رقبة القيّم عليه والوالي له. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ۝٦﴾ [التحريم: ٦][1].

فيجب على الوالد فيما يَرى الغزالي:

١- أن يؤدب ابنه ويهذّبه، ويعلّمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من قرناء السّوء.

٢- أن لا يعوِّده على التّنعّم، ولا يُحبّبَ إليه الزّينة والرّفاهية، فإنّه قد يسخّر حياته في المحافظة على هذا المستوى من العيش فيهلك.

٣- أن يختار للطّفل مرضعةً صالحةً، تأكل الحلال؛ لأنّ الطّفل ينمو بهذا الغذاء فإذا كان حلالاً مال إلى الخير، وإذا كان حراماً انعجنت طينته من الخبيث، ومال طبعه إلى ما يناسب الخبائث.

٤- وإذا رأى فيه مخايل التّمييز، وبوادر الحياء، فليعلم أنّ عقله مشرقٌ، ولا ينبغي أن يُهمَلَ، بل يُستعان على تأديبه بحيائه أو تمييزه.

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي ٣/٧٨.

٥- وليعلم أنّ أوّل ما يغلب عليه من الصّفات شره الطّعام، فينبغي أن يؤدبَ فيه، فلا يأخذَ الطّعام إلّا بيمينه، ويبدأُ بالتّسمية، ويأكل ممّا يليه، ولا يبادر إلى الطّعام قبل غيره، ولا يحدّق النّظر إليه ولا إلى من يأكل معه، ويتمهّل في الأكل، ويجيد المضغ، ولا يوالي بين اللّقم، ولا يلطّخ يده ولا ثوبه. وينبغي أن يقبّح عنده كثرة الأكل، بذمِّ الطّفل الشَّرِهِ، ومدح المتأدِب القليل الطّعام، وأن يُحبب إليه الإيثار بالطّعام وقلّة المبالاة به، والقناعة بأيِّ طعامٍ كان.

٦- أن يحفظه من مخالطة الأطفال الذين عُوِّدوا التّنعّم والرّفاهية، ولبس الثّياب الفاخرة، ومن مخالطة كلّ من يسمع منه ما يُرَغِّبُ في ذلك.

٧- أن يشغله في الكتّاب، فيتعلّم ما ينفعه من القرآن الكريم والحديث الشّريف وحكايات الصّالحين. كما يجب أن يصان عن حفظ الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله، وعن مخالطة الأدباء الذين يزعمون أنّ ذلك من الظُّرف ورقّة الطّبع، فإنّ ذلك يغرس في نفوس الصّبيان بذر الفساد.

٨- وإذا ظهر من الطّفل خلقٌ جميلٌ وفعلٌ محمودٌ، فينبغي أن يُكرمَ عليه ويجازى بما يفرح به، ويمدح بين أظهر النّاس. ويحدِّدُ الغزالي طريقة التّعامل مع أخطاء الطّفل، فإن أساء مرةً فينبغي أن يتغافل الوالدُ عنه ولا يكاشفه، ولا سيما إذا تستّر الصّبي واجتهد في الإخفاء، فإنّ إظهار ذلك عليه ربما يفيده جسارةً حتى لا يبالي بالمكاشفة. وإن تكرّر خطؤه فينبغي أن يُعاقَب سراً، ويُشَدَّدُ عليه ألّا يعود إلى ذلك، ويحذَّرُ من عواقب الافتضاح. ولا يُكثِرُ العتبَ عليه في كلّ حين؛ فإنّه يهوِّن عليه سماع الملامة وركوب القبائح.

٩- وينبغي أن يمنع من النّوم نهاراً، فإنّه يورث الكسلَ، ولا يمنع منه ليلاً ولكن يمنع الفراش الوثير؛ لتصلب أعضاؤه.

١٠- ويجب أن يمنع من كلّ ما يفعلُه خفيةً، فإنّه لا يخفيه إلّا وهو يعتقد أنّه قبيح.

١١- وليعوّد المشي والحركة والرّياضة في بعض النّهار حتى لا يغلب عليه الكسل.

١٢- وليمنع من كشف أطرافه.

١٣- وينبغي أن يمنع من الافتخار على أقرانه بشيءٍ ممّا يملكه والدُه أو بشيءٍ من مطامعه

وملابسه أو لوحه وأدواته، بل يعوّدُ التّواضع والتّلطّف في الكلام.

١٤- ويمنع من أن يأخذ شيئاً من الأطفال، وليعلّم أنّ الرّفعة في الإعطاء لا في الأخذ، وأنّ الأخذ لؤمٌ وخِسّةٌ ودناءةٌ إنْ كان غنياً، وذلّةٌ ومهانةٌ إن كان فقيراً.

١٥- وينبغي أن يعوّد أن لا يبصق في مجلسه، ولا يمتخط، ولا يتثاءب بحضرة غيره، ولا يستدبر غيره، ولا يضع رجلاً على رجلٍ، ولا كفه تحت ذقنه، ولا يسند رأسه بساعده، ويُعلّمُ كيفية الجلوس، ويُمنع كثرة الكلام.

١٦- ويمنع من القسم، صادقاً كان أو كاذباً، حتّى لا يعتاد ذلك.

١٧- ويعوّد ألا يتكلّم إلا جواباً وبقدر السّؤال، وأن يحسن الاستماع إذا تكلّم غيره ممّن هو أكبر منه سناً، وأن يقوم لمن هو فوقه ويوسّع له المكان.

١٨- ويمنع من لغو الكلام، ومن اللّعن والسّب.

١٩-وليعوّد الصّبر إذا ضربه المعلّم، فلا يكثر الصّراخ، ولا يستشفع بأحد، وليذكر له أنّ ذلك دأب الشّجعان والرّجال، وأنّ كثرة الصّراخ دأبُ المماليك والنّسوان.

٢٠- وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتّاب أن يلعب لعباً جميلاً يستريح به من تعبه، فإنّ منع الصّبي من اللّعب يميتُ قلبه، ويخمد ذكاءه، ويحمله على طلب الحيلة للخلاص من الكتّاب رأساً.

٢١- وينبغي أن يُعَلّمَ طاعةَ والديه، ومعلّمِه، ومؤدّبِه، وكلّ من هو أكبر منه سنّاً قريبٍ وأجنبي.

٢٢- وإذا بلغ سنّ التّمييز فينبغي أن لا يسامح في ترك الطّهارة والصّلاة، ويؤمر بالصّوم في بعض أيام رمضان، ويعلّم كلّ ما يحتاج إليه من حدود الشّرع.

٢٣- وليخوَّفْ من السّرقة وأكل الحرام، ومن الخيانة، والكذب، والفحش، وكلّ ما يغلب على الصّبيان. **هذا جلُّ ما ذكره الغزاليُّ في التّربية[1] للطّفل الصّغير.**

وإذا نشأ الصّبي على هذه الآداب وجد هذا الأثر عند بلوغه «فإذا كان النّشوء صالحاً

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي ٧٨/٣ – ٧٩، الأخلاق عند الغزالي لزكي مبارك ص ٢٤٧ – ٢٤٩، التربية والسياسة عند أبي حامد الغزالي للدكتور أحمد عرفات القاضي ص ٥٢ – ٦٠.

كان هذا الكلام عند البلوغ واقعاً مؤثّراً ناجعاً يَثبتُ في قلبه كما يثبت النّقش في الحجر، وإن وقع النّشوء بخلاف ذلك حتّى أَلِفَ الصّبيُّ اللّعب والفحش والوقاحة وشره الطّعام واللّباس والتّزين والتّفاخر، نبا قلبه عن قبول الحقّ نبوة الحائط عن التّراب اليابس، فأوائل الأمور هي التي ينبغي أن تراعى، فإنّ الصّبي بجوهره خُلِقَ قابلاً للخير والشّر جميعاً، وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين، قالﷺ: (كلّ مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه)[1]»[2].

وبعد أن تحدّث الغزالي عن مرحلة الطّفولة المبكرة ثمّ مرحلة التّمييز وتشمل مرحلة الكتّاب، انتقل للحديث عن المتعلّم بعد أن شبَّ عن الطّوق ودخل في مرحلة البلوغ. وهذا ما سنعرض له تحت عنوان آداب المتعلّم ووظائفه.

(١) البخاري في الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام (١٢٩٢) ومسلم في القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرةرضي الله عنه.

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي ٣/٧٩ – ٨٠.

المطلب الثَّاني
آداب المتعلّم ووظائفه

ذكر الغزالي عشر نقاط في آداب المتعلّم ووظائفه:

١- «تقديم طهارة النّفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف؛ إذ العلم عبادة القلب، وصلاة السّر، وقُرْبَة الباطن إلى الله تعالى، وكما لا تصحّ الصّلاة التي هي وظيفة الجوارح إلا بتطهير الظّاهر عن الأحداث والأخباث، فكذلك لا تصحُّ عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلّا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق»[(١)].

يبرز الغزاليّ في هذه النّقطة الجانبَ الأخلاقيّ وأهمّيته في العملية التّعليميّة. كما يوضح لنا أهميّة العلم باعتباره صلاة الباطن، في مقابل صلاة الظّاهر التي هي الرّكن الثّاني من أركان الإسلام، وأن الطّهارة الخلقيّة بالنسبة للعلم كالطّهارة البدنيّة من الخبائث والأحداث[(٢)].

٢- التّفرّغ لطلب العلم بتقليل الاشتغال بالدّنيا، وبالسّفر والابتعاد عن الأهل والوطن، ويشير بذلك إلى الرّحلة في طلب العلم والتّفرغ له، فالعلم لا يعطي طالبَهُ بعضَهُ مالم يعطه هذا الطّالب كلّه.

٣- أن يتأدّب المتعلّم في طلبه للعلم، فلا يتكبّر على العلم، ولا يتأمّر على معلّم، بل ينصاع لنصائح معلّمه، كما ينصاع المريض الجاهل للطّبيب المشفق الحاذق، ويتواضع له، ويطلب الثّواب والشّرف بخدمته.

٤- أن يحترز الخائض في العلم في مبدأ أمره عن الإصغاء إلى اختلاف النّاس، فإنّ ذلك يحيّر ذهنه، ويفتر رأيه، بل ينبغي أن يتقن أولاً طريقة أستاذه، ثم يصغي إلى المذاهب

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي ٦٢/١.

(٢) انظر: التربية والسياسة عند أبي حامد الغزالي للدكتور أحمد عرفات القاضي ص ٦٢.

والشُّبَه[1].

٥- أن ينظر المتعلّم في جميع العلوم المحمودة نظرةً أوليةً عامةً يتعرّفُ من خلالها على مقاصد العلوم وغاياتها، ثم يتعمّق بدراسة علمٍ منها، ويشتغلُ بالأهمّ منه ممّا يعود عليه وعلى مجتمعه بالخير، ثم يطّلع على العلوم القريبة منه، فإنّ العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض. كما يطلب من المتعلّم أن لا يعادي علماً من العلوم بسبب جهله به[2].

وهنا تظهر واقعيّة الغزاليّ ومنهجيّته. أما واقعيّته فتظهر في ربطه بين المنفعة الخاصّة والعامّة، وفي معرفته بطبائع النّاس، فمنهم من تناسبه العلوم النّقليّة، ومنهم من تناسبه العلوم العقليّة، وتظهر أيضاً في وصفه العلوم بأنّها محمودة، وهي التي تفيد الإنسان في دينه ودنياه.

وأما منهجيّته فتظهر في مطالبته المتعلّم بعدم التّسرع في الحكم على أيّ علمٍ دون النّظر فيه ولو نظرةً مجملةً، وبعدها يختار العلم الذي يناسبه ويعمل على التّوسع والتّعمّق فيه[3].

٦- أن يراعي التدرّج والتّرتيب في أيّ علمٍ يخوض فيه، فيبدأ بالأهمّ[4]، وذلك حتّى لا يصطدم المتعلّم بمشكلات العلم وقضاياه الفرعيّة بدايةً، فيملّ ويهجرَ العلم[5].

٧- ينبغي على المتعلّم أن لا يخوض في فنٍ حتّى يستوفي الفنّ الذي قبلَه، وذلك في الفنون المرتبط بعضها ببعض؛ لأنّ العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً، وبعضها طريق إلى بعضٍ، والموفق من راعى ذلك التّرتيب والتّدريج[6].

٨- أن يعرف أنّ شرف العلم إنّما يرجع إلى أحد أمرين: شرف الثّمرة، أو قوة الدّليل. فعلم الدّين أشرف من علم الطّب؛ لأنّ ثمرة الأوّل السّعادة الأخروية الأبديّة، وثمرة الثّاني

---

(١) انظر إحياء علوم الدين للغزالي ٦٤/١.

(٢) انظر: المرجع السابق ٦٥/١.

(٣) انظر: التربية والسياسة عند أبي حامد الغزالي للدكتور أحمد عرفات القاضي ص ٦٤ – ٦٥.

(٤) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي ٦٥/١.

(٥) التربية والسياسة عند أبي حامد الغزالي للدكتور أحمد عرفات القاضي ص ٦٥.

(٦) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي ٦٦/١.

السّعادة الدّنيويّة الفانية، فيكون علم الدّين أشرف. وعلم الحساب أشرف من علم النّجوم لقوّة أدلته. وعلم الطّب أشرف من علم الحساب؛ لأنّ الثمرة أوْلى من قوّة الدّليل[1].

٩- أن يكون قصد المتعلّم في الحال التّحلّي بالفضائل، وفي المآل القرب من الله ﷻ، وإن كان هذا مقصده طلب لا محالة الأقرب إلى مقصوده وهو علم الآخرة، لكنّ هذا لا يعني احتقار سائر العلوم «فالمتكلّفون بالعلوم كالمتكلّفين بالثّغور والمرابطين بها، والغزاة والمجاهدين في سبيل الله، فمنهم المقاتل، ومنهم الردء، ومنهم الذي يسقيهم الماء، ومنهم الذي يحفظ دوابهم ويتعهّدهم، ولا ينفك أحدٌ منهم عن أجرٍ إذا كان قصده إعلاء كلمة الله تعالى»[2].

١٠- أن يحاول المتعلّم الجمع بين أمور الدّنيا وملاذها وأمور الآخرة ونعيمها، وإذا لم يتمكّن من ذلك فليهتمَّ بالأهمّ وهو ما يبقى أبد الآباد، وما كان مقصده رفيعاً[3].

هذه هي النّقاط العشر، ويلاحظ أنّها مرتّبة متسلسلة، فكلّ واحدةٍ منها تؤدي إلى التي تليها[4].

---

(١) المرجع السابق المكان نفسه.

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي ١/٦٦ – ٦٧.

(٣) انظر إحياء علوم الدين للغزالي ١/٦٧.

(٤) انظر: التربية والسياسة عند أبي حامد الغزالي للدكتور أحمد عرفات القاضي ص ٦٢.

المطلب الثَّالث
وظائف المعلّم وآدابه

تقدّم الحديث عن المنهج الذي وضعه الغزاليّ في تربية الطّفل، وبرنامج التّدريس في المكاتب الصغيرة، والآن نقف على رأيه في تربية الطّلاب **ووظائف المعلّم المرشد؛ ونجملها بالنّقاط الآتية:**

١- الشّفقة على المتعلّمين، وأن يجريهم مجرى بنيه، فإن كان الوالدان سبب وجود الولد ومنقذيه في الحياة الفانية، فإنّ المعلّم سببٌ في إنقاذ الولد في الحياة الباقية، فلهذا كان حقُّ المعلّم أعظم[(١)].

٢- أن يقتدي المعلّم بالنّبيّ ﷺ فلا يطلب على تعليمه أجراً ولا يقصد به جزاءً ولا شكراً بل يعلّم لوجه الله تعالى وطلباً للتقرّب إليه، ولا يرى لنفسه منّة عليهم- وإن كانت المنّة لازمة عليهم- بل يرى الفضل لهم إذ هذّبوا قلوبهم لأنْ تتقرّب إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها. ويرى أنّ ثواب التّعليم أكبر من ثواب التعلّم عند الله تعالى، ولولا المتعلّم ما نال المعلّم هذا الثّواب، فلذلك لا ينبغي لمعلّم أن يطلب الأجر إلا من الله تعالى[(٢)].

وقد كان التّعليم بلا أجر حتى عهد الغزالي، فلما جاء نظام الملك جعل للمعلّم راتباً شهرياً، وكان الغزاليّ نفسه معلّماً في المدرسة النّظامية، فيمكن فهم كلامه في عدم أخذ الأجر على التّعليم، بأنّه أراد ألّا يكون همّ المعلّم موجّهاً إلى جمع المال، دون أداء عمله على الوجه الأكمل[(٣)].

٣- أن يكون ناصحاً لتلميذه، فلا يسمح له بالتّصدي لرتبةٍ قبل استحقاقها، وكذلك لا يسمح له بالتّشاغل بعلمٍ خفيٍ قبل الفراغ من الجليّ، ويذكّره بأنّ الغرض من طلب العلوم

(١) انظر إحياء علوم الدين للغزالي ٦٩/١.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي ٧٠/١.

(٣) انظر: التربية والسياسة عند أبي حامد الغزالي للدكتور أحمد عرفات القاضي ص ٦٩-٧٠.

هو التّقرب إلى الله تعالى، لا غير ذلك من الأهداف الدّنيوية من مباهاةٍ ومنافسةٍ ورئاسة[1].

٤- أن يزجر المتعلّم عن سوء الأخلاق متّبعاً في ذلك طريق الرّحمة لا التّوبيخ، وطريق التّعريض ما أمكن لا التّصريح. ويذكر الغزاليّ من مضار التّصريح أنّه يهتك حجاب الهيئة، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف، ويهيّج الحرص على الإصرار، بخلاف التّعريض الذي يدفع النّفوس الفاضلة والأذهان الذّكية إلى استنباط معانيه، فيستفيد التّلميذ الفطن ويزداد رغبةً في طلب العلم.

٥- ألا يُقبِّح المعلّم علماً آخر غيرَ المتكَفِّلِ بتدريسه، وإنّما واجبه أن يوسّع على المتعلّم طريق التّعلُّم في غيره، وإن كان متكفّلاً بعلوم فينبغي أن يراعي التّدريج في ترقية المتعلّم من رتبةٍ إلى رتبة.

٦- أن يقتصر بالمتعلّم على قدر فهمه، فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفّره، اقتداءً بذلك بالنّبيّ ﷺ حيث قال: (نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل النّاس منازلهم، ونكلّمهم على قدر عقولهم)[2].

ويقول الغزالي: ليس الظّلم في إعطاء غير المستحقّ بأقلّ من الظّلم في منع المستحقّ، ويستشهد على ذلك بهذه الأبيات[3]:

أأنثرُ دُرّاً بين سارحةِ النَّعمْ ... فأصبحَ مخزوناً براعيةِ الغنمْ
لأنّهمُ أمسَوا بجهلٍ لقدرهِ ... فلا أنا أُضْحي أن أطوّقه البُهُمْ
فإنْ لطفَ اللهُ اللطيفُ بلطفهِ ... وصادفتُ أهلاً للعلوم وللحكَمْ
نشرْتُ مفيداً واستفدتَ مودةً ... وإلّا فمخزون لديَّ ومُكْتَتَمْ
فمن منحَ الجهّالَ علماً أضاعَهُ ... ومن منع المستوجبين فقد ظلمْ

٧-ينبغي أن يعطي للمتعلّم القاصر الجليَّ اللائقَ به، ولا يذكر له أنّ وراء هذا تدقيقاً يدّخره عنه، فإنّ ذلك يفتّر رغبته في الجليّ ويوهمه البخل به عنه؛ إذ يظنُّ كلُّ واحدٍ أنّه

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي ١/٧٠.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي ١/٧١. وقال الحافظ العراقي في المغني: رويناه في جزء من حديث أبي بكر بن الشخير من حديث عمر أخصر منه. وعند أبي داود من حديث عائشة (أنزلوا الناس منازلهم).اهـ

(٣) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي ١/٧٢.

أهل لكلّ علمٍ دقيق[1].

وهذا الشّرط وسابقه يفسران لنا أهميّة كون المعلّم على درايةٍ بنفسيّة تلاميذه وقدراتهم العقليّة، وقريباً منهم حتى يستطيع أن يميّزَ بينهم[2].

٨-أن يكون المعلّم عاملاً بعلمه، فلا يكذّب قولَه فعلُهُ؛ لأنّ العلم يدرك بالبصائر، والعمل يدرك بالأبصار، وأرباب الأبصار أكثر[3]، فالمعلّم قدوة لتلاميذه. وهذا الشّرط غيرُ خاصٍ بالمعلّم وإن كان فيه أوجبَ من غيره[4].

وقد أكّد الغزالي على ربط العلم بالعمل في أكثر من موضع في كتبه، وعلى فقدان العلم لقيمته إن لم يقترن به العمل[5]. ومن أقواله في هذا المجال: «العلمُ بلا عمل جنونٌ، والعمل بغير علمٍ لا يكون»[6].

ويلاحظ أنّ الغزاليّ فيما وضعه من وظائف للمعلّم، يركّز على أمرٍ جوهريٍّ وهو أنّ المعلّم أمينٌ على ما وهبه الله من علمٍ من ناحيةٍ، وأمينٌ على تلامذته من ناحيةٍ أخرى، فيراعي أحوالهم ولا يبخل عليهم بالنّصح[7].

هذه جملة الوظائف التي ذكرها الغزاليّ للمعلّم، وتجدرُ الإشارة إلى وظيفتين أخريين أوردهما في ثنايا كتبه:

الأولى: التّجملُ وتحسين الهيئة «فقد كان رسول الله ﷺ مأموراً بالدّعوة، وكان من وظائفه أن يسعى في تعظيم أمر نفسه في قلوبهم، كي لا تزدريه أعينُهم، فينفّرَهم ذلك... وهذا القصد واجب على كلّ عالمٍ تصدّى لدعوة الخلق إلى الله ﷻ، وهو أن يراعي من ظاهره ما لا يوجب نفرة النّاس عنه»[8].

---

(١) انظر: المرجع السابق المكان نفسه.

(٢) انظر: التربية والسياسة عند أبي حامد الغزالي للدكتور أحمد عرفات القاضي ص ٧٢.

(٣) إحياء علوم الدين للغزالي ٧٢/١.

(٤) انظر الأخلاق عند الغزالي لزكي مبارك ص٢٥٢.

(٥) انظر: إحياء علوم الدين ٦٩/١. وانظر: أيها الولد للغزالي ص٢٣، ٢٥، ٢٩.

(٦) أيها الولد للغزالي ص٢٥.

(٧) التربية والسياسة عند أبي حامد الغزالي للدكتور أحمد عرفات القاضي ص٧٣.

(٨) إحياء علوم الدين للغزالي ١٦٣/١. وانظر: الأخلاق عند الغزالي لزكي مبارك ص ٢٥٢ – ٢٥٣.

الثّانية: «أن ينظر في نيّة المتعلّم فإن رآها حسنةً علّمهُ، وإن رآها سيئةً أعرض عنه. فلا يجوز فيما يرى الغزالي أن نعلّم من نرى في أقواله أو أفعاله أو مطعمه أو ملبسه أو مسكنه ما يدلّ على فساد نيّته، وسوء قصده. ولا يكفي فيما يرى الغزالي أن يقول المعلّم: إنّما أُريد نشر العلم، وللمتعلّم بعد ذلك الخيار، إن شاء أحسن و إن شاء أساء، بل يشبّههُ بمن يهب سيفاً لقاطع الطريق، ثمّ يقول: إنّما أريدُ السّخاء والتّخلّق بأخلاق الله الجميلة، وأن أعينه على الجهاد، فإن استعمل السّيف في الأذى فهو وحده المسؤول»[1].

ويرى أحد الدّارسين للغزالي: أنّ الأفضل في التّعامل مع مثل هذا التّلميذ أن يبذل المعلّم جهده في إصلاح سريرته، وأما الضّنُّ عليه بالعلم، فهذا هروب من الواجب وعمل سلبي[2].

(١) الأخلاق عند الغزالي لزكي مبارك ص ٢٥٣. وانظر: إحياء علوم الدين للغزالي ٣٨٩/٤.

(٢) انظر: الأخلاق عند الغزالي لزكي مبارك ص ٢٥٣.

المطلب الرَّابع
تربية النّفس وتزكيتها

للغزاليّ باعٌ طويلٌ في ميدان تزكية النّفس، ولعلّ كتابَه (إحياء علوم الدين) أهمُّ ما يمثّل إلمامه ومعرفته بها، وقد استغرق الحديث عنها الرّبع الثّالث والرّابع منه. والغزاليّ حين يتكلّم عن التّزكية فإنّه يتكلّم عن خبرةٍ ومعرفةٍ بخبايا النّفوس وأسقامها، فقد عاش سنواتٍ في المجاهدة والرّياضات، فأتاح له ذلك الاطلاع على دقائق النّفوس[1].

والتّزكية عند الغزاليّ «عمليةٌ تربويّةٌ تستهدف الارتقاء بالإنسان من مستوى الخضوع للشّهوات إلى مقام العبودية لله؛ الذي يتحرّر فيه من الخضوع للهوى والشّهوة، ويتصرّف طبقاً لمراد الله سبحانه. والقيام بهذه العملية يحتاج إلى دراية واسعة بحقيقة النّفس وبعملها، وأسباب مرضها وشفائها.

والنّفس والقلب والرّوح عند الغزاليّ أسماء متعدّدة لشيءٍ واحدٍ هو جوهر الإنسان، ولقد انفرد الله ﷻ بمعرفة كنه هذا الجوهر وإنّما يدرك البشر آثاره فقط. ويتخذ هذا الكائن اسمه من حالته، فإذا كانت الشّهوات طابعَه سمّي: (نفساً)، وإذا كان الصّفاء والتّرفع والانقياد لله صفتَه سمّي: (روحاً)، وإذا كان يتقلّب بين الشّهوات والنّبالة، والطّاعة والمعصية، سمّي: (قلباً).

ويتمّ عمل النّفس كما يلي: تؤثّر في الإنسان جملة مؤثراتٍ وتوجّهه في حياته،

---

(١) انظر: الإمام الغزالي حجة الإسلام ومجدد المئة الخامسة لصالح أحمد الشامي ص ١٣٨. ومن أمثلة ما يدل على عمق معرفته بخبايا النفوس، ما قاله عند الحديث عن الشخص الذي يذمُّ نفسه ونصّه: «ههنا مكيدة للنفس بينة ومخادعة، فليتفطن لها، وهو أنه قد يقول ذلك مظهراً أنه متشبه بالصالحين في ذمهم نفوسهم واستحقارهم لها ونظرهم لها بعين المقت والازدراء، فتكون صورة الكلام صورة القدح والازدراء، وباطنه وروحه هو عين المدح والإطراء، فكم من ذامٍّ نفسه وهو لها مادح بعين ذمه، فذمُّ النفس في الخلوة مع النفس هو المحمود، وأما الذمُّ في الملأ فهو عين الرياء إلا إذا أورده إيراداً يحصل للمستمع يقيناً بأنه مقترف للذنوب ومعترف بها». إحياء علوم الدين ٢/٢٧٤.وانظر حديثه عن خفايا الغيبة فيه ٣/١٥٤.

وتقرّر نمط سلوكه. فالنّفس هي القوة المسيطرة في الإنسان وهي بمثابة مَلِكٍ في مملكته، ولها وزير هو العقل، ويتجاذبها مستشاران: مستشار صالح وهو مَلَك الإلهام، ومستشار شرير هو الشّيطان، والجوارح والأعضاء هي جنود تنفّذ ما تأمر به النّفس.

وتبدأ الأفعال على صورة خواطر وأفكار تدور في كيان الإنسان ومصدرها النّفس، وملَك الإلهام، والشّيطان، فعن النّفس تصدر خواطر الشّهوات. وعن ملَك الإلهام تصدر أفكار الخير والصّواب. وعن الشّيطان تصدر أفكار الشّر والخطأ، وهو معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس: ١- ٦]. وإليه يشير الحديث النّبويّ القائل: (إنّ الشّيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم، فإن هو ذكر الله تعالى خنس، وإن نسي الله تعالى التقم قلبه)[(١)].

وإلى الملَك والشّيطان يشير الحديث النّبويّ الشّريف القائل: (قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرّحمن)[(٢)]»[(٣)].

إذن فالخواطر المحمودة (الإلهام) سببها يسمّى (ملَكاً)، والخواطر المذمومة سببها يسمّى (شيطاناً) والقلب بأصل فطرته صالح لقبول آثار الملَك وآثار الشّيطان صلاحاً متساوياً، وإنما يترجّح أحدهما بما يغذّي الإنسان نفسه، فإن اتّبع مقتضى غضبه وشهوته تسلّط الشّيطان عليه وصار القلب عشّ الشّيطان ومرتعه، وإن جاهد شهواته و أهواءه ولم يسلّطها على نفسه، وتشبّه بأخلاق الملائكة، صار قلبه مستقرّ الملائكة ومهبطهم[(٤)].

وتتلخّص طريقة تزكية النّفس عند الغزاليّ بأمرين: الأوّل: الابتعاد عن المعاصي. والثّاني: ممارسة الطّاعات والعبادات. ويقول: «ومهما انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى،

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني: أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب مكائد الشيطان، وأبو يعلى الموصلي، وابن عدي في الكامل وضعفه.اهـ

(٢) مسلم في القدر، باب: تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء (٢٦٥٤) من حديث عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ مرفوعاً بلفظ: (إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ).

(٣) تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية للدكتور ماجد عرسان الكيلاني ص١٦٢ – ١٦٣.

(٤) إحياء علوم الدين للغزالي ٣/٢٩-٣٠.

ارتحل الشّيطان وضاق مجاله، وأقبل المَلَك وألهم، والتّطاردُ بين جنديّ الملائكة والشّياطين في معركة القلب دائمٌ إلى أن ينفتح القلب لأحدهما فيستوطن ويتمكّن»[1]. وبعلاج النّفس بالطّاعات والقرب من الله تعالى تترقّى النّفس لتصل إلى النّفس المطمئنة. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر: ٢٧- ٣٠].

وأهمُّ ما يطلب من النّفس في التّزكية، الخلق الحسن، ولذلك أولى الغزاليّ اهتماماً بالغاً بالتربية الخلقيّة، وهذا ما سنتحدّث عنه في المطلب الآتي.

(١) المرجع السابق ٣/٣٠.

المطلبُ الخَامِسُ
تَربِيَةُ الخُلُقِ عندَ الغَزَاليّ

يعرِّف الغزالي الخُلُق بأنّه: «هيئة في النّفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولةٍ ويسرٍ، من غير حاجةٍ إلى فكرٍ ورويّةٍ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سمّيت تلك الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصّادر عنها الأفعال القبيحة سمّيت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيّئاً»[1].

ثمّ يذكر أنّ الخلق ليس مجرّد فعل الجميل أو القبيح ظاهراً، «فربّ شخصٍ خلقه السّخاء ولا يبذل إمّا لفقد المال أو لمانعٍ، وربّما يكون خلقه البخل وهو يبذل إمّا لباعثٍ أو رياء» ولا كذلك القدرة عليهما، ولا المعرفة بهما، «بل هو عبارةٌ عن هيئة النّفس وصورتها الباطنة» بها تميل إلى أحد الجانبين، ويتيسر عليها أحد الأمرين؛ إمّا الحسن وإمّا القبيح[2].

طريقة معرفة الإنسان لعيوبه:

يرى الغزاليّ أنّ من كانت له بصيرةٌ نافذةٌ لم تخفَ عليه عيوبه، وإذا عرف العيوب أمكنه العلاج. بيد أنّ أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم؛ يرى أحدهم القذى في عين أخيه، ولا يرى الجذع في عين نفسه. ومن ثمّ **وضع الغزاليّ أربع طرائق لمعرفة عيوب النّفس وهي:**

الأوّل: أن يجلس المرء بين يدي شيخٍ بصيرٍ بعيوب النّفس، مطّلعٍ على خفايا الآفات، ويحكّمه في نفسه، ويتّبع إشارته في مجاهدته.

الثّاني: أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديّناً، فينصّبه رقيباً على نفسه، ليلاحظ أحواله وأفعاله، فإذا كره منه شيئاً نبّهه إليه.

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي ٣/٥٨.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي ٣/٥٨.

الثّالث: أن يستفيد من ألسنة أعدائه معرفةَ عيوبِ نفسِه ، فإنّ عين السّخط تبدي المساويا. ولعلّ انتفاع الإنسان بعدوٍّ مشاحنٍ يذكّره عيوبه أكثرُ من انتفاعه بصديقٍ مداهنٍ يثني عليه ويخفي عنه عيوبه.

الرّابع: أن يخالط النّاس، فكلّ ما رآه مذْمُوماً فيهم اتّهم نفسه به. فيرى من عيوب غيره عيوبَ نفسِه، فإنّ الطّباع متقاربةٌ في اتّباع الهوى[1].

إمكان تغيير الخُلُق:

يردُّ الغزاليّ على أهل البطالة ممّن يزعم أنّ الأخلاق لا يُتصوَّر تغييرها؛ لأنّ الطّباع لا تتغيّر بقوله: «لو كانت الأخلاق لا تقبل التّغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتّأديبات، ولما قال رسول الله ﷺ: (احفظوا أخلاقكم)[2].

وكيف يُنكَرُ هذا في حقّ الآدميّ، وتغييرُ خلق البهيمة ممكنٌ؛ إذ يُنقلُ البازيُّ من الاستيحاش إلى الأنس، والكلب من شره الأكل إلى التّأدّب والإمساك والتّخلية، والفرس من الجماح إلى السّلاسة والانقياد، وكلّ ذلك تغييرٌ للأخلاق»[3].

كما يدحض رأي من قال: إنّ الخُلُق كالخِلقة الظّاهرة لا يمكن تغييره، فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلاً، ولا الطّويل يقدر أن يجعل نفسه قصيراً، ولا القبيح يقدر على تحسين صورته، فكذلك القبح الباطن يجري هذا المجرى، فيقول: إنّ خَلْقَ الله قسمان: قسمٌ لا فعل لنا فيه، كالسّماء والكواكب، وقسمٌ فيه قوّةٌ لقبول كمالٍ بعده؛ إذا وجد شرط التّربية، وتربيته قد تتعلّق بالاختيار، فإنّ النّواة ليست بتفاحٍ ولا نخلٍ، ولكنّها قابلةٌ بالقوّة لأنْ تصير نخلاً بالتّربية، وغير قابلةٍ لأنْ تصير تفاحاً، وإنّما تصير نخلاً إذا تعلّق بها اختيار الآدمي في تربيتها، و يقول: «فلذلك لو أردنا أن نقلع بالكلّيّة الغضب والشّهوة من أنفسنا ونحن في هذا العالم عجزنا عنه، ولكن لو أردنا قهرهما وإسلاسهما بالرّياضة والمجاهدة

---

(١) انظر: المرجع السابق ٦٩/٣ – ٧٠، والأخلاق عند الغزالي لزكي مبارك ص ١٥٤ – ١٥٥.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني: أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث معاذ: (يا معاذ حسن خلقك للناس) منقطع ورجاله ثقات.اهـ

(٣) إحياء علوم الدين للغزالي ٦٠/٣ – ٦١.

قدرنا عليه»[1].

«ويرى الغزاليّ **أنّ النّاس في موضوع التّربية وقبول أخلاقهم للتّغيير ينقسمون إلى أربع مراتب:**

الأولى: الإنسان الجاهل، وهو الغفل الذي لا يميّز بين الحقّ والباطل والجميل والقبيح، وهو الذي بقي على فطرته خالياً من جميع الاعتقادات، ولم تستَتِمّ شهوته باتباع اللّذات، فهذا النّوع سريع القبول للعلاج جداً، فلا يحتاج إلّا إلى معلّمٍ مرشدٍ، وإلى باعثٍ من نفسه يحمله على المجاهدة، فيحسن خلُقه في أقرب زمان.

الثّانية: الإنسان الجاهل الضّال، وهو الذي يعرف قبح القبيح، ولكنّه لم يتعوّد العمل الصالح، بل زُيّن له سوءُ عملِه فتعاطاه انقياداً لشهواته، وإعراضاً عن صواب رأيه؛ لاستيلاء الشّهوة عليه وتمكّنها منه، ولكن علِم تقصيره في عمله، فأمره أصعب من الأوّل؛ لأنّ عليه أن يقتلع ما رسخ في نفسه أولاً من كثرة الاعتياد للفساد، والآخر أن يغرس في نفسه صفة الاعتياد للعلاج، ولكنّه بالجملة محلٌّ قابلٌ للرّياضة إن انتهض لها بجدٍّ وحزمٍ وشمّر عن ساعده.

الثّالثة: الجاهل الضّال الفاسق، وهو الذي يعتقد في الأخلاق القبيحة أنّها الواجبة المستحسنة، وأنّها حقٌّ وجميلٌ، وتربّى عليها، فهذا صعبٌ معالجته، أوهو بتعبير الغزاليّ «تكاد تمتنع معالجته، ولا يرجى صلاحه إلّا على النّدور، وذلك لتضاعف أسباب الضّلال».

الرّابعة: وهو الذي جمع الموبقات كلّها، فإلى جانب ما سبق من جهلٍ وضلالٍ وفسقٍ، حبّه للشرّ. وهذا هو الذي ينشأ على الرّأي الفاسد، ويتربّى على العمل به، ويرى أنّ الفضيلة في كثرة الشّر واستهلاك النّفوس، وهذه أصعب المراتب حتى ضرب به المثل فقيل: (ومن العناء رياضة الهرم، ومن التّعذيب تهذيب الذّيب)»[2].

---

(١) المرجع السابق ٦١/٣، والأخلاق عند الغزالي للزكي مبارك ص ١٥٣.

(٢) التربية والسياسة عند أبي حامد الغزالي للدكتور أحمد عرفات القاضي ص ٣٥. وانظر: إحياء علوم الدين للغزالي ٦١/٣.

بيان السّبب الذي به يُنال حسن الخلق على الجملة:

«يرى الغزاليّ أنّ حسن الخلق يرجع إلى اعتدالِ قوة العقل وكمال الحكمة، وإلى اعتدال قوة الغضب والشّهوة، وكونها مطيعة للعقل، وكذلك الشّرع. **وهذا الاعتدال يحصل على وجهين:**

الوجه الأوَّل: وهذا لا دخل للتّربية فيه إلا نادراً، حيث يحدث الاعتدال بجودٍ إلهيٍّ، وكمالٍ فطريٍّ، بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل، حسن الخلق، معتدلاً في شهوته وغضبه، منقاداً للعقل والشّرع، فيصير عالماً مؤدبًّا بغير تأديب.

ويضرب على ذلك مثلاً بالأنبياء، ويرى أنّ هذا النّوع من الممكن أن ينال بالاكتساب، فربَّ صبيٍّ خُلِقَ صادقَ اللّهجة سخياً، وربما يخلق بخلافه، فيستطيع أن يحصّل هذه الأخلاق بالتّعليم، وبالاعتياد، ومخالطة المتخلّقين بهذه الأخلاق.

الوجه الثّاني: وأساس تغييره التّربية والرّياضة، وبهذا يمكن اكتساب الأخلاق الحسنة بالمجاهدة والرّياضة، عن طريق حمل النّفس على الأعمال التي يقتضيها الخُلُق المطلوب، فيرى أنّ من أراد مثلاً أن يحصِّل لنفسه خلُق الجود، فعليه أن يتعوّد بذل المال، ويواظب عليه مجاهداً نفسه حتى يصير ذلك طبعاً له فيصبح به جواداً.

وكذلك من أراد أن يحصّل خلُق التّواضع فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدةً طويلةً مجاهداً نفسه، ومتكلّفاً إلى أن يصير ذلك خلقاً وطبعاً، فيتيّسر عليه. وجميع الأخلاق المحمودة شرعاً تحصل بهذه الطريق»[1].

والغزاليّ يهتمّ كثيراً برياضة النّفس على ما يرغب المرء فيه من مكارم الأخلاق، ويرى كسب الخُلُق بسبب التخلّق من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح (النّفس والبدن)، ويقول في ذلك: «كلُّ صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرّك إلّا على وفقها لا محالة. وكلّ فعل يجري على الجوارح فإنّه قد يرتفع منه أثرٌ إلى القلب. ويُعَرِّفُ ذلك بمثالٍ: وهو أنّ من أراد أن يصير الحِذْقُ في الكتابة صفةً نفسيةً له حتى يصير كاتباً بالطّبع، فلا طريق له إلا أنْ يتعاطى بجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق ويواظب عليه

(١) التربية والسياسة عند أبي حامد الغزالي للدكتور أحمد عرفات القاضي ص ٣٦. وانظر: إحياء علوم الدين للغزالي ٦٣/٣.

مدةً طويلةً؛ يحاكي الخطُّ الحسن، فيتشبّه بالكاتب تكلّفاً. ثمّ لا يزال يواظب عليه حتى يصير صفةً راسخةً في نفسه، فيصدر منه في الآخر الخطُّ الحسن طبعاً، كما كان يصدر منه في الابتداء تكلّفاً. فكان الخطّ الحسن هو الذي جعل خطّه حسناً؛ ولكنّ الأوّل بتكلّفٍ، إلا أنّه ارتفع منه أثرٌ إلى القلب، ثمّ انخفض من القلب إلى الجارحة، فصار يكتب الخطّ الحسن بالطّبع.

وكذلك من أراد أن يصير فقيه النّفس، فلا طريق له إلا أنْ يتعاطى أفعال الفقهاء، وهو التّكرار للفقه حتى تنعطف منه على قلبه صفة الفقه، فيصير فقيه النفس»[1].

«كذلك الرّذيلة التي هي مرض القلب علاجها بضدّها. فيعالج مرض الجهل بالتّعلم، ومرض البخل بالتّسخي، ومرض الكبر بالتّواضع، ومرض الشّره بالكفّ عن المشتهى تكلّفاً، وكما أنّه لا بدّ من الاحتمال لمرارة الدّواء وشدّة الصّبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة، فكذلك لا بدّ من احتمال مرارة المجاهدة والصّبر لمداواة مرض القلب بل أوْلى»[2].

«والأصل المهمّ في المجاهدة الوفاءُ بالعزم، فإذا عزم على ترك شهوة فقد تيسّرت أسبابها... فينبغي أن يصبر ويستمر، فإنّه إن عوّد نفسه ترك العزم ألفت ذلك ففسدت. وإذا لم يخوّف النّفس بعقوبةٍ غلبته وحسّنت عنده تناول الشّهوة فتفسد بها الرّياضة بالكليّة»[3].

إذن المعوّل عليه هو اعتياد الفعل بالمجاهدة والرّياضة للنّفس، ولكنّ الغزالي يشير إلى أنّ الخُلق الحسنَ يُكتسب أيضاً من مخالطة الخلوقين، وبالتعلّم[4].

ويتأكّد الخلق الحسن في النّفس بأمرين:

١- اعتقاد كونه حسناً ومُرضيّاً.

٢- كثرة العمل بمقتضاه.

تهذيب الأخلاق لا يعني كبتها:

ينبّه الغزاليّ إلى أنّ تهذيب الأخلاق لا يعني كبتها وقلعها بالكليّة، فالإنسان محتاجٌ

(١) الأخلاق عند الغزالي لزكي مبارك ص ١٥٢. وانظر: إحياء علوم الدين للغزالي ٦٤/٣ – ٦٥.

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي ٦٦/٣.

(٣) المرجع السابق ٦٧/٣.

(٤) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي ٦٣/٣

إليها، وإنّما المقصود برياضة النّفس والمجاهدة الوصول بها إلى حدّ الاعتدال. قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩] فوصفهم بالشّدّة، وإنّما تصدر الشّدّة عن الغضب، ولو بطل الغضب لبطل الجهاد. إذن المطلوب ردّها إلى حدّ الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتّفريط، لا قلعها. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧][1].

دور الشّيخ المربّي في تهذيب الخلق:

لا بدّ لمن يريد أن يصل إلى الخلق الحسن من شيخٍ مربٍّ، يُخرجُ الأخلاق السّيئة من مريده. يقول الغزالي: «اعلم أنّه ينبغي للسّالك من شيخٍ مربٍّ ليخرج الأخلاق السّيئة منه، بتربيته، شبه فِعْل الفلاح الذي يقطع الشّوك ويخرج النباتات الأجنبيّة من بين الزّرع ليحسن نباته، ويكمل ريعه»[2].

وينبغي على الشّيخ المتبوع أن يراعي الفروق الفرديّة بين المريدين «وكما أنّ الطّبيب لو عالج جميع المرضى بعلاجٍ واحدٍ قتل أكثرهم، فكذلك الشّيخ لو أشار على المريدين بنمطٍ واحدٍ من الرّياضة أهلكهم وأمات قلوبهم. بل ينبغي أن ينظر في مرض المريد وفي حاله وسنّه ومزاجه وما تحتمله بنيته من الرّياضة ويبني على ذلك رياضته»[3].

وأن يسلك طريق التّدرّج في تهذيبهم؛ لأنّه كما يقول الغزاليّ: «إذا كان المريد لا يسخو بترك الرّعونة رأساً أو بترك صفةٍ أخرى ولم يسمح بضدّها، فينبغي أن ينقله من الخلق المذموم إلى خلقٍ مذمومٍ آخر أخفّ منه، كالذي يغسل الدّم بالبول، ثمّ يغسل البول بالماء إذا كان الماء لا يزيل الدّم»[4].

وهذان الأمران: مراعاة الفروق الفرديّة، وسلوك طريق التّدرج ممّا أكّد على أهميّته علماء التّربية المحدثون.

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي ٦٢/٣.

(٢) أيها الولد للغزالي ص ٣٦ – ٣٧.

(٣) إحياء علوم الدين للغزالي ٦٦/٣.

(٤) إحياء علوم الدين للغزالي ٦٧/٣.

المبحثُ الثَّاني:
جُهودُ ابنِ خلدون في الميدَانِ التَّربويّ

المطلب الأوَّل: التعليم وأصناف العلوم

تمهيد: ابن خلدون العالم التربوي: نستطيع أن نجمع الآراء والمعلومات المتعلّقة بالتّربية والتّعليم في مقدمة ابن خلدون في الأنواع والصّنوف الثّلاثة الآتية:

١- المعلومات النّفسيّة: التي تقوم عليها وتستند إليها نظريات التّربية والتّعليم.

٢- المعلومات التّاريخية: وهي التي تبيّن الطرائق المتبعة في التّربية والتّعليم في البلاد المختلفة.

٣- الوصايا العملية: وهي التي ترشد المعلّمين والمربيّن إلى القواعد التي يجب اتباعها في التّربية والتّعليم، والمبادئ النّظريّة التي تستند إليها تلك الوصايا العمليّة.

إنّ أهم فصول المقدمة إيراداً للملاحظات التّربويّة فصلان اثنان: **الأوَّل:** فصل تعليم العلوم، ويذكر فيه بعض القواعد العامة التي يجب اتباعها في التّعليم بوجهٍ عام. **والثّاني:** فصل تعليم الولدان، ويعرض فيه الطّرائق المتّبعة في تعليم الصّغار في مختلف البلدان بوجهٍ خاص، ويقارن بين هذه الطرائق ويبيّن محاسنها ومحاذيرها.[1]

«ولا بد من الإشارة إلى أنّ آراء ونظريّات ابن خلدون التّربوية التي سنبيّنها بعد قليل، هي على درجةٍ كبيرةٍ من الإبداع والطّرافة العلميّة والتّربويّة. فابن خلدون بالإضافة إلى سبقه وتجديده في مجالات التّفكير الاجتماعي (السوسيولوجي) والاقتصادي والسّياسي، وفي ميدان علم التّاريخ، يعدُّ أيضاً من مشاهير المربيّن وفلاسفتهم، إن لم يكن أشهرهم؛ لأنّه استطاع في القرن الرّابع عشر الميلادي أن يبدع، إبداعاً فائقاً، في وضع مبادئ وآراء وطرائق لتربيّة الأطفال وتعليم الطّلاب في جميع مراحل الدّراسة، يتّفق أكثرها مع أصول

(١) انظر: دراسات عن مقدمة ابن خلدون لساطع الحصري ص ٤٣٨، ومن ثمّ يمكن اعتبار هذين الفَصْلين بمنزلة العمود الفقري من مباحث ابن خلدون في التربية والتعليم. انظر: المرجع السابق ص ٣٣٩.

التّربية الحديثة في هذا العصر»[1]. وقدّمه أحد الباحثين بوصفه صاحب فكرٍ تربويٍّ، ونظريّةٍ تربويّةٍ متكاملةٍ لها خلفيّتها الفلسفيّة، ومنهجيّتها وأغراضها[2]. وعرّج على ذكره باحثٌ آخر فقال: «لقد بحث في التّربية في مقدّمته الشّهيرة، فجاء بنظراتٍ صائبةٍ أبرزت الكثير من المفاهيم التّربوية وقوانين التّعلّم. كذلك انتقد الجمود الذي ساد عصره»[3].

يعدُّ ابن خلدون العلم والتّعليم طبيعيّاً في العمران البشري، وأنّ الإنسان وبالرّغم من مشاركته للحيوانات بالغذاء والحسّ والحركة إلا أنّه قد تميّز عنها «بالفكر الذي يهتدي به لتحصيل معاشه، والتّعاون عليه بأبناء جنسه، والاجتماع المهيئ لذلك التّعاون، وقبول ما جاءت به الأنبياء عن الله تعالى والعمل به، واتّباع صلاح أخراه، فهو مفكرٌ في ذلك كلّه دائماً لا يفتر الفكر فيه طرفة عينٍ.. وعن هذا الفكر تنشأ العلوم وما قدّمناه من الصّنائع»[4].

ويرى أنّ العلوم على صنفين: صنفٌ طبيعيٌّ للإنسان يهتدي إليه بفكره. وصنفٌ نقليٌّ يأخذه عمّن وضعه. **فالصّنف الأوّل** هي العلوم العقليّة أو الحِكْميَّة الفلسفيّة «وهي التي يمكن للإنسان أن يقف عليها بطبيعة فكره، ويهتدي بمداركه البشريّة إلى موضوعاتها ومسائلها وأنحاء براهينها ووجوه تعليمها، حتى يَقِفَهُ نَظَرُه، ويحثّه على الصّواب من الخطأ فيها من حيث هو إنسانٌ ذو فكر»[5] وهي مشتملةٌ على أربعة علوم: المنطق، والطّبيعيّ، والإلهيّ، والنّاظر في المقادير[6]. **والصّنف الثّاني** «هي العلوم النّقليّة الوضعيّة، وهي كلّها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعيّ، ولا مجال فيها للعقل إلّا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول»[7]. وأصلها الشّرعيّات من الكتاب والسّنّة، ويُلحق بها ابن خلدون علوم اللّسان العربيّ الذي هو لسان الملّة[8].

---

(١) ابن خلدون وعلوم المجتمع للدكتور محمود عبد المولى ص ٩١.

(٢) وهو الدكتور عبد الأمير شمس الدين في كتابه: الفكر التربوي عند ابن خلدون وابن الأزرق ص ١٢و٣٣.

(٣) تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية للدكتور ماجد عرسان الكيالي ص ٢٢٦.

(٤) المقدمة لابن خلدون ص ٤٧٦.

(٥) المقدمة لابن خلدون ص ٤٨٢.

(٦) انظر: المصدر السابق ٥٢٩.

(٧) المقدمة لابن خلدون ص ٤٨٢.

(٨) انظر: المصدر السابق ٤٨٣.

المطلب الثَّاني
تقديم علوم الوسائل والتّوسع بعلوم المقاصد

يميّز ابن خلدونٍ بين نوعين من العلوم:

١-علوم مقصودة بالذّات: كالشّرعيات من التّفسير والحديث والفقه وعلم الكلام، وكالطّبيعيات والإلهيات من الفلسفة.

٢-وعلوم هي وسيلة آلية لهذه العلوم: كالعربية والحساب وغيرهما للشّرعيّات؛ وكالمنطق للفلسفة، وربما كان آلةً لعلم الكلام ولأصول الفقه على طريقة المتأخرين.

يتحدّث عن هذين النّوعين فيقول: «فأمّا العلوم التي هي مقاصد فلا حرج من توسعة الكلام فيها، وتفريع المسائل، واستكشاف الأدلة والأنظار، فإنّ ذلك يزيد طالبها تمكناً في ملكته وإيضاحاً لمعانيها المقصودة. وأمّا العلوم التي هي آلةٌ لغيرها مثل العربية والمنطق وأمثالها فلا ينبغي أن ينظر فيها إلا من حيث هي آلةٌ لذلك الغير فقط، ولا يُوسَّعُ فيها الكلام ولا تُفرَّعُ المسائل؛ لأنّ ذلك مُخرِجٌ لها عن المقصود؛ إذ المقصود منها ما هي آلة له لا غير، فكلّما خرجت عن ذلك خرجت عن المقصود، وصار الاشتغال بها لغواً مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطولها وكثرة فروعها، وربما يكون ذلك عائقاً عن تحصيل العلوم المقصودة بالذّات لطول وسائلها مع أنّ شأنها أهمُّ، والعمر يقصر عن تحصيل الجميع على هذه الصّورة، فيكون الاشتغال بهذه العلوم الآلية تضييعاً للعمر وشُغلاً بما لا يعني. وهذا كما فعل المتأخرون في صناعة النّحو وصناعة المنطق وأصول الفقه؛ لأنّهم أوسعوا دائرة الكلام فيها، وأكثروا من التّفاريع والاستدلالات بما أخرجها عن كونها آلة وصيّرها من المقاصد، وربما يقع فيها أنظارٌ لا حاجة بها في العلوم المقصودة، فهي من نوع اللّغو، وهي أيضاً مضرّة بالمتعلّمين على الإطلاق؛ لأنّ المتعلّمين اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثرُ من اهتمامهم بوسائلها، فإذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل فمتى يظفرون بالمقاصد؟! فلهذا يجب على المعلّمين لهذه العلوم الآليّة أن لا يستبحروا في شأنها، وينبّهوا المتعلّم على

الغرض منها ويقِفوا به عنده»[1].

والخلاصة أنّ ابن خلدون يقسم العلوم المتعارفة عند أهل العمران قسمين أساسيين: علوماً مقصودة بالذات وهي العلوم الشّرعيّة والإلهيات والطّبيعيات، وعلوماً غير مقصودة بالذّات وهي علومٌ أداتيةٌ تتّخذ للمهارة في العلوم السّابقة مثل الحساب والمنطق وعلوم اللّغة العربية. ويرى أنّه ينبغي التّوسع في تعليم علوم القسم الأوّل وتفريع مسائلها ليقف المتعلّم على دقائقها ويستوعب مقاصدها وأغراضها، وعلى العكس من ذلك في علوم القسم الثّاني التي ينبغي ألا يوسّع الكلام فيه إلّا بالقدر الذي يعين على فهم واستيعاب علوم المقاصد[2].

(١) المقدمة لابن خلدون ص ٥٩٣ – ٥٩٤.

(٢) انظر: ابن خلدون وعلوم المجتمع للدكتور محمود عبد المولى ص ٩٧.

المطلب الثَّالث
صناعة التّعليم

وجد ابن خلدون«أنّ فهم المسألة الواحدة من الفنّ الواحد مشترك بين من شَدَا في ذلك الفنّ وبين من هو مبتدئ فيه، وبين العامّي الذي لم يعرف علماً وبين العالم النّحرير»[1] فاستدلّ بذلك على أنّ العلم واحد ولكنّ صناعته هي التي اختلفت. وبقدر ما يكون القائمون بهذه الصّناعة قادرين على الإحاطة بطرائقها ومبادئها وقوانينها ومهارتها والوقوف على مسائلها واستنباط فروعها من أصولها تكون هذه الصناعة مزدهرةً ومحققةً لأهدافها، وينسحب هذا على القائمين بها كمّاً وكيفاً.

افترض ابن خلدون أنّ التّعليم صناعةٌ نجاحها وفشلها مرتبطان بالقائمين بها، وأنّ المعلّمين هم سند هذه الصناعة. لذا لا بدّ أن تتوافر فيهم شروطٌ وآدابٌ وقوانين. ويستشهد ابن خلدون ببعض الذين ارتحلوا ممّن يعرفهم لطلب العلم على المشاهير، فقد رجع بعضهم بعلمٍ وفيرٍ ومفيدٍ وبتعلّمٍ حسنٍ[2].

ويعود الفضل لمن حذق منهم لتوافر معلّمين ملمّين مبرّزين بصناعة التّعليم. وهكذا فإنّ وجود المعلّم القادر والحاذق ضرورةٌ أولى في عملية التّعليم[3].

---

(١) المقدمة لبن خلدون ص ٤٧٧.

(٢) يذكر ابن خلدون من هؤلاء: أبو القاسم بن زيتون، وأبو عبد الله بن شعيب الدكالي، وأبو علي بن ناصر المِشدالي.

(٣) الفكر التربوي عند ابن خلدون وابن الأزرق للدكتور عبد الأمير شمس الدين ص ٧٩-٨٠.

المطلب الرَّابع
القرآن هو أصل التّعليم (في التّعليم الأوَّل)

مع اختلاف مناهج التّربية الإسلامية باختلاف الأمصار الإسلامية يتّفق المسلمون على أنّ القرآن الكريم هو أصل الدّين، ومصدر العلوم الإسلامية، وأساس اللّغة العربية. ويقول ابن خلدون في ذلك: «اعلم أنّ تعليم الولدان للقرآن شعار الدّين، أخذ به أهل الملّة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث، وصار القرآن أصل التّعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعدُ من الملَكات. وسبب ذلك أنّ التّعليم في الصّغر أشدُّ رسوخاً، وهو أصلٌ لما بعده؛ لأنّ السّابقَ الأوَّل للقلوب كالأساس للملَكات، وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال مَنْ ينبني عليه»[1]. ثم يذكر اختلاف أهل الأمصار الإسلامية في طرائق تعليم القرآن، وفيما يضاف إليه من المواد الدراسية، ويفصّل في هذا الشأن.

وينتقد ابن خلدون اقتصار أهل أفريقية والمغرب على تحفيظ القرآن فقط للولدان الأمر الذي جعلهم قاصرين عن ملكة اللسان جملةً، من عجز عن القدرة الإنشائية في التّعبير والإبانة عمّا في النّفس، وحسب تعليله «أنّ القرآن لا ينشأ عنه، في الغالب، مَلَكة لما أنّ البشر مصروفون عن الإتيان بمثله، وليس لهم ملكة في غير أساليبه، فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي، وحظُّه الجمود في العبارات، وقلّة التصرف في الكلام»[2]. ويعتبر أنّ هذه الظّاهرة تصدق على أهل المغرب أكثر من أهل أفريقية؛ لأنّ هؤلاء «يخلطون في تعليمهم القرآن بعبارات العلوم.. فيقتدرون على شيءٍ من التّصرف، ومحاذاة المثل بالمثل، إلا أنّ ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغة». وعلى عكس ذلك أهل الأندلس الذين أفادهم

(١) المقدمة لابن خلدون ص ٥٩٤.

(٢) المرجع السابق ص ٥٩٥.

«التّفنن في التّعليم، وكثرة رواية الشّعر، والتّرسل، ومدارسة العربية، من أوّل العمر، حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللّسان العربي، وقصّروا في سائر العلوم لبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث الذي هو أصل العلوم وأساسها، فكانوا لذلك أهل حظٍّ وأدب بارع»[1].

ثم يعرض ابن خلدون «لطريقة القاضي أبي بكر بن العربي التي اعتبرها غريبةً في فنون التّعليم، وخلاصتها أنّ تعليم العربية والشّعر يجب أن يقدّما على سائر العلوم كما هو الحال عند أهل الأندلس (لأنّ الشّعر ديوان العرب) فلا بدّ من تقديمه، ولابدّ من تعليم العربية، ثم ينتقل المتعلّم من ذلك إلى الحساب فيتمرّن فيه حتى يرى القوانين، ثمّ ينتقل إلى درس القرآن. وهذا المنهج كما يؤكّد ابن العربي يساعد كثيراً على فهم القرآن. ولذلك اعتبر ابن خلدون طريقة ابن العربي هذه طريقةً حسنةً إلا أنّ تقاليد أهل المغرب وأفريقيا لا تساعد على الأخذ بها»[2].

ويذكر لنا ابن خلدون (التّعليم الثّاني) وهو ما يكون بعد سنّ الصّبا والرّشد، ولكن دون أن يكلّف نفسه ذكر تفاصيل طرائق هذه المرحلة ومناهجها «وفي جميع الأحوال فإنّ هذه المرحلة لا تهمّنا هنا؛ لأنّها متعلّقة بالعلوم الفقهية وبالحديث وما إلى ذلك من العلوم الشّرعية والدّينية التي اهتمّ بها بصورةٍ خاصةٍ الفقهاء المربّون»[3].

(١) المقدمة لابن خلدون ص ٥٩٥ – ٥٩٦.

(٢) ابن خلدون وعلوم المجتمع للدكتور محمود عبد المولى ص ١٠٠، والمقدمة لابن خلدون ص٥٩٦.

(٣) الفكر التربوي عند ابن خلدون وابن الأزرق للدكتور عبد الأمير شمس الدين ص ٨٨.

المطلب الخامس
القواعد الخلدونيّة في التّربية والتّعليم

أولاً-التّدرج والتّكرار التّصاعديّ بما يناسب الطّالب والموضوع معاً:

يبيّن ابنُ خلدُون وَجْهَ الصَّوابِ في تعليم العلوم وطرائق الإفادة منها، ويرى أنّ تعليم العلوم كي يكون مفيداً، يجب أن يتبّع المعلّم طريقة التّدرج على أساس إجمال المعلومات في البدء، ثمّ يتدرّج في التّفصيل والشّرح بعد ذلك، فيلقي على الطّالب مسائل من كلّ باب من الفنّ (العلم)، ويبدأ بالأصول والكلّيات بالنسبة لكلّ بابٍ، ثمّ تقرّب له بالشّرح شيئاً فشيئاً، ويراعي في ذلك «قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن»[1]. ففي هذه المرحلة الأوْلى تحصل للطّالب ملَكة فهم المادة العلميّة إلا أنّها تكون عندئذ جزئيةً وضعيفةً، وغايتها تهيئة الطّالب لاستيعاب الفنّ وتحصيل مسائله. وبعد ذلك يرجع المدرّس بالطّالب إلى الفنّ ثانيةً، فيرفعه من الدّرجة التي هو فيها إلى درجةٍ أعلى منها، ويستوفي الشّرح والبيان ويخرج عن الإجمال، ذاكراً له ما هنالك من الخلافات ووجهها حول المسائل، إلى أن ينتهي إلى آخر الفنّ، وبهذه العملية تجود ملكة الطّالب ويكون مهيئاً لقبول العويص من المسائل، وعندئذٍ يعود المدرّس بالطّالب إلى الفنّ، فلا يترك مسألة عويصةً من مسائله، ولا مشكلةً مغلقةً إلّا وضّحها وفتح قفلها له.

فبهذه الطّريقة ذات المراحل الثلاث يتمكّن الطّالب من استيعاب الفنّ كلّه، وقد استولى على ملكته، وهو برأيه أسلوب التّعليم المفيد الذي يحصل في ثلاثة تكرارات.

ويشير ابن خلدون إلى أنّه «قد يحصل للبعض في أقلّ من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيّسر عليه»[2]. وهو هنا يشير إلى ما يسمّى (بالفروق الفردية) مبيّناً أنّ التّلاميذ يتفاوتون في

---

(١) المقدمة لابن خلدون ص ٥٨٩.

(٢) المقدمة لابن خلدون ص ٥٨٩.

مدى فهمهم، فمنهم من يفهم من مرّةٍ واحدةٍ، ومنهم من يحتاج إلى تكرارٍ مرّتين، أو ثلاث مرّات.

وفي ضوء خبراته في التّدريس ومشاهَداته في عصره، ينتقد العلامة ابن خلدون أولئك المعلّمين الذين يجهلون طرائق التّدريس الجيدة؛ لأنّهم «يُحضرون للمتعلّم، في أوّل تعليمه المسائل المقفلة من العلم، ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلّها، ويحسبون ذلك مِراناً على التّعليم، وصواباً فيه، ويكلّفونه رعيَ ذلك وتحصيله، ويَخلِطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها، وقبل أن يستعدّ لفهمها»[1].

«إنّ طريقة التّكرارات الثّلاثة التي شرحها ابن خلدون وزكّاها، ناقداً ونابذاً ما سواها، هي طريقة تستجيب لاستعدادات الطّالب لفهم العلم كما تستجيب لمستواه الذّهني. والطّريف في هذه الطّريقة التي اقترحها ابن خلدون على المعلّمين، هو كونها مجرّبةً محقّقةً نتائجَ طيّبةً، ثمّ إنّها علميّةٌ نظراً لكونها تتماشى اليوم مع بعض معطيات التّربية الحديثة التي تُخضع عملية التّعلّم لمستوى واستعداد النّاشئ أو التّلميذ أو الطّالب، فعملية التعلّم حسب الطّريقة الخلدونية، يجب أن تكون مرحليةً ومتدرجةً من تعليم المسائل السّهلة إلى المسائل الصّعبة، وهي طريقة انتصر لها المربي السويسري يوحنا هنري بسالوتزي (١٧٤٦-١٨٢٧م) الذي يعتبر من قادة التربية في العصر الحديث، كما انتصر لها غيره من كبار المربين»[2].

ثانياً- الاقتصار على علمٍ واحدٍ وعلى كتاب واحد فيه:

ينبغي للمعلّم أن لا يخلط مسائل الكتاب المدروس بغيرها من الكتب الأخرى، حتى يعيها الطّالب من أوله إلى آخره، ويحصّل أغراضه، ويستولي على ملَكة بها ينفذ في غيره. كما ينبغي أن لا يخلط على المتعلّم علمان معاً «فإنّه حينئذ قلّ أن يظفر بواحدٍ منهما، لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كلّ واحدٍ منهما إلى تفهّم الآخر، فيستغلقان معاً ويستصعبان، ويعود منهما بالخيبة. وإذا تفرّغ الفكر لتعليم ما هو بسبيله مقتصراً عليه، فربّما

(١) المرجع السابق المكان نفسه.

(٢) ابن خلدون وعلوم المجتمع للدكتور محمود عبد المولى ص ١١٠ – ١١١.

كان ذلك أجدر لتحصيله»[1].

«وهكذا يكون ابن خلدون قد راعى المتعلّم وظروفه ومقدرته، مستبقاً النّظرية التّربوية الحديثة التي أحدثت انقلاباً بالتّربية كما أحدثت نظرية كوبرنايكس انقلاباً في علم الفلك، والقائلة بجعل المعلّم والبرامج يدور كلاهما في فلك المتعلّم وليس العكس كما كان سائداً»[2].

ثالثاً- تقارب مجالس العلم الواحد:

يرى ابن خلدون أنّ تتقارب مجالس العلم الواحد، فلا يطوّل زمن الفَصْل بينها؛ لأنّ الإطالة «ذريعةٌ إلى النسيان، وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض، فيعسر حصولُ الملكة بتفريقها. وإذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرةً عند الفكر مجانبةً للنسيان، كانت الملكة أيسرَ حصولاً وأحكمَ ارتباطاً وأقرب صبغةً؛ لأنّ الملكات إنّما تحصل بتتابع الفعل وتكراره، وإذا تنوسي الفعلُ تنوسيت الملَكة النّاشئةُ عنه»[3].

رابعاً- كثرة التآليف في العلوم عائقة عن التّحصيل:

ينتقد ابن خلدون حالةً خاصّةً كانت معهودة في عصره، ونضطر إلى التّسليم بأنّه كان مصيباً في نقده هذا؛ إذ كان العرف يُحتِّمُ على الطّلاب درسَ جميع المؤلفات وحفظها واحداً بعد آخر، فيقول: «اعلم أنّه ممّا أضرّ بالنّاس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرةُ التّآليف واختلاف الاصطلاحات في التّعاليم وتعدّد طرقها، ثمّ مطالبة المتعلّم والتّلميذ باستحضار ذلك. وحينئذ يسلم له منصب التّحصيل. فيحتاج المتعلّم إلى حفظها كلّها أو أكثرها ومراعاة طرقها، ولا يفي عمره بما كتب في صناعةٍ واحدةٍ إذا تجرّد لها، فيقعُ القصورُ ولا بدّ دون رتبةِ التحصيل»[4].

ويمثّلُ لذلك بمثالين: يذكر في الأوّل منهما أسماء الكتب المدوّنة في الفقه المالكي وما كُتِبَ عليها من الشّروحات الفقهية، ويعلمنا أنّ الطّالب كان يحتاج إلى دراسة هذه المؤلفات

(١) المقدمة لابن خلدون ص ٥٩٠.

(٢) الفكر التربوي عند ابن خلدون وابن الأزرق للدكتور عبد الأمير شمس الدين ص ٨٢.

(٣) المقدمة لابن خلدون ص ٥٩٠.

(٤) المقدمة لابن خلدون ص ٥٨٧، وانظر: دراسات عن مقدمة ابن خلدون لساطع الحصري ص ٤٨٢.

كلّها، كما كان «يحتاج إلى تمييز الطّريقة القيروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية، وطرق المتأخرين عنهم والإحاطة بذلك كلّه... وهي كلّها متكررةٌ، والمعنى واحد، والمتعلّم مطالبٌ باستحضار جميعها وتمييز ما بينها؛ والعمر ينقضي في واحدٍ منها. ولو اقتصر المعلّمون بالمتعلّمين على المسائل المذهبية فقط، لكان الأمر دون ذلك بكثيرٍ، وكان التّعليم سهلاً ومأخذه قريباً»[1].

ويذكر في الثّاني علمَ العربية وكتاب سيبويه وما كُتِبَ عليه، وطرائق البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين من بعدهم، وطرائق المتقدّمين والمتأخرين ثمّ يقول: «وجميعُ ما كُتب في ذلك كيف يُطالَبُ به المتعلّمُ، وينقضي عمره دونه، ولا يطمع أحدٌ في الغاية منه، إلّا في القليل النّادر... فالظّاهر أنّ المتعلّم ولو قطع عمره في هذا كلّه فلا يفي له بتحصيل علم العربية- مثلاً – الذي هو آلة من الآلات ووسيلة، فكيف يكون في المقصود الذي هو الثمرة؟»[2].

خامساً- تجنّب المختصرات في التّعليم:

يرى ابنُ خلدون «أنّ كثرة الاختصارات المؤلّفة في العلوم مخلّةٌ بالتّعليم» ويشرح هذه القاعدة ويعللّها كما يأتي: «ذهب كثيرٌ من المتأخرين إلى اختصار الطّرُق والأنحاء في العلوم، يولعون بها ويدوّنون منها برنامجاً مختصراً في كلّ علمٍ، يشتمل على حصر مسائله وأدلّتها باختصارٍ في الألفاظ، وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن. وصار ذلك مُخِلاً بالبلاغة وعَسِراً على الفهم. وربما عمدوا إلى الكتب الأمّهات المطوّلة في الفنون- للتّفسير والبيان- فاختصروها تقريباً للحفظ كما فعله ابن الحاجب في الفقه وابن مالك في العربية والخَوْنْجي في المنطق وأمثالهم. **وهو فساد في التّعليم، وفيه إخلالٌ بالتحصيل:**

(أ) وذلك لأنّ فيه تخليطاً على المبتدئ بإلقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعِدَّ لقبولها بعدُ، وهو من سوء التّعليم...

(ب) ثمّ فيه شُغْلٌ كبيرٌ على المتعلّم بتتبّع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم، بتزاحم المعاني

---

(١) المقدمة لابن خلدون ص ٥٨٧.

(٢) «المقدمة لابن خلدون ص ٥٨٩- ٥٩٠.

عليها، وصعوبة استخراج المسائل من بينها؛ لأنّ ألفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك صعبةً عويصةً، فينقطع في فهمها حظٌّ صالحٌ من الوقت.

(ت) ثمّ بعد ذلك فالملَكة الحاصلة من التّعليم في تلك المختصرات – إذا تمّ على سداده ولم تعقِبْه آفة- فهي ملَكةٌ قاصرةٌ عن الملَكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطوّلة، بكثرة ما يقع في تلك من التّكرار والإحاطة المفيدينِ لحصول الملَكة التّامة.

وإذا اقتُصر على التّكرار قصّرَت الملَكة لقلته، كشأن هذه الموضوعات المختصرة»[1].ولذلك كلّه يرى ابن خلدون أنّ هذه الخطة سيئةٌ وخاطئةٌ، فيقول: «قصدوا إلى تسهيل الحفظ على المتعلّمين، فأركبوهم صعباً يعطلّهم عن تحصيل الملَكات النّافعة وتمكُّنِها»[2].

سادساً-الشّدّة على المتعلّمين مضرّة بهم:

عقد ابن خلدون فصلاً تحت العنوان الآنف الذّكر ذكر فيه أضرار الشّدة والقهر على المتعلّمين، وذكر أنّ هذه الصّفات تؤدي إلى جملةِ نتائج سيئة، وخاصّة على المبتدئين.

وهو لا يحصر ذلك بالمبتدئين وحدهم، بل يُشمِلُ ويعمّم هذه القاعدة على الخدم والمماليك بل والأمم المقهورة أيضاً؛ إذ إنّه يقول: «مَنْ كان مرْبّاه بالعسف والقهر من المتعلّمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر وضيَّق عن النّفس في انبساطها، وذهب بنشاطها، ودعاه إلى الكسل، وحمل على الكذب والخبث، وهو التّظاهر بغير ما في الضمير خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه؛ وعلّمه المكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادةً وخلقاً، وفسدت معاني الإنسانية التي له من حَيْثُ الاجتماع والتمرّن وهي الحميّة والمدافعة عن نفسهِ ومنزلِهِ، وصار عِيالاً على غيره في ذلك بل وكَسِلت النّفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل، فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها، فارتكس وعاد في أسفل سافلين، وهكذا وقع لكلّ أمّة حصلت في قبضة القهر ونال منها العسف»[3].

---

(١) المقدمة لابن خلدون ص ٥٨٨.

(٢) المرجع السابق ص ٥٨٨-٥٨٩، وانظر: دراسات عن مقدمة ابن خلدون لساطع الحصري ص ٤٨٣-٤٨٤.

(٣) المقدمة لابن خلدون ص ٥٩٧.

وبعد ذلك يكرّر ابن خلدون القاعدة ويؤكّدها بقوله: «فينبغي للمعلّم في متعلّمِه، والوالد في ولده أن لا يستبدّا عليهما في التأديب» ثمّ يذكر ما قاله محمد بن أبي زيد في الكتاب الذي ألفه (في حكم المعلّمين والمتعلّمين): «لا ينبغي لمؤدّب الصّبيان أن يزيد في ضربهم إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط شيئاً»[1].

وفي الختام يذكر ابن خلدون وصيّة الرّشيد لمعلّم ولده، وينقل منها العبارة التالية: «لا تمرنّ بك ساعةٌ إلا وأنت مغتنمٌ فائدةً تفيده إيّاها، من غير أن تحزنه فتميتَ ذهنَه، ولا تمعن في مسامحته فيستحليَ الفراغ ويألفَه، وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإنْ أباهما فعليك بالشدّة والغلظة»[2]. ومن هنا يظهر أنّ السّبيل الأقوم عنده هو الأخذ بالحزم مع الملاينة.

«والطّريف أنّ أغلبية علماء التّربية المعاصرين متّفقون على مساوئ العقاب سواء كان مادياً أو معنوياً، وعلى رأس هؤلاء الأستاذ سكينر من جامعة هارفرد الأمريكية. إنّ سكينر قد عارض استعمال العقاب البدني مطلقاً، وذلك في جميع عمليّات التعلّم، وهنا يتّفق ورأي ابن خلدون. ويرى الأستاذ سكينر أنّ العقاب مادياً كان أو معنوياً مضرٌ في عمليّة التّعليم، وهو لا يزيل السّلوك الغير المرغوب فيه، ولا يقضي عليه، وإنّما يؤدي إلى كبته لفترة زمنيّة، لا يلبث بعده أن يفصح عن نفسه حين تحين الفرصة، بالإضافة إلى ما يتركه العقاب من رواسب ومصاحباتٍ نفسيةٍ سلبيةٍ، وما الخوف والقلق والكذب والسّلبية تجاه المدرّس والمادة والمدرسة إلّا بعض نتائجها السّلبية»[3].

سابعاً-الرّحلة في طلب العلم والاستكثار من الشّيوخ:

يرى ابن خلدون أنّ الرّحلة في طلب العلم ولقاء العلماء أمرٌ ضروريٌّ، وذلك لأنّ «البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارةً علماً وتعليماً وإلقاءً- أي عن طريق الفكر- وتارةً محاكاةً وتلقيناً بالمباشرة- أي عن طريق الفعل-

(١) المقدمة لابن خلدون ص ٥٩٧.

(٢) المرجع السابق ص ٥٩٧-٥٩٨. ودراسات عن مقدمة ابن خلدون لساطع الحصري ص ٤٥٦-٤٥٧.

(٣) ابن خلدون وعلوم المجتمع للدكتور محمود عبد المولى ص ١١٧.

إلا أنّ حصول الملَكات عن المباشرة والتّلقين أشدُّ استحكاماً وأقوى رسوخاً، فعلى قدر كثرة الشّيوخ يكون حصول الملَكات ورسوخها»[1].

ويشرح ذلك ويعلّله كما يأتي «لأنّ الرّحلة في طلب العلم تمكّن الطّالب من لقاء شيوخٍ كثيرين، ومن المعلوم أنّ لكلّ شيخٍ من مشاهير الشّيوخ- سيما في البلدان المختلفة- اصطلاحاتٌ خاصّةٌ ومنهجٌ خاصٌ وطريقةٌ خاصّةٌ في البحث والنّظر والتّعليم، فإذا خالطهم الطّالب واحداً بعد الآخر، وتلقّن من كلّ واحدٍ منهم اصطلاحاته الخاصّة، واطّلع على الطّرائق المختلفة التي يتبّعها هؤلاء المشايخ في أبحاثهم وأنظارهم حصل الطّالب على ملكةٍ علميةٍ أقوى وأتمّ من التي يستطيع الحصول عليها من شيخٍ واحدٍ في مدينةٍ واحدة.

زد على ذلك أنّ الطّالب يستطيع حينئذ أن يميّز اصطلاحات العلوم من العلوم نفسها، ويتوصّل بذلك إلى مرتبةٍ أعلى من الملكات العلمية»[2].

ويؤكد ابن خلدون كلامه السّابق بقوله: «فالرّحلة لا بدّ منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد، والكمالِ بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال»[3].

ويلاحظ هنا أنّ ابن خلدون يقرن المعارف والمذاهب بالأخلاق والفضائل، ويقرّر أنّ البشر يأخذون ذلك تارةً علماً وتعليماً وإلقاءً، وتارة محاكاةً وتلقيناً بالمباشرة «وأنّه ينظر بهذه الصّورة إلى التّربية والتّعليم نظرةً شاملةً جداً: نظرة تشمل العلوم والأخلاق، وتتناول طرق اكتسابها من التّعليم إلى التّلقين والمباشرة والممارسة»[4].

ثامناً- قيام الجدل والحوار بين المعلّم والمتعلّم:

«وكما رأى ابن خلدون أنّ البعض ممّن ارتحلوا لطلب العلم عادوا حاذقين للصّنعة، فقد رأى أيضاً أنّ البعض ممّن ارتحل قد عادوا (بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في مجالسة المجالس العلمية سُكُوتاً، لا ينطقون ولا يفاوضون، وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة)[5].

---

(١) المقدمة لابن خلدون ص ٥٩٨.

(٢) دراسات عن مقدمة ابن خلدون لساطع الحصري ص ٤٥٧ – ٤٥٨.

(٣) المقدمة لابن خلدون ص ٥٩٨.

(٤) دراسات عن مقدمة ابن خلدون لساطع الحصري ص ٤٤١.

(٥) المقدمة لابن خلدون ص ٤٧٨ – ٤٧٩.

لقد عاد هؤلاء دون طائل؛ لأنّهم لم يحسنوا التّصرف بالعلم والتّعليم؛ وإن حصّلوا شيئاً فهو قاصرٌ. ويعلّل ابن خلدون ذلك لانعدام (سند) التّعليم، (أي المعلّم)، وعدم توافر الشّروط والآداب بالقائمين عليه في مصر من الأمصار. ومن أجل تلافي تلك النّقائص يوصي ابن خلدون بقيام الجدل (الحوار) بين المعلّم والمتعلّم، فالحوار يساعد على تفتق الذّهن واتساع المدارك، وفكّ عقال اللّسان الذي يكون بواسطته نقل العلم. وهذا دورٌ يجب أن يضطّلع به المعلّم، وأن يدركه قبل أن ينتصب لهذه المهمّة؛ لأنّ (من أيسر طرق هذه الملَكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية، فهو الذي يقرّب شأنها ويحصّل مرامها)[1]»[2].

تمّت

(١) المصدر السابق ص ٤٧٨.

(٢) الفكر التربوي عند ابن خلدون وابن الأزرق ص ٨٠.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

أهم المصادروالمراجع

أولاً- أهم مصادرومراجع الفَصْل الأوَّل:

- الاتّصالات الادارية: شعبان فرح
- أساسيات الاتّصال : نموذج ومهارات، حميد الطّائي وبشير العلاق
- فن الادارة بالاتّصال، زيد منير عبوي
- مهارات الاتّصال : فن الاستماع والحديث، محمد هلال
- مهارات التّواصل الفعّال مع الآخرين، مدحت أبو النصر
- نظام الحكومة النبوية (التراتيب الإدارية) : محمد عبد الحي الكتاني؛ تحقيق: عبد اللّه الخالدي
- نظريات الاتّصال في القرن الحادي والعشرين: د. عبد الرزاق الدّليمي، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع- عمان، الطّبعة العربية، ٢٠١٦م.
- نظريات الاتّصال لمحمد الطّنوبي
- اضطراب التّواصل وعلاقتة بنمو مفهومي: (الأنا) و(الآخر) لدى الأطفال المنغلقين، عيسى ياسين إدريس: رسالة ماجستير في كلية التربية، جامعة دمشق ٢٠٠٠م.
- /https: //bayhaspm. com/assertive-communication
- ROSEFIELD: COMMUNICATION TAC TICS AND STRATEGIES
- /mawdoo3.com/ما_هي_وسائل_التّواصل_الاجتماعي

ثانياً- أهم مصادرومراجع الفَصْل الثَّاني:

- الأدب المفرد للبخاري.
- أصول التربية الإسلامية وأساليبها لعبد الرحمن النحلاوي.
- تحفة المودود بأحكام المولود، ابن قيم الجوزية، الطبعة الهندية ١٣٨٠هـ.
- التربية الإسلامية، دراسة مقارنة، محمد أحمد جاد صبح
- تربية المراهق بين الإسلام وعلم النفس، د. محمد السيد الزعبلاوي.
- التربية في عهد الرسول ﷺ نشأتها وتطورها، د.حامد سالم عايض الحربي.
- الدور التربوي للوالدين في تنشئة الفتاة المسلمة، حنان الطوري الجهني
- سيكولوجية النمو والارتقاء، د. عبدالفتاح دويدار، دار النهضة، بيروت، ١٩٩٣.
- علم النفس التربوي، الدكتور فاخر عاقل، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٥.
- فن تربية الأوّلاد في الإسلام، محمد سعيد مرسي
- القرآن وعلم النفس، د. محمد عثمان نجاتي
- المذهب التربوي عند ابن سينا، د. عبد الأمير شمس الدين
- ملامح المنهج التربوي عند أهل البيت عليهم السلام، شهاب الدين العذاري

- المنهج التربوي في القرآن الكريم، كفاح الحداد.
- المنهج التربوي وصناعة الإنسان، محمد حسين فضل الله، مقال (موقع: عهد التكليف)
- منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب
- نحو التربية الإسلامية الحرة، أبو الحسن الندوي
- نحو تربية إسلامية راشدة، محمد بن شاكر الشريف.
- نحو تربية إسلامية، د. حسن الشرقاوي.

ثالثاً- أهم مصادرومراجع الفَصْل الثَّالث

- أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية لزياد محمود العاني.
- أساليب الرسول في الدعوة والتربية ليوسف خاطر حسن الصُّوري
- تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم لابن جماعة
- تطور النظريات والأفكار التربوية للدكتور عمر التومي الشيباني.
- تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية للدكتور ماجد عرسان الكيالي.
- تعليم المتعلم طريق التعلم لبرهان الإسلام الزرنوجي.
- طرق تدريس التربية الإسلامية للدكتور محمد الزحيلي
- الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي.
- القيم الإسلامية والتربية لعلي مى أبو العينين
- مباحث في علوم القرآن لمناع القطان.
- معجم المصطلحات التربوية والنفسية، إعداد حسن شحاته وزينب النجار

رابعاً- أهم مصادرومراجع الفَصْل الرَّابع

- إحياء علوم الدين للغزالي
- الأخلاق عند الغزالي للزكي مبارك
- الإمام الغزالي حجة الإسلام ومجدد المئة الخامسة لصالح أحمد الشامي
- أيها الولد للغزالي
- التربية والسياسة عند أبي حامد الغزالي للدكتور أحمد عرفات القاضي
- ابن خلدون وعلوم المجتمع للدكتور محمود عبد المولى.
- دراسات عن مقدمة ابن خلدون لساطع الحصري.
- الفكر التربوي عند ابن خلدون وابن الأزرق للدكتور عبد الأمير شمس الدين
- المقدمة لابن خلدون

الخَطَابَةُ

:

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University



والحمد لله ربّ العالمين، وأفضل الصّلاة وأتمّ التّسليم على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين سيّدنا ومولانا رسول الله محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمّا بعد، فإنّ الخطابة من أهمّ وسائل تبليغ الأفكار للآخرين وأسرعها سبيلاً إلى أسماعهم وعقولهم عَبْرَ تجمّعاتهم في المحافل والمنتديات ومناسبات اللقاء الجماعيّ المختلفة.

ولمّا تسلّم رُسُل الله مهمّاتهم في تبليغ دعواتهم؛ كانت الخطابة الوسيلةَ الرئيسةَ التي اتّخذوها مطيّة لإعلام النّاس ما نُزّل إليهم وتوضيح معالم دينهم وشرائع ربّهم.

ولقد كشف القرآن الكريم عن هذه النّاحية عندما حدّثنا عن الأنبياء والمرسلين كيف بلّغوا رسالات ربّهم ونشروا أنوار هديها في النّاس؛ فحدّثنا عن سيدنا نوح عليه السّلام في قوله تعالى: {قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا} [نوح: ٢-٩].

وحدّثنا عن سيّدنا موسى عليه السّلام حين سأل الله سبحانه أن يُطْلق لسانه لكي يحسن خطاب فرعون وقومه، فقال سبحانه على لسان موسى عليه السّلام: {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي} [طه: ٢٥- ٢٨].

وحدّثنا عن سيدنا إبراهيم عليه السّلام من قبل كيف آتاه الله الحُجّة في الخطاب والحكمةَ في الجواب، فقال سبحانه: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [الأنعام: ٨٣].

كما حدّثنا عن سائر الأنبياء من قبلُ ومن بعدُ كصالح وشعيب وهود ويونس وسليمان

وداود وعيسى عليهم السّلام، الذين واجهوا أقوامهم في معتركات الدّعوة إلى الله، فخاطبوهم بكلمة الله، وجادلوهم بقوارع الحُجَّة والبرهان، فقال سبحانه: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ} [الأعراف: ٦٥].

{وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [الأعراف: ٧٣].

{وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [الأعراف: ٨٥].

ثمّ حدّثنا أخيراً عن رسولنا محمّدﷺ كيف أمره الله تعالى بأنْ يصدع بدعوته، ويجهر بها على الملأ، فقال جلّ ذِكرُه: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [الحجر: ٩٤].

{قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف: ١٥٨].

فاتّخذَ رسول اللهﷺ الخطابة وسيلةَ الصَّدع بدعوته، حيث جمع النّاسَ إليه عندما صعد جبل الصّفا ونادى: "واصباحاه"، فقام النّاس إلى حيث رسول الله عليه الصّلاة والسّلام حتّى اجتمعوا إليه فخاطبهم قائلاً: ((أرأيتم لو أخبرتكم أنّ خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدّقيّ؟)).

قالوا: نعم، ما جربّنا عليكَ كذباً.

قال: ((فإنّي نذيرٌ لكم بين يديّ عذابٍ شديد))[1].

ثمّ نزلت آيات القرآن بعد ذلك تحضّ الرسولﷺ على الدّعوة عبر الكلمة الصّادقة، والصّوت الهادر المؤثّر الذي يوقظ العقل، وينبّه الضّمير، ويلهب المشاعر، فقال سبحانه: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ

(١) الأصل في ابن كثير ج ١، من رواية للإمام أحمد.

أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [النحل: ١٢٥].

وهكذا كانت الخطابة الأداةَ الفعّالة التي استخدمها أنبياء الله ورسله في تبليغ دعواتهم ونشر رسالاتهم، وهذا يوضح لنا مدى أهمّيتها وضرورتها كوسيلة إعلامية خطيرة لا غنى عنها لأيِّ مصلح أو زعيم أو قائد أو مرشد.

واستمرّت الخطابة عبر الحياة الإنسانيّة في مختلف أزمانها متمتّعة بالحيويّة والنّشاط إلى أن عُنيَ بها الإسلام عناية كبيرة، واهتمَّ بها اهتماماً بالغاً، فجعلها مظهراً من مظاهر العبادة، فشرَّع الخُطب أيّام الجُمَع والأعياد ليقوم فيها الخطيب بإرشادٍ يُراعي فيه حال الأمّة، فيقرع أسمعاها بالموعظة الحسنة، ويستنهضها للأعمال الكفيلة بعزّها في الدّنيا وسعادتها في الآخرة.

وانطلاقاً من هذه الأهمّيّة والمكانة العظيمة التي احتلّتها الخطابة في حياة الإنسان، كان لابدَّ لخرّيج الشريعة أن يلمَّ بعلمِ الخطابة فهو ممّا لا غنى له عنه في حياتنا المعاصرة، فشرعتُ في كتابة هذه المباحث التي اقتبستها -باختصار وتصرّف يسير- من كتاب خصائص الخطبة والخطيب لفضيلة الشيخ نذير مكتبي -حفظه الله-[1] ، الذي تحدّث فيه عن خصائص الخطبة والخطيب متّجهاً في طريق الخطابة الإسلامية متناولا أهمّ الملاحظات وأبرز النّواحي التي يجدر بالخطباء مراعاتها وفهمها فهماً دقيقاً، وهم يحتلّون منصب توجيه الأجيال وإرشاد الناس.

(١) ط/٤ ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م شركة دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت لبنان.

المبحث الأول
الخطابة في العصر الجاهلي

أوّلاً: تمهيد: الخطابة عند العرب ومنزلتها في الجاهلية:

لم تكن الخطابة حديثة العهد في حياة العرب، بل كانت أصيلة فيهم كغيرهم من الجماعات الإنسانيّة التي تلاحقت على سكنى الأرض، وانتشرت في ربوعها.

إلا أنّ الخطابة لم تحتلّ عند العرب منزلة تساوي منزلة الشّعر في حياتهم؛ لهذا لم تصل إلينا نصوص موثوقة تُقدّم لنا صورةً واضحة عن تطوّر الخطابة العربيّة قبل الإسلام. ولكن رغم هذا فقد بلغنا عن فنّ الخطابة العربيّة في العصر الجاهلي مبلغ لا بأس به في التّعرّف إلى الفنّ الخطابيّ عند العرب وإدراك بعض مظاهره.

ثانياً: مكانة الخطيب عند العرب الجاهليين:

لمّا كان الشّعر ذا أثر فعّال وكبير في الدّفاع عن القبيلة ونشر مآثرها، وتفنيد دعوى أعدائها، وتحقير شأن خُصُومها، ورفع مكانتها بين القبائل فقد كانت حاجة القبيلة إلى الشّعراء أكثر من حاجتها إلى الخطباء؛ لهذا احتلّ الشّاعر في قومه مكانة هامّة، ونُزّل عندهم منزلة الفارس الذي ينافح عن قبيلته ويحمي ذمارها،

وربّما فاق الشّاعر في نظر قومه الفرسان الشّجعان.

إلا أنّ الخطابة ـ رغم ضآلة افتقار القبيلة إليها بالنّسبة إلى الشّعر ـ لم تكن مركباً مستباحاً لكل من يهواها مهما كانت منزلته في قومه، وإنّما كانت مورد زعماء القبيلة وسادتها ورؤساء القوم وكبارهم وأرباب الفصاحة والبيان فيهم، خلافاً للشّعر الذي كان يرِد مواردَه كلُّ من ملك موهبتَه، وتمتّع بالقدرة على نظْمه، أيّاً كان شأنه: زعيماً في قبيلته كامرئ القيس أو عبداً مملوكاً كعنترة بن شدّاد.

فيتحصّل لنا بهذا أنّ الخطيب من حيث شخصه أعلى منزلة من الشّاعر، وأنّ الشّاعر

من حيث قوّة تأثيره في حياة قومه أكثر أهميّة من الخطيب، فالشّاعر لسان الدّعاية لقبيلته بذكر مآثرها ونشر أخبارها وتمجيد وقائع حياتها، والخطيب لسانها الهادر في المحافل والمناسبات والمجامع؛ لهذا كانت القبيلة تنتخب للمناسبات المختلفة أكرمَ رجالها وأنضجَهم عقولاً وأشرفَهم منزلة فيها، نحو الخطبة التي ألقاها عبد المطّلب جدّ النّبي عليه الصّلاة والسّلام أمام سيف بن ذي يزن مهنّئاً إيّاه بتولّيه مُلْك اليمن، ولا يخفى علينا مكانة عبد المطّلب في قومه وحكمته الرّائدة في وعظهم و إرشادهم.

ثالثاً: أنواع الخطابة العربية قبل الإسلام:

ينبغي لنا أن ندرك أوّلاً أنّ أنواع الخطابة العربيّة المختلفة كانت وليدة البيئة الجاهليّة وظروفها الحيويّة، فهي تعكس في ملامحها وخصائصها واقع نشأتها.

ونذكر فيما يلي أهمّ هذه الأنواع الخطابية:

١ـ خطب القتال والحضّ على الأخذ بالثّأر.

٢ـ خطب الإصلاح لذات البين ورأب الصّدع بين القبائل المتناحرة.

٣ـ خطب الوعظ والإرشاد. ومن أشهر خطبائهم في ذلك قسّ بن ساعِدة الإيّاديّ.

٥ـ خطب النّكاح. كانت العادة عند العرب إذا أراد الرجل الزّواج بامرأة تقدّم عنه رجل من عشيرته إلى أهل المرأة يطلب يدها في خطبةٍ يلقيها أمامهم يعدّد فيها صفات الرجل الرّاغب بابنتهم وخصاله التي يتمتّع بها، ويبيّن رغبته في الزّواج بتلك المرأة، وبعد أن ينهي خطبته يقوم رجل من أهل الفتاة، فيخطب خطبة قصيرة يجيبه فيها قبولاً أو رفضاً.

المبحث الثاني
الخطابة في العصر الإسلامي

أوّلاً: تمهيد: عناية السلام بالخطابة:

أحدث الإسلام تغييراً شاملا في البيئة العربيّة ممّا انعكس بصورة واضحة على مختلف فنون الأدب العربيّ شعره ونثره.

وكانت الخطابة أكثر هذه الفنون اللّسانية تأثّراً بذلك التّغيير، ذلك نظراً لعناية الإسلام واهتمامه البالغ بها، إذا اقتضت طبيعة دعوته ونشر كلمته اتّخاذها وسيلة لتوصيل معارف الإسلام وعقائده وتصوّراته إلى قلوب النّاس وعقولهم، كان ذلك في اللحظة الأولى التي صدع فيها رسول اللهﷺ بدعوته، وذلك حين وقف خطيباً في قومه يعلن أمامه أنّه رسول الله وأنّ الله أرسله إليهم برسالة التّوحيد.

وأصبحت الخطابة أحد شعائر الإسلام عندما فرضت صلاة الجمعة التي باتت الخُطْبة فيها أحد أركانها، فلا تنعقد الجمعة صحيحة إلّا بها.

ولم تنحصر الخطابة الإسلاميّة في خطبة الجمعة فقط، بل كانت المنصّة التي ارتقاها الرّسول عليه الصّلاة والسّلام لتوضيح مبادئ الإسلام وإرشاداته للنّاس، والأداة التي استخدمها قُوّاد المجاهدين لحثّ جنودهم على القتال وبعث الحماسة في نفوسهم، وتأجيج عزائمهم ضدّ عدوّهم، كما كانت الوسيلة التي استعملها الخلفاء المسلمون وعُمّالهم في الأمصار ليبيّنوا للنّاس عَبْرَها خطّة حكمهم وطريقة سياستهم، وليتّصلوا بهم كلّما جدّ جديد أو طرأ طارئ من خير أو شرٍّ، وما ينبغي للمسلمين أن يولوه اهتماماً واستعداداً، كخطب أبي بكر الصّديق وعمر وعثمان وعليّ ومن جاء بعدهم من خلفاء المسلمين رضي الله عنهم أجمعين.

ثانياً: أنواع الخُطب في هذا العصر:

١ـ الخطب الدّينيّة:

وحسبنا من الأمثلة على ذلك ما جاء في رواية في الصحيحين: بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيءٌ، فخطب، فقال: «عُرضت عليَّ الجنّة والنّار، فلم أرَ كاليوم في الخير والشرِّ، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ أشدّ منه، غطّوا رؤوسهم ولهم خنين»[١].

وعندما أتى رسولَ الله ﷺ خبرُ الثّلاثة الذين أخذوا على أنفسهم عهوداً أن يقوم أحدهم الليل ولا يرقد، ويصوم لآخر النّهار و لا يفطر، ولا يتزوّج الثّالث أبداً، قام فركب المنبر وخطب النّاس قائلاً:

«أما والله إنّي لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكنّي أصوم وأُفطر، وأصلّي وأرقد، وأتزوَّجُ النّساء، فمن رغِب عنْ سنّتي فليسَ منّي».[٢]

وتنقسم الخطبة الدّينيّة إلى قسمين:

أ ـ خطب دينيّة تتحدّد بأوقات معيّنة أو ظروف طارئة وهي ما يأتي:

١ـ خطبة الجمعة.

٢ـ خطبة العيد.

٣ـ خطبة يوم عرفة.

٤ـ خطبة الكسوف والخسوف.

٥ـ خطبة الاستسقاء.

ب ـ خطب دينيّة لا ترتبط بوقت معيّن ولا بظروف محدّدة، وإنّما تخضع لحاجة النّاس في وعظهم وإرشادهم على اختلاف الأحوال وتفاوت الظّروف والدّواعي، فغرضها إيقاظ الهمم وتقوية العزائم، وحثّ العباد على خدمة الله تعالى والقيام بأمر دينه وحسن عبادته على هدي منهجه الحقّ وصراطه المستقيم.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري.

ويسمّى هذا القسم من الخُطب الدّينيّة: خطب الوعظ والإرشاد. وسيأتي الحديث عن النّوع الأوّل من الخطب مفصّلاً.

٢ـ خُطَب الجهاد والحضّ على القتال في سبيل الله:

وقد أصبح هذا الضّرب من الخُطَب في الإسلام لحثّ المسلمين على ردع الكافرين وإعلاء لكلمة الدّين وابتغاءً لإحدى الحسنيين إمّا النّصر على أعداء الله وإعزاز لدينه وإمّا الشّهادة في سبيله والفوز بالجنّة.

وكان رسول اللهﷺ أوّل من بدأ خطب القتال في المسلمين، وذلك عندما قام يومَ بدر يحرِّض المؤمنين على القتال يقول لهم:

((قوموا إلى جنّة عرضها السّموات والأرض، والذي نفسُ محمّد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابراً محتسباً، مُقْبلاً غير مُدْبر إلّا أدخله الله الجنّة)) [١].

وتابع الخلفاء الرّاشدون سيرة الرسولﷺ في خطب الجهاد.

فنذكر من ذلك خطبة أبي بكر الصّدّيقرضي الله عنه التي ألقاها يوم ندب النّاس لفتح الشّام، فقال فيها:

((ألا وإنّ في كتاب الله من الثّواب على الجهاد في سبيل الله لما ينبغي للمسلم أن يحبّ أن يُخَصَّ به، هي التّجارة التي دلّ الله عليها، ونجّى بها من الخزي، وألحق بها الكرامة في الدّنيا والآخرة)) [٢].

ويدخل تحت عنوان هذه الخطب وصايا الحرب والقتال التي كان يُشيّع بها الرّسول وخلفاؤه جند المسلمين وهم يخرجون إلى القتال، ومثال ذلك ما رواه البيهقي والقاضي عبد الجبّار بن أحمد في أماليه عن صفوان بن عسّال، قال رسول اللهﷺ:

((سيروا باسم الله، واغزوا في سبيل الله، قاتلوا أعداء الله، ولا تغُلُّوا ولا تغدروا، ولا تُنفِّروا، ولا تُمَثّلوا، ولا تقتلوا وليداً...)) [٣].

---

(١) سيرة ابن هشام.

(٢) تاريخ الطبري ٢/ ٥٨٨.

(٣) رواه البيهقي.

وما رواه مالك عن أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه أنّه قال:

((ستجدون قوماً زعموا أنّهم حَبَسُوا أنفسَهم لله، فدعوهم وما حبسُوا أنفسهم له، ولا تقتُلُنَّ امرأةً ولا صبيّاً ولا كبيراً هرماً))[1].

٣ـ خطب المحافل والوفود:

عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، قال: بعثت بنو سعد بن بكر ضِمام بن ثعلبة وافداً إلى رسول اللهﷺ، فقدم عليه، وأناخ بعيره على باب المسجد ثمّ عَقَلَهُ، ثمّ دخل المسجد ورسول اللهﷺ جالس في أصحابه، وكان ضمام رجلاً جلْداً أشعرَ ذا غديرتين، فأقبل حتّى وقف على رسول اللهﷺ في أصحابه فقال: أيّكم ابنُ عبد المطّلب؟ قال: قال رسول اللهﷺ: ((أنا ابن عبد المطّلب)). قال: أمحمّد؟ قال: ((نعم))؛ قال: يابن عبد المطّلب! إنّي سائلك ومغلّظ عليك في المسألة، فلا تَجِدَنَّ في نفسك، قال: ((لا أجد في نفسي، فَسَلْ عمّا بدا لك!)). قال: أنشدُك الله إلهك وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، آلله بعثك رسولاً؟ قال: ((اللهمّ نعم !))، قال فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده لا نشرك به شيئاً، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه؟ قال: ((اللهم نعم!)) قال فأنشُدك الله إلهك وإله من كان قبلك، وإله من كان بعدك، آلله أمرك أن نصلّي هذه الصّلوات الخمس؟ قال: ((اللهمّ نعم!))، قال: ثمّ جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة؛ الزّكاة والصّيام والحجّ وشرائع الإسلام كلّها، يَنْشُدُه عند كلّ فريضة منها كما ينشُده في التي قبلها، حتّى إذا فرغ قال: فإنّي أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنّ محمّدا رسول الله؛ وسأودّي هذه الفرائض، وأجتنب ما نهيتني عنه ثمّ لا أزيد و أُنقص. ثمّ انصرف إلى بعيره راجعاً، قال: فقال رسول اللهﷺ: ((إنْ صدق ذو العَقيصتين دخل الجنّة)).

قال: فأتى بعيره فأطلق عقاله، ثمّ خرج حتّى قَدِم على قومه، فاجتمعوا إليه، فكان أوّل ما تكلّم به أن قال: بئستِ اللاتُ والعزّى! قالوا: مه ياضِمام! اتّقِ البَرَص! اتّقِ الجُذام! اتّقِ الجنون! قال: ويلكم! إنّهما والله لا يضرّان ولا ينفعان، إنّ الله قد بعث رسولاً، وأنزل

---

(١) رواه مالك.

عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه، وإنّي أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمّدا عبده ورسوله، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به، وما نهاكم عنه، قال: فوالله ما أمسى من ذلك اليوم في حاضره رجلٌ ولا امرأة إلا مسلماً.

قال: يقول عبد الله بن عبّاس: فما سمعنا بوافد قومٍ كان أفضل من ضِمام بن ثعلبة[1].

٤ـ خطب المنافرات والمناظرات :

ومن أوضح أمثلته قدومُ وفد بني تميم على رسولﷺ ، وجاء في تفصيل قصّته:

لّما دخل وفد بني تميم المسجد نادوا رسولَﷺ من وراء حجراته: (أن اخرج إلينا يا محمّد)،فآذى ذلك رسولَ اللهﷺ من صياحهم، فخرج إليهم، فقالوا: يا محمّد، جئناك نفاخرك فأذنْ لشاعرنا وخطيبنا، قال: ((قد أذنت لخطيبكم فليقُل))، فقام عُطارِد بن حاجب، فقال:

((الحمد لله الذي له علينا الفضلُ والمنّ، وهو أهله، الذي جعلنا ملوكاً، ووهب لنا أموالاً عِظاماً نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعزَّ أهل المشرق وأكثره عدداً وأيسره عُدّةً، فمَن مِثْلُنا في النّاس؟ ألسنا برؤوس النّاس و أولي فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعدُد مثل ما عددْنا، وإنّا لو نشاء لأكثرْنا الكلام، ولكنّا نحيا من الإكثار فيما أعطانا، وإنّا نُعْرَفُ بذلك. أقول هذه لأنْ تأتوا بمثل قولنا، وأمرٍ أفضل من أمرنا)).

ثمَّ جلس، فقال رسول الله رسول اللهﷺ لثابت بن قيس بن الشّماس، أخي بني الحارث بن الخزرج: ((قمْ فأجِب الرّجل في خطبته))، فقام ثابت، فقال:

((الحمد لله الذي السّموات والأرض خَلْقُهُ، مضى فيهنَّ أمره، ووسّع كرسيَّه علمُه، ولم يكُ شيءٌ قطُّ إلّا من فضله، ثمَّ كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً، واصطفى من خير خلقه رسولاً أكرمه نسباً، وأصدقه حديثاً، وأفضله حَسَباً، فأنزل عليه كتابه، وائتمنه على خلْقِه، فكان خِيرة الله من العالمين، ثمَّ دعا النّاس إلى الإيمان به، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذَوي رَحِمه، أكرم النّاس حسباً، وأحسن النّاس وجوهاً، وخير النّاس فَعَالاً، ثمَّ كان

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١٠٦٩ـ ١٠٧٠. هذه الرواية ليست مذكورة في الأصل الذي نقلت منه هذه المباحث، وقد ذكر فيه خبر آخر، فارتأيت أن هذه الرواية أنسب للمقام.

أوّل الخَلقِ إجابة، واستجاب لله حين دعاه رسول الله؛ فنحن أنصار الله ووزراء رسوله نقاتل النّاس حتّى يؤمنوا بالله [1]، فمن آمن بالله ورسوله؛ منع منّا ماله ودمه، ومن كفر؛ جاهدناه في الله أبداً، وكان قتله علينا يسيراً. أقول قولي هذا واستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات. والسّلام عليكم))[2].

٥ـ الخطب السّياسيّة:

بدأ هذا الضَّرْبُ من الخطب إثر وفاة النّبيﷺ وقيام الخلافة الإسلامية، ويمكننا عدُّ الخُطَب التي أُلقيت في سقيفة بني ساعدة باكورة الخطب السّياسيّة لتناولها موضوع الحكم والخلافة وولاية أمر المسلمين.

ثمّ بدأت صفته الرّسميّة من حين تولّي سيّدنا أبي بكر الصّديقرضي الله عنه منصب الخلافة، حيث قام فركب المنبر، ثمّ خطب النّاسَ يبيّن لهم سيرته في الحكم وخطّته في سياستهم، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

((أيُّها النّاس قد وُلّيتُ عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني، الصدقُ أمانة، والكذب خيانة، والضّعيف فيكم قويٌّ عندي حتّى آخذَ له حقَّه، والقويّ عندي ضعيفٌ حتى آخذَ منه الحقّ إن شاء الله تعالى، لا يدع أحد منكم الجهاد فإنّهُ لا يدعه قومٌ إلّا ضربهم الله بالذّل، أطيعوني ما أطعت الله ورسولَه، فإذا عصيْتُ الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله))[3].

ثمّ توالت الخطب السّياسيّة يلقيها خلفاء المسلمين من بعد تولّيهم للحكم.

٦ـ خطبة النّكاح: مارس العرب هذا الضّرب من الخطب قبل الإسلام، ولم يطرأ أيُّ تغيير على نمط خطبة النّكاح في الإسلام عمّا كانت عليه في الجاهليّة، إلّا أنّ الإسلامَ أضفى عليه من هديه في الذّكر والدّعاء وروحه الطّاهرة.

ثالثاً ـ أشهر خطباء الإسلام في الصّدر الأول:

---

(١) المراد: من وقف في طريق الدّعوة وإبلاغ رسالة الله تعالى.

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام ٢٣٨

(٣) الكامل لابن الأثير ج٢.

قالﷺ ((أنا أفصح العرب بيْدَ أنّي من قريش))[1].

ويكفينا أن نعلم أنّ قومه، وهم أرباب الفصاحة والبيان كانوا يتطامنون أمام كلماته ويُخضِعون لها أسماعهم، ويُحِسُّون بما اتّصفَ به رسول الله من قوّة اللّسان وروعة البيان، ويقولون عن مواعظه الشّريفة:

((وعظنا رسول اللهﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون...)).

ويأتي بعد رسول اللهﷺ الخلفاء الأربعة، قد حازوا قصب السّبق في قوّة خطابهم وروعة بلاغتهم، وذُكر أنّ عليَّ بن أبي طالب كان أخطبهم. وكان ثابت بن قيس بن الشّماس الأنصاريّ خطيب رسول الله الذي لا يُجارى، وقد تقدّم معنا ردّه على عُطارد بن زرارة التّميميّ.

ومن خطباء الصّحابة أيضاً: عبد الرّحمن بن عوف، والزّبير بن العوّام، وعبد الله بن مسعود، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن الرّبيع، وسعد بن عبادة، والحُباب بن المنذر.

ومن خطباء القُوّاد: خالد بن الوليد، وسعد بن أبي وقّاص، والمغيرة بن شعبة، ورِبْعيّ بن عامر.

ومن النّساء ظهر عدد من الخطيبات اللّواتي لانت لهنّ قناة الكلام، وبرعْن في الخطب المؤثّرة، وعلى رأسهنّ الصّديقة بنت الصّديق أمّ المؤمنين السّيّدة عائشة رضي الله عنها.

وخشية الإطالة آثرنا أن لا نتحدّث عن الخطابة بعد عصر الخلافة الرّاشدة وإلى مشارف العصر الحديث، وانطلقنا مباشرة إلى الخطابة في العصر الحديث.

(١) ذكره القاضي عياض في الشّفاء، وذكره السّيوطي في اللّآلئ المصنوعة، وقال: معناه صحيح ولا أصل له.

المبحث الثالث

الخطابة في العصر الحديث

أوّلاً: تمهيد: ملامح الخطابة في العصر الحديث:

طرأ في العصر الحديث تغيير واضح على الأنواع الخطابيّة في ظلّ مؤثّرات العصر الحديث؛ فانتاب الاضمحلال والذَبول بعض هذه الأنواع، وتجرَّدَ بعضٌ آخر من صبغته التي كان عليها قبل ذلك، وتجلّت مظاهر التّطوير في قسم ثالث بصورةٍ واضحة.

فقد تضاءل حجم خُطَب الجهاد والحضِّ على القتال، وذابت في جوف الخطب السّياسيّة، وقامت القرارات العسكريّة والبلاغات القتاليّة مقامها، ولم يعد لها وجود على نحو ما كانت عليه في العصور الماضية.

وحدث في الخطب السّياسيّة تحويل شِبهُ جذريٍّ من حيث أسلوبها ومضمونها واتجاهاتها وصبغتها: فقد سادت المصطلحات السّياسيّة المعاصرة، وأصبحت مورد الزّعماء والأحزاب ودعاة المذاهب السّياسيّة. ووهنت لغتها، وانحسرت عنها الصِّبغة الدّينيّة كما انحسرت عن خطب القتال ومالت إلى التّطويل.

وأمّا خطب المنافرات والمناظرات، فقد اقتصرت على الأحزاب السّياسيّة وبعض الاتّجاهات الفكريّة، فراجت سوقها في أوساط أهل الفكر والسّياسة عبر معتركات الدّفاع والدّعاية، ولم تتجاوز حدودها الضّيّقة خلافاً لما كانت عليه في العصور السّابقة.

وكذلك خطب التّهنئة والتّعزية، فإنّها بقيت في مسالكها المعروفة حيث اتّجاهها وخطوطها العريضة، إلّا أنّها اكتسبت إلى جانب ذلك صفات جديدة منها الصّفة الجماهيريّة، فقد كان الخطيب في الماضي يتوجّه بتهنئته أو تعزيته لصاحب الشّأن في ذلك أكان ملكاً من الملوك أم عظيماً من العظماء، وأمّا في هذا العصر، فقد أُقيمت لها المنابر واجتمع لها النّاس، وحشد لها الخطباء، وخاصّة خطب التّعزية.

وأمّا خطبة النّكاح فلم تبقَ على صورتها المعهودة، وهي أن ينهض من جانب أهل الرّجل خطيب طالب ومن جانب أهل المرأة خطيب مجيبٌ بالقَبول أو الرفض، وإنّما أصبحتْ تُلقى بعد القبول في حشد من المحتفلين آخذة صفة التّهنئة للأُسرتين المتصاهرتين.

وأمّا الخطب الدّينيّة، فلقد غدت المجال الرّحب الذي انساب فيه الفنُّ الخطابيُّ، وتجلّت فيه مظاهر الإبداع والابتكار والتّطوّر والازدهار أكثر من غيره في حقل الأنواع الخطابيّة، ويرجع ذلك إلى عدّة عوامل أهمّها :

١ـ احتلالها مركزاً مقدّساً في الدّين الإسلاميّ الحنيف حيث باتت أحد مشاعره العباديّة في أيّام الجُمَع والأعياد والحجّ، فأكسبها ذلك قوّة ونشاطاً واستمراراً وذيوعاً نظراً لاصطباغ الإسلام بهذه الظّواهر، حيث غدا أوسع الأديان انتشاراً وأكثرها أتباعاً.

٢ـ نشاط حركة تبليغ الإسلام، وانتشار دعاته في مختلف بلاد العالم، حيث باتت الخطابة وسيلة التّبليغ الواسعة التي استعملها أولئك الدّعاة لتوضيح حقائق الإسلام وتبيين معالمه الفذّة للنّاس عبر محافلهم وتجمّعاتهم ومراكز الدّعوة الإسلاميّة المبثوثة في بلاد الشّرق والغرب.

٣ـ المناسبات الدّينيّة وذكريات الإسلام التي تنعقد لها احتفالات كبيرة في المساجد والمراكز الإسلامية والمحافل العامّة والخاصّة، كذكرى المولد الشّريف، والإسراء والمعراج، والهجرة النّبوية الشّريفة، واللّيالي المباركات كليلتيّ النّصف من شعبان والقَدْر، حيث تنشط فيها الخطبة الدّينيّة نشاطاً ملحوظاً.

ولقد قدّمت منابر الدّعوة الإسلاميّة في زماننا هذا نماذج فريدة من الخطباء الدّعاة الذين ذاع سيطهم في الآفاق، وأضحوا منارات تضيء في عالم الفنّ الخطابيّ، فيهتدي بها السّائرون في هذا المجال، ويجدونها مثلاً يُحتَذى.

ثانياً : مقدّمة لُغويّة في تعريف الخطابة :

قبل الشّروع في الحديث عن (الخطبة والخطيب) نودّ أن نتعرّف المعنى اللُغويّ لمادة (خطب) ومشتقّاتها.

تدلُّ مادة (خطب) على معنيين أصليين هما : الطّلب، والمواجهة بالكلام.

فأمّا دلالتها على الطّلب: فقد جاء في ((أساس البلاغة)) للزّمخشريّ: من المجاز: فلان يخطُب عمل كذا: يطلُبه.

وأمّا دلالتها على المواجهة بالكلام: فقد جاء في ((أساس البلاغة)) أيضاً: خاطبه أحسن الخطاب، وهو المواجهة بالكلام.

وجاء في((المفردات في غريب القرآن)) للرّغب الأصفهاني: الخَطْب والمخاطبة والتّخاطب: المراجعة في الكلام:

والخَطْبُ الأمر العظيم الذي يكثر فيه التّخاطب، قال تعالى: {قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَاسَامِرِيُّ} [طه: ٩٥]، وقال: {قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ} [الذاريات: ٣١]. من خلال هذين المعنيين الذين دلت عليهما مادة (خَطَبَ) نفهم ما يلي:

أنّ (الخطابة) مصدر على زِنة (فَعَالة) نحو: كَرامة و نَباهة: معناه القيام بفعل المواجهة بالكلام مع طلب الإصغاء. وأنَّ (الخُطْبَة): اسم للكلام الذي يتكلّم به الخطيب، فهي الألفاظ المنثورة التي يواجه بها المتكلّمُ جمهوراً من النّاس. وتسمّى أيضاً: (خِطَاباً) فنقول: ألقى فلانٌ خُطْبَةً وخِطاباً.

وأنَّ (الخطيب): هو الذي يقوم بفعل الخطابة، ويُحْسِن الخُطبة؛ فقد جاء في ((القاموس المحيط)): ورجلٌ خطيب: حسنُ الخُطبة.

ثالثًا: تعريف هذا العلم اصطلاحاً:

الخطابة: هي علمُ معرفةِ طُرُق أداء الكلام ونقل الأفكار إلى عقول السَّامعين وأحاسيسهم بصورة مخصوصة وصفات معيّنة مع قصد التّأثير والإقناع.

وينقسم هذا العلم إلى قِسْمَين، هما: الخُطْبة والخطيب.

ونودُّ في المباحث الآتية أن نتحدّث عن هذين القسمين بصورة مفصّلة مع بيان خصائص كلٍّ منهما.

المبحث الرابع
الخُطْبَة

تمهيد: تعريف الخُطبة:

يمكننا أن نعرِّف الخُطبة بما يلي:

هي كلام منثور يمتاز بوَقْده العاطفة، ورجاحة الفكر، وسموّ المعاني، وحُسْن السَّبْك، وروعة البيان، وصدق اللَّهجة، وجمال النّطق، وعمق التّأثير، وقوّة الحجّة، يتوجّه به المتكلّم إلى الجمهور المستمع له قاصداً إقناعه بقوله واستمالته إليه.

أقسام الخطبة:

تنقسم الخطبة من حيث هيكلها إلى ثلاثة أقسام مرتّبةٍ كما يأتي:

أوّلاً: المقدّمة ـ ثانياً: الموضوع ـ ثالثاً: الخاتمة.

أوّلاً: المقدَمة:

تمهيد: تعريف المقدمة:

هي مدخل يمهِّد فيه الخطيب للأفكار التي سيعرضها في خطبته والمسائل التي سيعالجها خلال كلمته، ويتوخَّى بها جَلْب انتباه السّامعين إلى ما سيلقيه إليهم من تلك الأفكار والمعاني.

١ـ أثرها في نجاح الخطبة:

للمقدّمة أثر فعّال في تأمين النّجاح المناسب لخطبة الخطيب. فإذا كانت مُحْكَمة النَّسْج سامية المعنى قويَّة الإلقاء؛ كان أثرها كبيراً في تنبيه الجمهور والسّيطرة على أذهان النّاس ومشاعرهم، وإثارة اهتمامهم بالإصغاء إلى الموضوع المطروح عليهم.

وبالعكس إذا أخفق الخطيب في استهلاله، وكانت مقدّمة خطبته ضعيفة البيان فقيرة التّأثير؛ فسوف يؤدّي به ذلك إلى اضطرابه وانصراف الأذهان عنه وضعف الإقبال عليه.

٢ـ أنواع المقدّمة:

تتنوّع المقدّمة إلى الأنواع الآتية:

١ـ نصٌّ قرآنيّ ـ آية أو أكثر.

٢ـ حديثٌ نبويٌّ شريف.

٣ـ حكمة مأثورة.

٤ـ فكرة الموضوع بصورة موجزة.

٥ـ قصّة قصيرة مثيرة.

٦ـ المناسبة.

ثانياً ـ الموضوع:

تمهيد : تعريف الموضوع:

هو المادّة التي يبني عليها المتكلّم حديثه والأفكار التي يعالجها الخطيب في خطبته. وسوف نجمل الحديث عنه في أربع نقاط هي:

١ـ الاختيار:

يجب على الخطيب أن يراعي عند اختيار موضوع خطبته أموراً ثلاثة هي:

(أ) المناسبة: يجب على الخطيب أن يختار موضوع خطبته متّفقاً بفكرته مع المناسبة التي أعدَّ خطبته من أجلها، وهذا أدعى إلى تفاعل الجمهور المستمع مع تلك الخطبة وإقباله على الأفكار والمعاني التي تضمّنها، فيستجيب لها عقله ويتأثّر بها شعوره.

وأمّا إذا تناول الخطيب موضوعاً لا يلتقي المناسبة التي اجتمع النّاس لها، وينأى بفكرته عن أجوائها؛ فإنّه لا يترك التّأثير المناسب في نفوس المستمعين إليه. وكم من خطيب خالف في خطبته سبيل المناسبة التي اجتمع لها النّاس، فعاد مادحه ذامّاً، ونفرت منه النّفوس، وأعرضت عنه الأذهان، فلم يرزق مستمِعاً، ولم يحقّق منتفَعاً.

(ب) الجمهور المستمع: ينبغي للخطيب حال انتخاب فكرة موضوع خطبته مراعاةُ النّاس المستمعين إليه، فلا يصحُّ منه أن يطرُقَ موضوعاً لا يناسب ثقافتهم، ولا يتناسب مع

ظروفهم وأحوالهم؛ فليس من الحكمة أن يحدِّثهم عن النّظريات العلميّة والقواعد الفلسفيّة. وإذا مازج موضوع خطبته تلك الأفكار والآراء التي تستعلي على عقول أولئك النّاس، ويستعصي على أذهانهم فهم معانيها وإدراك مراميها؛ فسوف يخفق في تحقيق النّفع المناسب لهم وتأمين الفائدة المطلوبة لأمثالهم.

والخطيب النّاجح هو الذي يخاطب النّاس بما يعقلونه، ويحدِّثهم بما يفهمونه، ويسوق إليهم من الأفكار والمعاني ما يناسب تفكيرهم، ويلتقي مستوى ثقافتهم ومزاجاتهم وأحاسيسهم وانفعالاتهم.

(ج) الوقت: يجب على الخطيب أن يراعي الوقت المحدّد لخطبته والمناسب لموضوعه، وخاصَّةً في المناسبة التي يتعاور فيها الصّعودَ إلى منصَّة الخطابة خطباء عدّة، إذ ينبغي للخطيب حينئذٍ أن يراعي الوقت بدقّة لكي يفسح المجال لغيره من الخطباء المعيَّنين، فيتجنَّب اختيار موضوع يفرض عليه التّطويل، ولا يطْرُق بحثاً لا يستطيع أن يؤدِّيَه بتمامه في المدّة المحدّدة له، وإنّما يختار موضوعاً يتناسب مع الوقت المخصّص له لكي يؤدّيه تامّاً، وبذلك يتحقّقُ النّفع للجمهور المُستمع إليه.

٢ـ التّحضير:

جديرٌ بالخطيب أن يُعِدَّ موضوعه إعداداً كاملاً، ويُحضِّر جميعَ أفكاره تحضيراً جيّداً، وذلك بالرّجوع إلى بعض الكتب والتّآليف التي تتحدّثُ عن فكرة موضوعه، وقراءة ما بحثه أهل العلم والفكر في ذلك، لكي تصبح لديه حصيلة جيِّدة من الأفكار والمعلومات، فيمكّنه ذلك من إلقاء موضوع خطبته بثقة تامّة واطمئنان كامل.

فالخطيب الذي يرتكز على قاعدة جيِّدة من العلم والمعرفة والثّقافة يتمكّن من الوقوف على منصّة الخطابة بقوّة وثبات، ويساعده ذلك على طول نَفَسِه في خطبته مع اتِّزان عبارته وسداد فكرته.

٣ـ التّقسيم:

المراد بالتّقسيم أن يقسّم الخطيب موضوعه إلى عناصر أساسيّة شاملة لجميع جوانبه، وهذا الأمر مهم في موضوع الخُطبة أو المحاضرة أو الكتاب أو الرّسالة، وبناءً على ذلك

يشترط في التّقسيم ما يلي:

١ــ شمول التّقسيم جميع جوانب الموضوع، واستيفاؤه أطرافه كافّة.

٢ــ ترتيب فقرات التّقسيم ترتيباً متوازناً مناسباً، بحيث لا تدخل فِقْرة في أخرى ولا يتقدَّم قِسْم على آخر، وإلَا أدَّت عشوائيّة التّقسيم واختلال نظام فقراته واضطراب ترتيبها إلى التّشويش المضلّ والتّكرار الممل.

٣ــ أن يذكر الخطيب في صدر خطبته أقسام موضوعه مرتّبة موجزة كأن يقول:

(سنتحدّث اليوم في أربع مسائل أولاها كذا وثانيتُها كذا.....)

٤ــ حسن الرّبط بين فقرات الموضوع عندما ينتقل الخطيب من فقرة إلى أخرى خشية أن ينتقل انتقالاً مفاجئاً، فيؤدّي ذلك إلى تمزُّق بناء الموضوع وتفرّق وحدته؛ لذا وجب على الخطيب أن يمهِّد للانتقال من فقرة إلى أخرى ليبقى محافظاً على وحدة موضوعه وتماسك بناء خطبته.

٤ـ التّوضيح:

إنّ من أهمّ ما يجب أن يتّصف به موضوع خطبة الخطيب الوضوح، فهو السّبيل إلى فهم السّامعين أفكاره وإدراكهم معانيه.

وإذا خلا موضوع الخطبة من صفة الوضوح، فجاءت أفكاره معقّدة ومعانية غامضة، يستعصي فهمها على أذهان المستمعين، ويصعب عليهم إدراك مضمونها؛ أدّى ذلك إلى نفور أولئك المستمعين من الخطبة وانصرافهم عن خطيبها وانتظارهم لحظة انتهائه من خطبته بفارغ الصّبر.

فالوضوح ضرورة مُلِحّة في كلّ موضوع يخوض فيه الخطيب لكي يُؤتي ثمرته في أوساط المستمعين إدراكاً وفهماً، وهو في الوقت نفسه عامل رئيسيٌّ على انفعال الجمهور بالخطبة.

ومردُّ التّوضيح والتّبيين إلى وضوح الألفاظ وسهولة التّراكيب وإشراق العبارات التي تحتضن الأفكار والمعاني.

ثالثاً: الخاتمة:

تمهيد: تعريف الخاتمة:

هي ما يُنْهي به الخطيب خطبته، ويختم كلامه، ويتحقَق بها تمام الموضوع، فهي بمنزلة الختام للشّيء إذا بلغ غايته.

١ـ أثرها وأهميّتها:

للخاتمة أهميّة كبيرة في المحافظة على قوّة موضوع الخطبة ورسوخه في أذهان السّامعين؛ لأنّها آخر أجزاء الخطبة، وهي بذلك أقرب شيء منها إلى ذهن السّامع وذاكرته وآخر ما ينساه منها.

والخطبة التّي تخلو من الخاتمة يجيء موضوعها مبتوراً، فلا يحقّق الفائدة المطلوبة، ولا يصل بالجمهور إلى النّفع المقصود.

٢ـ سماتها:

لّما كانت الخاتمة آخر فقرة في الخطبة، وتكوّن مرحلتها النّهائية، اقتضى ذلك أن تكون في منتهى الدّقة والوضوح، والقوّة والتّأثير، وحُسن الأداء وجمال التّعبير.

وينبغي أن تكون قصيرةً بالنّسبة إلى موضوع الخطبة.

٣ـ أنواعها:

إنّ أهمَ أنواع الخاتمة وأبرزها أن تكون موجزاً تتلخّصُ فيه أفكار الموضوع، فتتحصّل بذلك فائدة كبيرة للسّامع الذي يشتدّ تركيزه وانتباهه في مقدِّمة الخطبة وخاتمتها، بينما يكون في ذهنه عرضة للشّرود وضعف التّركيز أثناء الموضوع الذي يحتلُّ المساحة الكبيرة في وقت الخطبة.

لهذا إذا أجمل الخطيب في خاتمة خطبته ذِكْرَ مجموع الأفكار التي بحثها في موضوعه مفصّلة؛ أدّى ذلك إلى تدارك السّامع ما فاته من أفكار رئيسةٍ خلال الخطبة، وبهذا لا تضيع عليه الفائدة المقصودة من موضوعها.

ومثال ذلك أن يقول: (وخلاصة القول: إنّ بحثنا يرجع إلى ثلاث نقاط، هي..كذا وكذا...).

وهناك أنواع أخرى للخاتمة، منها:

١ـ أن يختم موضوعه بتأكيد الفكرة الرئيسة التي ناقشها في خطبته.

٢ـ أن يؤكّد للجمهور ضرورة الالتزام والعمل بما بحثه في موضوعه أو يأخذ عليهم العهد بالتزام ما حدّثهم به والعمل على تطبيقه.

٣ـ أن يختم موضوعه بنصٍّ قرآنيّ أو حديثٍ نبويٍّ شريفٍ، أو قول أحد العلماء والمفكّرين.

المبحث الخامس
أسلوب الخطبة

١ –تمهيد: تعريف أسلوب الخطبة:

هو طريقة أداء المعاني وعرض الأفكار التي تتضمّنها الخطبة.

أو: هو مجموع الوسائل التّعبيريّة التي يطرح الخطيب عبرها أفكار خطبته ومعانيها.

وعلى هذا نجد أنّ الأسلوب يشتمل على: الألفاظ والتّراكيب التي صبّت فيها المعاني والأفكار.

٢ـ أثره وأهميّته:

تتّضح أهميّة الأسلوب من زاوية افتقار كلّ متكلّم وكاتب إليه، إذ هو القالب الذي تصبُّ فيه الأفكار والمعاني لتصل عبره إلى أذهان النّاس وقلوبهم، ولولا الأسلوب ما تمكّن أيّ إنسان من نقل ما يدور في خاطره من الأفكار إلى الآخرين.

فلا غنى للمتكلّم عن الألفاظ والتّراكيب التي ينقل عَبْرها أفكاره وآراءه وعواطفه إلى الجمهور المستمع إليه إن كان خطيباً، أو مدرِّساً واعظاً، أو محاضراً معلِّماً.

وبقدر ما يكون أسلوب الخطبة قويّاً وجميلاً وواضحاً بقدر ما يكون تأثيره في النّفوس عميقاً، واستيلاؤه على الأذهان والقلوب بليغاً، وتحريكه للمشاعر والأحاسيس قويّاً.

٣ـ خصائصه:

يختلف الأسلوب الخطابيّ عن بقيّة أساليب الكلام؛ فهو يمتاز بكثرة الجمل الإنشائيّة والألفاظ التّأثريّة والكلمات الإيحائيّة التي يستثير إيقاعها المشاعر، ويؤجِّج معناها العواطف، ويهزُّ جرسها أعماق النُّفوس، كما تكثر فيه الجمل القصيرة والعبارات الخاطفة التي تتناسب مع نَفَس الخطيب وقوّة صوته، وتساعد على تأمين جوّ التّفاعل بين المتكلّم والجمهور المستمع إليه.

٤ـ وسائل الأسلوب:

هما وسيلتان فقط: الألفاظ، والتّراكيب.

أوّلاً- الألفاظ:

هناك عدّة ملاحظات تجب مراعاتها عند اختيار ألفاظ الخطبة هي:

١- اختيار اللفظ المناسب للمعنى، وهذا الضّرْب من الاختيار يزيد في جمال الكلام وحسن البيان.

٢- البعد عن الكلمات الغريبة وإيثار الألفاظ الواضحة المأنوسة؛ لأنّ الكلمات الغريبة لا تكون كفيلة بنقل معاني الخطبة إلى أذهان السّامعين بيسر وسهولة، وإنّما تجعلهم يحسّون عند سماعها أنّهم يعيشون في متاهة تخرجهم من دائرة فهم معاني الخطبة وأفكار موضوعها، هذا إن لم تبعدهم عن فهم الخطبة برمّتها.

٣- انتقاء الكلمات المأنوسة ذات الجرس الموسيقي المعبِّر والإيقاع الموحي والوقع الجميل في السّمع والنّفس.

فإذا تحدّث الخطيب عن الإيمان اختار الألفاظ المُعبِّرة بإيحائها الموسيقيّ عن طمأنينة القلب وسموِّ الرُّوح وإشراق الأعماق واستقامة الجوارح مثال: (الهداية - النّور - الرّشاد - الاستقامة - الإيمان...) وإذا تحدّث عن مناسبة حزن اختار الألفاظ الموحية بجرسها الموسيقيّ بمعاني الحزن والتّحسُّر وألم الفراق مثال:

(الأسى - المُصاب - الأتراح - العويل - البين - الفاجعة).

٤- البعد عن الكلمات المبتذلة والرّكيكة والألفاظ العامّيّة.

فلا يليق بالخطيب أن يقول: (كمش) بدلاً من (أمسك).

ولا يليق به أن يقول: (لَحَشَ) بدلاً من (ألقى).

٥- تجنّب تكرار اللفظ الواحد في الخطبة لغير حاجة، لأنّ ذلك يؤدّي إلى سآمة السّامع وملله، ويعدُّ التّكرار من عيوب الكلام.

ثانياً- التّراكيب:

يُقصد بالتّراكيب: العبارات والجمل التي تتألّف من عدّة ألفاظ تحقّق بمجموعها معنى معيَّناً.

وإذا كانت التّراكيب سهلة حسنة السّبك جارية على سَنَنِ العربيَّة وطرائق تعبيرها، خالية من التّقعيد وتنافر الكلمات، مؤتلفة مع جوّ الخطبة العام، متناسبة من حيث طولُها وقصرها مع المعاني المقصودة؛ كانت الخطبة قويّة التّأثير جميلة العَرْض محمودةَ الذّكر بالغة النّفع. وعلى هذا تجب ملاحظة الأمور التّالية:

١ـ أن تكون التّراكيب قويّة متماسكة محقّقة للمعنى المقصود في أجمل صورة لفظيّة سليمة من الضّعف والتّفكّك.

٢ـ أن تكون التّراكيب متوازنة في ترتيب ألفاظها.

٣ـ خلوّ التّراكيب من ظاهرة التّكلُّف اللّفظي وسلطان السّجع.

٤ـ خلوّ التّراكيب عن التّكرار غير المناسب.

٥ـ طول التّراكيب وقِصَرها. فالجمل الطّويلة يحتاج إلقاؤها إلى نَفَسٍ طويل وهذا ما لا يستطيعه إلّا النّزر اليسير من الخطباء.

ثالثاً ـ أنواع الأسلوب:

إنّ من سمات الخطبة النّاجحة أن يتلَوَّن أسلوبُ عرضها، وتتغيّر ضروب التّعبير فيها من أمر إلى استفهامٍ إلى نهيٍ إلى تعجُّب إلى إخبارٍ وإلى غير ذلك. حيث يمكّنها ذلك التّلوين من تنبيه الأذهان واستقطاب الأسماع، والأخذ بمجامع القلوب؛ والتّأثير في النّفوس.

تتنوّع أساليب الكلام وتعابير الخطاب إلى عدّة أنواع من أهمّها:

١ـ الإخبار.

٢ـ الأمر.

٣ـ النّهي.

٤ـ القَسَم.

٥ـ الاستفهام.

٦ـ الاستنكار.

٧ـ التّعجّب.

٨ـ التّشويق.

رابعاً- سبل تقوية الأسلوب الخطابيّ:

فاللُّغة العربيّة الفُصْحى هي أسُّ الأسلوب وعماده، وبها تكون قوّته وعزّته، فإذا تسلّلت إليه لغةٌ غيرُ الفصحى؛ كانت سبباً في هدْم بنائه وتقويض أركانه.

فقوّة الأسلوب الخطابيّ تستند إلى مدى اصطباغه بصبغة العربيّة الأصيلة وتُحلّيه بخصالها الكريمة في أداء المعاني والتّعبير عن الأفكار.

فوجب على الخطيب في سبيل تقوية أسلوبه أن يرْجع إلى مصادر اللُّغة العربيّة ومنابعها الصّافية ليستمدّ منها زاده اللُّغوي، ويأخذ حاجته من الألفاظ والتّراكيب.

خامساً- أهم مصادر العربيّة الفصحى:

١- القرآن الكريم.

٢- الحديث الشّريف.

٣- كلام الصّحابة رضي الله عنهم.

٤- كلام التّابعين وتابعيهم.

٥- التُّراث اللغويّ العربيّ (النّثريّ والشّعْريّ).

وإليك فيما يلي أهمُّ هذه الكتب قديماً وحديثاً:

١- البيان والتّبيين للجاحظ.

٢- العقد الفريد لابن عبد ربّه.

٣- الأمالي لأبي علي القالي.

٤- الكامل للمبرِّد.

٥- زهر الآداب للقيْرَواني.

٦- صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقَلْقشَندي.

٧- نهاية الأرب للنّويري.

٨- عيون الأخبار لابن قتيبة.

٩- المثل السّائر لابن الأثير.

١٠- من وحي القلم لمصطفى صادق الرّافعي.

ونضيف إلى جانب ذلك كتب ورسائل المنفلوطي والعقّاد والمازني والزّيّات وغيرهم من كبار أُدباء وكتّاب عصرنا الحاضر.

ولا ننسى عيون الشّعر العربيّ القديم والحديث، كشعر أبي تمّم والبحتريّ والمتنبّي، وشعر أحمد شوقي وحافظ إبراهيم والبارودي، وما أُلِّفَ حديثاً من مختارات الشّعر والأدب، وما اختصَّ بجمع روائع الخُطب.

المبحث السّادس
الاستشهاد في الخُطَبة

أوّلاً- تعريفه:

هو الإتيان بنصٍّ (قرآنٍ أو حديثٍ) أو قولٍ (منثورٍ أو منظومٍ) أو قصّةٍ يؤيّد به الخطيب رأيه ويُقوّي حُجّته، ويدعم قوله، ليكون أقدر على إقناع السّامعين، وكسب ثقتهم والتّأثير في نفوسهم.

ثانياً- أهميّته ومكانته:

إنّ أيّة فكرة يودُّ أن يطرحها إنسان على جمهورٍ من النّاس لا تجد وقْعاً في نفوسهم وقَبولاً في عقولهم مالم يدعمها ويعضدْها بالشّواهد المناسِبة التي تستحوذ على ثقتهم، وتكسب قناعتهم واطمئنان قلوبهم...وذلك لأنّ ثقة النّاس تتفاوت بتفاوت منزلة المتكلّمين، فإذا كان المتكلّمُ شخصاً عاديّاً أو ذا منزلة بسيطة في النّاس؛ فإنّه يضطر لكسب ثقة السّامعين بقوله إلى أن يؤيِّده بكلام من تشتدُّ ثقة النّاس به - وثقة النّاس أيضاً تتدرَّج بتدرُّج منزلة من يُنسَب إليه القول المُستشْهَد به.

فكلام الله سبحانه وتعالى يحتلّ المنزلة العُلْيا في ثقة النّاس واعتقادهم؛ لأنّه الحقّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلْفه، ويستحيل أن يتطرّق إليه أدنى تبديلٍ أو تحريف وحديث رسول الله ﷺ ينزل في المحلّ الثّاني بعد القرآن في ثقة النّاس وتصديقهم.

وأمّا قول الصّحابة والسّلَف الصّالح وأرباب المذاهب الإسلاميّة المعتبرة فإنّ ثقة النّاس بها تفوق ثقتهم بأقوال علماء زمانهم ومفكّري عصرهم.

ويتدرَّجون في قَبول كلام علماء زمانهم ومفكّري عصْرهم على حسب مكاناتهم العلميّة وثقافاتهم الفكريّة.

ثالثاً- شروط الشّاهد:

١- أن يكون مناسباً للفكرة المُستشهَد عليها.

٢- أن ينسب الشّاهد إلى من يثق النّاس به أكثر ممّن يَستشهدُ به.

٣- ألّا يكون الشّاهد طويلاً حتّى لا يصرف السّامعين عن الموضوع الأصلي.

٤- أن يكون الشّاهد صحيح الوقوع، قويّ الورود عن أصحابه.

٥- أن يكون الخطيب متين الحفظ للشّاهد دقيقاً في نقله وإلقائه.

رابعاً- شروط الاستشهاد بالقرآن الكريم:

١- الحفظ المتين للنّصّ القرآنيّ وعدم الخطأ في الكلمة والحرف والحركات.

٢- حُسن تلاوة النّصّ القرآنيّ والحرص على النّطق بكلماته وأحرفه نطقاً صحيحاً حسب أصول التّلاوة وقواعد التّجويد.

خامساً- شروط الاستشهاد بالحديث الشّريف:

١- يجب التّأكّد من صحّة نسبة الحديث إلى الرّسولﷺ ، ويتمّ ذلك بالرّجوع إلى مصادر الحديث الشّريف.

٢- يجب على الخطيب الدّقّة في نقل الحديث ومعرفة الرّاوي من الصّحابة والرّاوي من المحدّثين وحفظ متنه حفظاً جيّداً.

٣- تجويد قراءة الحديث الشّريف.

٤- تفسير معاني الكلمات الغامضة والعبارات التي خفي معناها عن النّاس.

سادساً- شروط الاستشهاد بالأقوال المأثورة:

١- وجوب التّأكّد من نسبة الأقوال إلى أصحابها.

٢- وجوب التّثبُّت من صحّة ألفاظ المصادر الكتابيّة وعباراتها.

المبحث السّابع

المثل

أوّلاً: تعريفه:

التّمثيل هو تشبيه شيء بشيء لوجود عناصر التّشابه بينهما. وهو وسيلة يتوصّل بها المتكلّم إلى تقرير ما يريده من المعاني في نفوس المُخاطبين وتقريبها من عقولهم واكتساب ثقتهم به وقناعته بما يلقيه عليهم.

ثانياً: أهميّته وضرورته:

المثل وثيقة تدعم الأقوال والأفكار، وتُحِلُّها من نفوس المُخاطبين وعقولهم محلّ القَبول.

وفي ضرْبه استنهاضٌ لهمم المستمعين في حسن إقبالهم على ما يُملى عليهم وتوضيح لمعالمه وإيناسٌ لنفوسهم وترويح لقلوبهم نظراً لطرافة المثل وروعته وقوّة جذبه وعمق تأثيره.

ثالثاً. المثل في القرآن الكريم والحديث الشّريف:

لقد ضرب الله سبحانه في قرآنه كثيرا من الأمثال لتقرير حقائق الإيمان في النّفوس، وتحقيق الاتّعاظ والاعتبار، وأمر رسولَ اللهﷺ بضرب الأمثال لما لها من أثر بالغ في توضيح المعاني و تثبيتها في النّفوس؛ فقال الله تعالى: {وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [إبراهيم: ٢٥]. وقال تعالى: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} [العنكبوت: ٤٣]. وقال تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ} [يس: ١٣].

ومن أمثلة القرآن قوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [العنكبوت: ٤١].

وفي الحديث النّبوي الشّريف: قال عليه الصّلاة والسّلام ((مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قومٍ استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استقَوا من الماء مرّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنّا خرقنا في نصيبنا خَرْقاً، ولم نؤذِ من فوقنا. فإن تركوهم وما أرادوا؛ هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم؛ نجَوا ونجوا جميعا))[1].

وفي كلام الصّحابة سأل رجل سيّدنا أبا هريرةﷺ عن التّقوى؛ فقال: هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم. قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيتُ الشَّوك؛ عدلتُ عنه أو جاوزته أو قصرت عنه. قال: ذاك التّقوى[2].

(١) أخرجه البخاري.

(٢) انظر: كتاب ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب الحنبلي.

المبحث الثّامن

القصّة

أوّلاً- تعريفها وأهميّتها:

تعَدُّ القِصَّة من أهم المعابر التي تنتقل بواسطتها الأفكار والمفاهيم إلى الآخرين؛ وذلك لما تتمتّع به من قوّة التّأثير في النّفوس، وعوامل السّيطرة على القلوب والعقول، والقدرة على تأجيج العواطف والمشاعر وإغناء الأخيلة والخواطر.

وهي تمتاز بخصال قيّمة من أهمّها خصلتان هما:

١- أنّها وسيلة تربويّة رائعة ذات أثر عميق في تربية الفكر والضّمير والسّلوك.

٢- أنّها من أعظم فنون الأدب مقدرةً على تحويل المعاني المجرَّدة إلى وقائع محسوسة.

وإنّ من أعظم الدّلائل والبراهين على كون القصّة وسيلة تربويّة متميّزة ومسلكاً إرشاديّاً ناجحاً أنّ الله سنّها في كتابه العزيز فقصَّ فيه أحسن القصص، وبثَّ تعاليمه السَّامية ومواعظَه الجليلة عبر هاتيك القصص المتعدّدة التي شاعت في أرجاء القرآن الكريم. فقال تعالى: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} [يوسف: ٣]. وقال تعالى: {وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [هود: ١٢٠].

بل إنّ القرآن الكريم وجّه الرسولﷺ إلى أن يتّخِذ القصّة مسلكاً من مسالك نشر دعوته ووسيلة لتوجيه النّاس، فأمره بقصّ قصص الأوّلين عليهم بما أوحى إليه الله من أخبارهم؛ ليكون لهم في آثارهم عبرة وهدىً وموعظة. فقال: {ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الأعراف: ١٧٦].

ثانياً: موارد الاستشهاد بالقصّة:

١- القرآن الكريم.

٢ـ الحديث النّبوي الشّريف.

٣ـ التّاريخ.

٤ـ وقائع الحياة المعاصرة.

ثالثاً: شروط الاستشهاد بالقصّة:

١ـ ألّا تكون مختلقة كأمثال القصص التي يضعها القصّاصون وينسبونها إلى شخصيّات معروفة.

٢ـ ألّا تكون موغلة في الغرابة نائيةً عن الواقع المحسوس أو الغيب المعقول كأمثال القصص الواردة في بعض كتب التّاريخ والتّفسير والوعظ ونحوها.

٣ـ ألّا تكون بعيدة عن مقتضى المنطق فاقدةً دواعي استجابة العقل وقناعة الفكر كبعض القصص الخرافيّة.

٤ـ ألّا تكون مخالفة للحقّ ومبادئ الشّريعة السّامية وأخلاق دين الله الحنيف.

المبحث التّاسع
خطبة الجمعة

تمهيد: الإعداد للخطبة:

الإعداد للخطبة هو الذي يُنتج الأفكار النّاضجة، والمعاني المتناسقة، والألفاظ المناسبة المنمَّقة المُوحية، والسَّبْك الرّائع المعجب، والأداء القوي المشرق، والنَّفَس الطويل.

فلا يستطيع الخطيب أن يُقدّم موضوع خطبته كامل الأفكار متَّزِن المعاني بديع الألفاظ رائع التّعبير إلّا بعد إعداد سابق، حيث يخلو بمعارفه ومطالعاته، فيختار منها ما يناسب موضوعه، ويرتّبه ويرصفه رصفاً محكماً كلبِنات البناء الواحد، ويتخيّر العبارات المناسبة التي تمنح خطبته جمالاً وتأثيراً.

لَمّا صعِد سيّدنا عثمان بن عفّان رضي الله عنه المنبر يوم خلافته، وأراد الكلام أُرتج عليه، فقال وهو على المنبر:

(أيّها النّاس إنّ أوّل كلّ مركب صعب، وإنّ أبا بكر وعمر كانا يُعِدّانِ لهذا المقام مقالة، وإن أعش تأتكم الخطب على وجهها، وسيجعل الله بعد عُسْرٍ يُسْراً إن شاء الله).

تنقسم الخطب منذ انبثاق فجر الإسلام وإلى عصرنا الحاضر إلى قسمين:

الأوّل: الخطبة الإسلاميّة المنصوص عليها في الشّرع، ولها أنواع: خطبة الجمعة ـ خطبة العيدين ـ خطبة الاستسقاء ـ خطبة الكسوف والخسوف.

الثّاني: الخطبة الإسلاميّة غير المنصوص عليها شرعاً ولها أنواع: خطبة ذكرى المولد النّبويّ الشّريف ـ خطبة ذكرى الإسراء والمعراج ـ خطبة ذكرى الهجرة الشّريفة ـ خطبة ذكرى غزوة بدر.

خطبة الجمعة:

تُعَدُّ خطبة الجمعة من أهمّ أنواع الخطب الدّينيّة على الإطلاق، حيث من شأنها أن تكرّر في كلّ أسبوع.

أوّلاً: أهميّتها ومكانتها:

قال أحد المفكّرين الإسلاميين: إنّ صلاة الجمعة والحجّ دِعامتان قويّتان من دعامات الإسلام، إذا زالتا أُنْذرَ الإسلام بالخطر. اهـ.

فخطبة الجمعة ذات أهميّة كبيرة وأثر بالغ في نشر الإسلام وترسيخ مبادئه السّمحة في نفوس المسلمين الذين يجتمعون إليها في كلّ أسبوع، فتُكوِّن بهم مظهراً رائعاً من مظاهر قوّة الإسلام ورسوخ كلمته في الحياة، كما هو الأمر في فريضة الحجّ؛ ففريضة الجمعة تحشد المسلمين في بيوت الله على صعيد المصر أو القرية أو الحيّ، وفريضة الحجّ تحشد المسلمين على صعيد العالم الإسلامي، حيث يأتون من شتّى أبقاع الأرض فيجتمعون في وقت واحد بمكان واحد على عبادة يؤدّونها على نسقٍ واحد. فتتجلّى بذلك ضخامة الإسلام بأمّته وقوّته في أتباعه.

ثانياً: حكمها:

خطبة الجمعة شرط أساسيٌّ لصحّة صلاة الجمعة التي فُرِضت قبيل الهجرة، والتي جاء النّص على فرضيتها في قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الجمعة: ٩].

قال المُفسِّرون: ذِكْر الله، يعني: خطبة الجمعة.

كما نُصَّ على فرضها في السُّنّة الشّريفة في قولهﷺ: ((الجمعة حقٌّ واجب على كلّ مسلم في جماعة إلّا أربعة: عبد مملوك، وامرأة، أو صبي، أو مريض))[1].

ثالثاً: أوّل خطبة جمعة خطبها الرسولﷺ.

لقد علمنا أنّ صلاة الجمعة فُرضت قبل الهجرة، ولكنّ الظّروف القاهرة التي كانت تحيط بالرّسول عليه الصّلاة والسّلام وأصحابه الكرام رضي الله عنهم لم تمكنّه من القيام بتلك الفريضة العظيمة، إلى أنْ امتنَّ الله عليه وعلى أمّته بالهجرة المباركة، حيث انطلق رسول اللهﷺ متوجّهاً إلى المدينة المنوَّرة، ولمّا بلغ قُباء أقام فيها في بني عوفٍ أيّام الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، ثمّ تابع سيره نحو المدينة المنوّرة، فلمّا وصل إلى منزل بني

(١) رواه أبو داوود.

سالم أدركته الجمعة فصلّاها في المسجد الذي في بَطن الوادي فكانت أوّل جمعة صلّاها بالمدينة، ومن ثَمَّ سمّيَ ذلك المسجد (مسجد الجمعة)[1].

رابعاً: شروط خطبة الجمعة:

لخطبة الجمعة شروط عدَة، هيَ[2]:

١ـ أن تكون خطبتين.

٢ـ أن تقع في وقت الظّهر.

٣ـ أن تتقدَّم على صلاة الجُمعة.

٤ـ أن تكون بالعربيّة.

٥ـ الموالاة بين أركان الخطبة.

٦ـ الموالاة بين الخطبتين.

٧ـ الموالاة بين الخطبة الثّانية والصّلاة.

٨ـ القيام عند الخطبة إذا كان الخطيب قادراً على القيام.

٩ـ أن يكون الخطيب ساتراً للعورة.

١٠ـ أن يكون الخطيب طاهراً من الحَدَثَيْن الأكبر والأصغر.

١١ـ أن يجلس بين الخطبتين، ويسنُّ بقدر سورة الإخلاص.

١٢ـ أن يُسمِع أربعين ممّن تنعقد بهم الجمعة

خامساً: أركان خطبة الجمعة:

لخطبة الجمعة خمسة أركان، هي:

١ـ حمد الله تعالى بأيِّ صيغةٍ من صيَغ الحمد.

٢ـ الصّلاة على النّبيّ ﷺ بأيِّ صيغةٍ من صيَغ الصّلاة.

٣ـ الوصيَّة بالتّقوى بأيِّ صيغة كانت.

وهذه الأركان الثلاثة يجب تكرارها في الخطبتين.

---

(١) وهو مسجد معروف قد جُدّدَ بناؤه قريباً من مسجد قُباء.

(٢) هذه الشروط هي في مذهب الإمام الشّافعي.

٤ـ قراءة آية مُفهِمة في إحدى الخطبتين، وفي الأولى أوْلى.

٥ـ الدّعاء للمُؤمنين والمؤمنات في الخطبة الثّانية.

سادساً: سنن خطبة الجمعة:

لخطبة الجمعة سننٌ، منها:

١ـ كونها على منبرٍ أو موضع عالٍ.

٢ـ أن يسلّم الخطيب على المسلمين إذا دخل المسجد، وعندما يصعد المنبر ويلتفت إلى المصلّين بوجهه.

٣ـ أن يستقبل الخطيب النّاس بوجهه.

٤ـ ترتيب أركان الخطبة.

٥ـ أن تكون الخطبة بليغة مفهِمة.

٦ـ أن يضع يمناه على حرف المنبر، ويمسك بيسراه سيفاً.

٧ـ أن يقرأ في الجلوس بين الخطبتين سورة الإخلاص.

٨ـ أن يقرأ سورة (ق) أو بعضها في كلّ خطبة.

سابعاً: آداب خطبة الجمعة:

لخطبة الجمعة آداب، منها:

١ـ يستحبّ للخطيب أن ينظّف جسمه وثيابه، ويلبس البياض، ويتطيّب لقولهﷺ:

((أحسن ما زرتم الله عزّ وجلّ به في قبوركم ومساجدكم البياض))[1].

٢ـ يندب للخطيب أن يتأخّر إلى وقت الخطبة.

٣ـ ألّا يقعد إلّا بعد أن يصلّي تحيّة المسجد.

ثامناً: كيفيّة خطبة الجمعة:

يبدأ خطيب الجمعة خطبته بالحمد لله، ولها صيغ عديدة منها:

((إنّ الحمد لله نحمده، ونستعين به ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له)).

---

(١) أخرجه ابن ماجه.

ثمّ يتبعها بالصّلاة على النّبيّﷺ مسبقة بالشّهادتين:

((وأشهد ألّا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ سيّدنا محمّداً عبده ورسوله، اللّهمّ صلّ على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه والتّابعين وتابعيهم ومن تبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدّين)).

ثمّ يوصي المصلّين بتقوى الله سبحانه، ويكون ذلك إمّا بقراءة آية فيها وصيّة بالتّقوى، مثال:

قال تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: ١].

قال تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} [الحج: ١].

قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ١٠٢]. ونحو هذه من الآيات.

وإمّا بكلامٍ غير القرآن الكريم، نحو قوله:

(أوصيكم ونفسي المخطئة بتقوى الله، وأحُثُّكم على طاعته).

ثمّ يشرع الخطيب بالمقدّمة التي يَسْتَهِلُّ بها الدّخول في موضوعه، ثمّ يتناول موضوع خطبته مُقَسِّماً إيّاه إلى فقرات مرتّبة ترتيباً مناسباً، ثمّ يُنْهي خطبته الأولى بخاتمة يختم بها موضوعه، وبهذا يكون قد حقّق بناء موضوع خطبته بكامل مراحله.

وقبل أن يجلس بين الخطبتين يأمر النّاس بالاستغفار ولذلك صيغٌ منها: (أقول قولي هذا ،وأستغفر الله لي ولكم ولجميع المسلمين، فيا فوز المستغفرين، استغفروا الله)

ثمّ يجلس بين الخطبتين جلسةً قصيرة بمقدار ما يقرأ سورة الإخلاص.

ثمّ يقوم إلى الخطبة الثّانية، ويبدؤها بالحمد لله كما بدأ الخطبة الأولى، ثمّ الصّلاة على الرّسولﷺ، ثم الوصيّة بالتّقوى كما هو الشّأن في الخطبة الأولى.

وبعضهم يميّز بين الخطبة الأولى والخطبة الثّانية بصيغة الحمد والصّلاة على رسول الله والأمر بالتّقوى، مثال ذلك أن يقول في بدء الخطبة الثّانية:

(الحمد لله حمداً كثيرا كما أمر. أشكره تعالى وهو الذي وعد المزيد لمن شكر. عباد الله، اتّقوا الله فيما أمر، وانتهوا عمّا نهى وزجر، وأخرجوا حبّ الدنيا من قلوبكم فإنّه إذا استولى أسر، وحافظوا على الطّاعات وحضور الجمع والجماعات، واعلموا أن الله أمركم بأمر عميم بدأ بنفسه وثنّى بملائكة قُدْسه، فقال تعالى ولم يزل قائلاً تشريفاً لقدْر نبيّه وتعظيماً، وإرشاداً لنا وتعليماً:

{إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: ٥٦]. اللهمّ صلّ على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين). اهـ.

ثمّ للخطيب بعد ذلك أن يتمّ ما تبقّى من موضوعه في الخطبة الثّانية إذا لم يكن قد أتمّه في الخطبة الأول، أو يذكّر النّاس ويعظهم بما يؤكّد مضمون موضوع خطبته الأولى، بحيث يكون مُلَخَّصاً بليغاً له، يبقى في أذهانهم بعد أدائهم الجمعة وذهابهم إلى مقاصدهم.

ولقد استحسن أهل العلم أن يقرأ الخطيب قبل نزوله من فوق المنبر قوله تعالى:

{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل: ٩٠].

المبحث العاشر
خطبة العيد

أوّلاً: تمهيد: تعريف العيد:

العيد مأخوذٌ من العَوْدِ وهو الارتداد والرّجوع، فسُمّي بذلك لرجوعه وتكرار الاحتفال به في كلّ عامٍ كلّما حان موعده.

والعيد موسمٌ يشيع فيه الفرح والابتهاج، ويلتقي فيه النّاس على المحبّة والمودّة والسّعادة والهناء، وتفيض في أجوائه المعاني الإنسانيّة الكريمة، ويزداد فيه التّواصل والتّراحم بين النّاس، ويمرح فيه الأطفال، ويبتهج الكبار، ويضحك الفقراء، ويتزاور الأقرباء والأصدقاء والأصحاب والجيران، ويأخذ الجميع زينتهم في المأكل والمشرب والملبس.

شرع الله للأمّة المسلمة عيدين في العام هما: عيد الفطر وعيد الأضحى، وأقّتهما عقب عبادتين عظيمتين هما من أركان دينه الحنيف، الأوّل عقب صيام شهر رمضان والثّاني عقب فريضة الحجّ إلى بيت الله الحرام، فكان ذلك دليلاً على أنّ العيد امتداد لأجواء طاعة الله تعالى وعبادته؛ لذلك شُرِعَ فيه كثرةُ ذكر الله تعالى بالتّهليل والتّكبير، فقال الرّسول عليه الصّلاة والسّلام: ((زَيِّنوا أعيادكم بالتّكبير))[1].

وقال: ((أيّام التّشريق أيّام أكلٍ وشُرْبٍ وذِكر الله))[2].

كما شرع الله تعالى للعيد صلاة وخطبة بعدها تُعرفان به، وأودع فيهما تأثيراً بالغاً في ترسيخ دعائم العبوديّة والاستقامة على منهج طاعته.

ثانياً: أهميّة خطبة العيد:

لا تقلُّ خطبة العيد في أهميّتها عن سواها من الخطب الدّينية، فهي ميدان رحب لتذكير

(١) رواه الطّبراني في الأوسط عن أنس.

(٢) رواه مسلم.

النّاس بكثير من القضايا التي ينبغي ألّا يغفُلوا عنها، ولتنبيههم إلى أمور لها مساس مباشر بواقعهم في مناسبات أعيادهم.

ثالثاً: حكم خطبة العيد:

أجمع الفقهاء على أن خطبة العيد سنّة بعد ركعتين.

رابعاً: أركان خطبة العيد وشروطها:

أركان خطبة العيد هي أركان خطبة الجمعة نفسها.

وأمّا شروطها فاثنان، هما:

١ـ أن تكون خطبتين.

٢ـ التّأخير عن الصّلاة.

خامساً: سنن خطبة العيد:

يُسَنُّ في خطبة العيد إضافة إلى السّنن الواردة في خطبة الجمعة:

١ـ الطّهارة.

٢ـ السّترة.

٣ـ القيام.

٤ـ الجلوس بين الخطبتين.

٥ـ كونهما بالعربيّة.

٦ـ افتتاح الأولى بتسع تكبيرات والثّانية بسبعٍ.

٧ـ الموالاة في التّكبيرات مع الإفراد.

٨ـ أن يُعلّم الخطيبُ النّاس في عيد الفطر أحكام زكاة الفطر وفي عيد الأضحى أحكام الأضحية.

سادساً: آداب خطبة العيد:

آداب خطبة العيد هي آداب خطبة الجمعة نفسها.

سابعاً: كيفيّة خطبة العيد:

لا تفترق خطبة العيد عن خطبة الجمعة من حيث كيفيّة أدائها إلّا في شيءٍ واحد فقط

وهو مقدّمة الخطبتين، حيثُ يُسنُّ في الخطبة الأولى أن تُفتتح بتسع تكبيرات، وفي الخطبة الثّانية أن تُفتتح بسبع تكبيرات.

ثامناً: خطبة الرّسولﷺ في العيد:

عن جابر رضي الله عنه قال: (شهدت مع رسول اللهﷺ العيد، فبدأ بالصّلاة قبل الخطبة بلا أذان.. ولا إقامة، ثمّ قام متوكّئاً على بلال، فأمر بتقوى الله، وحثّ على طاعته، ووعظ النّاس، وذكّرهم، ثمّ مضى حتّى أتى النّساء، فوعظهنّ، وذكّرَهنّ، فقال: ((تصدَّقْن فإنّ أكثركنّ حطب جهنّم)).

فقامت امرأة من وسط النّساء سعفاء الخدّين، فقالت: لِمَ يا رسول الله؟

قال: ((لأنّكنّ تكثرن الشّكاةَ وتكفرنَ العشير)).

قال: فجعلْنَ يتصدّقَن من حُلِيهنّ، ويُلْقين في ثوب بلال من أقراطهنّ وخواتمهنّ)[1].

(١) رواه مسلم.

المبحث الحادي عشر
خطبة الاستسقاء

أوّلاً- تمهيد: تعريف الاستسقاء:

الاستسقاء لغة: هو طلب السُّقيا.

وشرعاً: هو طلب السُّقيا من الله تعالى عند الحاجة إليها، وذلك إذا انحبس الماء، وجفَّ الزَّرع، وتفشّى القحط.

وقد صلّى رسول اللهﷺ صلاة الاستسقاء، وخطب خطبتها عندما اشتدّ القحط على النّاس، وأفاد ابن حبّان أنّ خروجه عليه الصّلاة والسّلام إلى الاستسقاء كان في شهر رمضان سنة ستٍّ من الهجرة.

ثانياً: أهميَة خطبة الاستسقاء:

لخطبة الاستسقاء أهميّة بارزة في ميدان التّذكير وتهيئ النّفوس للتّوبة والرّجوع إلى الله سبحانه وتعالى؛

لأنّها تُلقى في موطن الخضوع والابتهال والتّضرُّع والتذلّل بين يدي الله سبحانه، حيث يسعى النّاس مع أطفالهم وشيوخهم وبهائمهم ليكونوا على صعيد واحد يعجُّون إلى الله سبحانه بالدّعاء، ويضرعون إليه يسألونه الرّحمة والرّأفة بأطفالهم وشيوخهم، ويذرفون دموع التّوبة والانكسار، فيقوم الإمام فيهم خطيباً يحضّهم على خلع الدّنيا من قلوبهم وصدق الإقبال على الله الذي بيده رزقهم ورزق أطفالهم ونسائهم وبهائمهم، ويحذّرهم من خطر العصيان وشرّ الذنوب والآثام، ويُبيّن لهم أن انحباس القَطْر من السّماء هو من أنواع البلاء الذي سببه ارتكاب الذّنوب وهضم الحقوق والتّقصير في حقّ الله تعالى، ولا مناص لهم في سبيل الخلاص من هذه الكرب الذي فدَحَهم من الرّجعة الصّادقة والتّوبة النّصوح إلى الله ربِّ العالمين.

ثالثاً: خطبة الرسولﷺ في الاستسقاء:

روى أبو داوود وابن حبّان عن عائشة رضي الله عنها قالت:

شكى النّاس إلى النبيﷺ قحط المطر، فأمر بمنبر، فوضع له في المصلّى، ووعد النّاس يوماً يخرجون فيه، فخرج حين بدا حاجب الشّمس، فقعد على المنبر، فكبَّر، وحمد الله، ثمّ قال:

« إنّكم شكوتم جَدْبَ دياركم واستئخار المطر عن إبّان زمانه عنكم، وقد أمركم الله أن تدْعوه، ووعدكم أن يستجيب لكم، ثمّ قال: الحمد لله ربِّ العالمين. الرّحمن الرحيم. مالك يوم الدّين الذي لا إله إلا هو يفعل ما يريد. اللهم أنت الله لا إله إلا أنت الغنيّ ونحن الفقراء إليك، اللهم أنزل علينا الغيث، واجعل ما أنزلت لنا قوّة وبلاغاً إلى حين)).

ثمّ رفع يديه حتّى بدا بياض إبطيه، ثمّ حوّل إلى النّاس ظهره، واستقبل القبلة، وحوّل رداءه وهو رافع يديه، ثمّ أقبل على النّاس، ونزل فصلّى رَكْعَتين، فأنشأ الله سحاباً فرعدت، وبرقت، ثمّ أمطرت بإذن الله، فلم يأتِ مسجده حتّى سالت السّيول، فلمّا رأى ذلك وسرعتَهم إلى الكنّ ضحك حتّى بدت نواجذه، فقال: ((أشهد أنّ الله على كلّ شيء قدير، وأنّي عبد الله ورسولُه)).

رابعاً: حكم خطبة الاستسقاء:

هي سنّة مؤكّدة، وهي تتألّف من خطبتين كما في الجمعة والعيد.

خامساً: أركان خطبة الاستسقاء وشروطها:

أركانها هي أركان خطبة الجمعة نفسها.

وشروطها هي شروط خطبة العيد بالإضافة إلى أن يرفع الخطيب صوتَه حت يسمع النّاس في ذلك الموقف.

سادساً: سنن خطبة الاستسقاء:

يُسَنُّ في خطبة الاستسقاء السّنن الواردة في خطبة العيد، ويضاف إليها الأمور الآتية:

١ـ أن تفتتح الخطبتان بالاستغفار بدل التّكبير؛ لأنّه المناسب هنا بسبب وعد الله سبحانه المستغفرين بإرسال الغيث إذ قال سبحانه: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا

(١٠)يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا} [نوح: ١٠- ١٢].

وصيغة الاستغفار التي يقولها الخطيب هي: (أستغفر الله الذي لا إله إلّا هو الحيّ القيّوم وأتوب إليه) يقولها تسع مرّات في الخطبة الأولى وسبع مرّات في الخطبة الثّانية.

٢ـ الدّعاء في الخطبة الأولى جهراً بأدعية الاستسقاء الواردة عن الرّسول عليه الصّلاة والسّلام نحو:

((اللهمّ اسقنا غيثاً مغيثاً، هنيئا مريئاً، مريعاً غَدَقاً، سحًّا طبقاً، دائماً، اللهمَ اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين)).

٣ـ أن يستقبل الخطيب القبلة في أثناء الخطبة الثّانية ويبالغ في الدّعاء سرّاً وجهراً.

٤ـ أن يحوّل الخطيب رداءه عند استقبال القبلة.

سابعاً: كيفيّة خطبة الاستسقاء:

يفتتح الخطيب الخطبة الأولى بالاستغفار تسع مرّات، ثمّ يشرع فيها كخطبة الجمعة، ويقرأ قوله تعالى: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا} (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا} [نوح: ١٠- ١٢].

ويوجّه موضوع خطبته بما يتناسب مع الاستسقاء، فيحضُّ النّاس على التّوبة والإنابة والرُّجوع إلى الله سبحانه والتّضرّع والخضوع والتّذلل بين يدي الله سبحانه، ويحثُّهم على كثرة الاستغفار.

ثمّ يشرع في الدّعاء، وخاصّة في الخطبة الثّانية حيث يستقبل القبلة ويكثر من الدّعاء ويبالغ فيه سرّاً وجهراً، ويحرص على أن يدعو بالأدعية المأثورة.

ومن الأدعية المستحسنة في ذلك:

((اللهمّ إنّ بالعباد والبلاد والخلْق من اللأْوَاءِ والجَهد والضَّنك ما لا نشكو إلّا إليك، اللهمّ أنبت لنا الزّرْع، وأدرَّ لنا الضّرع، واسقنا من بركات السّماء، وأنبت لنا من بركات الأرض، اللهمّ ارفع عنّا الجَهْد والجوع والعُريّ، واكشف عنّا من البلاء ما لا يكشفه غيرك،

اللهمَ إنّا نستغفرك إنّك كنت غفّاراً، فأرسل السّماء علينا مدراراً)).

وأثناء دعائه واستقباله يحوّل رداءه، فيجعل يمينه يساره ويساره يمينه أو أعلاه أسفله، ويرفع في الدّعاء كفّيه جاعلاً ظهريْهما إلى السّماء؛ لأنّه في موطن طلب رفع البلاء من الله سبحانه ونزول الرّحمة، وبعد ذلك يتوجّه نحو النّاس، ويتمّ خطبته بالحثّ على الطّاعة والصّلاة على الرّسولﷺ والدّعاء للمؤمنين والمؤمنات.

ولا بأس بالاستسقاء بالصّالحين من عباد الله كما فعل سيّدنا عمر بن الخطّابرضي الله عنه، عندما استسقى بالعبّاس عمّ النّبيّﷺ، وكما فعل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما عندما استسقى بيزيد بن الأسود حيث قال: اللهمّ إنّا نستسقي بيزيد بن الأسود.

المبحث الثّاني عشر
خطبة الكُسوف والخُسوف

أوّلاً: تمهيد تعريف الكسوف والخسوف:

الكسوف مأخوذٌ من الكسف وهو الاستتار. وهو ظاهرة كونيّة تطرأ على الشّمس عندما يقع القمر بينها وبين الأرض، فيخفُّ ضوؤها عنَّا ويستتر.

وأمّا الخُسوف فهو مأخوذ من الخسف ويعني: المحو، وهو أيضاً ظاهرة كونيّة تحدث عندما يحُول جِرْم الأرض بين الشَّمس والقمر، فيحجب نورها عن القمر فيُظلم.

ولّما كانت هذه الظّاهرة الكونيّة تقع في فتراتٍ زمنيّة متباعدة؛ فإنَّ حدوثها أصبح كالحوادث الكونيّة النّادرة التي تُلقي في قلب الإنسان فزعاً ورعباً حين وقوعها؛ لهذا شُرِعتْ لها الصّلاة في الإسلام رجاء أن يكشفها الله، وتعود الشّمس والقمر إلى وضعهما الطّبيعيِّ فيأمن النّاس.

وقد شُرِعَتْ صلاة الكسوف في السّنة الثّانية للهجرة، وأمّا صلاة الخسوف فقد شُرِعتْ في السّنة الخامسة للهجرة.

ولبيان أهميّة خطبَتَيِّ الكسوف والخسوف سوف نتحدّثُ عنها في الأمور الآتية:

أهميّة خطبة الكسوف ـ خطبة الرّسولﷺ في الكسوف ـ حكمها ـ أركانها ـ شروطها ـ سننها ـ كيفيَّتها.

ثانياً: أهميّة خطبة الكسوف:

إنّ لخطبة الكسوف أهميّة لا تقلّ في وزنها عن أهميّة الخطب الدّينيّة الأخرى؛ لأنّ فيها رصيداً كبيراً من التّذكير والتّوجيه المناسب لحادث الكسوف حيث يتناول الخطيب فيها موضوع الحديث عن السّاعة وأهوالها ممّا يؤدّي إلى إيقاظ القلوب الغافلة والنّفوس السّادرة، وبعثْ معاني الخوف والخشية من اللهﷻ.

ثالثاً: خطبة الرّسولﷺ في الكسوف:

جاء فيما أخرجه الإمام مسلم عن سيّدتنا عائشة رضي الله عنها قالت:

خُسِفَتْ الشَّمسُ في عهد رسول اللهﷺ فقام رسول اللهﷺ يصلّي، فأطال القيام جدّاً ثمّ ركع فأطال الركوع جدّاً، ثمّ رفع رأسه فأطال القيام جدّاً، وهو دون القيام الأوّل، ثمّ ركع فأطال الرُّكوع، وهو دون الرّكوع الأوّل، ثمّ سجدَ ثمّ قام فأطال القيام، وهو دون القيام الأوّل، ثمّ ركع فأطال الرّكوع وهو دون الرّكوع الأوّل، ثمّ رفع رأسه ، فقام فأطال القيام، وهو دون القيام الأوّل، ثمّ ركع فأطال الرّكوع، وهو دون الركّوع الأوّل،ثمّ سجد، ثمّ انصرف رسول اللهﷺ وقد انجلت الشّمس، فخطب النّاس، فحمِد الله وأثنى عليه، ثمّ قال:

((إنّ الشّمس والقمر من آيات الله، وإنّهما لا ينفسخان لموت أحدها ولا لحياته، فإذا رأيتموهما؛ فكبّروا، وادعوا الله وصلّوا، وتصدّقوا. يا أمّة محمّد: إنْ من أحدٍ أغيَر من الله أن يزني عبده أو تزني أمَتُه. يا أمّة محمّد: والله لو تعلمون ما أعلم لبكَيْتم كثيراً و لضحكتم قليلاً، ألا هل بلّغْت)).

رابعاً: حكم خطبة الكسوف:

هي سنّة عند الإمام الشّافعي فقط، وأمّا عند غيره فهي لا تُسَنّ. وفعل النّبيﷺ لها حسب ما أوّله غير الشّافعيّ كان من أجل الرّدّ على من قال: لقد كُسفت الشّمس حُزْناً على موت إبراهيم ابن النّبيﷺ.

خامساً: أركان خطبة الكسوف:

هي أركان خطبة الجمعة نفسها.

سادسًا: شروط خطبة الكسوف:

تتّفق خطبة الكسوف في شروطها مع خطبة العيد، والمعتمد فيها عند الشّافعيّة أن تكون بخطبتين كما هو شأنُ خطبة العيد، وذلك بعد صلاة الكسوف، ويشترط فيها أن يرفع الخطيب صوته ليسمع النّاس في مثل هذا الموقف.

سابعاً: سنن خطبة الكسوف:

سنن خطبة الكسوف هي سنن خطبة العيد نفسها، ولكن يُضاف إلى ذلك:

١ـ إبدال التّكبير بالاستغفار كما هو الشّأن في خطبة الاستسقاء؛ لأنّ واقع الحال يتطلّب التّوبة والاستغفار.

٢ـ أن يحضّ الخطيب النّاس على التّوبة وفعل الخيرات، ويحثّهم على الصّدقة.

٣ـ الإكثار من الدّعاء والاستغفار.

ثامناً: كيفيّة خطبة الكسوف:

لا تختلف خطبة الكسوف من حيث أداؤُها عن خطبة الجمعة والعيد، اللهمّ إلّا بفاتحة الخطبتين، حيث يفتتح الخطيب الخطبة الأولى بالاستغفار تسعاً، والثّانية بالاستغفار سبعاً كما هو شأن خطبة الاستسقاء.

ثمّ يشرع بأركان الخطبة المعهودة في خطبة الجمعة، ويحرص خطيب الكسوف على أن يحُضَّ النّاس على التّوبة، ويذكّرهم الآخرة، ويحذّرهم من المعاصي والمُحرّمات، ويُكثر في الخطبة من الدّعاء والاستغفار، ويبيّن لهم من أنّ الشّمس والقمر آيتان من آيات الله سبحانه، فإذا حدث فيهما خسوف أو كسوف؛ فعليهم أن يزدادوا إقبالاً على ربّهم، وأن يكثروا من الاستغفار والتّوبة في هذا المقام الذي يذكّرهم بأهوال يوم القيامة.

وينبغي لنا أخيراً أن نعلمَ أنّ خطبة الكسوف لا تسقط سنّتها، وإن انكشفت الشّمس أو تجلّى القمر قبل الشّروع فيها.

وأمّا الخطب الدّينيّة غير المنصوص عليها فنحيل فيها على الكتاب التي اقتُبست منه هذه الموضوعات باختصارٍ وتصرُّف يسير ؛ لأنّ المنهاج لا يسمح بأكثر من ذلك. واسم الكتاب (خصائص الخطبة والخطيب) لفضيلة الشّيخ نذير محمّد مكتبي حفظه الله.

* * *

والحمد لله رب العالمين

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

اللجنة العلمية:

د. بديع السيد اللحام

د. مدين الهواري

د. عهد جزماتي

المدقق اللغوي:

د. عبد الهادي منصور

حقوق الطبع والترجمة والنشر

محفوظة لمديرية الكتب والمطبوعات